غرائب الإعجاز والنكات في

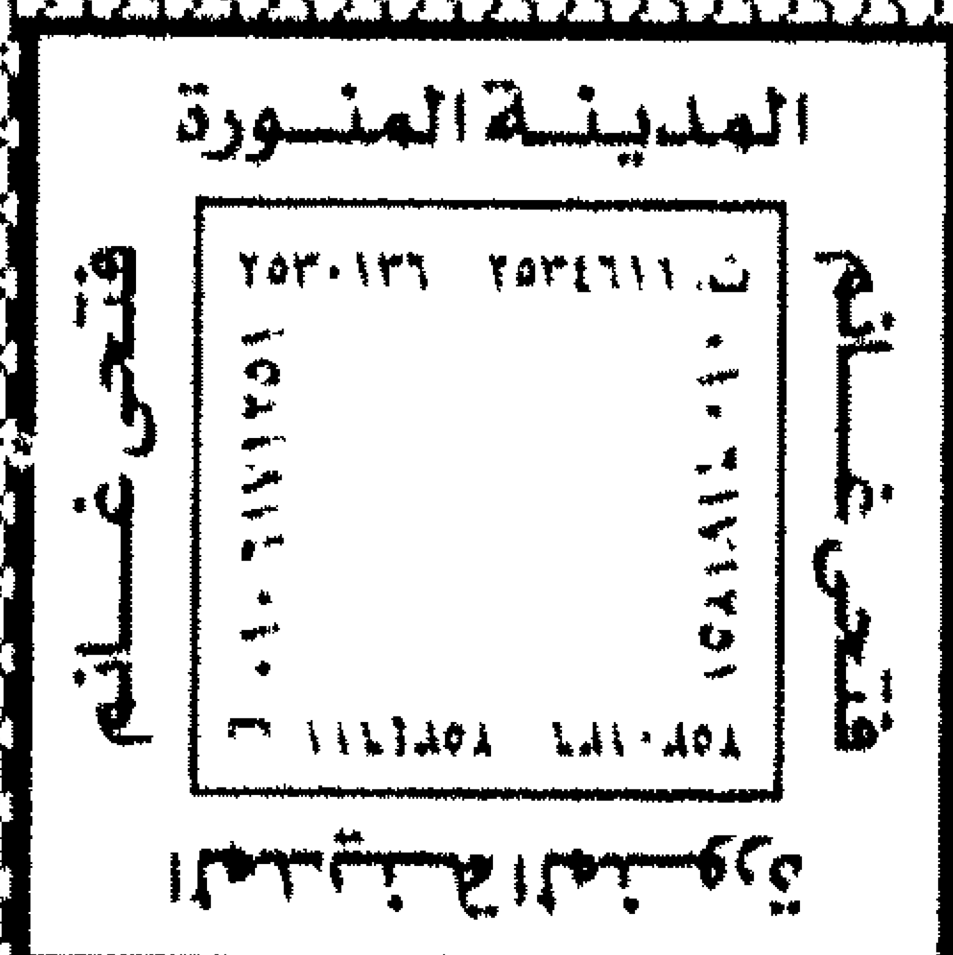
مقامات أسباب النزول

تأليف

الدكتور محمد إبراهيم شادي



دار اليقين للنشر والتوزيع


المدينة المنورة
فتحي غانم
ت. ٢٥٣٤٦١١ ٢٥٣٠١٣٦

غرائب الإعجاز والنكات

في مقامات وأسباب النزول

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

شادي ، محمد إبراهيم
غرائب الإعجاز والنكات في مقامات أسباب النزول /
تأليف محمد إبراهيم شادي.
ط ١ - المنصورة : دار اليقين ، ٢٠٠٧
٤٦٤ ص ؛ ١٧ x ٢٤ سم
تدمك ٣ - ٢٣٥ - ٣٣٦ - ٩٧٧
١ - القرآن ، إعجاز
أ - العنوان
٢٢٩,٧

رقم الإيداع : ١٦٦٢٧/ ٢٠٠٧

دار اليقين للنشر والتوزيع - مصر - المنصورة

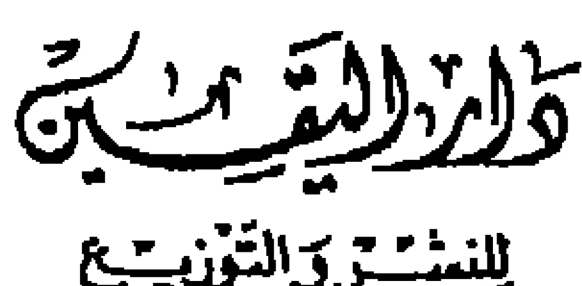
المنصورة شارع عبد السلام عارف الكردون الخارجي لسوق الحملة بجوار معارض الشريف ص ب ٤٥٦ المنصورة ٣٥٥١١
هاتف . ٠٥٠٢٢٥٥٢٤١ جوال :٠١٠١٥٧٥٨٥٢ البريد الإلكتروني : elyakeen@hotmail.com
المكتبة : مساكن الشناوي - سور مسجد التوحيد - هاتف ٠٥٠٢٢١١٠٠٣

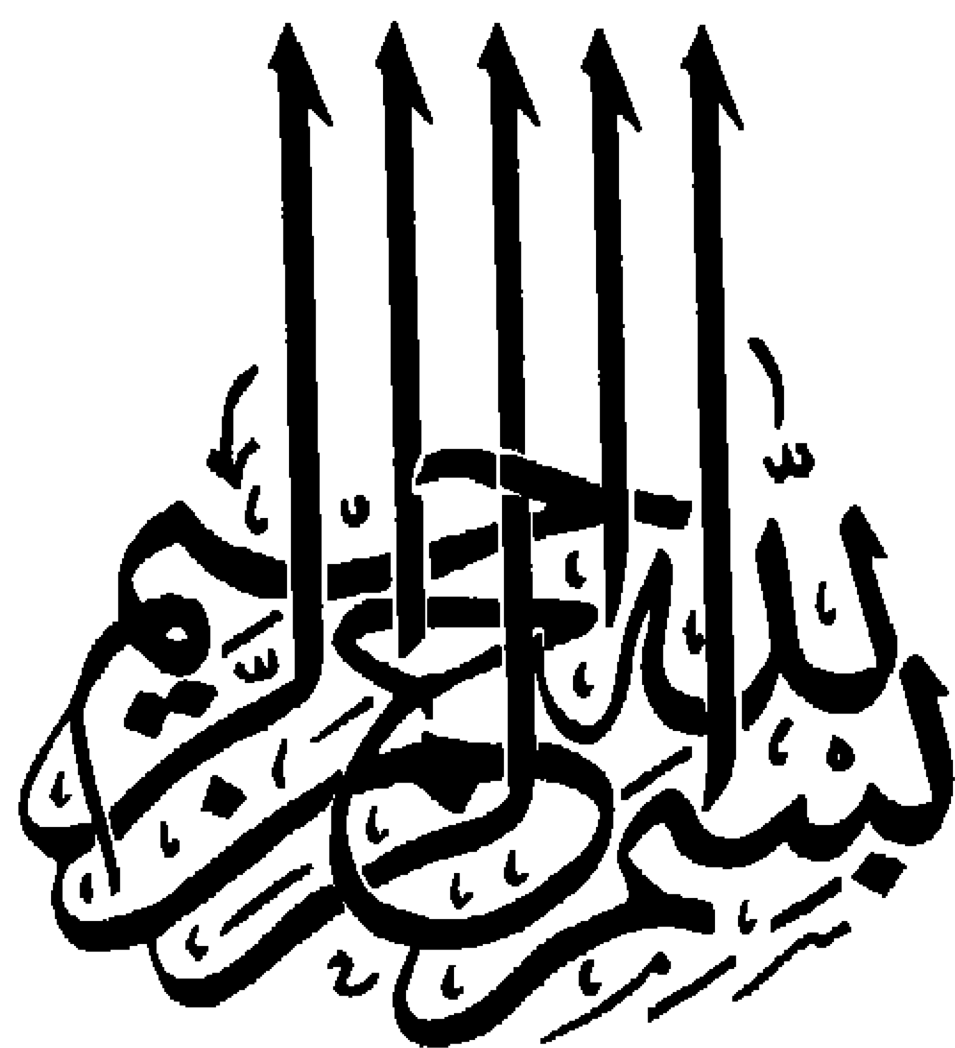
غرائب الإعجاز والنكات

في مقامات وأسباب النزول

تأليف

الدكتور محمد إبراهيم شادي




بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين، حمدًا يليق بجمال خلقه وكمال مِنَّته وتمام نعمته، وأصلي وأسلم على الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، والنور الذي يملأ القلوب، ويروح عن النفوس، سيدنا محمد وعلى آله ومن تبعه واهتدى بهديه واستن بسنته إلى يوم الدين، وبعد.

فبعد قراءة في كتب أسباب النزول[1] لفتني أن ما جاء به هذا الدين الحنيف من تشريع أو تكليف أو أحكام إنما جاءت على أساس من حاجة الواقع إليها، وبعد استشراف وتساؤل وتطلع إلى حل مشكلة أو إزالة التباس ما، فلم تأت تلك الآيات بحوادث بعيدة عنهم، ولم تأت بواقع غير واقعهم، ولم تكلفهم بما لا يطيقون.

وقد كانت الآية تنزل لسبب خاص لكنها تأتي في صياغة عامة حتى تراها خطابًا لكل الناس وتشريعًا لهم، ثم إنها كانت تعالج ما كان يجدّ من أحداث ومشاكل معالجة موضوعية إنسانية يراعى فيها حال الإنسان وما يناسبه ثم ما يرقى به في كل زمان ومكان، وإن وجدنا غير ذلك فهو من خلل في الفهم أو سوء في التطبيق أو غير ذلك من أنواع القصور.

إن في أسباب النزول ما يعين على فهم القرآن، وما ينفع المؤمنين في إصلاح دنياهم وآخرتهم، وفي استلهام العبرة، والتأسي بالمواقف والأحداث التي استدعت نزول آية أو أكثر.

---

(١) أهمها ما ألفه السيوطي والنيسابوري والواحدي، ثم الصحيح المسند من أسباب النزول لابن هادي الوادعي .

ولا شك أن تشرّب هذه المعاني لا يكمل إلا بالدراسة الموضوعية المتأنية التي تربط بين الموقف وما نزل بسببه، وتبحث عن مقتضيات الأحوال ومجيء التعبير القرآني، ونظمه مطابقًا لمقتضيات تلك الأحوال.

ومن هنا استشعرت أهمية دراسة هذا الموضوع من الوجهة البلاغية التي تكشف الأسرار والنكات اللطيفة، مستعينًا بالله، ومسترفدًا توفيقه في التأمل والاستنباط، ومستفيدًا بالإشارات الدقيقة عند بعض المفسرين، ومستغنيًا عن ذكر المصطلحات البلاغية في كثير من الأحيان، مكتفيًا بأسرارها وثمراتها.

إنني أسعى إلى تحقيق غايتين:

الأولى: تقديم عصارة البلاغة وثمراتها الماثلة في تذوق خصوصيات النظم والتعبير؛ لأن هذا هو الذي ينمِّي الإحساس بقيمة الأداة البلاغية في توصيل الإشارات واللمحات.

الثانية: أن يتضح أثر تلك العصارة في تحقيق الغايات الراقية لأسلوب القرآن، الكريم سواء ما يتصل منها بالإعجاز، أم التوجيه للمبادئ السامية والأخلاق الفاضلة.

ولقد تتبعت أسباب النزول التي صح إسنادها، ولا تتعارض مع نظم الآيات التي وردت بشأنها متأملًا في مدى الانسجام بين ما ورد من مناسبة الآية، وبين كيفيات وخصوصيات نظمها ثم في موقع الآية من سياقها، مع البحث عن التناسب بين السبب الخاص والغرض العام لذلك السياق الذي وردت فيه الآية، ومدى تعدد طرق النظم بتعدد الخطاب والمواقف والأشخاص المخاطبين.

لقد لفتتني ظواهر كثيرة في تلك الآيات، واستوقفتني كثير من لمحات الإعجاز فالتقطتها وسجلتها حريصًا عليها كل الحرص؛ لأنها مما يميز أسلوب القرآن الكريم، ولا تجد لها نظيرًا في كلام العرب، هذا فضلًا عن اللطائف والنكات التي هداني الله إليها أو التي دل عليها كلام المفسرين، ومن هنا فإن الكتاب يتناول أبوابًا ثلاثة:

الباب الأول: ظواهر أسلوبية تتميز بها الآيات ذوات الأسباب في نزولها.

الباب الثاني: لمحات من الإعجاز في تلك الآيات.

الباب الثالث: لطائف ونكات في سائر تلك الآيات بحسب ترتيب سورها في المصحف، وقد استدعى هذا إنصات عميق لصوت الدلالات والإيحاءات، واستلهام معطيات الغرض العام أو الأغراض التي تدور في إطارها السورة.

أسأل الله الذي يمسك الطير في جو السماء، ويحفظ السفن الجواري في البحار من السقوط، ويرسل الرياح بشرًا بين يدى رحمته أن يعصمني من غفلات القلب وسهوات الفكر، وأن ينشر عليَّ من رحمته، وأن يفتح عليَّ من خزائن حكمته، أسألك ربي بحق بلدك الحرام الذي أنعمت عليَّ بالمكث فيه زمنًا بجوار بيتك الحرام أن تجعل عملي خالصًا لوجهك الكريم، وأن ترزقني حسن المثوبة، وأن تغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب. وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم(١).

منهج الاختيار:

اعتمدت في هذه الدراسة على تخير ما صح إسناده من أسباب النزول(٢) وما يطمئن إليه القلب معتمدًا في هذا على الموازنة بين ما ورد في أسباب النزول وبين

---

(١) مما أفرغ في نفسي رضاً واطمئناناً أنني كنت وأنا أكتب الآية أسمعها هي هي تتلى من إذاعة القرآن الكريم في الوقت الذي أكتبها فيه، وقد حدث هذا أكثر من مرة، وجدت أننى أكتب قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ كتبتها خطأ هكذا: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى عليكم السَّلَامَ﴾ فسمعت القارئ يتلوها بعد كتابتها بثوان فتنبهت إلى الصواب: (إليكم) والحمد لله رب العالمين .

(٢) دقق العلماء في روايات أسباب النزول كتدقيقهم في جمع المصحف وكتابته؛ لأن الاعتماد على رواية ضعيفة قد يؤدي إلى انحراف المقصود من الآية التي قيل فيها ذلك السبب الضعيف، ولقد بلغ من تدقيق هؤلاء العلماء أنهم اتفقوا على أن ما ورد من أسباب النزول بصيغة «سبب نزول الآية كذا» هو المعتمد عندهم، أما ما ورد من قول بعض الصحابة: ما أحسب إلا . . . . أو أظن أن الآية نزلت في كذا؛ فهو من التفسير لا من السبب المسنن المعتمد .

راجع أسباب نزول القرآن ١٤ عبد الوهاب الديلمي، صنعاء ١٤١٥ هـ، ١٩٩٤م عن ابن تيمية في أصول التفسير ٤٨ .

كيفيات نظم الآية، فمتى ظهر التوافق والتناسب بين السبب وبين النظم؛ كان ذلك دليلًا على صحة السبب، ومتى ظهر التباين والتنافر بينهما؛ كان ذلك قرينة تدفعني إلى معاودة النظر في مدى صحة السبب، وربما تستبعد الرواية لأكثر من سبب.

خذ مثلًا قوله الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ [المطففين: ١-٢].

أخرج ابن ماجه عن عكرمة عن ابن عباس قال: «لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلًا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك»[(١)] وقال السدي: «قدم رسول الله ﷺ المدينة وكان بها رجل يقال له أبو جهينة، ومعه صاعان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر، فأنزل الله هذه الآية»[(٢)].

وأنا أستبعد أن يكون هذا سببًا لنزول الآية وذلك للأسباب التالية: -

١ - هناك ما يشبه الإجماع على أن سورة المطففين هى آخر ما نزل بمكة، وقيل: نزلت بين مكة والمدينة، ولم يقل أحد إنها نزلت بالمدينة إلا الحسن ومقاتل، لكن المأخوذ به هو رأي الجمهور كابن مسعود وابن عباس والضحاك وقتاده والكلبى وابن الزبير؛ حيث ذهبوا جميعًا إلى أن هذه السورة مكية.

٢ - ثم إن معاني سورة المطففين هى المعاني التي تغلب على سور العهد المكي، كما يغلب على نظمها وبنائها طريقة السور المكية أو أكثرها، من الاعتماد على الآيات القصيرة ذات الجرس القوي.

وإذا كان الأمر كذلك، فإنها تكون قد نزلت قبل وصول الرسول ﷺ للمدينة التي قيل إن السبب كان موجودًا فيها، مع أن المعروف بداهة أن سبب النزول يسبق النزول وليس العكس.

٣ - ثم إني أستبعد صحة ما ورد عن ابن عباس من أن أهل المدينة كانوا أخبث الناس كيلًا، حتى ولو كان ذلك قبل دخول رسول الله ﷺ إلى المدينة، وذلك لأنهم وهم الذين بادروا إلى الاستجابة لدعوة رسول الله ﷺ واستقبلوه وآووه ونصروه، واقتسموا مع إخوانهم المهاجرين بيوتهم وأموالهم؛ فمن المستبعد أن

---

(١) فتح القدير ٢/١١٨٨، والصحيح المسند من أسباب النزول ٢٦٩ .

(٢) المرجع نفسه .

تكون هذه النفوس السمحة الكريمة لأناس من أخبث الناس كيلاً، لأن الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام.

وربما جازت الرواية التي نقلها الشوكاني عن السدي والتي تشير إلى أن الغش في الكيل كان أمرًا فرديًا لشخص يسمى أبو جهينة، وليست ظاهرة جماعية، فهذه الرواية وإن جازت في منطق العقل إلا أنها لا تنهض لتكون سببًا؛ لأن السبب كما سبق يكون سابقًا للنزول، وقد تبين من قبل أن سورة المطففين مكية وأنها نزلت قبل وصول رسول الله ﷺ للمدينة، وقبل أن تتبين أحوال أهلها.

والذي أميل إليه أن سورة المطففين نزلت للتحذير من خلق فاسد لا يليق في التعامل بين الناس جميعًا - وهو الغش -، وليس من الضروري أن يكون هناك سبب محدد لنزول هذه الآيات، على أن قوله تعالى في هذا السياق: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾... الآيات تدل على أن المقصود بذلك التحذير هم المكذبون بيوم البعث وهم الفجار، وأن هناك ارتباطًا بين هؤلاء وبين الغش؛ فإن كفرهم هو الذي يسمح لهم به دون ما وازع من دين أو ضمير(١).

والآيات التي ورد لها سبب ما في نزولها لا تخلو من التناسب التام مع سياقها، سواء كان هذا التناسب معنويًا أم لفظيًا في إطار النظم، ولكن قد تدق المناسبة المعنوية حتى إذا عوّلنا على جو السورة وملابسات نزولها؛ لاح لنا ضرب من التناسب الأدائي والنظمي ومعه بصيص من التناسب المعنوي.

خذ مثلاً قول الله سبحانه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٦ : ١٩].

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس قال: «كان رسول الله ﷺ يعالج

---

(١) كل هذه الملاحظات التي نبعت من معاني السورة ونظمها وملابسات نزولها؛ جعلتني أراجع سند رواية النزول، فوجدت في كتاب «الصحيح المسند» أن سند الرواية رجال ثقات إلا علي بن الحسين بن واقد ففيه كلام . ينظر ٢٦٩ الصحيح المسند، ويعني هذا أنه مطعون في سنده وفي نقله بالتحريف أو التغيير والتبديل، والله أعلم .

من التنزيل شدةً، فكان يحرك لسانه وشفتيه مخافة أن يتفلّت منه يريد أن يحفظه، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ الآيات. قال ابن عباس: يقول: إن علينا أن نجمعه في صدرك ثم تقرأه، (فإذا قرأناه): أنزلناه عليك (فاتبع قرآنه): فاستمع له وأنصت...»[1].

فهذه الآيات لا يبدو لها - في أول النظر - مناسبة ظاهرة بسياقها سوى أن رسول الله ﷺ ربما حرك لسانه مع نزول سورة القيامة يردد وراء جبريل - عليه السلام - خشية التفلُّت، فنزل في ضمن آياتها ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾.

وربما توافق هذا مع قوله بعده: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾﴾ في التحذير من العجلة عمومًا، وربما وجدت - مع التأمل - مناسبة أخرى تتعلق بجو الآيات التي بدأت بها السورة، والتي تتكون من جمل قصيرة قوية الجرس سريعة الإيقاع؛ بحيث تصف ملابسات القيامة وصفًا قوياً مصورًا بما يوحي بالعجلة، وسرعة الحركة: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾.

فهذا الأداء القوي المفعم بالمعاني الحاسمة، والذي يجعل الأنفاس تتصاعد ربما حمل رسول الله ﷺ إلى أن يحرّك لسانه بآياتها المتعاقبة يلاحقها حتى لا تتفلّت منه، فجاء قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ منسجمًا تمامًا مع ما يصوره جو السرعة قبله، والمقصود بالنهي هنا الإشفاق على رسول الله ﷺ مما كان يعالجه من مشقة عند تحريك اللسان وراء جبريل؛ عجلةً منه، وحرصًا على ألّا ينسى شيئًا، ويؤيد هذه المناسبة أنه سبحانه قال بعد النهي بثلاث آيات: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾، فجو العجلة هو المستحوذ على مجموع تلك الآيات، ولهذا ناسبه النهي عن تحريك اللسان تعجلاً بحفظه.

ويبدو أن المقصود بالنهي هنا في قوله سبحانه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ هو المقصود بالنهي في قوله تعالى في سورة طه ١١٤: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾، وقد أحاط بالنهي في سورة طه ما أحاط به في سورة

---

(١) ٢/ ١١٣٠ فتح القدير.

القيامة، إذ نجد هناك قوله تعالى قبل النهي: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [سورة طه: ١٠٥-١٠٨] حتى يصل إلى قوله: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١]، وهكذا نجد قوة وسرعة وحسمًا وأحداثًا وصياغةً تنخلع القلوب من قوة جرسها وأدائها، فربما أدى هذا الجو المشحون إلى أن يحرّك رسول الله ﷺ لسانه بالقرآن فقيل له: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ﴾، على أن النهي هنا عن العجلة بالقرآن لمناسبة ذكره في الآية السابقة في قوله: ﴿**وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾، لكن لما لم يسبق للقرآن ذكر صريح في سورة القيامة، وكان النهي مفاجئًا وجدنا الترفق فيه أكثر فلم يدخل النهى على العجلة كما في سورة طه، ولكنه هنا ينهى عن تحريك اللسان به، وجعل العجلة علة كالعذر لرسول الله ﷺ ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾، ثم يطمئنه على ما كان يخشى منه، وهو نسيان شيء مما ينزل عليه، فيقول سبحانه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾؛ أي: علينا أن نجمعه في صدرك، ثم تقرأه كما ذكر ابن عباس، وورد في أسباب النزول.



الباب الأول

ظواهر أسلوبية

*** بعد تتبع أسباب النزول في القرآن الكريم، ومراجعة خصوصيات آياته مع ترديد النظر المتأني بين ملابسات نزول هذه الآيات، وبين نظمها وسياقها ومقامات سورها؛ أمكن - بتوفيق الله سبحانه - استخلاص تلك الظواهر التي تتعلق بالأسلوب أو بينها وبين الأسلوب سبب وصلة، ومن هذه الظواهر:**

أولاً: قضية العموم والخصوص:

ترددت المقولة المعروفة: «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» في كتب أسباب النزول للسيوطي والواحدي والنيسابوري وغيرهم، وهي جملة قد تصدق في مواقف معينة، فتكون المناسبة خاصة، ولكن تأتي الآية التي نزلت فيها بصياغة عامة لتتناول نماذج كثيرة وتنطبق على أحوال مشابهة، وقد تكون الآية مقيدة؛ فيدل نظمها على أن فيها عمومًا من وجه وخصوصًا من وجه آخر، كقوله الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [سورة الحج: ١١]، فقد نزلت هذه الآية في أعراب قدموا المدينة، وأسلموا، فكان الواحد منهم إن صح بها ماله وولدت امرأته غلامًا واطمأن صدق وآمن، وقال: ما أصبت في ديني هذا إلا خيرًا، وإن أصابه في المدينة وجع أو قل ماله وولدت امرأته جارية؛ انقلب على وجهه، وقال ما قال من سوء، فنزلت الآية[١].

ومن الواضح أن الآية نزلت في الأعراب المنافقين الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ﴾ سوى أن تلك الآية لم تحدد ولم تذكر أشخاصًا، ولم تقل: «فلان وفلان»؛ لأن هذا ليس منهجًا للقرآن الذي لا تعنيه الأسماء ولا يعمد للتشهير، وإنما تعنيه القضايا والأغراض؛ لهذا قال: (ومن الناس) دون

(١) راجع أسباب النزول للنيسابوري ص٢١٢ .

تحديد؛ ليدخل في الآية ما كان موجودًا حينئذٍ، وما سيوجد في الأزمنة المتتالية من أناس يعبدون الله على يقين ضعيف مهتز يوشك أن يوقع بهم في خطر عظيم ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٍ﴾.

على أن التعميم المفهوم من «الناس» ليس مطلقًا، فليس كل الناس هكذا؛ ولهذا قال: «ومن الناس»؛ أي: بعض الناس فعمم بلفظ الناس وقيد هذا العموم بحرف الجر (من) الدال على التبعيض، فليس كل الناس مذبذبين، ولكن كثيرًا منهم على يقين متين لا يتزعزع مهما تعرض للابتلاء.

ولا ينبغي أن يفهم من قولهم: «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» أن السبب الخاص الذي نزلت بشأنه الآية ليس معتبرًا، بل إنه الأساس الذي تفهم في ضوئه الآية، ثم ننطلق منه إلى الفائدة العامة التي يدل عليها عموم اللفظ، ويدل عليها موقع الآية في سياقها.

ومن الإعجاز أن ترى فى صياغة الآية ما يشير إلى السبب الخاص الذي نزلت بشأنه، ثم تجدها في الوقت ذاته وقد اتجهت اتجاهًا آخر في التوجيه والتشريع، وهذا يجري في إطار المنهج القرآني الذي يتوخى نظمًا خاصًا يؤدي إلى أقصى غايات الإفادة من كلماته وجمله.

خذ مثلاً قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦٠]، فإذا نظرنا للحدود الزمنية التي نزلت فيها هذه الآية؛ نجدها ملابسة لحديث المنافقين الذي يعكس طمعهم في أموال الصدقات، وارتباط رضاهم وسخطهم بمدى ما يحصلون عليه ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨]، ثم جاءت آية الصدقات بعدها رداً لأطماعهم، وصارت الآية في الوقت ذاته تشريعًا في تحديد مصارف الزكاة إذ حصرت الصدقات في أصناف محددة لا يجوز لنا أن نتجاوزها، كما يدل القصر بـ (إنما) في صدر الآية، واستخدام القرآن لهذه الأداة هنا يشير إلى أن المعنى الذي دخلت عليه، وهو انحصار الصدقات في تلك الأصناف من الأمور المعلومة والمتفق عليها، ففي ذلك تجاهل أطماع المنافقين واعتراضهم

وسخطهم؛ لأنه لا وزن له ولا قيمة، ثم إن (إنما) تشير إلى أنه لا مجال للمساومة في أمر شرعه الله وفرضه (فريضة من الله)، ولعل هذا هو الغرض الذي كان وراء الرد عليهم بالآية التي صارت تشريعًا لمصارف الصدقات، ومن هنا يتبين سر التعبير عن الزكاة المفروضة بالصدقات في هذا السياق؛ لأن المنافقين كانوا يطمعون كثيرًا في أموال الصدقات، وليس للصدقات حد تقف عنده، فكان هو الأنسب للرد عليهم، وصار بحكم الاستعمال القرآني قابلاً لأن يكون بمعنى الزكاة المفروضة بقرينة قوله سبحانه في الفاصلة: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾.

ويتبين مما سبق أن الآية لا تنفك عن سببها الخاص الذي نزلت من أجله تذكرنا به وتستوقفنا معه وتلفتنا إليه لاستخلاص الفائدة والعبرة، وفي الوقت ذاته فهى قابلة للاتجاه إتجاهًا آخر في التوجيه والتشريع.

ويبدو هذا واضحًا كذلك في قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

فهذه الآية مرتبطة في نزولها ببعض المتخلفين عن غزوة تبوك، وشعروا بذنبهم فأوثقوا أنفسهم بالنخيل حتى يرضى عنهم رسول الله ﷺ، فتوقف في شأنهم حتى نزلت ﴿وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢]، فأطلقهم رسول الله ﷺ، فعرضوا عليه أموالهم ليتصدق بها تطهيرًا لهم، فنزلت[(١)]: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ الآية.

وظاهر كلام المفسرين أن هذه الآية إما أن يكون المقصود بها صدقة كفارة الذنب الذي كان من هؤلاء الذين خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا فذلك ما يقتضيه سياق النزول، وإما أن تكون في الزكاة الواجبة عمومًا، وبها استدل الفقهاء في باب الزكاة، لكن المتتبع لمنهج القرآن يجد قابلية هذه الآية ونظيراتها لأداء المقصودين معًا، فدلالتها على كفارة الذنب المرتبطة بسبب نزولها لا يمنع من التوجه بها وجهة ثانية هى الاستدلال بها على وجوب الزكاة كما فعل الفقهاء؛ لأن ما في الآية من

---

(١) راجع أسباب النزول ١٧٩ .

عموم يجعلها صالحة لهذا وذاك، ولا تعارض بين الدلالتين.

وفي نظم الآية ما يدل على قصد هاتين الدلالتين، وهو قوله: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم﴾ فالفعل (تطهرهم) ينصرف إلى الحالة الأولى وهى التطهير من الذنب بتلك الصدقة، أما الفعل (تزكيهم) - وهو يعنى المبالغة فى التطهر، أو كمال التطهر وتمامه - فإنه ينصرف إلى الدلالة الثانية وهى الزكاة الواجبة، وإن كنت أرجح حمل الفعلين على الحالتين معًا، وما من آية نزلت في مناسبة خاصة إلا وكانت قابلة للدلالة العامة التي تجعلها توجيهًا أو تشريعًا.

بل إن عموم اللفظ ربما أدى إلى تعدد الخطاب على الرغم من خصوصية السبب، خذ مثلاً قول الله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ﴾ [النساء: ١٩].

«أخرج ابن جرير أن العرب كانوا إذا مات الرجل صار أولياؤه أحق بامرأته إن شاء بعضهم تزوجها؛ وإن شاؤوا زوجوها، وإن شاؤوا لم يزوجوها، وهم أحق بها من أهلها، فنزلت الآية في ذلك» الصحيح المسند ٧٥ «وفي لفظ أبي داود في هذه الآية كان الرجل يرث امرأة ذي قرابته فيعضلها حتى تموت أو ترد إليه صداقها، وفي لفظ أبى حاتم: فإن كانت جميلة تزوجها؛ وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها» فتح القدير ١/ ٤٣٢ .

فالخطاب في صدر الآية عام لسائر المؤمنين، وإن كان المقصود أقارب المتوفى ليصير تحقيق العدالة مسئولية كل الذين آمنوا، وعرفًا سائرًا بين سائر المؤمنين، ومبدأ عامًا لكل طبقات الناس في الجماعة والأمة المؤمنة. وقد تناول الخطاب أمرين:

الأول: نفي ما كان متعارفًا عندهم من استحلال زوجة قريبهم المتوفى، والمصادرة على حريتها. ويبدو أن هذا كان عرفًا سائرًا كالعقيدة عندهم لا يجادل فيها أحد؛ ولذا كان أحوج ما يكون إلى الترفق في زحزحتهم عنه، فلم يقل: حرمت عليكم كذا، ولكن قال: (لا يحل)، وذلك على سبيل التعريض بأن ذلك الاستحلال فيه ظلم لا يليق. والجار والمجرور (لكم) يشير إلى دافع ذلك

الاستحلال؛ وهو الأنانية والمنفعة. وعبر بالميراث في ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ﴾ مع أنه ليس ميراثًا شرعيًا وذلك جريًا على عرفهم الذي ترسخ واستقر حتى صار كأنه ميراث مستحق. ثم إن هذا التعبير ينبه إلى ما فيه من جور حيث أهدرت الكرامة الآدمية، فصارت الزوجة متاعًا يورث.

ثم التعبير بقوله: (كرها) مع أن الحكم قائم فى كل حال مع الكراهية وعدمها، وذلك لإظهار ما كانوا يفعلونه في أبشع صوره، وأنه لا يليق بكريم ذي نخوة أن يفعل هذا.

الأمر الثاني: النهي عن عضل الزوجة وحبسها كرهًا (ولا تعضلوهن)، فهذا النهي يتوجه إلى أقارب الزوج المتوفى الذين أعطوا لأنفسهم ما لا حق لهم فيه، بمنع الزوجة من الزواج لتفتدي نفسها بما ورثت من مال زوجها الميت... وهذا قول بعض المفسرين، فيكون الخطاب في قوله: (ولا تعضلوهن) لأقارب الزوج الميت الذين كانوا يحبسون أرملته حتى تفتدي نفسها.

وذهب البعض إلى أن الخطاب للأزواج؛ لأن الزوج قد يكون كارهًا لزوجته، لكنه لا يطلقها حتى تتنازل كارهة عن صداقها وحقوقها، وتطبيقًا للمبدأ المعروف؛ وهو أن العبرة بعموم اللفظ، أرى أن يكون الخطاب قابلًا لأن يكون لأولياء المتوفى جريًا مع ما ورد في سبب النزول، ويدل عليه صدر الآية، مع احتمال أن يكون الخطاب في الوقت ذاته لعموم الأزواج الذين يعضلون أزواجهن للاستيلاء على حقوقهن ظلمًا بأي صورة يقبلها عموم اللفظ (لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن)، كالاحتيال على أموال يملكنها، أو الاحتيال في انتزاع صداقهن رغمًا عنهن، ويدل على قابلية الخطاب للأزواج، أن مفهوم العضل بالنسبة لأولياء الميت متحقق في قوله قبله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾، فهم يدخلون في النهي باعتباره وسيلة للميراث كرهًا، ثم إن بعض الأزواج يكون كارهًا لزوجه فلا يطلقها، وإنما يعضل ويسيء المعاملة ليجبر زوجته على افتداء نفسها خلعًا بالتنازل عن حقوقها أو بعض منها، وهو ما يقبله قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾، ولعل قوله مستثنيا: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ من أجل هذا الوجه الذي ينصرف الخطاب فيه للأزواج، ويكون المعنى: فإذا أتين بفاحشة مبينة، ساغ

للزوج حينئذٍ أن يعضلها، وأن يمتنع عن طلاقها حتى تفتدي نفسها خلعًا ببعض أو كل ما كان قد آتاها من صداق أو غيره.

ونخلص من هذا إلى أن نظم الآية ينسجم مع سبب النزول مع قابلية اللفظ لتعدد الخطاب تعميمًا للفائدة، ونزولاً للواقع، وجريًا مع عموم اللفظ.

وهناك حالتان تتصلان بالعموم والخصوص وهما مختلفتان:

الأولى: أن يكون السبب الخاص والوارد في نزول الآية من الأهمية بحيث يعول عليه فى فهم الآية، وذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٨].

ففي صحيح البخاري «عن الزهرى قال عروة: سألت عائشة رضي الله عنها: أرأيت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ فو الله ما على أحد جناح ألا يطوف بالصفا والمروة. فقالت عائشة: بئس ما قلت يا ابن أختي، إن هذه الآية لو كانت كما أولتها عليه، كانت لا جناح عليه ألا يتطوف بهما، ولكنها أنزلت في الأنصار، كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها، فكان من أهلّ في الجاهلية يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة؛ فلما أسلموا سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك؛ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ﴾ الآية.

وذكر أبو بكر بن عبد الرحمن أنه سمع من أهل العلم أن أناسًا كانوا يطوفون بالصفا والمروة؛ فلما ذكر الله تعالى الطواف بالبيت، ولم يذكر الصفا والمروة في القرآن، قالوا: يا رسول الله، كنا نطوف بالصفا والمروة، وأن الله أنزل الطواف بالبيت، ولم يذكر الصفا والمروة، فهل علينا من حرج أن نطوف بها. فأنزل الله تعالى الآية.

يقول أبو بكر: نزلت هذه الآية في الفريقين كليهما»[(١)].

ومن مراجعة ما سبق يتبين أن الأخذ بعموم اللفظ دون التعويل على خصوص السبب يوقع في اللبس والفهم الخاطئ، كما حدث لعروة بن الزبير عندما توهم أن

(١) الصحيح المسند من أسباب النزول ٢٩ .

المراد أنه لا جناح ولا إثم ألا يطوف بهما، وهذا هو المعنى الذي قد يتبادر لكثير من الناس إذا نظروا لعموم اللفظ، ولم يربطوه بالمعنى الخاص المقصود والمرتبط بسبب النزول.

وهو مثل أن نقول: لا جناح عليك أن تأكل من هذا الطعام، فمعناه إباحة الأكل، ومعناه أيضًا إباحة ترك الأكل، وهذا هو المعنى الذي استنبطه عروة عندما نظر إلى عموم اللفظ، ولم يربط المعنى بسبب نزوله، وهو ما تنبهت إليه عائشة رضي الله عنها، وحاولت نفي اللبس أولاً بقولها: لو كانت كما أولتها عليه، كانت لا جناح عليه ألا يطوف بهما؛ ثم ربطت المقصود الصحيح بسبب النزول الذي كشفت عنه كما ورد.

- إن سبب وقوع عروة في اللبس كما سبق أنه نظر للآية مفصولة عن سبب نزولها ومفصولة عن سياقها.

أما سياقها، فيدل على خصوصية معناها وملابساتها؛ لأن قوله: ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾ لا يقدم حكمًا شرعيًا لمنسك من مناسك الحج؛ لأن هذا الحكم انتهى وحسم بقوله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللَّهِ﴾، وإنما جاء عقبها قوله: ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾ للإجابة على سؤال السائلين كما ورد في سبب النزول، ولقد كان السائلون يطوفون بداية بين الصفا والمروة قبل نزول القرآن فيها لعلمهم بمكانتها المتوارثة من ملة إبراهيم عليه السلام، ثم توقفوا بعدما ذكر الله سبحانه الطواف ابتداءً بالبيت، ولم يذكر الصفا والمروة، أو للسبب الآخر؛ وهو خشية أن يكون الطواف بالصفا والمروة شبيهًا بالطواف الذي كان يفعله كفار الأنصار بمناة الطاغية؛ فأنزل الله سبحانه لهؤلاء وهؤلاء أنه لا حرج على من حجَّ البيت أو اعتمر أن يطوف بالصفا والمروة بعد الطواف بالكعبة والبيت العتيق.

فنفي الحرج والإثم ههنا مرتبط بما ورد في سبب النزول من كونه جوابًا على سؤال السائلين الذين كانوا يرون حرجًا في السعي والطواف بين الصفا والمروة، فنُفي هذا الحرج، ولا ينبغي أن يُفهم المعنى مفصولاً عن سبب النزول وملابساته حتى لا نقع فيما وقع فيه عروة.

وهذه من النماذج الدالة على أن قولهم: «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» ليس مطردًا، ولا ينطبق على كل الأحوال؛ لأن المراد من اللفظ قد يكون مرهونًا بذلك السبب الخاص الذي نزلت الآية من أجله.

- وهناك حالة أخرى مختلفة نجدنا فيها فى حاجة إلى استبعاد السبب الخاص الذي نزلت الآية بشأنه، كقوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة الحشر: الآية ٩].

فهذه الآية جاءت في سياق الثناء على الأنصار لموقفهم من إخوانهم المهاجرين، لكننا نجدها في كتب أسباب النزول مقرونة بسبب خاص ويشخص واحد، وذلك اعتمادًا على ما ورد في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلًا أتى النبي ﷺ، فبعث إلى نسائه (أي: يسأل عن طعام) فقلن: ما معنا إلا الماء. فقال عليه الصلاة والسلام «**من يضيف هذا؟**» فقال رجل من الأنصار: أنا؛ فانطلق به إلى امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول الله؛ فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياني؛ فقال: هيئي طعامك وأصبحي سراجك ونومي صبيانك إذا أرادوا عشاء، فهيأت طعامها وأصبحت سراجها، ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته، فجعلا يريانه كأنهما يأكلان، فباتا طاويين[1]، فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ، فقال عليه الصلاة والسلام: «**ضحك الله الليلة**» أو «**عجب من فعالكما**» فأنزل الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

فهذا النظم الذي جاءت عليه الآية لا يساعد على تخصيص سبب نزولها بهذه القصة وبهذا الرجل الأنصاري، لا سيما وأنه لم يرد له في الرواية اسم، فهو رجل مجهول، وهذا ما يجعل النفس تتوقف أمام هذا التخصيص، ولا يعني هذا استبعادها ونفيها وقد وردت في صحيح البخاري عن أبي هريرة، لكنها ليست وحدها سببًا في نزول الآية، فربما تزامنت مع مواقف الأنصار الرائعة من إخوانهم المهاجرين، فاجتمعت الأسباب والمواقف التي تلتقي في معنًى واحد هو الإيثار،

---

(١) طاويين؛ أي: جائعين .

فنزلت بشأنها الآية، ويؤيد هذا أمران: **الأول**: أن الآية صُدِّرت بالذين تبؤوا الدار والإيمان؛ وهم عموم الأنصار.

الثاني: أن الجزء من الآية الذي ورد في سبب النزول﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أسند فيه الفعل إلى ضمير الجمع (ويؤثرون)، وظهر الضمير مجموعًا في (أنفسهم) و (بهم)، ثم إن هذا الفعل معطوف على ما قبله ومضموم إليه وداخل في الحكم على الذين تبؤوا الدار والإيمان؛ وهم مجموع الأنصار، وهذا ما يقطع بنزول الآية فيهم جميعًا، ولعل الذي دعا أبا هريرة إلى رواية ما رواه من نزول هذه الآية في ذلك الرجل الأنصاري أن الرسول ﷺ قرأها مستعيدًا إياها - بعد مدة من نزولها - على سبيل الثناء والتمدح لفعل ذلك الرجل الأنصاري، فربما ظنها أبو هريرة خاصة بذلك الرجل فروى ما رواه على هذا الأساس. والله أعلم.

ثانيًا: بين تعدد الأسباب وتعدد الآيات

أعنى بهذا أننا أمام ظاهرة تتفرع فرعين: فقد تتعدد الآيات التي تنزل لسبب واحد، والعكس؛ أي: تتعدد الأسباب وتجتمع في آية تنزل دفعة واحدة.

١- تعدد الآيات لسبب واحد:

ذلك لا يكون إلا عند أهمية ذلك السبب واستمراره وعدم انقطاعه، وذلك كإعراض المشركين، وما كان يترتب عليه من حزن رسول الله ﷺ حزنًا شديدًا قد يخشى عليه منه، فقد نزلت في هذا آيات عدة فى معارض متعددة، وذلك كقوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: آية ٣] وقوله سبحانه في سورة فاطر(٨): ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ وقوله سبحانه في سورة الكهف (٦): ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾... إلخ.

ولقد تكرر هذا المعنى في بعض السور المكية لتوفر دواعيه من الإعراض والصد وما يترتب عليه من الأسف والحزن، فتنزل الآيات للتسرية والتخفيف وشد الأزر، وعندما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة لم نجد لهذا المعنى أثرًا في السور المدنية لانقطاع دواعيه.

ولنأخذ أمثلة للدراسة الموضوعية، فقد أورد(١) البخاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ناسًا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا وزنوا وأكثروا، فأتوا محمدًا ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة. فنزل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [سورة الفرقان: ٦٨ : ٧٠].

ونزل: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [سورة الزمر: ٥٣].

ومما يرشح لهذه الرواية الصحيحة أن هناك سمات مشتركة بين آية الفرقان وآية الزمر، وإن تشكلت كل آية بطابع سورتها، فمع هذا نجد في سياق كل من الآيتين ملاينة وطمأنة وتقريبًا من الله سبحانه لعباده الذين أفرطوا ثم أقبلوا عليه تائبين، فإن مفتاح آية الفرقان يبدأ من قوله: (وعباد الرحمن) وبداية آية الزمر ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ ولا شك أن في النداء وإضافة (عباد) إلى ياء المتكلم (يا عبادي) تقريبًا أكثر وطمأنة أشد، فهم حينئذٍ ليسوا عبادًا للرحمن فحسب، ولكنهم عباد الرحمن الرحيم الغفور الرؤوف الحليم، إلى آخر هذة الأسماء التي يضمها ضمير المتكلم العائد إلى ربِّ العزة سبحانه فضلاً عما تشعر به الإضافة من تقريب ومحبة، وذلك لأن المخاطبين في سورة الزمر أكثر حاجة إلى التقريب والطمأنة؛ لأنهم ﴿الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ وهذا لا يمنع أن يكونوا هم المقصودين في سورة الفرقان ولكن تنوّع الخطاب حسب سياق كل سورة وحتى تتعدد وسائل الطمأنة لهؤلاء الذين أفرطوا ثم ندموا وأنابوا.

بيد أنه اقتصر في سورة الزمر على غفران الذنوب ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ بينما زاد على هذا في سورة الفرقان أن الله سبحانه يبدل ذنوبهم حسنات ﴿فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾(٢).

(١) الصحيح المسند في أسباب النزول ١٧٦ .

(٢) بعد قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الفرقان: ٧٠] .

ذلك لأن مقام سورة الزمر هو مقام المسرف على نفسه المستبعد للرحمة، فهذا لا يطمع إلا في غفران ذنوبه، ولا يتطلع لأكثر من القبول؛ فجاء بما يوافق حاله، وبما يريح باله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ لكن مقام سورة الفرقان هو مقام من تاب وآمن وعمل صالحًا، فلقد ترك الظلام وعايش النور، وامتلأ به قلبه، وشعر بالأنس، وعمل صالحًا؛ فزاد تطلعه، فالمناسب لحاله مزيد من عطاء الله وفيضه؛ إذ لا يُقْتَصَرُ على غفران ذنوبه، وإنما تبدل سيئاته حسنات.

وإنما نشأت هذه الفروق من أن الحديث في سورة الفرقان يتناول التائب من الكفر ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ ويتناول التوبة من المعاصي بعد مرحلة الإيمان ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ لكن الحديث في سورة الزمر بشأن التوبة من الكفر ممن أقبلوا على الإيمان فنظروا إلى ذنوبهم فاستعظموها فشعروا باليأس، فهؤلاء لا ينشدون في البداية أكثر من غفران الذنوب، فأجابهم الله سبحانه إلى ما طلبوا.

على أن هذه الفروق الناشئة من تعدد السياق لا يمنع أن تكون الآيتان (آية الفرقان وآية الزمر) قد نزلتا لسبب واحد وإن اختلف الأشخاص واختلف الوقت حتى ترى بين نزول هذه وتلك مدة زمنية ليست بالقصيرة، وإن كانت السورتان مكيتين.

ومن ذلك قوله تعالى في آية (٤) من سورة النحل: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾، وقوله سبحانه في الآيات الأخيرة من سورة يس: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧-٨٣] .

فقد أخرج ابن جرير في تفسيره والسيوطي في الدر المنثور أن آية (النحل) وآيات (يس) نزلت في أبي بن خلف الجمحي حين جاء بعظم رميم إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، أترى الله يحيي هذا بعد ما قد رمّ؟!»[1] .

ولعل الذي رجح نزول آية (النحل) وآيات (يس) لسبب واحد عند هؤلاء العلماء هو اتفاق المعنى مع قرب اللفظ إجمالاً، ففي سورة النحل قال تعالى:

---

(١) انظر أسباب النزول للنيسابوري ١٩٢ .

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾، وفي سورة يس قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ فعبر ابتداء بالإنسان ليتناول كل الكفار؛ لأنهم ما يمنعهم جميعًا من الإيمان إلا التشكك في البعث، على أن وصف الإنسانية خصوصًا جاء هنا للإشارة إلى المفارقة بين ما كان ينبغي أن يكون عليه كإنسان عاقل، وبين ما صار إليه من خصومة ومجادلة في أمر ظاهر الأدلة.

وإن بدت بين الآيتين فروق منها:

- تصدير آية النحل بالفعل الماضي (خلق الإنسان) ليتسق مع ما قبله ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ وما بعده (والأنعام خلقها) بخلاف آية سورة (يس)، فإنها بدأت بالاستفهام الإنكاري ليتسق مع جَوّ السورة التي ورد فيها هذا النوع من الاستفهام أكثر من مرة، فقبلها قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [سورة يس: ٦٠] وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾ [سورة يس: ٧١].

- ثم إن المعنى في سورة النحل مجمل؛ لأن الغرض الأساس فيها هو تعديد نعم الله سبحانه، ففي هذا السياق ذكر قبله ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وبعده ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا﴾ وبينهما ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ وبذلك تكتمل منظومة الخلق جميعًا، وإن كان قد خصَّ خلق الإنسان بأنه قوبل بالنكران ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ والمقام لا يحتمل أكثر من هذا؛ لأن تفصيل النكران والخصام ليس غرضًا أساسيًا وإنما الغرض الأساس في سورة (النحل) هو تعديد النعم، بخلاف سورة (يس) التي تعلو فيها نبرة الإنكار ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [سورة يس: ٤٨].

لهذا كان من المناسب إعادة صورة أخرى من صور الإنكار مفصلة ليتاح الرد عليها مفصلاً بالدليل القاطع الساطع ﴿قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ الآيات الأخيرة من سورة يس.

٢- تعدد الأسباب في آية واحدة:

سبق أن الآيتين أو الآيات تنزل متوالية لسبب واحد، وهنا نجد الأسباب المتعددة تجتمع في آية واحدة، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ [سورة الإسراء: ٦٠].

فهذه الآية مكونة من جمل مترابطة بحكم نظمها في آية واحدة، ومع تعدد أسباب النزول فيها بحسب أجزائها وجملها، فإن بين هذه الأجزاء والجمل ترابطًا شديدًا واتساقًا عجيبًا، ويذكر الرازي في سبب نزول قوله تعالى في الجملة الأولى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ﴾ فيقول[1]:

روي أنه لما تزاحم الفريقان يوم بدر، ورسول الله ﷺ في العريش مع أبي بكر كان يدعو ويقول: «**اللهم، إني أسألك عهدك ووعدك**» ثم خرج وعليه الدرع يحرض الناس ويقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ فتكون جملة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ﴾ طمأنة للرسول ﷺ وبشرى له بالنصر، والمقصود بالناس أهل مكة، والإحاطة هي السيطرة والغلبة.

أما قوله بعده: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾، فيذكر الرازي في سبب نزوله أن الله أرى محمدًا ﷺ في المنام مصارع كفار قريش ودماء بدر. قال - وهو يذكر ما رأى: «**والله كأني أنظر إلى مصارع القوم**» ثم أخذ يقول ﷺ: «**هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان**» فلما سمعت قريش ذلك، جعلوا رؤياه سخرية، وكانوا يستعجلون بما توعد به رسول الله ﷺ - يعني لم يصدقوا واستهزءوا- فتكون الرؤيا التي عبرها رسول الله ﷺ فتنة لهم أوقعتهم في التكذيب والسخرية، ولا يبعد أن يكون قد دخل في نفوس بعض المسلمين ما دخلها من خوف وخشية ألا تتحقق تلك الرؤية.

وروي أن قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [سورة الإسراء: ٦٠] نزلت لما أسري بالرسول ﷺ وعاد يحدث قومه فاستهزءوا به، فنزلت الآية، لكنا نتوقف أمام هذا القول لاستبعاد أن يعبر عن الرؤية البصرية في الإسراء بالرؤيا المنامية، وقد حاول بعض المفسرين التأويل في هذا ليصح ذلك القول الوارد فيه، ونحن في غنًى عن هذه التأويلات إذا تحولنا إلى السبب الأول والذي يتعلق بنزول

---

(١) التفسير الكبير .

هذه الجملة في رؤيا غزوة بدر، وهذا أولى لاتساقة مع الجملة التي قبلها والتي نزلت في الغزوة نفسها.

أما قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ [سورة الإسراء: ٦٠] فيذكر المفسرون في سبب نزولها «عن ابن عباس رضي الله عنه أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ﴾ [سورة الدخان: ٤٣، ٤٥]، وآيات الصافات [٦٢: ٦٥]، قال أبو جهل ساخرًا: هذا محمد يتوعدكم بنار تحرق ينبت فيها الشجر وما نعرف الزقوم إلا التمر بالزبد. وأمر جاريته فأحضرت تمرًا وزبدًا وقال لأصحابه: تزقموا»[(١)].

وهذا الكلام ينسجم مع ما جاء في نهاية الآية ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾.

ومن سبب النزول يتبين المقصود بالشجرة الملعونة، وأنه قد اكتفى هنا بوصفها الملعونة، وهو وصف يحذر ويلقي بظلاله على من نزلت بشأنه وهو أبو جهل، واعتمادًا على سبق تفصيلها في سورتى الواقعة والصافات حيث يتبين هناك أنها شجرة الزقوم التي تخرج في أصل الجحيم، وأن ثمرها كرءوس الشياطين.

أما الصلة بين «الشجرة الملعونة» وما عطفت عليه ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ فتتحدد في أن كليهما فتنة، فالشجرة الملعونة فتنة كما قال سبحانه في سورة الصافات: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ والرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ في بدر كانت فتنة لقوله سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ سوى أن هذه الرؤيا ليست إلا فتنة؛ ولهذا جاء الحديث عنها بأسلوب القصر، لكن شجرة الزقوم ليست فتنة فحسب، ولكنها مع كونها للفتنة في الدنيا حتى يقع في تكذيبها من يقع، فإنها مع هذا طعام للكفار الآثمين في الآخرة؛ لهذا لم يأت بأسلوب القصر، فلم يقل: وما جعلنا الشجرة الملعونة إلا فتنة. كما قال سبحانه ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً﴾ لما تبين واتضح.

وحاصل هذا أن المناسبات قد تعددت والأسباب تنوعت ثم كان النزول واحدًا

---

(١) راجع أسباب النزول للنيسابوري ٢٠٠ وروح المعانى ١٠٦/١٥ .

في آية واحدة؛ لأن هناك صلة رابطة بين هذه الأسباب، وهي إما صلة زمانية بين قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ وقوله بعده: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ من حيث تعلقهما معا بغزوة بدر؛ وإما صلة معنوية، كالصلة بين قوله ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ وقوله بعده: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾(١) من حيث تعلقهما بغاية واحدة؛ وهي الفتنة التي يسقط فيها المنكرون.

ثالثًا: أمانة الحكاية عن الآخرين:

إن الذي يعيش مع القرآن بكيانه وفكره ووجدانه يجد في طريقه كلما سار مع دروب المعاني أدلة لا حصر لها على صدق القرآن، وأنه لا يمكن أن يكون كلام بشر، ومن ذلك في مجالنا ما نراه من حكاية القرآن عن الآخرين، فهو ينقل عنهم أفكارهم وخواطرهم باللفظ الدقيق الذي يلتزم الأمانة الكاملة في نقل تلك الأفكار دون تحريف أو تزوير أو زيادة أو نقصان، فلا يضع للخصومة أدنى اعتبار ولا يسجل عن الخصوم إلا ما قالوه أو ما قصدوه ولو كان كفرًا، وهذا مطرد في كل حوار، وفي كل موضع يحكي فيه القرآن عن الآخرين، ومن ذلك في أسباب النزول قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل: ٣٨].

يقول النيسابوري في سبب نزول هذه الآية: «عن أبي العالية: كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين فأتاه يتقاضاه، فكان فيما تكلم به: والذي أرجوه بعد الموت إنه لكذا وكذا، فقال له المشرك: وإنك لتزعم أنك تُبعث بعد الموت؟ فأقسم بالله لا يبعث الله من يموت، فأنزل الله هذه الآية»(٢).

واللافت بداية أن هناك اتساقًا بين صياغة الآية وبين ما ورد في سبب النزول، فالمجادل في البعث هنا مشرك، والمشرك يعرف الله ولا ينكره ولكنه يعبد غيره،

---

(١) راجع خصوصيات هذه الآية في الباب الثالث ص ٣٥٥ .

(٢) ١٩٣ أسباب النزول، وفي أسباب النزول للسيوطي: فأقسم بالله جهد يمينه لا يبعث الله من يموت، ٢٨٦ على هامش مصحف القراءات والتجويد .

فهذا يتوافق مع القسم بالله في (وأقسموا بالله)، والجمع هنا يتجاوز خصوصية السبب، ثم إنهم يقولون: (لا يبعث الله من يموت).

وعلى الرغم من القسم الذي يعكس اليقين أو التظاهر بالوثوق مما يقولون؛ فإنهم مع هذا يقفون عند مجرد إنكار الفعل ولا ينكرون قدرة الفاعل عليه، بل إن بناء الفعل للفاعل المعلوم وعدم بنائه للمجهول، فلم يقولوا: لا يُبعث من يموت، يشير إلى احتياطهم لأنفسهم بإظهار الفاعل (لا يبعث الله من يموت) للدلالة على أنهم لا ينكرون أن الله قادر على البعث، ولكن ينكرون مجرد وقوع البعث، وإن كان الله قادرًا عليه، وهذه هي دقة التعبير القرآني في نقل خطرات نفوسهم وخفايا قلوبهم، وخوفهم من إنكارهم قدرة الله على البعث، فاكتفوا بنفي أن يبعث الله من يموت، يوضح هذا أن نقول: فلان لا يعطي أحدًا من الفقراء، فهذا لا يعني أنه عاجز عن مساعدتهم.

وقد جاء الجواب على كلامهم مناسبًا لما قصدوه، فلم يرد عليهم كما يرد على المنكر للبعث فيقول مثلًا: بلى إن الله قادر على أن يبعث من يموت، أو يأتي بالحجة والبرهان، كما قال في سورة يس: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وإنما يقتصر هنا على تأكيد الوعد الذي قطعه الله على نفسه عز وجل ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [سورة النحل: ٣٨]. فجاء الجواب على مقتضى ظاهر كلامهم، ويحتمل مع هذا أنهم علموا بوعد الله سبحانه أن يبعث الناس بعد موتهم، ولكنهم ينكرون هذا الوعد ويكذبونه، وهو أحد الاحتمالات التي ذكرها أبو السعود[1] وإن كنت أشعر أن هذا غير مراد، وليس في الجواب ما يدل عليه؛ لأنهم لو كانوا ينكرون ويكذبون وعد الله لكان الجواب ردًا على تكذيبهم بما يناسبه، لكنه جاء على صورة تدل على مجرد إثبات الوعد مؤكدًا وأنه قد حق حقًا لا ريب، وربما همست الصياغة بأنهم يستبعدون البعث ولكنهم لا يصرحون بالاستبعاد للشيء الذي لم يألفوه ولم تقع أعينهم عليه وهم لا يصرحون بالاستبعاد أو الإنكار؛ لوقوعهم في حيرة من أمرهم وتردد يؤرق صدورهم، ويدل على هذا قوله سبحانه بعد هذه الآية: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ﴾ [سورة النحل: ٣٩].

---

(١) إرشاد العقل السليم ٣/ ١٧٤ .

رابعًا: خصائص الأسلوب المكي والمدني:

١- مقامات الآيات المكية وخصوصيات نظمها:

تتعدد مقامات السور المكية وسماتها وغاياتها من ابتداء نزولها ومرورًا بمراحلها المختلفة، ولكني أقتصر هنا على بعض الآيات المكية التي وردت في كتب أسباب النزول، وذكر العلماء مناسبة نزولها، فهذه يعلو فيها صوت التحذير من الانتقام في الدنيا والعذاب يوم القيامة، مع التركيز على ما يرتبط بالساعة من تغيير وتبديل إلى جانب الترغيب في الإيمان وفيما عند الله من ثواب ونعيم، ونجد أن السور التي نزلت في بداية الوحي المكي كانت قصيرة، لكنها قوية المعاني وشديدة الجرس، وقد جاءت ألفاظها فخمة جزلة، وتشكلت كلماتها من حروف ذات صفات قوية ومخارج شديدة صعبة، ومقاطع تخرج من الفم فتقع في الأسماع كالضربات المتوالية، كما نجد في قوله تعالى في سورة المسد: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ [سورة المسد: ١: ٥].

فقد أخرج البخاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ صعد النبي على الصفا فجعل ينادى يا بني فهر يا بني عدى لبطون قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو فجاء أبو لهب وقريش، فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقًا، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تبًا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾[1].

لقد دعا أبو لهب على رسول الله ﷺ بالهلاك: «تبا لك» فرد الله سبحانه هذا الدعاء إليه ليكون عبرة في العالمين ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ والبداية قوية عنيفة؛ إذ بدأ بالدعاء عليه بالافتقار والهلاك بواسطة الفعل (تبت) بدلاً من افتقرت؛ وذلك لما في (تبت) من جرس شديد ناشئ من توالي مقطعين مقفولين مكونين من ثلاثة

(١) المسند الصحيح ٢٧٥ .

حروف فقط تشكل أربعة أصوات لوقوع الباء مشددة وسطًا بين تاءين، وكلها حروف شديدة ينحبس الهواء معها عند خروجها حتى ينفصل العضوان اللذان تخرج من بينهما، فيحدث صوتًا انفجاريًا.

ولا يمكن أن يكون اختيار هذا الفعل بحروفه هذه اعتباطًا ولكنه تقدير العليم الخبير حتى يستشعر السامع من سماعه لأداء تلك الأصوات هولاً واقعًا وعذابًا موشكًا على رأس ذلك الشخص (أبي لهب)، ثم تردد الباء في هذه الآية، حتى نجدها في كل كلماتها ما عدا كلمة •واحدة، حتى يسلم هذا الترديد إلى الفاصلة ذات الباء الساكنة (وتب)، وذلك عند الوقوف على الفواصل، وهو الذي يأخذ به العلماء أسوة بقراءة النبي ﷺ، ومع سكون الباء تنشأ القلقلة والتي تشعر بشدة ذلك الهلاك وعنفه، وكأنه نازل كالصاعقة أو الصيحة المهلكة التي يكون لها فيما تقع عليه صدى صوتي عنيف. هذا ما تُشعر به الباء الشديدة عند سكونها وقلقلتها.

فما بالك إذا كانت هذه الباء بعينها قد ترددت في كل فواصل آيات هذه السورة، حتى توحي بضربات متوالية تتبعها أصداء قوية عنيفة، لا شك أن أبا لهب عندما استمع إلى آيات نزلت فيه كان قد أصغى إليها واستشعر دلالات أصواتها وإيحاءاتها، ويغلب على التصور أنه لازم بيته خشية وقوع تلك الضربات على رأسه حتى ينفذ التب والهلاك، ولعل مما يؤيد هذا في الواقع أن أبا لهب لم يُسمع له صوت بعد نزول هذه السورة، حتى كف عن السعي وافتقر حتى مات، وأما امرأته فلا شك أن نوعًا من الاضطراب قد أصابها، على الرغم من تظاهرها بالثبات وإصرارها على الاستمرار في الإيذاء، حتى أصابها من الارتباك ما أصابها عندما خنقها الحبل الذي كانت تحتطب به كما يذكر المفسرون(١).

ولنا أن نسأل عن سر مخالفة الآية الأخيرة في حرف الفاصلة، حيث جاءت بالدال (مسد) بدلاً من الباء التي جرت عليها الفواصل السابقة؛ ذلك لأن ذكر المسد - وهو الليف الذي أحكم فتله - يشير إلى أن ما أصابها من خنق لم يكن مفرًا منه لإحكام فتل ذلك الحبل، وكانت قد اختارته كذلك ليحزم ما تجمعه من شوك فلا

---

(١) فقد ورد أنها كانت تجمع الشوك بنفسها لتلقيه في طريق رسول الله ﷺ فأصابها ما أصابها بعد نزول السورة .

ينفرط منه عود واحد، فإذا كان زوجها أبو لهب قد أصيب بما دعا به على رسول الله ﷺ فلقد أصيبت هى بما اختارته ليساعدها على إيذائه ﷺ.

ثم إن الدال في (مسد) حرف شديد فهو صنو الباء في الشدة والقوة، وله نفس المخرج الذي ينحبس معه الهواء ثم يفرج عنه فينفجر[١] فضلًا عن صدى صوت القلقلة الناشئة من نطق الحرف الساكن عند الوقوف عليه وكأنه يتقلقل من موضعه.

وليست كل الآيات المكية على هذا المنوال، وإنما يتبدل الأداء والروح بتبدل المقامات، فعندما يكون الخطاب لرسول الله ﷺ تسرية وتخفيفًا مما كان يلاقيه من عنت أو قلق أو خوف؛ نجد الألفاظ تتهادى رقة وعذوبة، وعندما يكون الخطاب عتابًا له ﷺ فإن النظم يتنوع بحسب درجة العتاب، ولا أحسب أن عتابًا له كان شديدًا كعتاب رب العزة سبحانه في ابن أم مكتوم عندما جاء يسعى للمعرفة؛ خشية الله سبحانه، فعبس رسول الله كارهًا لمجيئه في وقت كان مشغولاً بوجهاء الكفار طمعًا في إيمانهم، وأول ما يلفتنا في هذا العتاب أنه جاء بطريقة صوتية لم يأت بها عتاب سواه، وهي طريقة مصورة لثقل الموقف وثقل اللحظات وثقل مجيء الأعمى على نفس رسول الله ﷺ في ذلك الوقت بالتحديد، ولعلك تلحظ هذا من توالي ست حركات في أول ما نسمع من هذا العتاب من قوله سبحانه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ [سورة عبس: ١، ٢].

فالحروف الأولى العين والباء والسين، ثم الواو والتاء والواو كلها متحركة، ومن المعروف عند العلماء بالعربية أن توالي أربع حركات يؤدي إلى الثقل[٢]، فما بالك إذا كانت قد توالت ست حركات، إنه الثقل المقصود لما سبق من تصوير ثقل الموقف وثقل اللحظات على نفس رسول الله ﷺ، ومما أدى إلى ثقل النطق ههنا أن هذه الحروف الستة تخلو من حروف الذلاقة والحروف الشفهية[٣] وهى الحروف

---

(١) سمى القدماء هذه الحروف بالشديدة، وسماها المحدثون بالانفجارية؛ أخذاً من تفاصيل القدماء لكيفية خروج الحرف عند النطق به .

(٢) راجع نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للرازي ص١٢٦ ط١ - ١٩٨٥ دار العلم .

(٣) حروف الذلاقة هي: الراء واللام والنون، والحروف الشفهية هي: الفاء والباء والميم وانظر المرجع السابق .

التي إذا خلت منها كلمة عربية؛ كان هذا دليلاً على ثقلها. إنه الثقل المقصود لتصوِّرَ الأصواتُ ذلك الجو الثقيل.

وعودة إلى خطاب التسرية والتخفيف، والذي يتطلب ألفاظًا رقيقة هادئة فهو في القرآن الكريم كثير، كقوله سبحانه: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ [سورة الضحى: ١ - ٥]، فقد ورد في سبب نزول هذه الآيات أن الوحي تأخر عن رسول الله ﷺ فترة من الزمن لتركه الاستثناء - كما في سورة الكهف - حتى قلق رسول الله ﷺ، وقال المشركون: إن محمدًا ودعه ربه وقلاه، فنزلت ردًّا عليهم وتبشيرًا لرسول الله ﷺ.

وتبدأ الآيات بالقسم، وهو في هذا المقام مقترن بالرضا؛ لأنه في خطاب المحب الذي يقسم المولى سبحانه له ليبشره ويطمئنه ويطيب خاطره المهموم، وقد أقسم بالضحى والليل إذا سجى في هذا المقام؛ لأنهما مظهران دالان على قدرة الخالق سبحانه في تبديل الأمور وتغيير الأحوال، وذلك مناسب في مقام التبشير بأن الوحي وإن تأخر فإن ذلك لم يدم كما لا يدوم الليل الذي يعقبه الضحى والضياء، وفي ذلك إشارة رمزية إلى أن فترة انقطاع الوحي كانت كالليل، وأن الوحي سيعود حتمًا كما يأتي الضحى حتمًا بعد الظلام.

والمهم هنا أنه لما كان المقام مقام طمأنة وموادعة وتسرية، ناسبته كلمات لينة وحروف هامسة في أغلبها، وفواصل مريحة لا يكد معها اللسان، وإنما ينطقها مستريحًا ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ على أن الفعل (سجى) يحمل في متنه دلالة السكون المطمئن، ويوحي بالهدوء والسكينة؛ لأنه من سجا البحر سجوًا إذا سكنت أمواجه، فهو يشير إلى أن فترة انقطاع الوحي كانت لالتقاط الأنفاس واسترجاع الثبات، وكان ينبغي أن تكون فترة هدوء واطمئنان لا قلق وهموم، ثم انظر إلى الإضافة لضمير رب العزة في ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ فلم يقل: ما ودعتك؛ ليدل التعبير بلفظ الرب مضافًا إليه ﷺ على كمال العناية والرعاية، ثم لما ذكر القلى منع الإضافة، فلم يقل: وما قلاك، حتى لا يؤدي هذا إلى الشعور بالوحشة، وليدل حذف المفعول على العموم، لأنه لو قال: وما قلاك؛ لأفاد نفي

الجفوة والكراهية عن رسول الله ﷺ، لكن لما قال: (وما قلى) دل على نفى الجفوة والكراهية عنه وعن غيره من العباد الذين يتعلقون بالله ويتجهون إليه، وهذه كرامة للرسول ﷺ؛ لأنه كأنه يقول له: ما ودعتك وما جفوتك وما جفوت كل من يتعلق مثلك بي. فضلاً عما يؤدي إليه حذف الكاف (المفعول) هنا من توافق الفواصل توافقًا يؤدي إلى الإشعار بتوافق موقف ذي الجلال والإكرام منك في حال الوحي وفي حال انقطاعه، فهو الحب الذي لا يتغير ولا يتبدل.

أما الآيات المكية في السور الطويلة فإنها تتشكل بجو سورتها، ولكل سورة مقام ومحور، وأغراض فرعية تدور حول ذلك المحور الأساسي، وعمومًا فإن آيات السور المكية تختلف عن آيات السور المدنية في الموضوعات التي تغلب على كل منهما، فيغلب في السور المكية مثلاً السؤال عن البعث أو السؤال عن موعد الساعة على سبيل الاستبعاد والإنكار، كما يغلب عليها قصص الأنبياء ومشاق الدعوة والتبليغ، ومواقف الناس التي يغلب عليها الرفض.

وأسلوب هذه الآيات يخضع لمقامات السور المكية، وأسلوبها الذي يدور بين الترغيب والترهيب والشدة والملاينة، ولكل من هذا وذاك لفظه المناسب، كما تتميز آيات السور المكية بالمذهب الكلامي الذي يُقنع العقول بالحجة والبرهان، وهو من اللفت والقوة بحيث يحتاج إلى تتبع ودراسة مستقصية، كما يغلب على آيات العهد المكي الأسلوب الخبري الذي يرسخ مبادئ العقيدة والبعث والجنة والنار، وإذا وجدت فيها الأسلوب الإنشائي فالغالب عليه الاستفهام الذي ينكر أو يتعجب من مواقف الكفار.

٢- مقامات الآيات المدنية وخصوصيات نظمها:

لعل ما سبق من مقامات الآيات المكية وخصوصياتها يكشف إلى حد ما عن خصوصيات الآيات المدنية، فإن الغالب عليها هو الأسلوب الإنشائي الذي يدور في أكثر أحواله بين الأمر والنهي؛ وذلك لمناسبة هذه الفترة وما فيها من تفاصيل الفروض والعبادات والمعاملات التي تنشأ من واقع حياتهم وتساؤلاتهم وهم أحوج ما يكونون إليها، ونجد سائر الفروض التي شرعت إنما تعتمد في تكليفها على أسلوب الأمر الصريح أو غير الصريح، وإذا كانت العبادة ثقيلة على بعض النفوس

فيحتاج الطلب إلى ترفق واستدراج لا يخلو من حسم؛ كقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾، وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ وأكثر هذه الفروض بل كلها ورد في أول سورة نزلت في المدينة وهى سورة البقرة.

وأسلوب النهي هو الغالب في تفاصيل العبادات وفي المعاملات وفي تحديد علاقة المسلمين بأهل الكتاب وغيرهم من الملل، ومن شاء فليراجع سورة المائدة ليجد فيها ذلك على نحو لا يوجد في أي سورة مكية.

وإذا نظرنا إلى خصوصيات الآيات المدنية بشيء من التفصيل نجد منها:

- طول هذه الآيات طولاً ظاهرًا ولا سيما ما يتعلق منها بالأحكام التي تتصل بحياة المسلمين أفرادًا وجماعات، وهي أحكام تنبع من خلال الممارسة العملية للحياة، والتي يتدخل هذا الدين في تشكيلها وتنظيمها، حيث كانت تجِدُّ أحوال تدعو النفوس المؤمنة إلى أن تتطلع وتتوق إلى تفسير أو توضيح أو إضافة أو تيسير، وهنا تتجلى رحمة الله بعباده عندما يستجيب الوحي لما تتوق النفوس إليه، وقد ظهر هذا واضحًا فى آية إباحة الأكل وإتيان النساء في ليل رمضان، وتبين من تتبع خصوصيات النظم المعجز الذي لا طاقة لأساليب العرب بمثله، حيث يجتمع التيسير مع التشديد في آية واحدة، كما في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٧].

فقد أخرج ابن جرير وابن المنذر «أن المسلمين كانوا في شهر رمضان إذا صلوا العشاء؛ حرم عليهم النساء والطعام والشراب إلى مثلها من القابلة، ثم إن أناسًا من المسلمين أصابوا النساء والطعام في رمضان بعد العشاء منهم عمر بن الخطاب فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله الآية»[١].

من أجل هذا بدأ الآية بقوله (أحل لكم)، وتقديم إباحة إتيان النساء في ليل رمضان؛ والذي عبر عنه بالرفث على إباحة الأكل والشرب؛ يدل على أن حاجة المسلمين إلى المقدم كانت أشد، وأن التجاوز من ناحيته كان أكثر، فلقد كان إتيان النساء ليلة الصيام قبل هذا محرمًا كنهاره، فتقديم ما قدم يعد استجابة للواقع لأن

---

(١) فتح القدير ١/ ١٨٣ .

السيطرة؛ على شهوة الأكل والطعام أيسر من السيطرة على شهوة الجماع، وهم مع ذلك كانوا يجدون حرجًا في مخالفة الجماع وتأنيبًا للنفوس أكثر مما يجدونه عند مخالفة حظر الطعام والشراب، ومن أجل هذا قال عند إباحة إتيان النساء ليلة الصيام: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ ولم يقل مثله عند إباحة الطعام والشراب، مكتفيًا بقوله: ﴿كلوا وأشربوا﴾. والحاصل: أن الله سبحانه أحل ما كان محرمًا في ليالي الصوم؛ رحمة منه سبحانه وتيسرًا وتخفيفًا.

وكان الترتيب الأصلي لقوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ أن يقول: أحل لكم الرفث إلى نسائكم ليلة الصيام، لكنه قدم الظرف «ليلة الصيام» على المفعول الذي صار نائبًا للفاعل «الرفث»؛ وذلك للتشديد في تعيين الزمن الذي يباح فيه الرفث إلى نسائهم، وأنه مقصور على الليل، وبهذا يجتمع تشديد في داخل التيسير في جملة واحدة، فلم يحتج التشديد الذي يحصر الرفث في الليل إلى زيادة ألفاظ على الجملة، وإنما تحقق بتصرف يسير في النظم إذ تقدم الظرف فدل على ذلك التشديد، والمغزى هو الإشارة إلى أن التيسير والتخفيف مقيد بحد معين لا نتجاوزه، حتى لا تمضى النفس الأمارة في إطلاق العنان لشهواتها.

وقد يبلغ التشديد والاحتياط في التشريع درجة كبيرة حتى ترى في الحكم الواحد نهيًا يتوسط أمرين، وكلها تتعلق بهذا الحكم، كقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة البقرة: ٢٢٢][1].

فعن أنس رضي الله عنه أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يواكلوها ولم يجامعوا، فسأل أصحاب النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ الآية، فقال ﷺ: **«اصنعوا كل شيء إلا النكاح»**. واللافت ابتداء أن السؤال محدد شديد الإيجاز لعدم تحمل المقام تفصيل السؤال فيه مع فهم المقصود منه، وهذا هو منهج القرآن في التخفف من الألفاظ، فيذكر بعضها ويحذف بعضها، ويدل المذكور على المحذوف؛ لهذا لم يقل: ويسألونك عن إتيان النساء في

(١) الصحيح المسند ٤٠ .

المحيض؛ أيجوز أم يمتنع؟ لأن كل ذلك يفهم من قوله سبحانه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾.

وقد جاء النهي بين أمرين في الجواب من غير تكرار؛ لأن لكل منها غاية ومهمة، وقد ترتبت جميعًا على ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ مع ما في هذه الجملة الموجزة من المبادرة إلى التنفير حتى تتهيأ النفوس لما بعده من أمر ونهي ثم أمر.

فالأمر الأول: ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ يعني: التجنب التام والبعد النافر من ذلك الحيض[1] طول مدته المعتادة، وإني أعجب مما نسب إلى رسول الله ﷺ عن أنس: «**اصنعوا كل شيء إلا النكاح**»[2] كيف يتفق هذا مع كونه أذى ومع التعبير بالاعتزال، والنهي في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ يؤكد ما يفهم من الأمر وهو التجنب التام وعدم القرب منهن حتى ينقطع الحيض، ومعنى هذا أنه يجوز القرب منهن عند الطهر الذي يحدث بانقطاع الحيض انقطاعًا تامًا، وهو مجرد قرب لأن الحيض وإن كان قد انقطع، لكن التطهر بمعنى الاغتسال لم يحدث، فمجرد ذهاب الحيض يبيح القرب الذي أرجح أن يكون داخلاً فيه قول الرسول ﷺ: «**اصنعوا كل شيء إلا النكاح**» فمتى يجوز الجماع؟ ذلك يجيب عليه قوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ وبهذا يتضح الفرق بين يطهرن ويتطهرن، فالأول بمعنى انقطاع الدم، والثاني بمعنى الاغتسال.

وبهذا يتبين حكمة اجتماع أمرين ونهي بشأن هذا الحكم.

فالأمر الأول: يوجب الاعتزال والتجنب التام.

والنهي: يؤكد على هذا ويبيح جواز مجرد القرب عند انقطاع الدم.

والأمر الثاني: يبيح الإتيان والجماع بعد الاغتسال.

والحكمة من قوله: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ في هذا السياق أنه يشير إلى سبب الاحتياط في التعبير بالاعتزال مع النهي عن القرب قبل الطهارة؛ لأن

---

(١) يفهم هذا من مادة الاعتزال، كقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فإنه يعني البعد النافر .

(٢) ورد هذا الحديث في الصحيح المسند من أسباب النزول ٤١ .

التساهل في هذا والاقتراب من الزوجة قبل انقطاع الدم قد يهيج الرجل فيقع عليها في دبرها، ومن أجل هذا قال: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ ورغب بعد أن حذر فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾.

وبهذا يتبين غلبة الأمر والنهي في الآيات المدنية سواء كان ذلك في الفروض أم في تفاصيل الأحكام التي تتعلق بالأسرة والمجتمع.

ومع أن الترغيب والترهيب من الأساليب الذائعة في القرآن الكريم عمومًا بسوره المكية والمدنية إلا أن موضوع كل منهما يختلف باختلاف الآيات مكية كانت أم مدنية، فقد سبق غلبة الترغيب في الجنة والثواب والتحذير من النار وما يؤدي إليها من جحود وإنكار في الآيات المكية، أما الآيات المدنية فيغلب أن يكون الترغيب في الالتزام بحدود الله وتنفيذ تكليفه والترهيب من التقصير فى العبادات، ولنأخذ لهذا مثلًا من الزكاة والإنفاق فنجد الترغيب في إنفاق الطيب والترهيب والتحذير من إنفاق الخبيث، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٧].

عن أبي مالك عن البراء قال: «نزلت فينا معشر الأنصار، كنا أصحاب نخل، فكان الرجل يأتي من نخله على قدر كثرته وقلته، وكان الرجل يأتي بالقنو والقنوين فيعلقه في المسجد ليأكل منه أهل الصفة، وكان ناس ممن لا يرغب في الخير يأتي الرجل منهم بالقنو فيه الشيص والحشف وبالقنو قد انكسر فيعلقه، فأنزل الله تعالى هذه الآية».

أخرجه ابن ماجه وابن جرير وزاد الترمذي «قال رسول الله ﷺ: **«لو أن أحدكم أهدي إليه مثل ما أعطى؛ لم يأخذه إلا على إغماض أو حياء»**[١].

ومن الواضح أن الآية ترتبط بسبب نزولها ارتباطًا واضحًا، بيد أن ما فيها من عموم يجعل الخطاب فيها لكل المؤمنين في كل زمان ومكان.

وقد اتخذت موقعًا مناسبًا في سياق الحديث عن الإنفاق في سبيل الله: وهذا هو الموقع القرآني الوحيد الذي يضم إلى الترغيب في الإنفاق تحذيرًا من شيئين:

---

(١) الصحيح المسند ٤٨ .

أولهما: المن والأذى، وقد أفاض في التحذير منهما لوقوع كثير من الناس فيهما، **وثانيهما**: النفقة من الخبيث، واللافت هنا أنه نادى كل المؤمنين يحثهم على الإنفاق من طيب ما كسبوه، ثم نهاهم جميعًا على سبيل التحذير مما وقع فيه البعض والذين نزلت بشأنهم الآية، فيكون الكلام في صريحه وظاهره حثًّا وإنذارا عامًا وفي باطنه تحذير خاص لهؤلاء الذين ينفقون بالقنو فيه الشيص والحشف على سبيل التعريض بهم.

وقد جاءت الآية بطريقة خاصة في النظم تزيد في معناها وتعطى إشارات لا حصر لها منها:

- أنه قال: ﴿أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ ولم يقل: من أطيب ما كسبتم؛ رحمة بالناس؛ لأنه إن طلب هذا كان شيئًا شاقًّا على النفوس التي جبلت على تقديم النفس وإيثارها بالأطيب في أغلب الأحوال.

والطيب من الزروع والثمار هو الجيد الذي لا يرتقي إلى الأجود ولا يهبط إلى الخبيث الساقط، وذهب بعض المفسرين إلى المراد بالطيب: الحلال، ومع أن سبب النزول يحدد المراد في الجيد غير الحشف، بدليل العطف عليه بقوله: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ فليس هناك ما يمنع من اعتبار المعنيين معًا، بل إن مجرد طلب الإنفاق يستلزم حتمًا أن يكون المنفق منه حلالاً، وإنما التركيز فيما يبدو هنا على تحذير النفوس الشحيحة.

وقد خالف في الإسناد بين قوله: ﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾ وقوله: ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ فأسند الكسب إليهم، وأسند إخراج النبات من الأرض إلى الله سبحانه؛ إشارة إلى مقاومة فلسفة الشح الخفية في بعض النفوس، فربما تعلل الأشحاء والبخلاء بأنه من كسبهم وتعبهم، فنبه سبحانه إلى أنه من فضل الله الذي أخرجه لهم من الأرض بقدرته، ثم إنه لم يحدد المخرج من الأرض فأطلق المفعول ليتناول كل ما يستخرج من الأرض من زروع ومعادن وجواهر وغير ذلك، فإن لله في كل ذلك حقًّا معلومًا.

ومن دقة التعبير القرآني أنه قال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟﴾ بمعنى تقصدون، وهذا كناية عن الإصرار والعمد، وفي هذا رفع الحرج عمن أنفق من خبيث ما كسب سهوًا أو

خطأ دون قصد.

وقد أكد على أن الإثم إنما يقع على من يتعمد الإنفاق من الخبيث في (منه تنفقون) بتقديم الجار والمجرور تقديمًا يؤدي إلى التخصيص؛ أي: تنفقون من هذا الخبيث دون سواه، وذلك لا يكون إلا عن عمد وسبق إصرار. وفيه إشارة إلى أن المسلم لو أنفق من الخبيث سهوًا دون قصد أو من اشتملت نفقته على بعض من الطيب وبعض من الخبيث، فاختلط هذا بذاك كما يقع عادة عند الإنفاق من الزروع والثمار ربما يكون له عذره أو خف لومه وقلت شبهته؛ أما من لا ينفق إلا من الخبيث، فإنه لا عذر له؛ لأن ذلك دليل على العمد والقصد.

كل هذا يفهم ويلمح من تقديم الجار والمجرور على الفعل (منه تنفقون)، ولقد اتجه إلى التأثير النفسي الممتزج بالمنطق العقلي، والذي يتلخص في أن نحب لغيرنا ما نحب لنفوسنا، وأن نكره لغيرنا ما نكره لنفوسنا، وهذا يفهم من قوله سبحانه: ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِۚ﴾ أي: لستم بآخذين لهذا الخبيث من غيركم على سبيل الشراء أو الإهداء مثلاً إلا على سبيل التسامح والتجاوز وإغماض العين، وغض البصر حياء من شدة خبثه وسوئه؛ لأن الأصل فيه أنه لا يصلح لإهداء أو شراء أو نفقة، فما لا تقبلونه لأنفسكم لا ينبغي أن تقبلوه لغيركم، وهذا هو المفهوم من تفسير رسول الله ﷺ والذي أورده الترمذي عقب سبب النزول، ولا يمكن إغفال أثر التوزيع الصوتى المنسجم والناشيء من تقسيم هاتين الجملتين تقسيمًا متوازيًا ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِۚ﴾ فهذا الانسجام الصوتى يدعم التأثير النفسي.

وهذه الخصوصيات الناشئة من طرق النظم وطرق التصوير والتأثير ليست محصورة في الآيات المدنية، وإنما هي سمة عامّة في القرآن الكريم، ولكن أردت الإشارة إلى مضامين الآيات المدنية والتي اقتضت مخاطبة الوجدان والفكر على حد سواء، وغلب عليها أسلوب الأمر والنهي ترغيبًا وترهيبًا، واستمالة واستدراجًا لتنفيذ تكاليف العبادات والمعاملات على أدق وجه وأحسنه.

من مواقع الآيات المدنية في السور المكية:

عندما نجد آية أو أكثر من الآيات المدنية داخل السور المكية، فذلك لا يكون

إلا عند وجود نوع من التناسب بين مجموع الآيات بحيث لا تشعر بالتفاوت أو التباين، وإنما تجد وحدة متصلة وجوًا وسياقًا واحدًا بين الآية المدنية وجاراتها من الآيات المكية، وتجد تلك الآية المدنية قد نزلت لسبب من الأسباب وغرض من الأغراض ينسجم تمامًا مع الغرض العام المقصود من السياق الذي وردت فيه.

خذ مثلًا قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة الأحقاف: ١٠].

ورد من عدة أسانيد ومصادر منها الصحيحان أن الآية نزلت في عبد الله بن سلام، جاء إلى رسول الله ﷺ مسلمًا، ثم عاد إلى قومه دون علم منهم بإسلامه، فسألهم: أي رجل تعلمونني فيكم يا معشر يهود؟ قالوا: والله، ما نعلم فينا رجلًا أعلم بكتاب الله منك. قال «إني أشهد بأن محمدًا نبيُّ الله الذي تجدونه في التوراة. قالوا: كذبت. وردوا عليه قوله، وقالوا فيه شرًا»[1].

وروي أن عبد الله بن سلام لما سمع بمقدم رسول الله ﷺ المدينة، أتاة فنظر في وجهه فعلم أنه ليس بوجه كاذب، وتأمله فتحقق من علامات النبوة، فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشراط الساعة؟، وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ والولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟[2] فقال عليه الصلاة والسلام «**أما أول أشراط الساعة، فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب؛ وأما أول طعام أهل الجنة، فزيادة كبد حوت؛ وأما الولد؛ فإن سبق ماء الرجل نزعه؛ وإن سبق ماء المرأة نزعته**» فقال: إني أشهد أنك رسول الله حقًا. ثم قال: يا رسول الله، إن اليهود قوم بهت؛ فإن علموا بإسلامى قبل أن تسألهم عني، بهتوني عندك. فجاءت اليهود، فقال لهم ﷺ: «**أي رجل عبد الله فيكم؟**» فقالوا: خيرنا وسيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا. قال: «**أرأيتم إن أسلم عبد الله؟**» قالوا: أعاذه الله من ذلك. فخرج عليهم عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا

---

(١) راجع الصحيح المسند ٢١٠؛ وفتح القدير ٢/ ٨١٤.

(٢) يميل إلى أحدهما في الشبه.

رسول الله. فقالوا: شرنا وابن شرنا. وانتقصوه، قال عبد الله: هذا ما كنت أخشى يا رسول الله[١].

ومن المعروف أن سورة الأحقاف مكية إلا ثلاث آيات منها هذه الآية «العاشرة»، فإنها مدنية، وقد وضعت في السياق الذي يناسبها من الآيات المكية.

والمعنى الذي يتناوله السياق هو تكذيب المشركين رسول الله ﷺ ورميه بالافتراء، ورد الله سبحانه عليهم افتراءهم في قوله قبل في الآية الثامنة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [سورة الأحقاف: ٨].

ففي نهاية هذه الآية يشهد الرسول ربه على صدقه، وأنهم هم الكاذبون في اتهامهم ﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ﴾. لكن لما كان هذا المنطق لا ينفع مع من ينكر أن هذا كلام الله، من أجل هذا عقب سبحانه باستدراجهم للنظر والاعتبار بشهادة شاهد من بني إسرائيل هو عبد الله بن سلام، وكان من علماء بني إسرائيل، وقد نطق بالحق عندما تيقنه، وقال على الملأ: أشهد أن محمدًا نبي الله الذي تجدونه في التوراة. ولقد طارت شهادته وما خفيت على أحد؛ فإذا كان المشركون لا يعتدون بما يجريه الله على لسان نبيه منزلاً عليه ﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ﴾ بزعمهم أن هذا ليس من عند الله، فإنهم لا يستطيعون في منطق العقل أن يرفضوا شهادة رجل من علماء اليهود بأن محمدًا هو النبي الذي يجدونه في التوراة، ولم ينطق بها إلا بعد يقين وعلامات وأسئلة لا يجيب عليها إلا نبي، وقد أجاب عنها رسول الله ﷺ، فشهد عبد الله بن سلام بما شهد، وكانت شهادته ملء الأسماع، ثم ينزل بها وحي يتلى، فلا يملك الإنكار بعد هذا إلا جاحد منكر مستكبر.

وهكذا نجد للآية المدنية بين الآيات المكية موقعًا وسياقًا هو الحديث عن شهادة صدق رسول الله ﷺ حتى نجد الآيتين معًا (المكية تليها المدنية) كالمقدمة والبرهان عليها، فالمقدمة هي صدق رسول الله ﷺ، والبرهان هو شهادة عالم من بني إسرائيل أمام عشيرته، ثم إسلامه بما يدل على صدق شهادته، وكانت دليلاً دامغًا - لكل منصف - على صدق رسول الله ﷺ.

---

(١) إرشاد العقل السليم ٥/ ٦٤ .

خامسًا: تفاعل النظم القرآني مع مقتضيات الأحداث:

من يتتبع أسباب النزول ثم ينظر في نظم الآيات التي نزلت، يجد تلاؤمًا شديدًا، وارتباطًا وثيقًا بين سبب النزول وملابساته وبين نظم الآية، وهذا أمر مطرد لا يتخلف، فما من كيفية في نظم الآية وما من خصوصية فيه إلا ولها صلة بالنزول وهذا يدل على تفاعل النظم القرآني مع مقتضيات الأحداث وحركة المجتمع الإسلامي الناشئ. خذ مثلًا قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة التوبة: ٦٠].

فقد سبق أن هذه الآية نزلت لما تطلع المنافقون إلى أن يكون لهم حق في الصدقات ﴿فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [سورة التوبة: ٥٨] ولما أراد الله سبحانه حسم أطماعهم حدد مصارف الصدقات، وانفعل النظم القرآني مع مقتضى هذا الحدث الذي كان ينذر بشق عصا الطاعة في صف المجتمع المسلم، فحصر الصدقات في أصناف معينة بطريق القصر (إنما) التي بدأ الكلام بها لتكون علامة وعنوانًا ظاهرًا على هذا الحصر ودليلًا عليه، وهي تتضمن نفي أن تكون هناك مصارف أخرى، ولا شك أن هذا قلب لرغبات المنافقين ورد لأطماعهم.

ثم إن اختيار (إنما) خاصة دون غيرها من طرق القصر؛ لأنها إذا جاءت في معنى. دلّ هذا على أنه معروف مألوف عند الجماعة وعلى هذا، فإن مجيئها هنا للإشعار بأن حصر الصدقات فيما حصرت فيه من تلك الأنواع المذكورة مما ينبغي أن يكون معلومًا لهؤلاء الطامعين الذين يتجاهلون كل معلوم؛ وهذا من تجاوب النظم القرآني للأحداث ومراعاة طبيعة المخاطبين.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة التوبة: ١٠٤].

حيث جاءت هذه الآية عقب بشارة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك بقبول توبتهم لما علم الله صدقهم، وهنا نسأل: أما كان يكفي أن يقول: ﴿ألم يعلموا أن الله يقبل التوبة﴾. . . . . يعني ما سر المجيء بضمير الفصل ههنا؟ إن ذلك مرتبط تمامًا

بملابسة دقيقة متصلة بنزول الآية؛ إذ يذكر النيسابوري في سبب نزول هذه الآية والآيتين قبلها أن المتخلفين تعلقوا برسول الله ﷺ وانتظروه حتى يعذرهم، فتوقف عليه الصلاة والسلام وعلق قبوله على قبول الله لهم وتوبته عليهم، ولم يعذرهم أو يقض في شأنهم حتى نزلت الآيات ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾ حتى قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ فدل ذلك الضمير (هو) على اختصاص الله سبحانه بقبول التوبة، فهو وحده الذي يقبل التوبة عن عباده، وكان هذا الضمير تأكيدًا على موقف الرسول ﷺ الذي علق قبوله على قبول الله سبحانه، وهذا يدل دلالة ساطعة على تفاعل النظم مع ملابسات الأحداث.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١٢١].

فقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المشركين كانوا يقولون للمسلمين: أنتم لا تأكلون مما قتل الله (يعني الميتة)، وتأكلون مما قتلتم أنتم (أي: مما ذبحتم)؛ فأنزل الله سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

ومعنى هذا أن المشركين كانوا يجادلون في التسمية عند الذبح.

والشاهد هنا أنه بدأ بالنهي دون الأمر، فلم يقل: سموا على ما تذبحون، وذلك لأن المقام مقام التشديد في تحريم ما كان عليه المشركون ويسعون إلى الإقناع بحله؛ وهو الأكل من الذبيحة من غير تسمية عليها، ومقام التحريم يناسبه النهي عن ارتكاب الشيء المحرم، وهذا من تجاوب النظم مع ملابسات الأحداث التي كانت وراء نزول الآية.

وما سبق من شواهد كان يمثل استجابة النظم لحركة الأحداث بكيفية واحدة من كيفيات النظم كالقصر بإنما أو بضمير الفصل أو المجيء بأسلوب النهي دون الأمر في التكاليف الشرعية، ولكن هناك من الشواهد ما تجد فيها تفاعل النظم مع حركة الأحداث بأكثر من طيفية من كيفيات النظم، وذلك كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [سورة الممتحنة: ١].

فقد ورد في البخاري أن هذه الآية نزلت في حاطب بن أبي بلتعة بعث برسالة

مع ظعينة إلى مشركي قريش يخبرهم ببعض أمر النبي ﷺ، وأطلع الله رسوله على هذا، فبعث ﷺ عليًا والزبير والمقداد، فاستخرجوا منها الرسالة بعد إنكار، واستدعى الرسول حاطبًا، وسأله عن هذا فقال: لا تعجل علي يا رسول الله، إني كنت ملصقًا في قريش، ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أصطنع إليهم يدًا يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفرًا ولا ارتدادًا عن ديني، فقال ﷺ: «صدق». فقال عمر: دعني أضرب عنقه. فقال عليه الصلاة والسلام **«وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم»**[1].

فبالنظر إلى ابتداء الآية نجد النداء بالذين آمنوا، ويدخل فيهم حاطب بما يدل على أن ما فعله لم ينزع منه الإيمان، وهذا ينسجم مع قبول الرسول ﷺ عذره وقوله: «صدق» والآيات لا تخالف رسول الله في تصديق حاطب، بل تتجاوب مع هذا التصديق؛ لأن مضمون كلامه أنه قصد بما فعل التودد إلى هؤلاء الكفار ليكون له عليهم يد يحمي بها ذويه في مكة دون أن يكون هذا ارتدادًا أو خروجًا عن دينه، وهو ما صدقه القرآن، لكنه يعاتب عليه ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [سورة الممتحنة: ١].

- والتعبير بإلقاء المودة في قوله سبحانه: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ يصور المودة شيئًا مجسدًا يرمى إليهم من بعيد، وقد ذهب المفسرون إلى تخريج هذا بمعنى تلقون إليهم بأسباب المودة، مع أن عدم التقدير أوقع؛ لأنه يصور المودة تلقى وترمى إليهم من بعيد، وهذا ينسجم تمامًا مع ما حدث من حاطب، فهو لم يذهب إليهم بنفسه، ولكن يلقي إليهم بالمودة، وكأنه يطرحها لهم من بعيد؛ فهذا من التصوير والنظم الذي ينسجم مع مقتضيات الحدث وتفاصيله حتى ينقله بدقة كاملة.

- ثم إنه سبحانه قال: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ بما يتلاءم مع كيفية الحدث، فلقد بعث حاطب الرسالة سرًا، وأطلع العليم الخبير رسوله عليها.

---

(١) فتح القدير ٢/ ١٠٠٢ .

وهذا التوافق والتلاؤم بين نظم الآية ومناسبتها يدل على أن آيات الممتحنة هي التي نزلت في حاطب دون غيرها، وأقصد بهذا آية المجادلة التي قد يتوهم أنها نزلت في هذه المناسبة، وهي قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ﴾ [سورة المجادلة: ٢٢].

فهذا المعنى قريب مما نزلت بصدده سورة الممتحنة، لكن نظم سورة الممتحنة ألصق بذلك السبب السالف، وأكثر توافقًا معه.

على أن آية المجادلة أعنف وأشد؛ لأن فيها تعريضًا بنفى الإيمان عمن يصانع الكفار ويوادهم، ولم تُعَرِّض بهذا آيات الممتحنة، وإن كانت تتضمن عتابًا قاسيًا في ضمن النهي عن اتخاذهم أولياء.

وقد أخرج ابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي في سننه عن عبد الله بن شوذب أن آية المجادلة نزلت في أبي عبيدة بن الجراح... تغاضى عن والده يوم بدر؛ فلما رأى من والده إصرارًا على التصدي له، قصده فقتله[١]. فلما كانت آية المجادلة فيمن لا يصانع أباه الكافر ويقتله لما رأى منه عنادًا وإصرارًا نزلت بهذا النظم القوي الذي ينفي الإيمان عمن يواد الكافرين المعاندين، ويقول فيمن لا يوادهم ولا يصانعهم ويتخذ موقفًا حاسمًا منهم مهما كانت صلة القرابة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾.

أما آية الممتحنة، فلما كانت فيمن همَّ بالمودة من بعيد، وأفسد الله عليه خطته، وكان يدفعه لهذه المودة عذر ما، ولم يخرج عن إيمانه، وكان قد شهد بدرًا ممن شهدها من المؤمنين الصادقين؛ لهذا كله اكتفى بالنهي والعتاب واللوم والتحذير من المعاودة، ثم عاد إلى تطييب الخواطر وطلب الصبر والترقب ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة الممتحنة: ٧].

(١) ينظر فتح القدير ٢/ ٩٨٥ .

مدى ارتباط النظم بملابسات النزول:

يرتبط نظم الآية بملابسات نزولها ارتباطًا وثيقًا ومن مظاهر هذا ويدل عليه أننا نجد أسرار نظم الآية يتوقف معرفتها أحيانًا على مراجعة أسباب نزولها؛ فإذا ما قرأنا سبب النزول، وجدنا أضواءً كاشفة تتجه إلى النظم فتساعد على بروز أسراره، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ﴾ [سورة يونس: ١٥].

فعن مجاهد أن هذه الآية نزلت في نفر من مشركي قريش قالوا للنبي ﷺ: ائت بقرآن فيه ترك عبادة اللات والعزّى. وقال الكلبي: نزلت في المستهزئين، قالوا: يا محمد ائت بقرآن غير هذا فيه ما نسألك[(١)].

وعندما نعاود قراءة الآية نجد قوله: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ ونشعر أننا بحاجة إلى فهم المقصود بالعطف في «أو بدله» وهل يطلبون شيئين فتكون أوعاطفة، أو يطلبون شيئًا واحدًا فتكون للإضراب؛ فإذا ما راجعنا سبب النزول، وجدنا المقصود ينكشف شيئًا فشيئًا، وقد ورد فيه روايتان، لا تعارض بينهما، والمرجح أنهما موقفان، ففي الموقف الأول الذي رواه مجاهد يطلبون قرآنًا آخر لا يتعرض لآلهتهم، وفي الموقف الثاني الذي رواه الكلبي يطلبون من رسول الله ﷺ أن يبدل ويغير فيه بحيث يوجد فيه ما يطلبونه من أشياء غريبة، ويحذف ما لا يرغبونه، وقد توافق هذا مع الآية إذ تعدد فيها المقول المنقول عنهم ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾، وبهذا يدل النزول وما ذكر فيه على أن الكفار طلبوا أمرين في مرحلتين: الأول طلبوا قرآنًا آخر لا يتعرض للات والعزّى. والثاني: طلبوا أن يبدل في هذا القرآن فيحذف منه ما لا يرغبون، ويضاف ما يحبون ويهوون.

- ثم تلقى ملابسات النزول بظلالها على فعل الأمر (﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ﴾ فتجعله مقرونًا بكثير من المعاني النفسية الباعثة على ذلك الطلب كالمساومة والاستهزاء والتخليط والتشويش والتلبيس.

---

(١) أسباب النزول ١٨٣ .

أما المساومة والاستهزاء، فيظهران مما نقل عن مجاهد والكلبي، وفيه نص على المستهزئين وإشارة إلى المساومين وهم الذين لا يرجون لقاء الله؛ وأما التخليط والتشويش، فيفهمان من الظرف الذي ورد فيه هذا الطلب؛ وهو قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ فإن طلبهم الإتيان بقرآن آخر أو التبديل والتغيير فيه ملتبس بوقت تلاوة آيات القرآن عليهم، وهي على نحو من البيان المعجز والإبانة المفحمة (بينات) بحيث يجعلهم من قلة حيلتهم وحسدهم يلجئون إلى التخليط والتشويش والتلبيس فيقولون: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾.

على أن الكناية عن هؤلاء الكفار بالذين لا يرجون لقاءنا يدل على أنهم لا فائدة منهم بعد أن غاصوا لذقونهم في أوحال الكفر، فذكرهم بالصفة الدالة على منتهى الكفر، وهذا يجعلنا نستبعد أن يكون طلبهم الإتيان بقرآن آخر على سبيل الاختبار والامتحان كما ذكره بعض المفسرين، وبهذا يتبين أن المعاني النفسية الباعثة على ذلك الطلب والتي يختصرها البلاغيون في «الغرض» كثيرة منها المساومة والاستهزاء. ومنها التلخيط والتشويش والحسد، وما كان يمكن أن نفهم كل هذه البواعث لولا الرجوع إلى ملابسات النزول وربطها بخصوصيات التعبير في السياق.

وفي قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [سورة القصص: ٥٦].

فقد ذكر النيسابوري برواية أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لعمه عند احتضاره : «**قل لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله يوم القيامة، فقال - أمام من حضر من مشركي قريش - لولا أن تعيرني نساء قريش، يقلن: إنه حمله على ذلك الجزع، لأقررت بها عينك، فأنزل الله تعالى هذه الآية**»[1].

ثم ذهب كثير من المفسرين إلى أن قوله تعالى بعدها: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [سورة القصص: ٥٧].

نزلت فيمن حضر من مشركي قريش احتضار أبي طالب، وكانوا يحرضونه على

(١) أسباب النزول ٢٣٤ .

أن يثبت على ملة الأشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف، ثم قالوا لرسول الله ﷺ: «نحن نعلم أنك على الحق، ولكن نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب بذلك أن يتخطفونا من أرضنا» يقول الزمخشري معقبًا: «فألقمهم الله الحجر بأن مكن لهم في الحرم الذي أمنه بحرمة البيت وأمن سكانه بحرمته، وكانت العرب في الجاهلية حولهم يتناحرون وهم آمنون في حرمهم لا يخافون وبحرمة البيت تجبى إليهم ثمرات كل شيء»[١].

وحاصل هذا: أن قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الآية نزلت في أبي طالب، وأن الآية بعدها ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ نزلت في المشركين ممن حضروا وفاة أبي طالب، لكن المرجح أن الآية الأولى نزلت في أبي طالب ومن حضر وفاته من المشركين، وأن الآية التالية جاءت على سبيل البيان بحكاية ما قالوه لكي يرد عليهم حجتهم، ولم يذكر أحد من المفسرين الذين قالوا: إنها نزلت في مشركي قريش سندًا من الرواية يستند عليه في القول بهذا، وإنما يعتمدون على الاجتهاد؛ لما في الآية من حكاية ما قالوه والرد عليهم، والذي أراه عدم التجزُّء، مع مراعاة ما في نظم الآية الأولى من عموم بحيث يجعلها صالحة للنزول في الجميع، يعني في أبي طالب وفي مشركي قريش. والموقف المرتبط بملابسات النزول يساعد على تخريج النظم على هذا الأساس، فقوله سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ لم يظهر المفعول في الفعل أحببت؛ فلو قلنا: إن التقدير «أحببته»، لانصرف الكلام إلى أبي طالب؛ ولو قلنا: إن هذا الفعل يتعدى بحرف جر، والتقدير: «أحببت له الهداية»، لدخل الفعل في العموم الذي يشمل مشركي قريش مع أبي طالب؛ لأن رسول الله ﷺ كان يحب الهداية للجميع، ولعل النظم القرآني آثر عدم التحديد ليتناول الاعتبارين السابقين، وتكون الآية صالحة للتحديد؛ أي: أحببته، على أن المقصود بالكلام هو أبو طالب، وصالحة للتعميم على أن المقصود الجميع ممن أحب رسول الله ﷺ لهم أن يهتدوا.

وحاصل ما سبق أنه من الضروري أن نردد النظر بين ملابسات النزول وبين النظم،

---

(١) الكشاف ٣/ ١٨٥ .

حتى نستقر على فهم المقصود من النظم من ناحية، وحتى نستفيد من النظم في الفصل عند الخلاف حول أسباب النزول من ناحية أخرى.

وهناك خيط موصول دائمًا بين أسباب نزول الآية وبين نظمها، وهذا الخيط يساعد لمن يتبعه على اكتشاف كثير من الأسرار كما سبق، ويضاف لهذا أنه يساعد على معرفة وجه الارتباط بين الغرض من الآية والغرض المحوري الذي تدور حوله السورة.

خذ مثلاً قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [سورة التوبة: ١١٣].

وملابسات النزول هنا كملابسات النزول في آية القصص ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ سوى أنه ورد في سبب نزول آية التوبة في رواية سعيد بن المسيب[١] أن الرسول ﷺ قال: **«لأستغفرن لك ما لم أنه عنه»**.

وهذه الجملة هى التي ترتبط بالآية وتبين سبب النزول، وفي الآية عتاب خفيف يغلب عليه الرفق كما يظهر من تجنب الخطاب، فلم يقل: ما كان لك يا محمد على أن قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ يشير إلى العنصر الأساسي الدافع للعتاب، وهو مسئولية النبي الذي هو أسوة وقدوة ولهذا عطف عليه الذين آمنوا، وأبان عن سبب منع الاستغفار في ﴿يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾.

وفي الآية ما يشير إلى أن الموالاة في الدين هى الأساس، وأن العاطفة الدينية ينبغي أن تغلب أي عاطفة أخرى، وذلك من قوله: ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾[٢]

---

(١) أسباب النزول ١٨٣ .

(٢) وجدت في معايشتي لهذه الآية وسبب نزولها إجابة على تساؤلات كانت في نفسي حول موت أبي طالب على الكفر، فلقد تبين أن هذا قضاء عادل؛ لأن أبا طالب لم يمنعه من الإيمان سوى كبر وعصبية، فما كان يمنعه من الإيمان شك في صدق ابن أخيه، لأنه كان واثقاً من صدقه وإنما منعه من الإيمان شيء حاك في صدره أن يقال جزع من الموت، أو أن يقال تابع لابن أخيه، ولم يكن هذا بغائب عن فطنة رسول الله ﷺ، ولهذا فإنه عندما طلب من عمه كلمة تفديه وتنجيه، قال له: قل معي لا إله إلا الله فلم يطلب منه ما يطلب=

وبعد ما ثبت يقينًا ظاهرًا للجميع مصيرهم ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ فالغرض الأساسي الذي يتعلق بنزول هذه الآية هو تقديم الولاء لهذا الدين على أي ولاء آخر مهما كانت القربى، وهذا يتسق مع الغرض المحوري لسورة التوبة، وهو التشديد على منع موالاة الكفار والمنافقين واتخاذ الدين أساسًا لأي ولاء، فهذا المعنى ينتشر في هذه السورة حتى صار محورًا ينجذب إليه ويدور حوله الأغراض والمعاني الأخرى.

مواقع الكلمات في النظم:

إذا كانت ملابسات النزول تلقي بأضوائها الكاشفة على أسرار النظم كما سبق، فإنها في الوقت ذاته تساعد على تحديد موقع الكلمة في النظم، وهذه خطوة مهمة لتحديد وظيفتها وتحديد المقصود، ولا سيما في الكلمات التي يحتمل موقعها وجوهًا متعددة، من ذلك قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٢-١٧٤].

أخرج الطبراني عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما انصرف أبو سفيان والمشركون عن أحد وبلغوا الروحاء، قالوا: لا محمدًا قتلتم ولا الكواعب أردفتم، شرٌّ ما صنعتم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ وفهم أنه توعد بقتال آخر، فندب الناس فانتدبوا حتى بلغوا حمراء الأسد أو بئر أبي عيينة، فأنزل الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُ﴾ [آل عمران: ١٧٢]، وقد كان أبو سفيان قال للنبي ﷺ: موعدك موسم بدر حيث قتلتم أصحابنا؛ فأما الجبان فرجع؛ وأما الشجاع فأخذ أهبة القتال والتجارة، فأتوه فلم يجدوا به أحدًا، وتسوقوا فأنزل

= من سائر الناس أن يقول محمد رسول الله للسبب السالف الذي كان يفطن إليه رسول الله، ثم إنه يطلب منه أن يقول معه «قل معي»، وقد استغل المشركون الذين حضروا وفاته ما يعرفونه من عصبية فيه حتى كان آخر كلمة قالها: على ملة عبد المطلب، من أجل هذا كان قدر العليم الخبير عادلًا عندما قدر لأبي طالب أن يموت على الكفر (والله أعلم).

الله عز وجل: ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ الآية.

وقد ذكر المفسرون عدة احتمالات لموقع ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾ إعرابيًا وذلك توسُّلاً إلى بيان المراد، فقالوا: صفة للمؤمنين أو بدل منهم(١) أو بدل من الذين لم يلحقوا بهم، أو مبتدأ خبره ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾. لكن يبدو - والله أعلم - أن وقوع ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾ صفة أو بدلاً من (المؤمنين) الذين قُتلوا في سبيل الله بعيد؛ لأن الآية تتحدث عن أناس لم يُقتلوا ولم يُلحقوا بمن قتلوا، ولكن دعاهم رسول الله ﷺ من بعد ما أصابهم القرح في «أُحد»، وعندما بلغه استفزاز أبي سفيان؛ إذ هددهم بالاستئصال فلم يضعفوا ولم يجبنوا وخرجوا، فجبن أبو سفيان واكتفى بما حققه في «أُحد» كما يدل سبب النزول.

وعلى هذا يتعين أن يكون ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾ استئناف كلام جديد، والمرجح أنه مبتدأ خبره ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾. وهناك وجه آخر يربط بين الموقع الإعرابي وبين الغرض الذي سيق له هذا الكلام ربطًا حسنًا، فيقول: «إنه منصوب على المدح»(٢)؛ أي: على تقدير فعل من نوع المدح والثناء على هؤلاء الذين لم يفت في عضدهم ما وقع بهم في «أُحد»، ولم يتأخروا عن نداء رسول الله ﷺ لهم بالسير إلى حمراء الأسد التي توعد أبو سفيان باستئصال المسلمين فيها، ومضت هذه الجماعة المباركة يتقدمهم رسول الله ﷺ فلم يجدوا أبا سفيان، فانقلبوا بنعمة من الله (عافية) وفضل؛ أي: ربح من تجارة مارسوها في ذلك المكان الذي كان من أسواق العرب، وقد كافأهم الله سبحانه لاتباعهم ما يرضيه عندما لبوا دعوة نبيهم من بعد ما أصابهم القرح (أي: الجرح الجسدي والنفسي)، ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

لقد كان أبو سفيان يشن حربًا معنوية مستغلاً ما يظنه من ضعف المسلمين نفسيًا بعد موقعة «أُحد»، فقد أخرج ابن جرير عن السدي أن أبا سفيان وأصحابه لقوا أعرابيًا فجعلوا له جعلاً على أن يخبر النبي ﷺ وأصحابه أنهم قد جمعوا لهم

---

(١) هم الذين قُتلوا في سبيل الله كما تدل الآية السابقة (﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ . حتى يصل إلى قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

(٢) راجع فتح القدير للشوكاني ١/ ٣٩٢ .

واحتشدوا لاستئصالهم، فقال الرسول والصحابة: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ فكافأهم الله سبحانه بالعودة سالمين ورابحين من التجارة.

وأخلص من هذا إلى أن نظم الآية ينسجم مع سبب النزول ويتآزران في تحديد الموقع الإعرابي وصولاً إلى تحديد الغرض من الكلام.

مزايا النظم مرتبطة بمعاني النحو:

وهذه الفكرة هي عين ما سبق ولكني آثرت أن أنبه إلى أصلها عند عبد القاهر الذي كان يرى أن كل مزية من مزايا النظم مرتبطة بمعنى من معاني النحو، ويؤكد هذا ويوضحه قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [سورة الأنفال: ٩].

فقد جاء في صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن عدد المشركين يوم بدر ألف، وعدد المسلمين ثلاثمائة وسبعة عشر رجلاً، وأن النبي ﷺ لما رأى ذلك استقبل القبلة، ثم مد يده فجعل يهتف بربه مستغيثًا: «**اللهم، أنجز لي ما وعدتني. اللهم، إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام؛ فلا تعبد في الأرض أبدًا**» وأنزل الله الآية(١).

وقد أسند الاستغاثة لضمير الجمع مع أن المستغيث هو رسول الله ﷺ لأن الرسول كان يستغيث بلسان المقال، وسائر المسلمين يستغيثون بلسان الحال، ومنهم من سمع استغاثة رسول الله كعمر بن الخطاب حتى رواها.

والشاهد هنا أن المفسرين ذكروا وجوهًا في موقع هذه الآية مما قبلها، فقالوا: الظرف (إذ) متعلق بمحذوف؛ أي: اذكروا وقت استغاثتكم، وقيل بدل من ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [سورة الأنفال: ٧] معمول لعامله، وقيل متعلق بقوله: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾.

فتعدد هذه الأقوال يعكس اختلاف الوجهات في موقع جملة الظرف ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ﴾ وبأي معنى يتعلق، وإنما ينبغي أن يرتبط موقع الكلمة أو الجملة نحويًا على أساس الأنسب للمعنى والذي يحقق مزية في النظم، فالقول أن جملة ﴿إِذْ

---

(١) الصحيح المسند .

﴿تَسْتَغِيثُونَ﴾ بدل من قوله قبله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّآئِفَتَيْنِ﴾ مستبعد، وذلك لأن وعد الله المؤمنين بإحدى الطائفتين - العير أو النفير - وميل المسلمين للعير كان في البداية وفي مرحلة التمهيد للمعركة، لكن الاستغاثة كانت بعد أن تحددت المواقف واتخذ المسلمون بقيادة رسولهم قرار الحرب والجهاد، فالحدثان مختلفان في ظرفين مختلفين، وعلى هذا لا يصح الإبدال لعدم تحقق شرطه، وهو أن يكون البدل عين المبدل منه، ويبقى أن تكون هذه الجملة ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ﴾ متعلقة بما قبلها؛ أي: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ وقت استغاثتكم بربكم، أو أن تكون جملة مستأنفة على تقدير: اذكروا إذ تستغيثون ربكم.

وهو الأولى للمعنى والنظم؛ لأنه يشعر بتعدد نعم الله سبحانه وفضله عليهم، بخلاف ما لو كان المعنى تابعًا لغيره غير مستقل بنفسه، فإنه يدخل في نعمة أخرى هي قوله: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [سورة الأنفال: ٨].

ولا شك أن كل ما يؤدي إلى الإشعار بتعدد النعم وما يستلزمه من تكرار الشكر والحمد فهو الأولى في مقام التذكير بفضل الله ونعمه عليهم، حتى لا يكون الشغل الشاغل لهم هو الأنفال والغنائم.

وبهذا فإن السياق والنظم وملابسات النزول تساعد على تحديد الموقع الإعرابى لارتباطه بالمزية، فكل مزية من مزايا النظم مرتبطة بمعنى من معاني النحو.

سادسًا: حدود السياق ودوره في تفعيل المعاني:

الآية من القرآن قد تنزل لسبب من الأسباب، لكنها بتوقيف من الله، توضع في المكان الملائم لها من سورتها بحيث تصبح جزءًا من نسيج هذه السورة، فيصبح ارتباطها بسورتها معادلاً لارتباطها بسبب نزولها، وقد يزيد؛ لأن سبب النزول خاص محدد، والآية عندما توضع في ترتيب معين من السورة وتصبح جزءًا يتفاعل مع سائر أجزاء تلك السورة، فإن عطاءها يزيد أضعاف ما كانت عليه عندما كانت منعزلة وقت نزولها، ولعل هذا هو السبب في أن ترتيب القرآن لم يكن بحسب النزول؛ لأنه لو بقي هكذا، لكانت كل آية مرتبطة في دلالتها وعطائها بسبب نزولها لا تتجاوزه ولا تزيد عليه، بخلاف ما صارت إليه في ترتيب المصحف الحالي الذي يجعل لكل آية سياقًا يكسبها أضعاف ما كانت عليه من دلالة وهي وحدها.

خذ مثلاً قول الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١١٤-١١٥].

أورد النيسابوري في سبب نزول هذه الآية ست روايات أقربها ما رواه ابن مسعود «أن رجلاً أصاب من امرأة قُبلة، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له» فأنزل الله تعالى هذه الآية، فقال الرجل: ألي خاصة؟ فقال ﷺ: «**لمن عمل بها من أمتي**»[1].

وقد اجتهد العلماء في البحث عن وجوه من المعنى تجعل الآية شاملة للصلوات الخمس، فيكون المقصود الصلوات المفروضة، وهي مع كونها عبادة وأساسًا من أسس هذا الدين، يقيمها المسلم فيبرئ بها ساحته، ويؤدي فرضًا من فروض الله عليه، ويحقق ركنًا من أركان الإسلام، فإنها مع هذا من مكفرات الذنوب كما يدل سبب النزول، وكما تدل عليه أحاديث أخرى، وبهذا يتبين أن ليس المقصود بيان وسيلة من وسائل تكفير الذنوب حسب؛ إذ لو كان المقصود هذا فقط لأمر بالصلاة عمومًا دون ما نراه من تفصيل وتحديد للأوقات ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ﴾ وكأنه يتحول من الفائدة المتعلقة بسبب نزول الآية إلى فائدة أخرى تتعلق بتشريع الصلاة وتحديد أوقاتها، مع التنبيه إلى الفائدة الأولى التي نزلت بسببها الآية في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾.

على أنه صاغ هذه الجملة صياغة توسع من تلك الفائدة، فلم يقل: إن الصلوات في أوقاتها تكفر الذنوب، أو إن الصلاة تمحو السيئات، وذلك للإشارة إلى أن الصلاة مع كونها فرضًا يؤديه المسلم ويبرئ به ساحته، فإن في أدائها حسنات تكفر الذنوب؛ فإن لم يكن هناك ذنب، أضيفت إلى رصيده من الحسنات، وأمر آخر هو شمول الحكم كل الفروض والعبادات، فكل حسنة يكسبها المسلم تُذهب سيئة، سواء كانت تلك الحسنات من صلاة أم من زكاة أم من حج أم من صوم أم من أي باب آخر من أبواب الخير، فمع أن الحديث عن الصلاة أساس إلا أنه عمم التعليل ليتضمن كل أبواب الخير حتى تأخذ حكم الصلاة في تكفير

---

(١) أسباب النزول ١٨٥ .

الذنوب؛ لهذا يفسر البقاعي الحسنات بالطاعات كلها؛ الصلاة وغيرها، ويفسرها أبو السعود مثل ذلك مع إشارته إلى التنويه بالصلاة لأنها عمدة الحسنات.

ومع كل هذا فإن هذه الآية تضاعف من عطائها عند ارتباطها بالسياق العام للسورة أو بالسياق الخاص بها في حدود الآيات المتجاورة، فهي ترتبط ارتباطًا وشيجًا بمعنى يتردد كثيرًا في أنحاء سورة هود، تجده في صدر السورة وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [سورة هود: ٣] وفي قوله سبحانه في قصة هود مع قومه: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [سورة هود: ٥٢]، ثم في وصف الله سبحانه إبراهيم وشعيبًا عليهما السلام بالإنابة التي تستلزم التوبة والاستغفار، حيث قال سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [سورة هود: ٧٥]، وقوله على لسان شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [سورة هود: ٨٨].

ثم إنه سبحانه قال قبيل نهاية السورة: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾، وقال بعده بقليل كاشفًا عن أهم وسائل الاستقامة والتوبة: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [سورة هود: ١١٤].

وهكذا ترتبط هذه الآية التي نزلت في معنى خاص هو كيفية تكفير الذنب بالمعنى ذاته يتردد في كثير من مواضع سورة هود.

ومع هذا فإن تلك الآية قد صيغت بالطريقة التي جعلت المعنى يتسع ليدخل في طلب الإقامة في أوقات محددة ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ ويتدخل السياق من جهة أخرى ليدل على كون الصلاة مع الصبر من أهم وسائل تحقيق الاستقامة على منهج الله؛ إذ قال سبحانه قبلها:

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [سورة هود: ١١٢] ثم قال:

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ﴾ [سورة هود: ١١٤] ثم قال:

﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة هود: ١١٥].

فدل هذا بوضوح على أن الصلاة والصبر من أهم وسائل تحقيق الاستقامة على منهج الله، وهنا نتذكر قوله سبحانه: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [سورة البقرة: ٤٥].

وبهذا يتضح أن ربط الآية بسياقها يعطي مفهومًا أشمل وأكثر مما لو قصرنا

فهمها على سبب نزولها، وهذا ينبهنا إلى أنه لا ينبغي عند تفسير الآية أن نحبسها في دائرة السبب الذي نزلت فيه، بل ينبغي أن نبحث عن معطيات سياقها وما أشعه عليها من أضواء المقام الذي انسكبت فيه.

حدود السياق:

مع أن للسورة القرآنية عدة سياقات وأغراض، فإنا لا نستطيع وضع حدود لكل سياق، لأن السياق كالموجة التي تمتد وتترادف حتى يلتقي بسياق آخر فيتعانقان، وقد تكون السورة سياقًا واحدًا وغرضًا واحدًا، وإنما تنتهي حدود السياق عند منتهى رؤيتنا نحن، فقد نرى السياق محدودًا بعدة آيات تتضمن معنى معينًا، كقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [سورة الكهف: ٢٨].

فهذه الآية نزلت عندما أقبل وجهاء المؤلفة قلوبهم كعيينة بن حصن والأقرع بن حابس إلى رسول الله ﷺ يطلبون منه تنحية فقراء المسلمين عن مجلسه عليه الصلاة والسلام فنزلت الآية(١).

والمناسبة بين هذه الآية وسياقها ظاهر، فقبلها قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [سورة الكهف: ٢٧] ولقد كان المشركون لا يكفون من محاولاتهم إثناء رسول الله ﷺ عن منهجه ودعوته والقرآن الذي نزل عليه، فتارة يطلبون التخلي عن القرآن أو تبديله، وتارة أخرى يطلبون التخلي عن مصاحبة الذين يدعون ربهم بالغداوة والعشي يريدون وجهه كي يجالس هؤلاء الذين غفلت قلوبهم عن ذكر الله؛ لهذا قال: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ وبعده: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ حتى قوله سبحانه: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [سورة الكهف: ٢٨].

واللافت هنا أن الله سبحانه أمر نبيه ثم نهاه في آية واحدة، ولا يكون الأسلوب كذلك إلا لأمر عظيم، لا سيما وأن هذا في سياق قوله سبحانه يخاطب رسوله ﷺ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾.

(١) انظر أسباب النزول ٢٠٦ .

والمناسبة فيما سبق كانت ظاهرة بين معنى الآية الملتصق بسبب نزولها وبين سياقها، بيد أنك كثيرًا ما تجد السياق يدعم استنباط معنى آخر تقبله الآية إلى جانب المعنى الذي نزلت فيه، كقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [سورة الإسراء: ٨٥].

فهناك ما يشبه الإجماع من المفسرين على تفسير الروح في ضوء ما ورد في سبب النزول، وهو سؤال اليهود رسول الله ﷺ عن الروح على سبيل الاختبار، ولم يجب الرسول عليه الصلاة والسلام انتظارًا للوحي حتى نزلت الآية، وقالوا على أساس هذا: إن الروح هي جوهر الحياة المحرك للأبدان، لكن بعض المفسرين كالرازي ذهب إلى أن الروح هي القرآن، كما قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ ويدعم السياق هذا المعنى، فقبل الآية التي معنا ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ وحتى يحدث التناسب بين مجموع تلك الآيات، فإن الأرجح تفسير الروح بالقرآن[١].

وهذا اتجاه سديد في استنباط المقصود؛ لأنه لا يحبس الآية في السبب الذي نزلت فيه، وإن كنت أرى أن الأصوب هو ترك الآية تعطي المعنيين: **الأول**: هو الذي تدل مناسبة النزول عليه، وهو جوهر الحياة. **والثاني**: هو المعنى الذي يدل السياق عليه ويتناسب معه، وهو القرآن، ولقد كان السؤال عن القرآن قائمًا من أي جنس من أجناس الكلام هو؛ فكانت الإجابة أنه ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾؛ أي: وحي الله وتنزيله بأمره جبريل كي يتنزل به، وليس هناك ما يمنع قبول الدلالتين اللتين لا تعارض بينهما.

وما سبق رأينا فيه للسياق حدودًا قريبة، لكنا قد لا نرى للسياق حدودًا قريبة؛ لأنه يتغلغل في أرجاء السورة حتى ترى معنى الآية أو روح معناها يطل بين موجة وأخرى من موجات السورة كلها.

(١) ينظر التفسير الكبير بتصرف يسير ٢١/٣٩ .

بل قد تتجاوز موجات المعنى السورة إلى سورة مجاورة، وهو ما لاحظه بعض المفسرين كالبقاعي الذي كان شموليًا في نظرته للسياقات والمناسبات.

خذ مثلاً قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [سورة مريم: ٦٤].

فقد ورد في سبب نزول هذه الآية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا جبريل، ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟**» فنزلت الآية.

وقال عكرمة والضحاك والكلبي: احتبس جبريل عليه السلام بالوحي فترة من الزمن، فشق ذلك على رسول الله ﷺ فلما نزل جبريل بعد ذلك، قال له: «**أبطأت حتى ساء ظني**»، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾.

ولا تبدو مناسبة ظاهرة بين هذه الآية وبين ما قبلها[1] إذا روعي سبب النزول الذي يوجه المعنى توجيهًا خاصًا هو حكاية قول جبريل عليه السلام حين استبطأه رسول الله ﷺ لهذا لجأ بعض المفسرين إلى تحميل الآية معنى آخر يتناسب مع ما قبله، يقول أبو السعود: «وقيل أول الآية حكاية قول المتقين حين يدخلون الجنة مخاطبًا بعضهم بعضًا بطريق الابتهاج: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ وقوله في نهايتها: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ تقرير لقولهم من جهة الله تعالى؛ أي: وما كان ناسيًا أعمال العاملين وما وعدهم به»[2].

ولا يخفى ما في هذا التأويل من بعد عن المراد الذي تفيده الآية عند ربطها بسبب نزولها.

وقد نقل الألوسي أقوالاً أخرى في محاولة ربط هذه الآية بسياقها مع الاحتفاظ بهذا المعنى المفاد من سبب النزول، ومن هذه الأقوال:

- أن الواو في صدر الآية تعطف قصة على قصة.
- أنه من عطف التسرية والتسلية على التثبيت السابق في ذكر قصص السابقين، وهذا قريب من الأول.

---

(١) وهو قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [سورة مريم: ٦٣].

(٢) إرشاد العقل السليم ٣/٢٨٨.

- أن في الآية تخلصًا من نوع خاص يعتمد على تقدير اسم الإشارة؛ أي: هذا وقال جبريل: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾.

- وقيل إن الآية متصلة بقول جبريل في بدايات السورة ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ وعقب عليه الألوسي بأنه قول نازل عن درجة القبول جدًا.

- ويرى البقاعي أن الآية ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ معطوفة على أول الكهف ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ونهاية الإسراء ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ﴾، وذلك لما يراه من اتساع السياق ليتناول الكهف ومريم وجزءًا من سورة الإسراء؛ حيث ورد في الكهف والإسراء معًا جوابًا عن السؤال عن الروح وأصحاب الكهف وذي القرنين بعد تأخر الوحي، فنزل في مريم ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾، وهو قول يصعب على البسطاء إدراكه، لكنه على كل حال وجه من وجوه ربط الآية بسياق مناسب لمعناه.

وإنما تعددت الأقوال لعدم ظهور صلة بين الآية وسياقها القريب مما دعا هؤلاء العلماء إلى تتبع موجات المعاني في حدود سورة مريم، أو ما جاورها من السور كالكهف والإسراء، وإن كنت أرى الاجتهاد في ربط الآية بسياق سورتها حسب؛ لأن لكل سورة مقامًا خاصًا وروحًا خاصة.

ويبدو - والله أعلم - أن رب العزة سبحانه لما افتتح سورة مريم بتلك الحروف (كهيعص)، وأشار إلى أنها من جنس الذكر ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ وعطف على هذا قصة مريم ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾، ثم عطف عليها قصة إبراهيم ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ﴾، ثم ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ﴾، ثم ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ﴾، لهذا كان من المناسب أن يذكر بعده ما يدل على أن كل هذا يتنزل وقتًا بعد وقت، فلم ينزل دفعة واحدة، فمن المناسب لهذا قوله بعده: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾؛ لأن ما سبق من تردد قوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ لم ينزل دفعة واحدة، ولكن كانت تنزل القصة في وقت، ثم تنزل القصة الثانية في وقت تالٍ دون تعقيب بينهما، ويؤيد هذا صيغة الفعل (نتنزل) مضارع (نزّل)، والتنزل هو النزول على مهل بحيث يستغرق التنزل وقتًا أطول. ثم إننا ينبغي أن نضع في اعتبارنا أن الآية وإن نزلت لسبب خاص هو رد جبريل على استبطاء رسول الله ﷺ فإنها في الوقت ذاته تتناسب مع ما سبق من ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾،

و﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾ إلخ. مع مراعاة أن كل هذا لم ينزل دفعة واحدة، فلا ينبغي أن نضيق النظر فنبحث عن مناسبة مجاورة وملاصقة للآية؛ لأن السورة كلها مقام واحد.

وهذا الرأي يتبلور في قولهم قديمًا: عطف قصة على قصة، فلقد كانوا يقصدون عطف معنى إجمالي على معنى إجمالي آخر، أو عطف غرض على غرض، مع مراعاة أن الغرض قد يتناول آيات طويلة لا آية واحدة.

ومما ترى فيه معنى الآية يمتد مع موجات السياق المتسع للسورة كلها قول الله تعالى: ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾ [سورة الرعد: ١٣].

فقد ذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت في عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أخي لبيد بن ربيعة أتيا النبي ﷺ يخاصمانه ويجادلانه ويريدان الفتك به، وهما[١] يسألان: أخبرنا عن ربنا أمن نحاس هو أم من حديد؟ ثم إنه لما رجع أربد أرسلت عليه صاعقة فأحرقته، ورمي عامر بغدة كغدة البعير، ومات في بيت سلولية»[٢].

ومن يتأمل سورة الرعد من بدايتها يجد انفعال المعاني فيها بذلك الموقف الخاص بحيث يتسع السياق المتناسب مع الآية ليشمل السورة كلها؛ ولذلك يغلب عليها جو التحدي والإنذار والتذكير بآيات الله الدالة على عظمته وقدرته في هذا الكون الواسع، والحث القوي على توظيف نعمة البصر في تأمل مشاهد القدرة في السماء وما فيها من كواكب، والأرض وما فيها من جبال وأنهار وزروع متعددة الأشكال والألوان، وذلك للوصول مما يشاهدون إلى الإيمان بما لم يشاهدوه إن كان لديهم عقل، تجد هذا ابتداء وهو يستنفر حاسة البصر في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾؛ أي: يتجدد رؤيتكم لها كلما طلع نهار، وحين لا ينظرون ولا يتأملون فإنه سبحانه يريهم رغمًا عنهم البرق ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ وتقديم الخوف على الطمع يناسب مقام التحدي.

---

(١) التفسير الكبير ١٩/٢٧، وانظر الصحيح المسند ١٣٧ .

(٢) راجع الصحيح المسند من أسباب النزول ١٣٨ .

ثم ينبه إلى تطرف هؤلاء في عنادهم ورفضهم؛ لأن الكون كله في تسبيح من خيفته، وهنا يبلغ التحدي منتهاه في الآية التي تعد محور ذلك التحدي والتهديد ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾.

وقد ورد في سبب النزول أن أربد بن ربيعة أرسلت عليه صاعقة، لكنه في الآية يذكر (الصواعق) بالجمع؛ لتخطي ذلك السبب إلى تحقيق الهدف من وضع هذه الآية في ذلك السياق الذي يغلب عليه التحدي والتخويف لمن هم جديرون بهذا، وحتى يظل هذا الإنذار قائمًا.

على أن تعميم الانتقام وعدم تقييده بذلك الشخص الذي أصابته الصاعقة في قوله ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ ينسجم مع منهج القرآن في الاهتمام بالأغراض لا بالأشخاص، وحتى يظل التهديد قائمًا حتى قيام الساعة.

ولعل قوله: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ هو القرينة التي جعلت الرواة والعلماء يربطون بين هذه الآية وبين قصة الجدال الذي وقع من عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة، فيجعلون هذا سببًا في نزول الآية، وإن كان البعض قد تحفظ وضعف أن يكون هذا سببًا[1]، والعبرة بعموم اللفظ على كل حال، وإن كنت أستشعر في صياغة هذه الجملة ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ دليلاً على صحة الرواية عن أنس بن مالك، والتي ذكرت أن الآية نزلت في عظيم من عظماء الجاهلية أصابته صاعقة بسبب جداله في الله، كما تصدق على مواقف مشابهة، ذلك ما يلحظ بداية من الواو في ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ﴾ وبالنظر إلى ما قبلها وما بعدها يلوح ما فيها من تشهير وتعجيب من غفلة وخيبة ما هم فيه، وقد ساعد على تقرير هذا المعنى وتأكيده تقديم الضمير الخاص بهؤلاء الغافلين (وهم)؛ لأنه يلفت الأنظار إلى ما هم عليه من عبث، فبينما الكون كله في تسبيح وتحميد وإجلال وتعظيم للخالق سبحانه؛ إذ بهؤلاء في جدال وتشكيك؛ ولذلك كان من المناسب المعاودة للتهديد والتحذير في جملة وقعت موقع الحال (وهو شديد المحال) بمعنى شديد الأخذ والهلاك؛ لأنه من محل محلًا ومحالاً بمعنى: جف ماؤه وزرعه، وفي ذلك إشارة إلى الهلاك بالعطش والجوع.

---

(١) راجع الصحيح المسند ١٣٨ .

ووقوع هذه الجملة حالاً مما قبلها ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾ يشير إلى خيبة وغفلة وخسران؛ لأنهم يجادلون في وجود المنتقم.

استنطاق اللغة والسياق لاستنباط المقصود:

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة الأنفال: ٦٧].

نزلت الآية في أسارى بدر، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: استشار رسول الله ﷺ في أسارى بدر أبا بكر، فقال: قومك وعشيرتك فخل سبيلهم، فاستشار عمر، فقال: اقتلهم، ففداهم رسول الله. وفي رواية ابن مسعود قال ﷺ: «**لا ينفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق**» فنزلت الآية[١].

وهناك ما يشبه الإجماع على أن الإثخان في الأرض بمعنى القتل.

والمفهوم الحقيقي للإثخان من أثخن في الأمر: بالغ فيه، وأثخن الجرح: إذا أثقله وجعله بحيث لا حراك به، وأصل الثخانة الغلظ والكثافة، والإثخان التمكن والقوة، وجملة هذه الاستعمالات تدل على أن إثخان العدو يعني السيطرة عليه والتمكن منه عن طريق تعجيزه وسلب قوته بكثرة الجراح؛ أما القتل فليس معنى لغويًا حقيقيًا للإثخان، ولكنه معنى مجازي من تسمية الشيء باسم سببه، وعلى هذا يكون المفسرون قد فسروا الإثخان بالمعنى المجازي له وهو القتل، ولا أجدني أميل إلى هذا، وليس العتاب دليلاً على أن المراد بالإثخان هو القتل، كما لا يدل عليه قوله: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ لأن هذا لوم على مجرد اختيار الفداء والمال، ولا يستلزم هذا أن يكون البديل الذي تركوه هو القتل، ومع التسليم جدلاً بأن القتل هو المراد فيكون المعنى: ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يقتل في الأرض.

فما معنى يقتل في الأرض، فالجار والمجرور ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لا يساعد على أن المراد هو القتل، ولو أن الله سبحانه أراد لهم القتل لقتلوا، فالعتاب ليس من أجل ترك القتل. ثم إننا - وهذا هو المهم- لو عدنا إلى معنى الإثخان في سورة

(١) راجع الصحيح المسند ١١٧ .

(محمد) حيث يقول سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ﴾ [سورة محمد: ٤].

فإن ترتيب شد الوثاق على الإثخان يؤدي إلى استبعاد القتل؛ إذ كيف يشد وثاق ميت، فالمعنى حتى إذا اثخنتموهم جراحًا وسيطرتم عليهم فشدوا الوثاق، ثم انظروا في أمرهم بالمن أو الفداء، فمعنى الإثخان هنا هو المبالغة في ضربهم وإذلالهم حتى تنكسر شوكتهم، وهذا فحوى كلام أبي السعود(١).

ولا شك أن هذا يدعم المعنى الذي أميل إليه للإثخان في سورة الأنفال، فيكون المعنى: ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخنهم بالجراح؛ ليعجزهم ويكسر شوكتهم، ويكونوا تحت سيطرة المسلمين لاتخاذ القرار فيهم بعد ذلك، فيصيرون كالأسرى حتى تضع الحرب أوزارها، حتى لا يتحولوا مرة أخرى لقتال المسلمين، وحتى لو فصلوا في أمرهم بعد تعجيزهم وإثخانهم بالجراح وذلك بالفداء أو المن، فإنهم لن يصلحوا بعد ذلك لقتال.

ثم إن من هؤلاء من أسلم بعد ذلك كالعباس بن عبد المطلب، فكيف يعاتب الله سبحانه على عدم قتل من أسلم بعد ذلك. والله أعلم.

ومن هنا يتبين أهمية استنطاق الدلالة اللغوية ومراجعة السياقات الأخرى عند الالتباس.

سابعًا: عدم الالتزام بترتيب الأحداث:

يلاحظ من تتبع أسباب النزول وآياته أن القرآن الكريم لا يعنيه السرد التاريخي الملتزم بذكر كل الأحداث كما لا يعنيه ترتيب تلك الأحداث ترتيبًا زمنيًا، وذلك لأن القرآن في الأساس كتاب دعوة وتشريع وإصلاح للدنيا والآخرة؛ ولهذا فقد يكتفى من الحدث الكامل بلقطة واحدة منه، وقد تأتي في سياق حدث آخر يستدعيها لتأكيد معنى مهم فيه، ومثال هذا قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [سورة التوبة: ٤٠].

---

(١) إرشاد العقل السليم ٥/ ٧٢ .

فهذه هي الآية الوحيدة التي تسجل لحظة لجوء رسول الله ﷺ إلى غار حراء للاحتماء فيه من أعين المطاردين في أثناء الهجرة، ومع هذا فقد وردت في قلب الحديث عن غزوة تبوك التي جاءت بعد الهجرة بعشر سنوات تقريبًا.

وقد سبقها توبيخ عنيف وإنكار حاد لنفر من المؤمنين تثاقلوا عن الخروج لتلك الغزوة التي فرضت على المسلمين في زمن الحر وقلة الزاد بعد سماع الرسول ﷺ باستعداد الروم للهجوم، فنزل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ﴾ [سورة التوبة: ٣٨- ٣٩].

فإن مجيء آية الهجرة عقب الآيتين السالفتين وفي قلب الحديث عن غزوة تبوك أو العسرة كما سميت لمزيد توبيخ لهؤلاء المتثاقلين، وإشارة لهم إلى أنهم إن تثاقلوا وتخاذلوا وتخلوا عن رسول الله، فإن الله ينصره كما نصره وقت أن كان بمفرده مع صاحبه في أضيق مكان مطاردًا مطلوبًا للهلاك، وهو موقف تطير له القلوب، لكن رسول الله ﷺ لم يشك لحظة في معية الله ونصره ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ﴾ وتصدير تلك الآية بالجملة الشرطية التي يخاطب بها هؤلاء المتخاذلين في قوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ هو الذي جعل للآية مساقًا واتساقًا في قلب الحديث عن غزوة تبوك.

وحاصل هذا أن القرآن الكريم لا يلتزم السرد التاريخي المرتب للأحداث؛ لأن ذلك لا يعنيه بقدر ما يعنيه تحقيق الغرض الديني والنفسي، حتى لو أدى هذا إلى ذكر حدث في قلب حدث آخر جاء بعده بعشر سنوات على سبيل التذكير والتنبيه كما تبين.

ومن الشواهد الدالة على أن القرآن الكريم لا يعنيه الالتزام بترتيب الأحداث كما يعنيه تحقيق العبرة والتذكير أو التبشير- سورة الفتح التي تدور حول ملابسات صلح الحديبية، وبيان أنه فتح كبير وخير للمسلمين في حقيقته وإن بدا لبعض المسلمين أنه تنازل من الرسول ﷺ[1] لهذا فإن هذه السورة تستفتح بالبشارة المجملة التي

(١) كانت البداية برؤيا رسول الله ﷺ أنه دخل وأصحابه المسجد الحرام، فخرج مع أربعمائة=

جاءت تفاصيلها في أثناء السورة ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ والمهم أن الثمرات المباركة لهذا الصلح لم تظهر إلا بعد الصلح بفترة زمنية ليست كبيرة أقل من عامين، لكن السورة بدأت بالفتح وهو نهاية الأحداث وثمراتها.

وأنهى السورة بالرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ وكانت هي البداية قبل الصلح وقبل الفتح، ومعنى هذا أن السورة بدأت بنهاية الأحداث وأنهتها بالبداية، وبين هذا وذاك أحداث لم يراع فيها ترتيب كبيعة الرضوان التي كانت تحت الشجرة، وفتح خيبر، وموقف المنافقين قبله وبعده وفي أثنائه، وملابسات الحديبية، والمناوشات بين الفريقين والتي تدخلت الأقدار بكف أيدي هؤلاء وهؤلاء، فلم يلتزم في كل هذا ترتيبًا ولا أسماء؛ لأن القرآن ليس وثيقة تاريخية، ولكنه كتاب دعوة وتشريع وعبرة وعظة، وإنما يأتي الحدث لتحقيق الغرض المطلوب والعبرة المرادة في السياق المناسب.

وإنما بدأت السورة بما يعد نهاية لأحداث الحديبية، لتكون البداية بالفتح الذي يملأ النفوس بالاستبشار فيما يسمى ببراعة الاستهلال، وكان الرسول ﷺ والمسلمون أحوج ما يكونون في هذا الوقت إلى ما يبشرهم ويثلج صدورهم ويخفف عنهم ما هم فيه، حتى إذا اكتملت الحلقات ذكّر بالبداية - وهي الرؤيا - لبيان أن الرسول كان صادقًا فيما أراه الله ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [سورة الفتح: ٢٧].

= وألف من المسلمين لأداء العمرة، وأناخوا عند الحديبية، فبلغ ذلك المشركين ودارت مفاوضات انتهت إلى الصلح الذي تشدد فيه المشركون في مبناه ومعناه، وكان من بنوده أن يعود المسلمون من عامهم على أن يعتمروا في العام القابل، وأن من ذهب للمدينة مسلماً من قريش رده المسلمون إلى الكفار، وقد أغضب هذا بعض المسلمين غضباً شديداً، ولكن موافقة رسول الله ﷺ على هذه الشروط كانت بوحي، وقد اتضحت الحكمة فيما بعد عندما شكل المسلمون الذين كان يردهم رسول الله عصبة على سيف البحر، وهددت تجارة قريش فاستغاث الكفار برسول الله ألا يرد إليهم أحداً مما يأتي إليهم مسلماً من قريش، فسبحان علام الغيوب ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ . هذه خلاصة ما ورد في البخاري عن صلح الحديبية.

وذلك لأن بعض ضعاف النفوس ساورهم شك في تلك الرؤيا لما عاد ﷺ وعادوا معه دون أن تتحقق الرؤيا في ذلك العام حسب ما ورد في وثيقة صلح الحديبية. ولكنه كان تدبير العليم الخبير ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ وعوضهم عنه فتح خيبر التي غنموا منها خيرًا كثيرًا ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [سورة الفتح: ٢٧].

ومن الشواهد الموجزة والدالة بوضوح على أن القرآن الكريم لا يلتزم ترتيب الأحداث قوله تعالى في سورة البقرة: آية ١٤٢: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ حتى يصل إلى قوله تعالى آية ١٤٤: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾.

فمن المعروف أن هذه الآيات نزلت بشأن تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، لكن الآيات لم تلتزم ترتيب الأحداث ترتيبًا زمنيًا، فلقد بدأ بقوله ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ والأحداث إنما بدأت عندما كان رسول الله ﷺ يقلب وجهه في السماء يدعو دعاء المحب في صمت ملح، فاستجاب الله له ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ الآية. فهذه هي البداية، لكنها جاءت تالية؛ أي: أن ترتيب آيات المصحف جاءت عكس الترتيب الزمني للأحداث؛ لأن ما جاء أولاً ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾ هو تالٍ في واقع الأحداث، وما جاء تاليًا هو الأول في الواقع، وسبب هذا أن المعول عليه في ترتيب آيات المصحف هو مراعاة الأغراض وحاجة المقامات، والمقام هنا مقام إبراز مخازي اليهود ومواقفهم السلبية من هذه الرسالة، فهذا هو الأصل الذي تفرع عنه بيان قصة تحويل القبلة التي تبدأ من قوله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾، فليس الغرض الأساسي في هذا السياق الحديث عن تحويل القبلة، وإنما الغرض الأساسي هو الحديث عن سلبيات اليهود ومواقفهم المخزية من هذه الرسالة؛ ولذلك بدأ بالأساس ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [سورة البقرة، آية: ١٤٢].

الباب الثاني

أسرار الإعجاز
في مقامات أسباب النزول

تمهيد

*** ليست هذه السطور حديثًا خاصًا عن الإعجاز عند العلماء وأقوالهم فيه، فلقد سبقت إلى ذلك مؤلفات عدة كالإعجاز البياني للدكتورة عائشة عبد الرحمن، وإعجاز القرآن لعبد الكريم الخطيب والمعجزة الكبرى للشيخ محمد أبي زهرة.**

*** إنما أسعى في هذا الباب إلى اقتناص ما وفق الله إليه من أسرار الإعجاز في مقامات أسباب النزول، ومن المهم بداية أن أنبه إلى أن إعجاز القرآن نوعان: إعجاز تفرد، وإعجاز تفوق:**

فإعجاز التفرد هو الذي يكون بشيء يتفرد به القرآن ولا يوجد مثله في كلام العرب.

وإعجاز التفوق هو الذي يكون بما له نظير في كلام العرب، لكنه يتفوق عما ورد في كلامهم؛ إما في المستوى الكمي بأن تكون الظاهرة موجودة في القرآن على اطراد وموجودة في كلام العرب على قلة وندرة، وإما في المستوى النوعي بأن تكون الظاهرة القرآنية أحسن أداءً ونظمًا أو تصويرًا.

وهذان النوعان من الإعجاز يعدان بلورة لكلام كثير من القدماء ورصدًا لخلاصة مرادهم من وجوه كثيرة ذكروها للإعجاز البياني في القرآن الكريم، فالوجوه التي ذكرها الرماني للإعجاز وكذا الخطابي والباقلاني وغيرهم إذا تأملتها وجدتها لا تخرج عن هذين النوعين؛ فهي إما من إعجاز التفرد، وإما من إعجاز التفوق.

ثم نجد في حديث هؤلاء العلماء أصلًا لمضمون هذه الفكرة، فالرماني مثلًا

عندما ذكر أن البلاغة على ثلاث طبقات: «منها ما هو في أعلى طبقة، ومنها ما هو في أدنى طبقة، ومنها ما هو في الوسائط بين هذا وذاك، فما كان أعلاها طبقة فهو معجز وهو بلاغة القرآن وما كان منها دون ذلك - أي المتوسط والأدنى - فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس»[١].

فماذا يفهم من هذا الكلام فيما نحن بصدده من إعجاز التفرد وإعجاز التفوق؟ يفهم منه أن الرماني كان لا يرى في القرآن غير إعجاز التفرد؛ أي: الإعجاز بما لا نظير له، وهذا مفهوم من قوله: أن ما كان أعلى طبقة من البلاغة فهو معجز ولا يوجد إلا في القرآن، وما سواها فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس. ومعنى هذا أن ما كان ممكنًا يستطيعه الناس حتى لو كان القرآن متفوقًا فيه فليس بمعجز، فليس عنده غير إعجاز التفرد، هذا ما يفهم من كلامه.

لكنه لا يتمسك بهذا عند مواجهة الواقع الأسلوبي، وفي أثناء دراسة الأقسام العشرة التي تعود إليها بلاغة القرآن المعجزة، فيذكر ما يفيد أن بعضها من إعجاز التفوق؛ إذ توجد في كلام العرب على قلة وفي القرآن الكريم باطراد وفي كل آية كما نرى في باب البيان٠راجع صـ١٠٧ النكت ضمن ثلاث رسائل.

أما الخطابي فيفهم من كلامه تسليمه بإعجاز التفرد وإعجاز التفوق معًا في القرآن، يقول: «واعلم أن القرآن إنما صار معجزًا لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف، مضمنًا أصح المعاني»[٢] فهذا يعني إعجاز التفوق؛ إذ صاغ عبارته بأفعل التفضيل «أفصح وأحسن وأصح» وهي صياغة تثبت لألفاظ العرب فصاحة لكن ألفاظ القرآن أفصح، ولنظم العرب حسنًا، لكن نظم القرآن أحسن، ولمعانيهم صحة، لكن معاني القرآن أصح.

ثم تجد إعجاز التفرد في قوله: «وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام، فأما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه فلم توجد إلا في كلام العليم القدير»[٣] فصياغة الجملة الأخيرة بالنفي والاستثناء تعكس إشارته إلى أن هذه

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ٧٥ .

(٢) المرجع نفسه ٢٧ .

(٣) نفسه ٢٧ .

الميزة التي يذكرها من إعجاز التفرد الذي يختص به القرآن الكريم حيث لا تجد في نوع واحد من كلامهم كقصيدة أو خطبة اجتماع المحاسن الثلاثة وفي الألفاظ والنظوم والمعاني.

وأخلص إلى التأكيد على فكرة مهمة هي أن كل ظاهرة قرآنية يثبت تفرد القرآن فيها أو تفوقه بها فهي من الإعجاز، سواء كان هذا في المجال البياني أم التشريعي أم الغيبي أم الكوني أم غير ذلك، وإن كنت أرى مع هذا أن كل إعجاز في التشريع أو في الكون أو في الغيب إنما هو ثمرة من ثمرات الإعجاز البياني ولا سيما طرق النظم، وأعني بهذا طريقة أداء المعنى التام على نحو خاص من النظم، فلولا توخي هذه الطريقة الخاصة في أداء المعنى، لما لاح لنا ما يلوح من إعجاز[1]، وهذا يخلص بنا إلى أن الإعجاز الأشمل في القرآن هو إعجاز الأسلوب أو إعجاز النظم، فإنه يضم طرقًا كثيرة في الإعجاز ويشمل ضروبًا كثيرة منه، تدخل فيه أو تكون ثمرة من ثماره.

هذا هو الأساس الذي سرت عليه واتخذته منهجًا في تتبع ظواهر الإعجاز في مقامات أسباب النزول، فهذه الظواهر لا تخرج عن كونها:

أولاً: إعجازًا في النظم.

ثانيًا: إعجازًا في التصوير.

فهذان أصلان كبيران، ويتفرع عن الأول طرق متعددة ملحوظة في آيات تلك المقامات، منها: الإيجاز المعجز والتوازن الأسلوبي، وولادة المعاني بعضها من

---

(١) خذ مثلًا قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [سورة الأنبياء: ٣٠] حدثني أحد علماء الفيزياء أن هذا تسجيل دقيق لنظرية علمية سموها «نظرية الرتق الفتق» فالسماوات والأرض كانتا كتلة واحدة، وفي مرحلة خلق الكون وتوزيع الأجرام انفصلتا. قلت له: إن هذا المعنى تتحكم في أدائه اللغة بطريقة خاصة في النظم، وهي وقوع الرتق خبراً لكان، ثم مجيء الفتق معطوفاً عليه بالفاء، فلو اختلفت تلك الطريقة بأن تبدلت مواقع الكلمات فقلنا: كانت فتقاً فرتقناهما، أو تغيرت أداة العطف فقلنا كانتا رتقاً ثم فتقناهما، لانقلب المراد أو تغير تغيراً كبيراً، وهذا يدل على أن كل إعجاز في القرآن مهما كان نوعه إنما ينطلق من النظم والأسلوب أو طريقة أداء المعاني، وهذا يدل على أهمية أن يشكل العلماء الباحثون في الإعجاز منظومة متكاملة حتى يفيد بعضهم من بعض .

بعض، والوظيفة المزدوجة للجملة والآية، ثم الاحتباك والتصدير والإرصاد والقراءات القرآنية.

ويلحق بهذا ثمرات النظم المعجز مثل تكاثر الدلالات واجتماع التيسير مع التشديد في أداة واحدة والانسجام الصوتي والاستحواذ النفسي والسيطرة الوجدانية وتعانق الإعجاز البلاغي والتشريعي.

أولاً: إعجاز النظم:

١- دور الكلمة:

لا نقصد الكلمة حين تكون مفردة منعزلة عن سياقها، ولكن هي الكلمة التي نتحدث عنها في إطار النظم وعند الاستعمال، فالتشكيل هو الذي يفجر ما في الكلمة من طاقات، وهو الذي يفعّل دورها في السياق، ومع هذا تبقى لبعض كلمات اللغة من الخصوصية ما لا نجده في نظيراتها من مترادفاتها إن صح الترادف الذي يجمع بين عدة كلمات في معنى عام، ثم تبقى لكل كلمة ميزة، وهذه هي الفروق التي قصدها أبو هلال العسكري في كتابه «الفروق اللغوية».

والمهم هنا أننا مع التعويل على التشكيل والنظم لا يمكن أن نتجاهل خصوصية بعض المفردات، كالعقد من اللؤلؤ الذي تتفاعل حباته في تقديم شكل عام متميز، لكن تبقى من بين الحبات حبة لها خصوصيتها، ولعل هذا ما قصده السيوطي بالفرائد[1]، فلا بدع عندما نقول: إعجاز الكلمة القرآنية؛ لأن الكلمة تتألق في سياقها ونظمها، ويكون لها في الوقت ذاته خصوصية لا تكون لغيرها من الكلمات المماثلة.

خذ مثلاً قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ [سورة النور: ٥٨].

ورد في سبب نزول هذه الآية عن ابن عباس رضي الله عنهما أن غلامًا من

---

(١) الفرائد باب من أبواب كتابه (معترك الأقران في إعجاز القرآن)، وقصد به مفردات القرآن التي لا نظير لها؛ لأن الكلمة تقوم مقام مشهد كامل، وربما تدل على معنى يجر وراءه سلسلة من التداعيات الذهنية والإيحاءات النفسية .

الأنصار دخل على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال عمر: يا رسول الله، وددت لو أن الله تعالى أمرنا ونهانا في حال الاستئذان، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

الشاهد في: (ثلاث عورات)؛ فلم يقل ثلاث مرات أو أوقات؛ ليتحقق بالكلمة القرآنية أغراض متعددة منها: الإشارة إلى أن الأمر باستئذان العبيد والأطفال عند الدخول لا يتعلق بهذه الأوقات لذاتها؛ أي: أن المنع ليس لذات الأوقات، ولكن لما يلابسها من الراحة وانكشاف العورات، فالتعبير بالعورات يتضمن التعليل للأمر بالاستئذان في تلك الأوقات.

ثم إن في هذا اللفظ تشديدًا على الالتزام بالمنع في تلك الأوقات، وذلك بالنص على أنها عورات، وهذا يرجح أن الأمر للوجوب وليس للندب أو الاستحباب كما ذهب بعض المفسرين، وإذا كان قدم للحكم بتحديد عدد أوقاته إجمالاً للإيقاظ والتنبيه والتشويق ﴿لِيَسْتَئْذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ فإنه عاد إلى ذكر هذا العدد مضافًا للعورات في قوله: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ للتأكيد على الحكم والتشديد فيه مع التعليل المفهوم من ذكر العورات، ولا غرابة أنه يشير مع التشديد إلى ضرب من التيسير حيث قيد المنع بثلاث أوقات فقط ولم يوجب الاستئذان في كل الأوقات لما يترتب عليه من عسر وخصوصًا على من لا يكفون عن الدخول والخروج كالأطفال والعبيد، وقد نص على هذا المعنى في قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾ وبذلك يجتمع على هذا اللفظ تشديد وتيسير وتعليل في وقت واحد وهو من الإعجاز؛ لأنه لا نظير له في كلام العرب.

ومن إعجاز الكلمة في إطار النظم قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [سورة المائدة: ١٠١].

فقد قيل إن سراقة بن مالك، وقيل: عكاشة بن محصن سأل رسول الله ﷺ لما فرض الحج قائلًا: أفي كل عام يا رسول الله؟ وأعاد السؤال ثلاث مرات فقال ﷺ: «**ويحك، ما يؤمِّنك أن أقول نعم؟ ووالله لو قلت نعم، لوجبت؛ ولو وجبت ما استطعتم**»، وقد وردت مواقف أخرى كانوا يسألون فيها أسئلة لا تكون في الإجابة عنها مصلحة لهم، وإنما تكشف أسرارًا تسوؤهم، وذلك أن عبد الله بن

حذافة كان إذا لاحى الرجال دعوه لغير أبيه، فقال: يا رسول الله، من أبي؟ فقال ﷺ: «**أبوك حذافة بن قيس الزهيري**»، فقام آخر وقال: أين أبي؟ فقال ﷺ: «**في النار**» رواه أنس وأبو هريرة.

فمن الواضح من جملة هذه الأسئلة أن النهي في الآية ليس لمجرد السؤال، ولكن للإلحاح والمراجعة كما في السؤال الأول أو للسؤال عما لا فائدة فيه، وإنما تسوء الإجابة كالثاني والثالث، والمهم أن الآية نزلت بسبب هذه المواقف مجتمعة، وقد تجاوزها النص القرآني، فلم يقل: لا تسألوا عن كذا وكذا؛ لأن ذكره يطول ولا يليق بجلال القرآن، فطواه ودل عليه بكلمة واحدة هي «أشياء»، فهي أوجز وأشمل في الوقت ذاته؛ لأنها تتناول تلك الأسئلة التي سألوها جميعها، وتتناول غيرها مما يمكن أن يجدَّ في المستقبل، فهي تؤسس مبدأ إسلاميًا.

ولا نكاد نجد في أساليب العرب كلمة واحدة تقوم مقام مواقف متعددة ثم تكون مع ذلك أوعى وأشمل، وهذا من الإعجاز.

بل قد نجد الإعجاز في استعمال حرف في معنيين لا يتحققان بأي حرف آخر على نحو لا نجد له نظيرًا في كلام العرب، وذلك كقوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [سورة التوبة: ٤٧]،

فهذه الآية نزلت ضمن ما نزل في غزوة تبوك على سبيل التسرية لرسول الله ﷺ الذي أحزنه قعود المنافقين وتخاذلهم، فبين الله سبحانه له وللمؤمنين الصادقين أن عليهم أن يفرحوا لا أن يحزنوا؛ لأن هؤلاء المنافقين لو خرجوا لكانوا عبئًا لا عونًا وضررًا لا نفعًا، وقد ضمن هذا فضحًا لنواياهم الخبيثة، فهم لا يريدون للصف المسلم خيرًا أبدًا، وإنما يريدون له الخبال والاضطراب ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ وأصل الخبل: داء في العقل يؤدي إلى الاضطراب وعدم القدرة على التفكير، والمعنى أنهم يسعون إلى التشكيك والتثبيط الدافع إلى الاضطراب وعدم القدرة على التفكير أو التركيز، ثم إنهم لا يكتفون بهذا، وإنما يسعون إلى وسائل أخرى للإفساد، منها الإيقاع حتى تحدث الفتنة التي يصطلي المسلمون بنارها، ومنها التنصت والتجسس لاستغلال نقاط الضعف والنيل من خلالها، وقد

عبر عن هذا بقوله: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾.

وهذا هو موطن الشاهد، فإن حرف الجر (في) من قوله: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ يفيد وجهين مقصودين معًا:

الأول: أن المنافقين يتخذون منهم جواسيس زرعوهم بين المسلمين دون أن يشعر بهم المسلمون وهم سماعون؛ أي: يسمعون لكل صغيرة وكبيرة ولكل همس وجهر لتوصيله إلى أوليائهم وزعمائهم لاستغلال أي مطعن.

الوجه الثاني: قال به قتادة ونقله الرازي هو: «فيكم من يسمع كلامهم ويقبل قولهم، فإذا ألقوا إليهم أنواعًا من الكلمات الموجبة لضعف القلب قبلوها وفتروا بسببها عن القيام بالجهاد كما ينبغي»(١) وهذا غير ممتنع فيمن قرب عهده بالإسلام أو كان من طبعه الجبن وضعف القلب كما ذكر الرازي.

وحرف الجر (في) يدل على هذين الوجهين ويقبلهما بما يدل على وجود هذين النوعين في الصف المسلم، ولو قال: ومنكم سماعون لهم، لما أفاد إلا وجهًا واحدًا هو الثاني، وهنا يتجلى الإعجاز الذي لا نظير له في كلام العرب لدلالة الحرف على معنيين كاملين لا يدل عليهما بنفسه ولا بغيره في أي كلام آخر.

وقد يصل استخدام الأدوات في القرآن في مقامات أسباب النزول إلى درجة الإعجاز الذي لا نظير له كقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ حتى قوله سبحانه: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [سورة الكهف: ٢٨].

فقد نزلت هذه الآية عندما ساوم وجهاء الكفار رسول الله ﷺ كي يخصص لهم وقتًا لا يجلس فيه فقراء المسلمين معهم.

والشاهد هنا أنه عطف جملة ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ بالواو على ما قبلها، ولم تعطف بالفاء، والفرق بينهما شاسع؛ لأنه لو عطف بالفاء فقال: ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا فاتبع هواه، لأفاد هذا أن الله سبحانه أغفل قلبه أولاً وترتب عليه اتباع الهوى، وهو معنى غير مقصود، ويؤدي إلى الارتياب واللبس والجدل، ويكون

(١) التفسير الكبير ١٦/ ٨٢.

فرصة للمتربصين للتشكيك في عدل الله وحاشاه سبحانه.

لكنه لما قال: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ فعطف بالواو دل هذا على أن غفلة القلب كانت ملابسة لاتباع الهوى، وربما سبق هذا ذاك أي أنه أطاع هواه فأغفل الله سبحانه قلبه عن ذكره، والواو لا تمنع هذا؛ لأنها لمطلق الجمع ولا تفيد ترتيبًا معينًا، ويؤيد هذا المعنى الذي يحمِّله المسئولية قوله تعالى في الفاصلة: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾؛ أي: مجاوزًا للحد في اتباع هواه، فليس هناك ضابط ولا رابط ولا وازع، فصار كالفرس(١) المندفع الذي لا يستطيع أحد أن يقف في طريقه.

فهل يصل الاستعمال البشري للأدوات إلى هذا المستوى من الدقة البالغة؟! اللهم لا؛ لهذا صحَّ أن يكون هذا من الإعجاز.

٢- ولادة المعاني بعضها من بعض:

هذه الظاهرة عامة مطردة في القرآن الكريم لمن يتأمل حلقات اتصال المعاني، وهي من خصوصياته التي تدخل في إعجازه، ومعنى ولادة المعاني بعضها من بعض أن الآية تعطي بظاهرها معنى، حتى إذا أعدت النظر فيها متأملًا لاح لك معنى آخر هو كالغاية المقصودة، ثم تفاجأ بأن ذلك المعنى الذي استنبطته من آية سابقة منصوص عليه في آية لاحقة، فكأن المعنى الأول قد حمل في بطنه معنى ثانيًا لا يلحظه إلا من تأملوا فوفقهم الله إليه، ثم تكون الفرحة عندما يعلن ذلك المعنى عن ولادته في الآية التالية.

وحاصل هذا أن تضمن الجملة أو الآية مغزى ومعنى ما يليها، فمن يقرأ الأولى بقلبه ويعيها بفكره يستنتج معنى ثم يجده في الآية التالية منصوصًا عليه.

ويمكن أن نقول عن هذا ولادة معنى لاحق من معنى سابق.

والمعنى المستنبط ليس دلالة ظاهرة في الآية الأولى، وليس معنى ثانيًا مجازيًا أو كنائيًا، ولكنه كالمعاني التعريضية والأغراض الخلفية المسماة عند البلاغيين بمستتبعات التراكيب، وهي معانٍ لا تضيء إلا لمن قدح فكره وأصغى قلبه وأرهف

---

(١) يقال فرس: فُرُط؛ أي: مندفع يسبق الخيل، قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾؛ أي: إسرافاً وتضييعاً. المفردات للراغب.

سمعه وفؤاده وعايش القرآن بكيانه ووجدانه، حتى إذا لاح له معنى بهذه الطريقة ووجده منصوصًا عليه في الآية التالية انطبع في نفسه وترسخ في يقينه، وكان مشدودًا إلى استئناف التلاوة والتأمل، وهذه هي الغاية.

عندما نقرأ - مثلاً - قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [سورة النحل: ١٠٣].

نجد بداية أن هذا من المذهب الكلامي والمنطق الوجداني الذي يدفع الشك باليقين، ويرد على اتهام المشركين محمدًا ﷺ بأنه لا يأتي بالقرآن من وحي، ولكن من تعليم عبدين نصرانيين كانا يصنعان السيوف بمكة اسمهما يسار وجبر، وكانا يقرآن الإنجيل، وتذكر كتب أسباب النزول أن رسول الله ﷺ ربما مر بهما وهما يقرآن فيقف ويستمع إليهما، فقال المشركون: إنما يتعلم منهما، وفي بعض الروايات، قيل لأحد العبدين: إنك تعلم محمدًا، فقال: لا بل هو يعلمني(١).

فكان رد القرآن على هذه التهمة بقوله: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ يعني: لسان العبد الذي يميلون ويرمزون إليه، ويقصدون أنه هو الذي يعلم محمدًا ﷺ.. لسان هذا العبد أعجمي ألكن لا يقيم العربية ولا يحسنها، فكيف يعلم محمدًا عليه الصلاة والسلام قرآنًا بلسان عربي مبين؟!

والمتأمل لا يقف عند هذا البرهان الواضح، وإنما يستنتج من ورائه مغزىً آخر هو أن القوم الذين اتهموا رسول الله ﷺ بالافتراء هم المفترون، وأن كفرهم هو الذي سوَّل لهم هذا الافتراء؛ لأنهم لو مس الإيمان وجدانهم وأضاء عقولهم، لأدركوا هذا المنطق، وعلموا من غير تعب ولا نصب أن أعجميًا لا يعلِّم عربيًا كلامًا عربيًا يعلمون قدره وشأنه.

وخلاصة ما تتضمنه الآية السابقة أن قولهم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ يعنى رمي رسول الله ﷺ بالكذب فيما يقول: إنه وحي، ورميه بأنه يفتريه. وقوله في الرد

---

(١) أسباب النزول للنيسابوري ١٩٥، وروح المعاني للألوسي ١٤/ ٢٣٣ .

عليهم: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ حجة واضحة في رد دعواهم وتتضمن إثبات أنهم هم المفترون.

وما أن نستنتج هذا المعنى المتضمن في الآية السابقة حتى نجده منصوصًا عليه في الآية اللاحقة ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [سورة النحل: ١٠٥].

وهذا يعني أنه قد أثبت افتراءهم ثلاث مرات: مرة بالإشارة والتلميح في الآية (١٠٣) ومرتين بالتصريح في الآية (١٠٥) واللافت أن هاتين المرتين وردتا بأسلوب القصر، فالأولى جاءت بإنما في قوله: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ﴾وهو رد عام يطرح المسألة كقضية عامّة هي أنه لا يفترى الكذب إلا الذين لا يؤمنون بآيات الله، ونفهم من هذا معنًى خاصًا بطريق التعريض هو أن هؤلاء الكافرين الذين يقولون: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ﴾ هم المفترون، وهم الكاذبون؛ لأنهم لا يؤمنون بآيات الله، ثم نجده يصرح بذلك المعنى التعريضي الذي جاء محمولاً في بطن المعنى السابق، وذلك في قوله عقبه: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ وليس هذا تكرارًا؛ لأن بداية الآية تعرض المعنى كحكم عام، وكقضية مطروحة لا مصادرة فيها، ولكن يحتكم فيها إلى العقل السليم والفطرة السوية: من الذي يفتري الكذب؟ الذي يتلقى عن الله، ويؤمن بآيات الله، أو الذي لا يؤمن بآيات الله؟ والإجابة تأتي من النفس دون أن تفرض عليها من الخارج حتى إذا استنبط العاقل المعنى المقصود، وجده يسبقه منصوصًا عليه في قوله: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾.

وهكذا نجد سلسلة المعاني القرآنية يتولد بعضها عن بعض؛ فكلما استنتج المتأمل معنى مما يقرأ، وجده يسبقه أمامه منصوصًا عليه، وهذا يحقق قمة المجاذبة والمشاركة الفكرية والمعايشة الوجدانية مع معاني القرآن.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [سورة النحل: ١٢٦].

ففي سبب نزول هذه الآية ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ وقف على حمزة حين استشهد وقد مُثّل به فقال: **«لأمثلن بسبعين منهم مكانك»**

فنزل جبريل بخواتيم سورة النحل من قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا

عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ إلى آخر السورة - فكف رسول الله ﷺ وأمسك عما أراد. وأخرج الترمذي وحسنه الحاكم عن أُبيّ بن كعب قال: لما كان يوم «أُحد» أصيب من الأنصار أربعة وستون، ومن المهاجرين ستة منهم حمزة، فمثلوا بهم، فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يومًا مثل هذا لنُرْبين (أي: لنزيدن عليهم)؛ فلما كان يوم فتح مكة، أنزل الله تعالى ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾[1] الآية.

والرواية الثانية الواردة عن أُبيّ بن كعب هي المرجحة لاستبعاد أن يأخذ رسول الله ﷺ سبعين بواحد ولو علي سبيل الوعيد، ولأن الخطاب في الآية للجمع مما يرجح أنه للأنصار، ويدل على هذا أيضًا أنه انتقل من خطاب الجماعة المسلمة إلى خطاب رسول الله ﷺ على سبيل التسرية في قوله: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾، ولا يلزم من هذه التسرية أن يكون رسول الله قد توعد بشيء، ويؤكد هذا تضعيف العلماء لسند الرواية الأولى؛ لما فيها من ضعف نبَّه إليه ابن كثير ونقله النيسابوري «لأن صالحًا[2] هو ابن بشير المري، وهو ضعيف عند الأئمة، وقال البخاري: هو منكر الحديث»[3] ومن أجل هذا حسَّن الحاكم رواية أُبيّ بن كعب.

والمهم أن الآية تدعو إلى روح العدل التي يتحلى بها هذا الدين، وتدعو إلى الإنصاف حتى مع الخصوم ولو كانوا كفارًا، بل ويزيدهم على هذا الدعوة إلى الصفح والصبر الذي يطلع الخصوم على جانب لا يعرفونه عندهم مما يؤدي إلى استدراجهم لهذا الدين وترغيبهم فيه.

واللافت في صياغة الجملة الأولى أنها تحمل في باطنها معنًى زائدًا على مجرد الدلالة الظاهرة، ذلك أنه يقول: ﴿فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾؛ أي: ردوا بمثل ما أوذيتم، لكنه عبر عن الإيذاء ابتداءً بالعقوبة مجاراة لمنطق الخصم الذي يتصور أنه بإيذائه واعتدائه إنما يعاقب ويرد، ويتصور أن هذا حق له، وأنه لا يجوز الرد عليه لأنه ينتصف لنفسه؛ ولو حدث الرد، فسيعتقد أنه اعتداء آخر يجب الرد عليه،

---

(١) أسباب النزول للسيوطي ٢٩٢ دار الرشيد .

(٢) هو الذي يبدأ سلسلة المحدثين بهذاالحديث حتى يصل إلى أبي هريرة .

(٣) أسباب النزول النيسابوري ١٩٦ .

وبهذا تستمر سلسلة الإيذاء والعدوان دون نهاية لتعارض وجهات الخصوم؛ لهذا جاء تعبير القرآن مشيرًا إلى تقدير نفسية الخصم ووضعها في الاعتبار ولو كانت خاطئة، وذلك حسمًا لاستمرار القتال، ومنعًا لإراقة الدماء؛ لأن إراقة الدماء في الإسلام وسيلة، وليست غاية.

ومن جهة أخرى، فإن التعبير في جملة الشرط (وإن عاقبتم) يلوح بطلب التغاضي عن العقاب والصبر عليه، وهو مجرد تلويح وتلميح من التعبير في الشرط بالأداة (إن) خاصة[1] على سبيل التمهيد للتصريح في قوله بعده: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾.

وبهذا فقد صرحت هذه الجملة ما همست به الجملة التي قبلها، ولا تجد لهذا نظيرًا في كلام البشر؛ فهو من الإعجاز.

وقد ذكر البلاغيون لونًا بديعيًا يسمى بالتذييل، وقد يتوهم أنه من ولادة المعاني، وليست منها في شيء؛ لأن التذييل تأكيد للمعنى وتقرير للمضمون السابق أو تعليل له، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [سورة لقمان: ٣٤] فالجملة الأخيرة (تذييل) لأنها تقرر مضمون ما قبلها وتؤكده وتعلل له في الوقت ذاته. لكن ولادة المعانى بعضها من بعض غير هذا؛ لأن الجملة تفيد معنًى ما وتومئ إلى معنى آخر لا يلحظه إلا من تأمل ووفقه الله، ثم نجد هذا المعنى العميق قد جاء منصوصًا عليه، فالمعنى التالي ليس تأكيدًا للسابق ولا تعليلاً له، ولكنه معنًى جديد لا يدل عليه ما قبله لا بالحقيقة ولا بالمجاز، ولكن يفهمه ويلمحه من يتابع بقلبه.

وربما وجدت ولادة المعاني بعضها من بعض في الشعر على قلة وندرة، لكنها في القرآن مطردة مع التفاوت في الكيف.

ومثالها في الشعر قول فاطمة بنت مرة، وكانت من شاعرات العرب ومن كاهنات الجاهلية، لمحت نورًا في وجه عبد الله بن عبد المطلب - قبل زواجه -

---

(١) لأن (إن) الشرطية تدل على ضعف احتمال وقوع ما بعدها بخلاف «إذا» .

فأدركت بقراءاتها وفراستها أنه يحمل في صلبه النور المرتقب الذي يشرق على الدنيا فيملؤها خيرًا، وتمنت أن تكون هي مستودع ذلك النور حتى تبوء به فخرًا وشرفًا، فدعته إلى نفسها على أن تدفع له مائة من الإبل فرفض، وذهب فزوجه أبوه بآمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة؛ ولما رأته فاطمة بنت مرة بعد ذلك، قالت: يا فتى، والله ما أنا بصاحبة ريبة، ولكني رأيت في وجهك نورًا فأردت أن يكون فيَّ، وأبى الله إلا أن يكون حيث أراد. ثم قالت قصيدة منها:

إني رأيت مخيلة لمعت ... فتلألأت بحناتم القطر[1]

فلمأتها نورًا يضيء له ... ما حوله كإضاءة البدر[2]

ورأيت سقياها حيا بلد ... وقعت به وعمارة القفر[3]

فالبيت الأول يعني أنها لمحت نورًا يلمع في وجه عبد الله كنور البرق المتلألئ بين السحب المحملة بالغيث، فالأحاسيس المشبوبة ربطت عن طريق الخيال الوثاب بين نور في الأرض في ذلك الوجه، ونور في السماء في ذلك البرق المتلألئ؛ وإذا لاحظنا الارتباط النفسي والاستدعاء الذهني بين النور وما يترتب عليه من كشف الظلمات، والبرق وما يترتب على تلألئه من غيث تحيا به الأرض الميتة وتعمر به القفار، أدركنا تنامي الصورة وانبساطها في البيتين التاليين، فالأول منها امتداد لنور ذلك البرق، مع أن الأصل في نور البرق أن يكون خاطفًا سريعًا، ولكنه هنا يتلألأ ممتدًا حتى تراه يضيء له ما حوله، فضوء البرق لا يضيء ما حوله، وإنما يسطع من قوته في الأشياء فتضيء تلك الأشياء وكأنها استمدت من البرق صفته، وصارت هي أيضًا مضيئة كإضاءة البدر الذي يتلقى ضوء الشمس فيعكسه على ما حوله من الكائنات.. إنها صور عميقة ممتدة يصورها ذلك الإحساس الفطري الصادق؛ لأن

---

(١) **المخيلة**: العلامة التي تخايل النفس والعين كالنور. وحناتم القطر: السحب المحملة بالغيث.

(٢) **لمأتها**: أبصرتها ولمحتها فجأة.

(٣) **الحيا**: المطر وأصل التعبير: ورأيت غيثها ومطرها سقيا بلد، ولكن جاء التعبير على القلب للتعجيل بالبشرى وذكر السقيا. والأبيات في تاريخ الطبري ٢/ ٢٤٥.

عينها كانت معلقة بذلك النور لا في السماء ولكن في الأرض في وجه عبد الله بن عبد المطلب والد محمد ﷺ ثم إن البرق المتلألىء بين السحب المحملة بالغيث يبشر بقدوم الغيث العميم الذي تحيا به أرض ميتة وتعمر القفار.

فاللافت أن هذين البيتين امتداد لتداعيات المعنى في البيت الأول، ويمكن عد هذا من ولادة المعاني بعضها من بعض، لكنه نادر في الشعر الجاهلي؛ أما القرآن الكريم، فهذه الظاهرة مطردة فيه.

- على أن هناك فرقًا في الكيفية بين ولادة المعاني في القرآن وولادتها في الشعر، فالمعنى في القرآن الكريم يتولد من المعاني الخلفية التي سبقته، ولا تجد علاقة ظاهرة لذلك الوليد الجديد في المعاني قبله، وإنما يلحظ في أطياف المعاني السابقة وفي أغوارها، وفي ثمراتها لمن صبر عليها حتى تستوي في نفسه وتنضج في فكره، فقوله تعالى مثلًا: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [سورة النحل: ١٢٦].

يتولد عنها معنى ليس ظاهرًا في ألفاظها، وإنما يتولد في عقول المتبصرين وهو التلويح أو التلميح إلى ترك العقوبة والترغيب في العفو، ولن يكون ذلك إلا بالصبر الذي يدفع مقاومة شهوات النفوس في الانتقام والعقاب ورد الاعتداء، وهذا معنى ليس ظاهرًا في ألفاظ الشرط السابق، ولا في معناه المباشر، ولكنه يلمح بصيصًا من وراء نظمه وصياغته، فماذا يعني التعبير عن الرد قصاصًا بالعقوبة إلا أن يكون تنفيرًا من الرد، وماذا يعني التعبير بلفظ المثل إلا أن يكون دعوة إلى ضبط النفس ليكون الدافع هو إقامة العدل لا إطفاء شهوة الانتقام، وماذا يعني التعبير في الشرط بـ (إن) دون (إذا) إلا أن يكون تضعيفًا وتقليلًا لاحتمال القصاص وتقوية لجانب التنازل والعفو، حتى إذا لاحت أطياف تلك المعاني، وتكونت لها صورة واضحة في الذهن، وجدنا بعدها تصريحًا بها لا يملك المتابع لها إلا أن يقول بعدها: سبحانك اللهم!!

وهذا على خلاف ولادة المعاني في الشعر، فإنها معانٍ لاحقة تأتي من متون ألفاظ المعاني السابقة ومن ظواهرها كما في البيت الأول الذي وجدنا فيه تصوير النور الذي لاح في وجه عبد الله بالبرق الذي يتلألأ في السحب المحملة بالغيث، فهذا ظاهر في أن ما يترتب عليه هو نور يكشف الظلمات، وخير وغيث يحيا به بلد

ميت وتعمر به القفار، وقد نص على هذين المعنيين في البيتين التاليين.

فالظاهرة موجودة في القرآن الكريم وموجودة في الشعر، لكنها في الشعر على ندرة، وفي القرآن الكريم على اطراد وكثرة، فضلاً عن الكيفية التي وجدت بها الظاهرة، فهي في القرآن ولادة معانٍ من أعماق معانٍ سابقة، وفي الشعر ولادة معانٍ من ظواهر معانٍ سابقة، فشتان ما بين هذا وذاك. والنتيجة التي نخلص إليها هي أن ولادة المعاني بعضها من بعض من إعجاز التفوق في القرآن الكريم.

٣- الوظيفة المزدوجة للجملة القرآنية:

يتحقق ازدواج الوظيفة للجملة القرآنية عندما تؤدي معنيين، أو تخاطب شخصين أو صنفين من الناس في وقت واحد، أو يكون موقع الجملة صالحًا للتعلق بكلام سابق، وصالحًا في الوقت ذاته لأن يكون ابتداء كلام لاحق، وقد تكون الجملة حقيقة على معنًى، وتمثيلاً على معنًى آخر؛ فتزدوج وظيفتها، وربما وجدت الآية أو الجملة من الآية قد نزلت لسببين مختلفين، فتلف بينهما وتؤدي معنى كل منهما في توازن عجيب، ولا ريب في أن تحقيق الجملة القرآنية لوظيفتين مختلفتين من عجائب القرآن التي لا نظير لها في كلام العرب، وتدخل في صميم الإعجاز.

ومن شواهد هذا في مقامات أسباب النزول قوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ﴾ [سورة الأحزاب: ٤].

فقد ورد في سبب نزول الجملة الأولى ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ﴾ أن جميل بن معمر الفهري كان يقول: إن لي قلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد؛ فلما كان يوم بدر وهزم المشركون وفيهم يومئذٍ جميل بن معمر، تلقاه أبو سفيان وهو معلق إحدى نعليه بيده والأخرى في رجله، فقال له: يا أبا معمر، ما حال الناس؟ قال: انهزموا. قال: فما بالك إحدى نعليك في يدك والأخرى في رجلك؟ قال: ما شعرت إلا أنهما في رجلي. وعرف الناس يومئذ أنه لو كان له قلبان لما نسي نعله في يده[١].

(١) أسباب النزول ٢٤٣ .

وعندما نراجع كلام المفسرين نجد بعضهم يجعل قوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ حقيقة، وذلك بالنظر إلى ما ورد في سبب النزول، والقرآن ينفيه، ووجه ارتباطه بما بعده هو الاشتراك في نفي اجتماع أمرين لا يجتمعان.

وجعله بعضهم مثلًا متقدمًا للمعنى الذي تلاه، فيكون قد صور من يجعل زوجه أُمًّا ومن يجعل دعيه ابنًا كمن يزعم أن في جوفه قلبين، وذلك في ادعاء ما لا يكون، والجمع بين أمرين لا يجتمعان، والغاية هي التنفير الداعي إلى التخلي عن تلك العادات.

لكنا نسأل ما المانع أن تقوم هذه الجملة بتلك الوظيفة المزدوجة، فتكون نفيًا وتكذيبًا لدعوى من يدعي أن له عقلين في رأسه أو قلبين في جوفه، وتكون في الوقت ذاته تمثيلًا مقدمًا لمن يجعل المرأة زوجة وأُمًّا أو يجعل الولد دعيًّا وابنًا، ويجمع بين الممثل به والممثل له نفي ادعاء ما لا يكون، وقد جمع الزمخشري جمعًا طريفًا بين كون الجملة مثلًا لامتناع اجتماع أمرين لا يجتمعان، وكونها في الوقت نفسه حقيقة تنفي ادعاء ومعتقدًا باطلًا، يقول: «كان جميل بن أسد الفهري يقول: إن لي قلبين أفهم بأحدهما أكثر مما يفهم محمد... فأكذب الله قوله، وضربه مثلًا في الظهار والتبني»(١).

وهكذا تؤدي تلك الجملة التي وقعت في صدر الآية وظيفتين مزدوجتين:

الأولى: مفهومة من سبب النزول ومتحققة بالجملة في ذاتها ومن الاقتصار عليها.

والثانية: متحققة من ارتباط هذه الجملة؛ بما يليها إذ تصير مثلًا مقدمًا يدعو إلى التنفير من المعنى الممثل له الذي يعد وضعًا شاذًا كان موجودًا في الجاهلية وامتدَّ في وجود النبي ﷺ فأبطله الإسلام.

ومما تجد فيه تحقيق غايتين بجملة واحدة مع اختلاف الوسيلة والنظم قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة النور: ٣٣].

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٤٩.

فقد ورد في صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه أن هذه الآية نزلت في ست جَوارٍ لعبد الله بن أبي كان يكرههن على الزنا ويأخذ أجورهن، فاشتكت اثنتان منهن لرسول الله ﷺ فأنزل الله سبحانه هذه الآية.

وقد عرضت هذا التشريع بوسائل تعبيرية مساعدة على التخلي عن البغاء منها:

- التعبير بالإكراه الذي يشير إلى أن الجارية أفضل من سيدها؛ لأنها غير راغبة في الفاحشة وهو يكرهها، ولا يليق هذا بمن عنده نخوة أو كرامة.

- التعبير عن الجارية بالفتاة للتنبيه إلى أنهن لهن كرامة كالحرائر، ولا ينبغي إهدار الكرامة الآدمية بسوقهن إلى الفاحشة.

- التعبير عن الزنا في مقابل أجرة بالبغاء إشارة إلى أنه من أجل الجشع وابتغاء المال، وقد صرح به قوله: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

- فتح باب المغفرة والرحمة لمن فكر في التوبة من هذه الجريمة حتى لا يتعلل أحد باليأس من المغفرة، وذلك في قوله: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وهذه الجملة هي موطن الشاهد.

وقد وقع المفسرون في حيرة من تحديد المقصود بهذا الوعد، قال بعضهم: إن المقصود هم الرجال المكرِهون إذا ما تابوا وآمنوا. وقال آخرون: المقصود هم الفتيات المكرهات، ومع أن الرازي جعل الكلام محتملاً لإرادة الاثنين؛ أي: الرجال المكرِهين بشرط التوبة، والفتيات المكرهات؛ لأن الإكراه عذر، فإنه ضعَّف الاحتمال الأول لحاجته إلى التقدير والإضمار وهو «بشرط التوبة»(١).

والذي أراه أن هذه الجملة قد صيغت بطريقة تجعلها قابلة لإرادة الرجال المكرِهين والفتيات المكرهات معًا، ورمز لكل فريق برمز يدل عليه، فصدر الجملة يدل على دخول الرجال في الوعد ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ﴾ وذلك إطماع لهم في مغفرة الله ورحمته، وحث لهم على التخلي عن هذا الذنب العظيم والاتجاه للتوبة، ثم يرمز للفتيات بقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ﴾، ففيه تنبيه إلى إرادة هؤلاء الفتيات أيضًا لأنهن مكرهات، مع إشارة خفيفة إلي أنهن يتحملن جزءًا من المسئولية؛ لأنه لا طاعة

(١) التفسير الكبير ٢٣/ ٢٢١ .

لمخلوق في معصية الخالق مهما كان الإكراه، فأدخل هؤلاء وهؤلاء في حكم واحد وفي أقل عبارة.

ولو قال: ومن يكرههن فإن الله غفور رحيم، لاقتصر على الرجال.

ولو قال: ومن أكرهن فإن الله من بعدِ إكراههن غفور رحيم، لاقتصر على الفتيات، ولكن اتسعت رحمة الله لينفتح الباب أمام الاثنين معًا بعبارة القرآن المعجزة، فإن جملة واحدة حققت غرضين، واتجهت إلى كل منهما بإشارة خاصة، وقد بدأ باللفت إلى الرجال؛ لأن أكبر الذنب يقع على عواتقهم، ثم ضمن حديثه الفتيات بإشارة إليهن التمس لهن العذر لوقوعهن تحت الإكراه ﴿مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ﴾ ولا تعفيهن تمامًا من المسئولية؛ لأن المغفرة لا تكون إلا من بعد ذنب.

ومما تجد فيه الآية في حكم جملة واحدة قد ارتبطت بمعنى سابق ثم بدئ بها معنى لاحق في وقت واحد - قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ [سورة التوبة: ٧٨].

نزلت هذه الآية والتي قبلها فيمن ﴿عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ [سورة التوبة: ٧٥: ٧٧].

فالآية التي تلي هذا ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ﴾ ترتبط بما قبلها وتتعلق به؛ إذ تنكر على هؤلاء جهلهم أو تجاهلهم أن الله يعلم بكل ما يدور في نفوسهم أو يهمس به بعضهم إلى بعض من شك في فرض الزكاة الذي ينتزع منهم حق الله في أموالهم.

ثم إنها في الوقت نفسه تلتفت إلى ما بعدها فترتبط به معنويًا على سبيل الاستئناف البياني الذي يتتبع الحركة النفسية للمخاطبين، وذلك بالنظر إلى أن الآية ابتداء كلام يثير في أنفس المستمعين سؤالاً عن هؤلاء الذين ينكر الله عليهم تجاهلهم ويقررهم بعلمه.. مَنْ هؤلاء الذين تبدو نبرة الغضب في خطاب الله سبحانه عنهم وهو ينكر عليهم ويقررهم؟ فجاءت الآية التالية بمنزلة الجواب؛ أي:

هم ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [سورة التوبة: ٧٩].

أي هم الذين يعيبون خفية على المطوعين من المؤمنين في الصدقات لقلة ما يتطوعون به مع أن هؤلاء المنافقين لا يتطوعون لا بقليل ولا بكثير.

وهكذا نجد قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ﴾ تصلح انتهاء وتتميمًا لما قبلها، كما تصلح ابتداء لما بعدها، ولا تجد في كلام العرب جملة تؤدي هذه الوظيفة المزدوجة، فهذا من الإعجاز.

على أن هذه الآية تقوم بوظيفة ثالثة إذا تجاوزنا خصوص السبب إلى عموم الخطاب لكل من يتأتى منه الاستماع والفهم إلى أن تقوم الساعة، ففيها تحذير لكل من تهمس له نفسه بالسوء، أو يهمس لأحد بالخيانة ونقض العهد. ثم إن هذه الآية تشترك مع سائر ما يجاورها في الإشارة إلى أن نقض العهد وخلف الوعد يورث النفاق؛ فيجب على المسلم أن يجتهد في البعد عنه؛ فإذا عاهد الله في أمر، سارع إلى الوفاء به.

وهكذا تتكاثر الدلالة وتتزاحم المعاني من الآية في ذاتها ومن سياقها وموقعها من جاراتها.

وفي هذا الإطار قد تتعدد أدوار الكلمة الواحدة لتعدد مواقعها، فهي إذا التفتت قبلها يكون لها موقع، وإذا التفتت بعدها يكون لها موقع آخر، ولكل موقع معنًى خاصٌ، نجد هذا في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ﴾ [سورة التوبة: ٧٩].

يلمزون بمعنى يعيبون خفية. ويسخرون: يعيبون خفية وعلانية مع انتقاص. والجهد بضم الجيم: الطاقة، وبفتحها المشقة، وظاهر اللفظ يدل على أن المقصود بالذين لا يجدون إلا جهدهم هم الذين لا يملكون شيئًا وتصدقوا بمجهودهم البدني في حمل شيء وتوصيل شيء أو السعي من أجل الشيء، ثم كنّى بهذا عن التطوع بالقليل.

كان المنافقون يعيبون خفية فريقين: الذين يتطوعون بالكثير، والذين يتطوعون بالقليل الذي لا يكاد يذكر، لكنهم لا يملكون غيره، فاللمز لهؤلاء وهؤلاء كما

يفهم من قول أبي السعود: «عطف هؤلاء على المطوعين؛ أي: يلمزون المطوعين ويلمزون الذين لا يجدون إلا جهدهم»[١].

يعني لم يسلم من لمزهم وتعييبهم هؤلاء ولا هؤلاء؛ أما السخرية، فقد كانت خاصة بالفريق الثاني الذي تصدق بالقليل كصاع من تمر؛ ولهذا يفسر أبو السعود (يسخرون منهم) قائلًا: أي: يهزءون بهم، والمراد بهم الفريق الأخير حيث قالوا عن المتصدق بصاع: إن الله غني عن صاعه.

وهذا من النظم المعجز حيث وقع (الذين لا يجدون إلا جهدهم) وسطًا بين فعلين يقعان عليه هما (يلمزون ويسخرون) لكنه قدم اللمز لأنه يتناول الفريقين (المطوعين في الصدقات)؛ أي: بالكثير (والذين لا يجدون إلا جهدهم)؛ أي: بالقليل، وأخر السخرية لأنها تخص الذين (لا يجدون إلا جهدهم).

ولا تجد نظمًا ولا صياغة بشرية على هذا النحو؛ لأن الذين لا يجدون إلا جهدهم متعلق بما قبله بالمشاركة في الحكم الإيقاعي، وملتفت لما بعده بالابتداء على تقدير: وأما الذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم، وقد أغنى هذا عن التكرار فيما لو عبر كما يعبر الناس لأن التقدير:

الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم، وأما الذين لا يجدون إلا جهدهم، فيسخرون منهم، ويعني هذا أنهم يلمزون هؤلاء وهؤلاء، ولا يسخرون إلا من المتطوعين بالقليل.

وقد يدل اللفظ على معنيين يتلقى أحدهما من إضاءة السياق قبله، ويتلقى الثاني من إضاءة السياق بعده، كقوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ [الدخان: ١٠-١٥].

نقل المفسرون اختلاف الناس في زمن ذلك الدخان، فمن قائل: إنه قد وقع، وآخر يرى أنه لم يقع بعد، وأنه من علامات الساعة؛ لحديث رسول الله ﷺ «**أول**

---

(١) إرشاد العقل السليم ٢/ ٢٨٥ .

الآيات الدخان ونزول عيسى». فتح القدير للشوكاني.

على أن مجموع الروايات التي وردت في سبب النزول تدل على أن هناك دخانين: الأول وقع في عهد رسول الله ﷺ عقابًا للكفار، فكان الرجل يسمع كلام أخيه ولا يراه من الدخان. والدخان الثاني هو أول علامات الساعة، وظاهر هذه الآيات يدل على الدخان الأول، ولا يدل على الدخان الثاني إلا قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ فالعذاب هو الدخان و (قليلا)؛ أي: مدة قليلة، وهي طويلة في حساب الناس، ولكنها عند الله قليلة، وهي المدة الفاصلة بين الدخان الأول والدخان الثاني قبيل الساعة.

والشاهد في قوله: ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ فإنه يتضمن معنيين: الأول: العودة للكفر بعد كشف الدخان عنهم. والثاني: العودة من قبورهم للحياة يوم البعث، حينئذ يرون الدخان الثاني الذي ينزل كعلامة من علامات الساعة.

وربما سمي هذا بالتوجيه في علم البديع لدلالة اللفظ على معنيين دلالة متساوية، ولكن مما يميز اللفظ هنا ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ أنه لا يدل على معنييه بذاته، وإنما يتلقى إضاءة السياق قبله فيدل على المعنى الأول؛ لقوله قبله حكاية عن الكفار: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ ورد الله عليهم ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾. فهذا يجعل ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ بمعنى العودة للكفر بعد انكشاف عذاب الدخان قليلًا. ثم إن هذا اللفظ يتلقى إضاءة السياق بعده فيدل على المعنى الثاني - وهو العودة للحياة يوم القيامة - بقوله بعده: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾. والمعنى الأول يناسبه الدخان الأول، والثاني يناسب الدخان الثاني قبيل الساعة. والله أعلم.

ثم إننا قد نجد آية تتنزل لسببين مختلفين فتلف بينهما في إتقان وتوازن ووفاء نادر معجز، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ١١٥].

وورد عن ابن عمر رضي الله عنهما أن سبب نزول هذه الآية هو تساؤل بعض الصحابة عن صلاة رسول الله ﷺ على راحلته وهو مقبل من مكة إلى المدينة، وورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أن سبب نزولها هو اعتراض اليهود في أمر

الله بتحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، ومحاولاتهم تشكيك المسلمين في هذا الأمر، كما جاء في قوله سبحانه: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ﴾ [سورة البقرة: ١٤٢].

وهاتان الروايتان وردتا بسند صحيح، مما يدل على أن الآية نزلت للسببين معًا، وقد جاء نظمها عامًّا بحيث يقبلهما معًا، ويكون هذا من إعجاز القرآن بإيجازه[1] إذ يجمع بين سببين ويلف بين موقفين مختلفين ليجيب عليهما بآية واحدة، وبهذا فإنه يحقق غرضين برمية واحدة، على أن بين هذين الموقفين صلة ما، فكلاهما يتعلق بالاتجاه للصلاة مهما اختلفت التفاصيل، وهذا مما ساعد اللفظ على تناول المعنيين والجمع بين السببين ضربة واحدة، ولا شك أن هذا النمط لا نظير له في كلام العرب؛ فهو من الإعجاز.

٤- التوازن الأسلوبي عند الفصل في الأحكام:

هذا ضرب من الظواهر التي لا نظير لها في كلام الناس، نجدها في نظم الأحكام، ووجودها يؤكد على أن القرآن معجز بنظمه، ولأن النظم من أهم عناصر الأسلوب ومن أهم مقتضيات بلاغته، فهذا يدل على أن البلاغة ليست شيئًا هامشيًّا يتعلق بالجانب اللفظي والأدائي حسب، ولكنها تتدخل في تشكيل المعاني على النحو الذي يقدمها صحيحة وعلى منتهى وجوه الكمال والتمام، كما يتبين في آيات الآحكام التي تقدم المعاني بميزان حساس في أدق الألفاظ حتى لا يحدث لبس في الاستنباط والفهم، ومن أجل البعد عن دائرة الاحتمالات الدلالية، ويرتقي نظم المعاني في ذلك درجات في سلم البلاغة حتى يصل إلى الإعجاز في القرآن الكريم وفي صياغة أحكامه.

خذ مثلًا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ

(١) ومثله كل ما سبق من شواهد الوظيفة المزدوجة للجملة أو الآية القرآنية، فإنه من إعجاز القرآن بإيجازه عن طريق وسيلة خاصة في النظم كما سبق في خصوصيات الشواهد السابقة .

فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [سورة النور ٤ : ٦]

نزلت هذه الآيات في هلال بن أمية، جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، جئت أهلي عشيًا، فوجدت عندها رجلًا، فرأيت بعيني وسمعت بأذني.. والله يعلم إني لصادق. فأمسك رسول الله ﷺ حتى نزلت تلك الآيات، فلاعن بينه وبين امرأته، فظهر صدقه من عدم تردده في الأيمان، وظهر كذبها من ترددها في اليمين الخامسة، وكادت تعترف لولا أنها قالت: والله، لا أفضح قومي، ثم حلفت اليمين الخامسة، ففرق بينهما رسول الله ﷺ.

وهذه الآيات تخصيص بعد تعميم في آية رمي المحصنات التي سبقت؛ فإذا كان رمي المحصنات عمومًا من غير شهود أربعة يترتب عليه إقامة حد القذف؛ وهو الجلد ثمانين جلدة، فإنه يستثنى من ذلك رمي الرجل زوجته بالزنا؛ فلما كان من الصعب أن يرى الرجل مع زوجته رجلًا آخر فيتركه قائمًا بين فخذيها ويذهب باحثًا عن شهود، حتى إذا عثر على الشهود الأربعة وعاد، يكون فرغ الزاني من متعته وفر بجريمته، من أجل هذا كان من حكمة الله سبحانه ورحمته أن يستثني الأزواج من هذا الحكم ويستبدل به الملاعنة التي تناولتها تلك الآيات.

والإسلام يحرص من وراء هذه الأحكام على طهارة البيت المسلم واستقامته، وقد ظهر هذا من تخير عناصر النظم، وهو يشرع تلك الحدود كما سيتضح فيما بعد عند تتبع غرائب ذلك النظم ونكاته، لكن الذي يهمنا هنا بيان دور النظم في إقامة العدل عن طريق تلك الأحكام التي نرى فيها توازنًا أسلوبيًا بين شهادة الرجل وشهادة المرأة.

ففي قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [النور: ٦-٩].

نلحظ وإن تساوت مرات الأيمان والحلف بينه وبينها فإن طريقة التعبير في جانب الرجل تختلف عنها في جانب المرأة، ولكنه اختلاف لا يؤدي إلى التنافر، وإنما يؤدي إلى التوازن.

فلقد خفف مع الزوج في جانب وشدد في جانب آخر.

كما خفف مع الزوجة في جانب وشدد في جانب آخر.

مع اختلاف جهات التشديد والتخفيف بما يتناسب مع موضع كل من الزوجين وموقفه وطبيعته.

فقد قال في جانب الرجل: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النور: ٧] واللعنة ليست هينة؛ لأنها طرد وإبعاد من رحمة الله، ولكن الغضب في جانب المرأة أشد ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ لأن الغضب يعقبه انتقام في الآجل والعاجل، وهو أشد من العقوبة، ويشهد لذلك قول الرسول ﷺ لخولة عند الشهادة الخامسة: «**فالرجم أهون عليك من غضب الله**»[1].

وحتى يحدث نوعًا من التوازن عكس فشدد في جانب الرجل في الشهادات الأربع: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ لأن كونه من الصادقين يعنى أنه أصبح مشهورًا بالصدق، وأن الصدق عنوان له، وأصبح صفة ملازمة حتى إنه يصدق في هذه وفي غيرها.

ففي الحلف على ذلك تشديد عليه حتى يكون متحريًا أقصى درجات اليقين والصدق في مثل هذه التهمة الخطيرة.

بينما خفف في جانب المرأة، في شهاداتها الأربع فقال: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾..

فلم يقل: أن تشهد أربع شهادات بالله إنها لمن الصادقات، كما قال في جانب الرجل، وذلك لأن الرجل هو الذي يتهم ويرمي مع ما يؤدي إليه ذلك من الجرح والفضح وتمزيق الأواصر، فلا بد من التشديد عليه بنسبة أعلى درجات الصدق إليه (إنه لمن الصادقين).

أما المرأة، فليست هي التي تتهم حتى تنسب الصدق إلى نفسها،، وتحلف على ذلك، وإنما هي في موضع الذي يدفع الاتهام الصادر من زوجها فتكذبه؛ ولهذا كان من المناسب أن يعود الضمير في شهادتها إليه (وإنه لمن الكاذبين).

وبهذا فقد شدد على الرجل في شهاداته الأربع؛ لأنه هو الذي يرمي ويقذف،

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٢ .

وخفف عنه في صيغة الشهادة الخامسة بالنظر إلى استبعاد الكذب منه بعد ما شدد عليه في الشهادات الأربع.

أما المرأة، فقد خفف عنها في صيغة شهاداتها الأربع؛ لأنها هي التي تقع عليها التهمة الجارحة، بينما شدد عليها في صيغة الشهادة الخامسة؛ لأنها هي الحاسمة.

وهذا التوازن الأسلوبي المبني على التوازن المعنوي واللفظي روعي فيه موقف كل من الرجل والمرأة وطبيعته، ولا تجد لهذا نظيرًا؛ فهو من الإعجاز.

٥- الانسباك في السياق:

على الرغم من نزول الآية لسبب خاص، فإنها تنسبك في سياقها وتتفاعل معه حتى تصبح حلقة في سلسلة المعاني الممتدة في هذا السياق؛ أما كيف يتم تكييفها لتصير مسبوكة في سياقها وداخلة في نسيج المعاني قبلها وبعدها، فذاك من الإعجاز الذي لا طاقة لبشر بمثله، وهو مطرد في القرآن الكريم، وهو مجال واسع للبحث في المناسبات القرآنية التي تضيء شعاعها لمن شاء الله له أن يستقبل هذا الشعاع. خذ قول الله سبحانه: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [سورة السجدة: ١٦].

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن الآية نزلت في الأنصار، كانوا يصلون المغرب ولا يذهبون إلى رحالهم حتى يصلوا العشاء مع رسول الله ﷺ وعن مجاهد أن الآية نزلت في المتهجدين الذين يقومون الليل للصلاة، وهذا هو الأقرب إلى معنى الآية ونظمها؛ لأن تجافي الجنوب عن المضاجع كناية عن ترك النوم أو النهوض من النوم في جوف الليل خشوعًا لله يدعونه خوفًا وطمعًا.

ومع نزول الآية في هذا السبب الخاص، فلقد وضعت في المكان الملائم لها في سورة السجدة، حتى نجدها شديدة الالتحام بسياقها، فقبلها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ فإذا نظرنا إلى موقع تلك الآية التي نزلت في المتهجدين مما قبلها في سياقها نجدها مكملة لها في أحسن الأحوال.

ذلك لأن أعظم أحوال هؤلاء الساجدين المسبحين الخاشعين إنما يكون في أوقات الغفلات والغفوات، فحينها ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا

وَطَمَعًا﴾ ويهون عليهم ما لا يهون على كثير من الناس ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ وكل هذا بلورة لحديث العلماء عن موقع آية ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ مما قبلها، فقد قالوا بإنها في موقع الحال، وهذا يعني أن تلك الآية التي نزلت في مناسبة خاصة قد اتخذت موقعًا في سورتها حتى صارت جزءًا متصلاً في كلٍّ منسجم متلاحم الأجزاء، ولقد سبكت سبكًا محكما في سياقها حيث وقعت حالاً مما قبلها.

ولقد ذهب بعض المفسرين كأبي السعود والرازي إلى القول بأن جملة ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ مستأنفة لبيان بقية محاسن الذين سبق ذكرهم في الآية السابقة، وهم الذين إذا ذكروا بآيات ربهم ﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ كأنه يريد: وهم أيضًا الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفًا وطمعًا، ولست مع هذا الرأي الذي يجعل الآية الأولى دالة على مرتبة أعلى، وأن التالية دالة على مرتبة أقل؛ لأن الآيتين متصلتان اتصالاً أكثر وثاقة من هذا، فهما لا تتحدثان عن صنفين لكل منهما منزلة، وأن المرتبة الأولى أعلى؛ لأن هذا يخالف عادة الأسلوب القرآني في الترقي عند ذكر المنازل، وإنما تتحدث الآيتان معًا عن المؤمنين الصادقين الذين إذا ذكروا بآيات ربهم خروا سجدًا وسبحوا بحمد ربهم في أوقات الغفلات والسهوات والغفوات؛ حيث تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفًا وطمعًا. . . ولو أنه أراد بهذا منزلة تالية، لعطفها بالواو على ما قبلها، لكنه لم يعطف بما يشير إلى أن التالية حال ملتبسة بما قبلها.

وعلى هذا يتبين أن قوله: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ وإن كانت قد نزلت في المتهجدين الذين يقومون في جوف الليل للصلاة كما نقل عن الحسن ومجاهد، فإنها على الرغم من هذا قد جاءت على نحو من الصياغة والنظم يجعلها منسكبة في سياقها بحيث تصير جزءًا لا يستقل، وهذا من الإعجاز الذي يتبلور في تكييف الآية التي تتعلق في نزولها بسبب خاص لتصير مسبوكة في سياقها بحيث تتحول من كونها كُلًا منفصلاً خاصًا بسبب من الأسباب إلى كونها جزءًا في كل متصل وكأنها لا تختص بذلك السبب.

٦- الإيجاز المعجز:

كان العرب يوجزون ويطنبون بحسب مقتضيات الأحوال، ولكنهم كانوا إلى الإيجاز أميل، وأدب العرب وتاريخهم وطباعهم شاهد على هذا، لكن القرآن الكريم وصل إلى مستوى من الإيجاز ليس له نظير في كلام العرب، وكل طرق النظم القرآني تؤدي إليه، ولا نستطيع أن نجزم بأن كل آيات القرآن الكريم على مستوى واحد من الإيجاز المعجز، فربما تفاوتت مستويات الإيجاز فيه حسب المقامات، فلكل مقام مستوى يناسبه من الإيجاز؛ وإذا وجد في القرآن ما نسميه إطنابًا حسب مقاييسنا، فهو أيضًا من الإيجاز؛ لأن المعول عليه في الحكم على كلام الله هو قياس التعبير إلى مراد الله سبحانه من كلامه، ولا يمكن لبشر أن يدعي الإحاطة بمراد الله تعالى من كلامه؛ فلا مفر من التسليم بأن القرآن كله إيجاز، ولكن تتفاوت مستويات الإيجاز فيه حسب المقامات.

فإذا جئنا إلى مقامات أسباب النزول، وجدناها لا تنفصل عن منهج القرآن في إيجازه، ولكنا نجد فيه نماذج لتعدد مستويات الإيجاز حسب المواقف، كما نجد فيه وسائل وطرقًا متعددة من النظم تؤدي إلى ذلك الإيجاز المعجز، بل قد يقتضي المقام طي التفاصيل الطويلة في كلمة واحدة تقوم مقام مواقف متعددة. خذ مثلاً قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [سورة المائدة: ١٠١].

فقد «قيل: إن سراقة بن مالك، وقيل: عكاشة بن محصن سأل رسول الله ﷺ قائلاً لما فرض الحج: أفي كل عام يا رسول الله؟ وأعاد السؤال ثلاث مرات، فقال ﷺ: **«ويحك! ما يؤمنك أن أقول نعم؟ ووالله، لو قلت نعم، لوجبت؛ ولو وجبت، ما استطعتم»** وقيل: إن الآية نزلت لمواقف أخرى كانوا يسألون فيها أسئلة لا تكون في الإجابة مصلحة لهم، وإنما تكشف أسرارًا تسوؤهم كسؤال عبد الله بن حذافة، وكان إذا لاحى الرجال دعوه لغير أبيه، فقال: يا رسول الله، من أبي؟ فقال ﷺ: **«أبوك حذافة بن قيس الزهري»** وقام آخر قال: أين أبي؟ فقال ﷺ: **«في النار»** رواه أنس وأبو هريرة.

فمن الواضح من هذه الأسئلة أن النهي في الآية يتناولها جميعًا ويتناول أمثالها مما لا فائدة منه، وإنما قد تسوء الإجابة أحد السائلين؛ فيتمنى أنه لم يستمع إليها، والمهم هنا أن الآية نزلت بسبب تلك المواقف مجتمعة، وقد تجاوزها النص القرآني، فلم يقل: يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن كذا وكذا؛ لأن ذكره يطول، وإنما طواه كله دألا عليه بكلمة واحدة هي «أشياء»، ولا نكاد نجد في اللغة كلمة واحدة تقوم مقام مواقف متعددة تشتمل على مراجعات كثيرة كما قامت كلمة «أشياء» في الآية، وهذا من الإعجاز المعجز في القرآن الكريم.

ومن الشواهد التي نقول فيها بالإطناب، وهي من الإيجاز المعجز قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ﴾ [سورة النور: ٦١].

فقد ورد عن مجاهد أن هذه الآية نزلت ترخيصًا للمرضى والزمنى الذين كانت تطول مدة مرضهم ولا يقدرون على السعي، وكان جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ إذا لم يكن عندهم ما يطعمونهم ذهبوا بهم إلى بيوت آبائهم أو بيوتهم أماتهم أو بعض من سمى الله سبحانه من البيوت في الآية، وكان أهل الزمانة يتحرجون من ذلك.. ويقولون: إنما يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم. فأنزل الله هذه الآية.

وعندما ننظر في الآية بمقاييس البلاغيين في الحكم على الأساليب، نقول: إن في صدر الآية إطنابًا؛ لأنه كرر وأظهر المسند في موطن الإضمار، فقال: ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج، وكان مقتضى الظاهر أن يقول: ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج ولا على المريض، فيحذف من الثاني والثالث لدلالة الأول عليه.

والجواب على هذا أنه لو اكتفى بذكر المسند مرة واحدة مع الأول، لأوهم أن الحرج منفي عنهم جملة عندما يكونون مجتمعين حسب، لكن المقصود نفي الحرج عن كل واحد منهم، سواء كانوا فرادى أو مجتمعين، وقد أكد هذا المعنى بالنص

عليه قرب نهاية الآية فى قوله:

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾.

على أن في الجملة السابقة التي بدأت بها الآية نوعًا آخر من الإيجاز يوجد في كلام العرب على ندرة، ويوجد في القرآن الكريم على كثرة، وهو: الاحتباك[١].

وقد ألحقه البلاغيون في البديع مع أنه مبني على الإيجاز بالحذف، وذلك لما فيه من إيجاز طريف بديع، وسمي بهذا الاسم لأنه مأخوذ من حبك الثوب؛ يعنى: سد ما بين خيوطه من الفرج وشده وإحكامه، شد كما يقول السيوطي، وقد لوحظ هذا في نظم الكلام المسمى بالاحتباك؛ لأن هناك أكثر من حذف في مساحات متقاربة من التركيب، ولكن حسن النظم وإحكام وتوثيق أجزائه لا يجعلك تشعر بالمحذوف؛ لأن ما تبقى من الكلام يدل على المعنى كاملًا؛ لهذا عرفه السيوطي بأنه «أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني، ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول». وإذا أردنا الاختصار، قلنا: أن يحذف من الأول لدلالة الثاني عليه، ومن الثاني لدلالة الأول عليه، ومعنى هذا أنك تجد أمامك تركيبًا قد حذف نصف كلماته، فتقاربت أجزاء النصف الآخر في إحكام وإتقان، وأدت المعنى المقصود كاملًا دون خلل أو تقصير[٢].

ولكي ندرك هذا نعيد المحذوف المقدر في تلك الآية؛ فنرى المعنى: (ليس على الأعمى حرج [في أن يأكل من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم]؛ ولا على الأعرج حرج [في أن يأكل في بيوتكم أو بيوت آبائكم... حتى (بيوت خالاتكم)]؛ ولا على المريض حرج [في أن يأكل من بيوتكم.... إلخ] فحذف كل هذا مرة مع الأعمى ومرة مع الأعرج ومرة مع

---

(١) أصل الاحتباك من حبكت الثوب؛ إذا أحكمت نسجه وشددت خيوطه حتى صار متينًا حسنًا. وكل شيء أحكمته وأحسنت عمله فقد احتبكته . راجع لسان العرب .

(٢) كقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ التقدير: فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة تقاتل في سبيل الشيطان .

المريض لدلالة الطرف الثاني عليه؛ فإذا جئنا إلى الطرف الثاني، وجدنا التقدير (ولا على أنفسكم [حرج] أن تأكلوا من بيوتكم. . . .) إلخ الآية.

فحذف الأكل من الأول لدلالة الثاني عليه، وحذف الحرج من الثاني لدلالة الأول عليه، هذا فضلًا عما حذف بمقتضى العطف، وهو كل تلك البيوت حتى ذكرت مرة واحدة مع آخر معطوف، وحذفت مما قبله ثلاث مرات، فأنت تجد المذكور في النهاية قليلًا جدًا بالقياس للمحذوف، والنظم مع هذا على أحكم ما يكون. وإنما نفى الحرج نفيًا ظاهرًا مع الأعمى والأعرج والمريض، وقدره مع أصحاب رسول الله ﷺ المقصودين بالخطاب في قوله: (ولا على أنفسكم أن تأكلوا) وذلك بالإشارة إلى أن هؤلاء الزمنى والمرضى هم المقصودون أساسًا بالحكم ترخيصًا لهم ورفعًا للحرج الشديد الذي كان يقع عليهم، لاصطحابهم إلى بيوت غير البيوت التي كانوا يقصدونها ليأكلوا فيها، لأنهم كانوا لا يرون حرجًا ممن يعرفونهم ويقصدونهم، فإذا لم يجد الواحد من هؤلاء في بيته شيئًا اصطحب هؤلاء المرضى أو الزمنى إلى بيوت أقربائهم؛ فيكون هذا هو الباعث على الحرج؛ لهذا نص النظم القرآني على رفع الحرج مع هؤلاء الثلاثة؛ أما هؤلاء الذين كانوا يأخذونهم إلى بيوت أقربائهم، فلا يقع عليهم حرج من أنفسهم، وإنما هو حرج قليل لاصطحاب غرباء معهم لبيوت أقربائهم؛ لهذا ناسب أن يظهر الحرج منفيًا مع كل واحد من هؤلاء الثلاثة: (الأعمى والأعرج والمريض)، وأن يقدر مع الفريق الثاني الذي جمع في قوله: (ولا على أنفسكم أن تأكلوا)، ومع أن الحرج مع هؤلاء مقدَّر ملحوظ، إلا أن تقديره يجعله أقل مما لو كان ظاهرًا.

أما ظهور الأكل مع الطرف الثاني (ولا على أنفسكم أن تأكلوا) وحذفه من الطرف الأول (ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج)، فلم يقل هنا مثلًا: ليس على الأعمى حرج أن يأكل إلخ؛ وذلك لرفع المذلة عن أصحاب العاهات هؤلاء، ومنعًا لوقوعهم في الحرج في مقام يرفع عنهم فيه الحرج.

ثم إن الحذف على هذا النحو أحكم للنظم وأوثق للمعنى.

ومن إعجاز الاحتباك:

قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٨٨].

نزلت هذه الآية في «رجال من المنافقين كانوا يتخلفون عن الغزو ويفرحون بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ وإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتذروا إليه، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا». (رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن الآية نزلت في اليهود دعاهم رسول الله ﷺ وسألهم عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره، ثم استحمدوا إليه بما أخبروه، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم.

وصياغة تلك الآية ترشدنا إلى الإيجاز بالاحتباك؛ لأن الفعل (تحسبن) ينصب مفعولين، وجملة الصلة بعده هي المفعول الأول؛ أما المفعول الثاني الذي يتمم المعنى، فإنه مقدر يدل عليه ما بعده، ثم إن الفاء في (فلا تحسبنهم) واقعة في جواب شرط محذوف يدل عليه، ما قبله، فتقدير الآية إذن: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ ناجين من العذاب، إنهم إن فعلوا هذا ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

فقد حذف من الأول (المفعول الثاني) لدلالة الكلام الثاني عليه، وحذف من الثاني (فعل الشرط) لدلالة الأول عليه والمحذوفان متجاوران، وهذا من الإيجاز المعجز لوفرته في القرآن الكريم وندرته في كلام العرب، ولعل سره يتبين في تماسك بناء الكلام وفهم المقصود بعد حذف ما حذف على الرغم من كثرته، ثم إن من يتسمع للمذكور والمحذوف معًا يجد وعيدًا شديدًا وتحذيرًا عنيفًا، وحكم بالعذاب المضاعف الذي تتكرر أصواته حذفًا وذكرًا.

٧- التصدير المعجز:

التصدير هو رد العجز على الصدر، وهو أن يكون نهاية الكلام مردودًا على بدايته في اللفظ والمعنى، بحيث ترى تناغم أطراف الكلام وشدة اتصال بعضه ببعض، وهو يعطي للنظم تناسقًا وجاذبية خاصة، ويحدث إيناسًا وارتياحًا، فضلًا عن الفوائد المعنوية والأسرار البلاغية، وليس من الضروري أن يكون عجز الكلام

هو نهاية بيت أو آية، بل يتسع مفهوم العجز ليكون نهاية فكرة قصيرة حتى لو كان هذا في أثناء البيت أو في أثناء الآية، وهذا ما يفهم من كلام البلاغيين وشواهدهم، كقوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [سورة الأحزاب: ٣٧].

ويهمنا الآن بيان المستوى الذي يكون معجزًا من الإرصاد أو التصدير، فهو الذي يكون من طرفين متماثلين يحيطان بالفكرة، وكأن هذه الفكرة جوهرة ثمينة قصد الربط عليها بطرفين متماثلين حتى تظل مصونة مكنونة؛ وذلك أن تأتي لها من أحد الطرفين، وإن كان النظم المعجز يقتضي أن تسير مع البداية التي بدأ بها.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ [سورة النور: ٥٨].

ورد عن ابن عباس في سبب نزول هذه الآية أن غلامًا من الأنصار دخل على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال عمر: يا رسول الله، وددت لو أن الله تعالى أمرنا ونهانا في حال الاستئذان؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

واللافت أن هذا الحكم الذي يتدخل في تنظيم شكل من أشكال العلاقات الاجتماعية في الإسلام قد جاء في نظم خاص يجعل كل مسلم يتلقاه بالقبول والارتياح، من ذلك:

١- أنه أجمل عدد المرات التي يجب فيها استئذان الصبيان والعبيد أو الخدم قبل الدخول، فقال: (ثلاث مرات)، ثم فصل هذه المرات، وهذا الأسلوب يسمى بالتوشيع، وهو نوع من التفصيل بعد الإجمال، وأهميته تتمثل في أن الإجمال يؤدي إلى الإثارة والتشويق والتهيئة النفسية، وفي التفصيل بيان وإيضاح وتمكين للمعنى في النفوس.

٢- والمتابع لتفصيل هذه المرات يفهم علة وجوب الاستئذان فيها؛ فهي أوقات انكشاف العورات، والإسلام يحرص على تربية أبنائه على الحياء، ولو أنه ترك هذه المسألة دون قيود، لولدت في نفوس الصبيان والخدم اعتياد رؤية العورات دون استنكار، ولأدت إلى قلة الحياء عندهم، فضلًا عن الحرج الذي يقع فيه الرجال، وقد نص في بعض هذه المرات على تلك العلة أو ذكر ما يشير إليها في قوله:

﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾، ثم نجد النظم القرآني ينص على ما نفهمه من تلك الأوقات، وسبب وجوب الاستئذان فيها في قوله: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ وهذا ما سبق الحديث عنه من ولادة المعاني بعضها من بعض، وهو من الإعجاز.

٣- أحاط طرفي الأوقات بعددها، وهذا هو جوهر التصدير، فبدأ بقوله: (ثلاث مرات) وبعد تفصيلها قال: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ وهو من التصدير المعجز؛ لأنه يشد على المعنى بطرفين متماثلين أو متشابهين، وفي الطرف الثاني تعديل فيما أضيف إليه العدد لزيادة فائدة، فقال: (عورات) بدلاً من تكرار (مرات)، وذلك للتأكيد على أن الحكم الذي تتضمنه الآية لا يتعلق بالأوقات في ذاتها، وإنما لما يلابسها من راحة واحتمال انكشاف العورات، ولأن هذا الاحتمال يقوى عند الظهيرة والحر وطرح الثياب، قال: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ فضمن هذا الوقت ما يدل على أنه أقوى من غيره في احتمال ظهور العورة، فوضع الثياب يستلزم ظهورها على سبيل الكناية، ولكن لا يعني هذا الترخص في الوقتين الآخرين اللذين ذكرهما ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾ ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾؛ ولهذا عاد فنص على أنها الثلاثة كلها عورات ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾.

وعلى هذا فقد نص على العدد أولاً (ثلاث مرات) للتحديد مع الإشارة إلى التيسير في الحكم؛ لأنه لم يعممه في كل الأوقات، ثم نص على العدد ثانيًا مع إضافته للعورات ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ ليتضمن مع ما سبق ضربًا من التعليل، ونوعًا من التشديد على تلك الأوقات؛ لأنها أصبحت عورات، ويقرن بهذا لفتة تجعله من التشديد الذي نقبله ونألفه ونحبه ونرغب فيه، وذلك في قوله: (لكم) فاعتبار تلك الأوقات عورات من أجلنا ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ لتربية أبنائنا تربية صحيحة أساسها الحشمة والحياء، وحتى لا تسقط هيبتنا في أعين الخدم والعبيد، وهم عناصر تتدخل في تشكيل المجتمع الإسلامي، فلا بد أن يكون تربيتهم هم أيضًا على الحياء والحشمة.

إنك لا تجد مثل هذا في كلام بشري؛ تصدير يحيط بالمعنى من طرفيه ليحافظ عليه، ويظهره في أبهى أداء، ولا يقتصر على الحسن اللفظي، وإنما يضيف الطرف الثاني معنى جديدًا، ففيه التعليل، وفيه التشديد، وفي جوار التشديد ترغيب وتحبيب، إنه أسلوب لا طاقة لبشر بمثله، فهو من الإعجاز.

٨- الإرصاد المعجز:

لا فرق بين التصدير والإرصاد إلا في أن الأول رد للعجز على الصدر في اللفظ والمعنى، لكن الثاني رد للعجز على الصدر في المعنى حسب، فما قيل عند التصدير من أهمية وقيمة ينسحب حتمًا على الإرصاد، ومن شواهده في مقامات أسباب النزول قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [سورة النور: ٥٥].

عن أُبيّ بن كعب قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة هو وأصحابه، رمتهم العرب عن قوس واحدة، فكان المسلمون لا يبيتون ولا يصبحون إلا في السلاح، فقالوا: ترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله عز وجل، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

واللافت بداية أن الله سبحانه عندما وعد بالاستخلاف في الأرض، وتمكين هذا الدين، وتحقيق الأمان بعد الخوف إنما جعل هذا الوعد للذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ فنجد أن هذه النهاية تلتفت إلى البداية وترتبط بها وترد إليها من جهة كون عبادة الله وحده لا شريك له وجهًا آخر للمعنى في قوله سبحانه: ﴿ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

فلما كان استخلاف الأرض وتمكين الدين والأمان بعد الخوف شأنًا عظيمًا، أحيط بطرفين يلتقيان في معنى واحد، أو من واد واحد، فالإيمان يثمر العمل الصالح، وهو الذي يثمر العبادة المخلصة لله وحده، ولا فرق بين الثمرتين سوى في شمول العمل الصالح؛ لأنه يتناول العبادة، ويتناول كل حركة نافعة في الحياة وتؤدي إلى عمارة الأرض وتمكين هذا الدين، وذلك يشير إلى أن استخلاف الأرض وتمكين الدين لن يحدث بمعجزة والمسلمون ينتظرونها، وإنما يحدث هذا بالسعي في الأرض وتعميرها، ونشر دين الله بالأسوة والقدوة الحسنة، وغير ذلك من كل عمل صالح يثمره الإيمان.

والذي أقصده هنا أن عجُز الآية يلتفت إلى صدرها ويلتقيان في أصل المعنى،

وهذا ما يسمى بالإرصاد ويسمى بالتوشيح والتسهيم، ولا يكاد يلتفت إليه ولم يأخذ حظه كالتصدير؛ لأن التصدير ظاهر واضح لرد اللفظ فيه على نفسه ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ وليس كذلك الإرصاد؛ لأنه رد لمعنى في العجز على مثله في الصدر كما سبق.

وهنا في الآية التي معنا نجد العجز مردودًا على معنى الصدر حتى يصبح النظم كدائرة استوى طرفاها وتجانسا، أو اقتربا واتصلا بالمعنى المركزي كالاتصال بين السبب والمسبب أو المقدمة والنتيجة؛ لأن استخلاف الأرض والتمكين في الدين والأمان من بعد الخوف نتائج أحيط طرفاها بالمقدمات الضرورية والأسباب الحتمية:

الطرف الأول: إيمان وعمل صالح.

والطرف الثاني: عبادة مخلصة لله.

وهذا يدخل في ذاك ويؤكده ويخصصه.

٩- التصوير المعجز:

التصوير في القرآن الكريم وسيلة من الوسائل المرادة لله سبحانه في تقديم المعاني الدينية وتقريبها إلى الأفهام وتهيئة الفكر لاستقبال هذه المعاني عن طريق التأثير النفسي والوجداني، والسمة التصويرية في القرآن الكريم تنسجم مع طبيعة اللغة العربية المصورة بمفرداتها وجملها ومجازاتها وتشبيهاتها وكناياتها، كما تتلاءم مع طبيعة القوم الذين كانوا يعنون بالبيان عناية شديدة، وكانت تأخذ بألبابهم الفكرة المصورة والحكمة المحبرة؛ ولهذا جاء القرآن معجزًا بصوره وتراكيبه.

فالصورة القرآنية موظفة لتوصيل الحقائق الدينية، فضلًا عن كونها صورة فنية راقية تبلغ في التميز والتفوق درجة الإعجاز، سواء ما كان منها مندرجًا تحت الألوان البلاغية المعروفة أم ما كان جاريًا على الحقيقة[1].

والقرآن الكريم عندما يستعين في توصيل معانيه بالصور المختلفة من تشبيه أو استعارة أو كناية فإن الوسائل المصورة لا تكون معجزة بذاتها ولكن بنظمها وسياقها

---

(١) راجع أساليب البيان والصورة القرآنية للمؤلف ٤٥٤ دار والي الإسلامية بالمنصورة .

الذي يحسن توظيفها، ويجعلها في الموقع الذي تستمد منه القيمة والأثر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ﴾ [سورة البقرة: ١٨٧].

فقد كنى عن الجماع وإتيان النساء بالرفث جريًا على منهج القرآن في الستر والتغطية للعلاقة الزوجية الخاصة باللفظ المناسب حسب حاجة السياق، فسياق يكنّي عن تلك العلاقة بالمباشرة، وسياق يكني بالإفضاء، وسياق يكني باللمس، وسياق يكني بالدخول، وسياق يكني بالتغشي وهكذا، مع أن المعنى المكنَّى عنه في كل هذه الكنايات واحد، وذلك لأن لكل لفظ من تلك الألفاظ خصوصية تناسب السياق الذي ورد فيه.

وفي آية البقرة التي معنا خص الرفث دون غيره من ألفاظ الكناية عن تلك العلاقة، وذلك لخصوصية المقصود في هذا السياق، والذي لا يؤديه غير الرفث، ذلك أن الله سبحانه أراد أن يُضَمِّنَ حكم الإباحة المفهومة من قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ﴾ معنى آخر لا يدل عليه إلا لفظ الرفث، وهو استهجان ما كان من بعض المسلمين قبل الإباحة من مجاوزة أو اختيان كما سماه القرآن أو على حد تعبير الرازي: «استهجان ما وجد منهم قبل الإباحة كما سماه اختيانًا لأنفسهم»[(١)].

وهذا الاستهجان ما كان يفهم لولا خصوصية في الرفث؛ لأنه بمعنى قول الفحش والتبسط الذي لا يجوز إلا من المرأة والرجل عند الجماع.

وبهذا تتضمن الإباحة الآن استهجان ما كان بلفظ واحد، ولا يوجد لهذا نظير في كلام العرب، وإنما أتاح السياق والنظم والملابسات إفادة ذلك المعنى المفهوم من لفظ الرفث بالنظر إلى خصوصية ما فيه من دلالة.

وفي قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ﴾ هذه الجملة تعليل لإباحة

---

(١) التفسير الكبير ٥/ ١٠٥ .

إتيان النساء في ليل رمضان، ويشير مضمونها إلى إعذار العليم الخبير للضعف البشري، وعلمه سبحانه بطبيعة العلاقة الخاصة بين الرجل وزوجه والتي يتأجج أوارها ويتوفر أسبابها ليلاً عندما يخلوان بما يصعب معه تنفيذ الحكم السابق والذي كان يحرم الجماع بعد العشاء إلى مغرب اليوم التالي[١] فكون كل من الزوجين كاللباس للآخر وما يعنيه هذا من الالتصاق والاشتمال يجعل من الصعب منعهما من الجماع عند وجود دواعيه، فهذا التشبيه يبين مسوغ الإباحة، وفي الوقت نفسه يشير إلى ما ينبغي أن تكون عليه العلاقة الزوجية حتى تؤدي إلى إعفاف كل طرف للآخر.

إن هذا التشبيه متعدد الأهداف، فهو يبرر إباحة ما كان ممنوعًا تبريرًا يلتمس العذر فيه للزوجين، وفي الوقت نفسه يقدم نموذجًا للعلاقة الزوجية الناجحة التي تحقق الغاية من العفاف والاستقرار، وهي تلك العلاقة التي لا تسعى إلى قضاء شهوة حسب، وإنما هي تلك العلاقة التي يتحقق فيها الامتزاج النفسي والوجداني والتي يكون كل طرف كأنه قد لبس الآخر.

وقد ساهم نظم التشبيه في أداء هذه المعاني بحذف أداة التشبيه حتى يلتصق الطرفان في اللفظ إشارة إلى الاندماج في الواقع، وحذف الوجه ليتناول كل الوجوه الممكنة والمستمدة من صفات المشبه به «لباس» كالستر والحماية والعفاف والزينة فضلاً عن الامتزاج والاشتمال.

فهذا التشبيه فريد في بابه، ولا ترى نظيرًا له في كلام البشر، ثم انظر بعد هذا إلى قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾، تجد الأمر بالأكل لإباحة ما كان محظورًا من الامتناع عن الأكل بعد صلاة العشاء حتى مغرب اليوم التالي، وقد نزلت الآية بداية من غير ذكر لفظ الفجر، كما ورد في صحيح البخاري[٢] فيكون قوله بداية: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ

---

(١) علم الله سبحانه أزلي، ولقد كان يعلم ما سيكون قبل الحكم الأول، وإنما شرعه ابتداء ليظهر بعد التخفيف فضل الله فيشكرونه ويحمدونه، ويعلمون بعدم العذر في أي تجاوز بعد ذلك التخفيف . والله أعلم .

(٢) الصحيح المسند من أسباب النزول ٣٢ .

﴿ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ من غير لفظ الفجر على سبيل التجوز الذي استعير فيه الخيط الأبيض للضياء والخيط الأسود للظلام، لكن المعنى التبس على بعض الصحابة، فأخذوا بظاهر اللفظ، وربطوا خيطًا أبيض وخيطًا أسود في أرجلهم، فلم يتبين أحدهما من الآخر إلا بعد انفضاح النهار قرب طلوع الشمس وهم يأكلون ويشربون. وفي الصحيحين وغيرهما عن عدي بن حاتم أنه جعل تحت وساده خيطين أبيض وأسود، وجعل ينظر إليهما، فلم يتبين له الأبيض من الأسود، فعدا على رسول الله ﷺ، فأخبره فقال: «**إن وسادك إذًا لعريض، إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل**».

وحاصل هذا أن المعنى المجازي لم يفطن إليه بعض الناس لعدم ذكره قرينة لفظية دالة (قبل نزول: من الفجر) مع أن قرينة السياق دالة لمن يعتبر، وقد فطن إليها بعض الصحابة، ونبه رسول الله ﷺ للمراد بقوله لعدي: «**إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل**» ورحمة من الله بعباده ومراعاة لمقضيات كل الأحوال نزل قوله: (من الفجر) مكملًا، فصار المجاز تشبيهًا لكنه غير صريح؛ لعدم مجيئه على الطريقة المألوفة التي يصرح فيها بالطرفين والأداة؛ وإنما يتضمن تشبيه ما يكون في الفجر من ضياء يلوح من بين الظلمات بالخيط الأبيض الذي يتبين من الخيط الأسود، وقد اقتضى المعنى هذه الصياغة وهذه العناصر خصوصًا لأن كون المشبه به هو الخيط الأبيض والخيط الأسود مع ما هو معروف من دقة الخيط، فإن هذا يشير إلى تلمس أقل الضياء من خلال الظلام ليكون بداية الامتناع عن الأكل والشرب، وليس انتظارًا للضياء الكامل.

وبهذا يتضح خصوصية التصوير القرآني، ولا سيما عندما يكون بيانًا للأحكام، مع ما تحتاج إليه الأحكام من الألفاظ المحددة، فقيام التشبيه - وهو ضرب من التصوير - بهذه المهمة في القرآن شيء عجيب، ولا يمكن أن نتصور أن هناك لفظًا يحدد البداية المقصودة للصوم وتناسب القوم كما يحدده لفظ ذلك التشبيه.

والتصوير في مقامات أسباب النزول يقوم بدور آخر في تعرية أصحاب الأفكار الضالة والنزعات الفاسدة؛ وذلك كقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [سورة مريم ٧٧: ٧٨].

ورد في البخاري عن سبب نزول هاتين الآيتين أن العاصي بن وائل جاءه خباب يطالبه بدَيْن عليه، ويخوفه بالبعث بعد الموت، فقال العاصي على سبيل الخداع أو الاستخفاف والسخرية: عندما أبعث فسيكون لي مال وولد وسأعطيك هناك دَيْنك[١].

ويرد الله سبحانه بهذه الآية التي يستوقفنا منها الاستفهام في قوله: (أطلع الغيب)، فلقد نزل ذلك الكافر منزلة من يزعم قراءته للغيب، ثم أُنكِرَ ذلك ووُبِّخ عليه، لكن القرآن عبر عن هذا بطريقة حسية مصورة تبرز ذلك الشخص في صورة ساخرة ردًّا على استخفافه وسخريته، وذلك بإظهاره في صورة من ارتقى بسلم وصعد حتى أشرف على الغيب وتمكن منه فاستقرأه وعرف ما سيكون له عندما يبعث.

كل هذا في الفعل (أطلع)، وهو يزيد في المعنى عن طلع؛ لأن (طلع) تعنى مجرد الصعود، لكن (أطلع) تعنى الصعود بقوة والارتقاء على وجه العلو، كقوله سبحانه: ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ الْجَحِيمِ﴾ [سورة الصافات ٥٤: ٥٥].

أي: صعد عاليًا في درجات الجنة حتى تمكن من رؤية القرين الذي كان يكذب البعث يتلظى في قعر الجحيم.

ومن الواضح أن هذا الفعل (أطلع) يرسم في الذهن صورة مركبة يتابعها الخيال، فتثير في النفس سخرية من ذلك الذي ادعى حصوله مستقبلاً على ما يطمع فيه، فكأنه صعد مجتهدًا إلى أعلى لاستشراف الغيب حتى تمكن منه وقرأ ما فيه، وهذه الصورة الساخرة تثير النفور من ادعاء ذلك الكافر الذي تجاوز فيه حدوده؛ لأنه ادعى ما لا طاقة له به، ولا قدرة له عليه، على أن هذا يستتبع تصوير الغيب منشورًا لينظر فيه هذا السفيه.

إن هذه الصورة المركبة ذات العناصر الممتدة في المكان والزمان والتي تصل بين الأرض والسماء وتحفل بالحركة المثيرة للسخرية والاشمئزاز من ذلك الشخص

(١) الصحيح المسند بتصرف ١٥٠ .

- قام برسمها وتكوينها في الخيال فعل واحد في جملة واحدة من كلمتين (أطلع الغيب).

فما بالك إذا كان هذا واردًا في إطار الأسلوب الإنشائي الاستفهامي المقصود منه التوبيخ والتعجيب وغير ذلك من المعاني والمشاعر التي تتولد في النفس من تلك الصورة العجيبة؟

هذا فضلًا عما في الجملة من التعريض بكذبه وجراءته، ولا شك أن هذا من الإعجاز في التصوير والنظم حيث أتت الجملة موجزة مصورة ومصوغة بطريقة أدت إلى تلك الدلالات التي يزاحم بعضها بعضًا في تلاق وتوافق.

فإذا انضم إلى الجملة السابقة قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾، كان بذلك إشارة إلى أنه لا يُدَّعي ما ادُّعي إلا عالم بالغيب أو متخذ من الله عهدًا بتحقيق ما ادعاه..

ويلفتنا أنه قال في التعبير عن هذا: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾، ولم يقل: اتخذ من الرحمن عهدًا، وذلك للإشارة إلى أنه بادعائه كأنه ارتقى مرتقى صعبًا كما تؤذن به العندية من ظرفية مكانية، والتعبير يتضمن أكثر من مستحيل كاتخاذ العهد، وكونه عند الرحمن، فيكون ذلك الشخص بادعائه ما ادعى كأنه جاوز المستحيلات، وذلك لا يشير إلى سفاهته وغبائه حسب، وإنما يرسم له صورة مضحكة.

والتعبير بالرحمن يشير إلى حلم الحليم على سفاهة السفيه؛ ولولاها لبطش به وأخذه في لحظتها أخذ عزيز مقتدر، لكن الرحمن الذي تتسع رحمته في الدنيا للمؤمن والكافر لا يعاقبه في وقتها، وإنما يسجل ذلك عليه، ويمد له حبل العذاب استدراجًا وإمهالاً حتى يكون البطش عسيرًا يوم القيامة ﴿كَلَّآ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [سورة مريم ٧٩: ٨٠] أي: نرث ماله وولده الذي قاله وادعاه لنفسه، يقول ابن عاشور: «ومعنى إرث أولاده أنهم يصيرون مسلمين فيدخلون في حزب الله، فإن العاص ولد عمرًا الصحابي الجليل وهاشمًا الصحابي الشهيد يوم أجنادين، فكانت هذه بشارة للرسول ﷺ ونكاية للعاصي بن وائل»[1] وبذلك يجتمع على هذا الفعل (نرثه) نوعان من

(١) التحرير والتنوير ١٦/ ١٦٣ .

الإعجاز:

الأول: إعجاز بياني؛ لأنه تصوير باستعارة لا نظير لها في كلامهم.

الثاني: إعجاز غيبي؛ لأنه سبحانه يخبر بذلك قبل أن يقع وقد وقع، فسبحان علام الغيوب، وهو عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ثمرات النظم المعجز:

هناك وجوه كثيرة للإعجاز ظهرت قديمًا وحديثًا، كلها إذا تأملناها وجدناها من ثمرات النظم المعجز، مثل: تكاثر الدلالة، والإعجاز الغيبي، والإعجاز التشريعي، وعزة الربوبية أو روح التراكيب والانسجام الصوتى، فهذه الوجوه لو قلنا: إنها بذاتها معجزة، لواجهتنا بعض المشاكل، مثل: عدم الاطراد، فليس في كل الآيات أو السور أمور غيبية أو تشريعية مثلاً مع أن شرط المعجز أن يكون موجودًا في كل القرآن وفي أقل ما يتحقق به الإعجاز وهو أقصر سورة كوجوده في أطول سورة، وهذا لا يعني استبعاد الأمور الغيبية أو التشريعية من الإعجاز؛ لأنها من أعمدة القرآن الكريم التي يعتد بها ويعتمد عليها؛ لقوله سبحانه من سورة هود: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ [سورة هود: ٤٩]، وقوله سبحانه في بعض نصوص التشريع: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [سورة البقرة: ٢٢٩]، وقوله: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢٣٠].

وهو أسلوب يعكس الاعتداد والاعتماد، فكيف لا نعتد بها ولا نعتمدها؟ لكنا في الوقت نفسه لا نقول: إنها معجزة بنفسها، ولكنها معجزة بنظمها؛ أي: أنها من ثمرات النظم المعجز؛ فلولا توخي طرق وأساليب خاصة من النظم القرآني، لما كان هناك إعجاز غيبي ولا إعجاز تشريعي، وسيتضح هذا بالشواهد فيما يلى عند الحديث عن هذين الوجهين أو هاتين الثمرتين، فلنبدأ بأقدم تلك الثمرات ظهورًا.

أولاً: تكاثر الدلالة:

هذا من أبرز ثمرات النظم المعجز، والدلالة في القرآن تتكاثر لمن فطن لغايات ذلك النظم المعجز، فلم يقف عند ظاهر اللفظ، ولا اكتفى بأقرب وجوه النظم، وإنما تترادف المعاني لمن تبصر واستبطن، وعرض الآية على فكره ووجدانه في

أوقات الصفاء الذهني والنفسي، وكان واعيًا بكون الآية القرآنية حلقة في سلسلة المعاني الممتدة، وأنها تدور في إطار غرض عام، وتعطي عند ارتباطها بسياقها أضعاف ما تعطيه وهي معزولة عن ذلك السياق.

عند استحضار كل هذا تجد المعاني القرآنية تتكاثر عليك؛ فلا تدري بماذا تبدأ وبماذا تنتهي على حد قول الشاعر:

تكاثرت الظباء على خراش فلا يدري خراشٌ ما يصيد

ولا ريب في أن كل وسائل النظم القرآني وطرقه تؤدي إلى تكاثر الدلالة، ولكني في هذا المقام أعرض نماذج مما تيسر لي في مقامات أسباب النزول، فمن وسائل النظم التي تؤدي إلى تكاثر الدلالة في هذه المقامات.

١- التضمين والحذف:

وهما ظاهرتان معروفتان ومنتشرتان في النظم القرآني، ويمكن ملاحظتهما معًا فى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ﴾ [سورة الأحزاب: ٥٣].

وردت روايات متعددة في سبب نزول هذه الآية حاصلها أن بعض المسلمين كان يأتي إلى بيت رسول الله ﷺ وينتظرون الطعام حتى إذا طعموا لم يقوموا - وكان ذلك قبل نزول آية الحجاب ونساء النبي ظاهرات لهؤلاء - وكان ذلك يؤذي رسول الله ﷺ. وروى البخاري عن أنس قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله، يدخل عليك البر والفاجر؛ فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب؛ فأنزل الله تعالى آية الحجاب(١).

ومن الواضح أن بعض المسلمين كانوا يدخلون بيوت رسول ﷺ من غير استئذان، وأن ذلك كان من أجل الطعام؛ ولهذا جاء النهي عن دخول بيوت النبيﷺ إلا بإذن للطعام ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ مع أن المقصود هو الاستئذان مطلقًا لطعام أو لغيره، وإنما خص الاستئذان من أجل

---

(١) أسباب النزول ٢٤٨ .

الطعام؛ لأن دخول هؤلاء كان من أجله في الغالب، وكأنه سبحانه أراد: لا تدخلوا بيوت النبي لطعام إلا أن يؤذن لكم إليه، والمراد الاستئذان مطلقًا كما سبق، والشاهد هنا في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾، فإن الفعل (يؤذن) يتعدى في الأصل بحرف الجر «في» أو «الباء»، يقال: أذن له في الدخول أو بالدخول، ولا يقال: أذن له إلى كذا إلا لسر وإشارة إلى غرض ما، وبالنظر في الآية نجد هذا السر يكمن في تضمين الفعل (يؤذن) معنى فعل آخر يتعدى بإلى ويدل السياق عليه، والسياق هنا يدل على أن ذلك الفعل المضمن هو «تدعون» ويكون الفعل المذكور مرادًا ويدل ذكره على هذا، والفعل المضمن مرادًا كذلك ويدل حرف الجر «إلى» عليه، والتقدير:

يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن تُدْعَوا إلى طعام ويؤذن لكم بالدخول.. وهذا يعني أن لا يأتي الشخص بيت النبوة إلا بدعوة ولا يدخل إلا باستئذان، فالدعوة للحضور والاستئذان للدخول، كل هذا يدل عليه تعدي الفعل (يؤذن) بحرف الجر (إلى) وهو في الأصل لا يتعدى إليه مما يدل على التضمين.

- والتضمين موجود في كلام العرب الفصيح، ولكنه في القرآن معجز بطريقة خاصة في نظمه، وتتلخص هذه الطريقة هنا فى التوازن الملحوظ بين قرائن الفعلين (المذكور والمضمن)، فالفعل (تدعون) مضمن وكأنه مصرح به موجود وقرينته (إلى)، والفعل (يؤذن) موجود مقصود، وقرينته (لكم) وقد تبين ما يدل عليه هذا التضمين من دلالات إضافية، وتتلخص في أن الحضور لبيت النبوة للطعام لا يكون إلا بدعوة، والدخول عمومًا لا يكون إلا باستئذان، ولعلنا نلحظ من الجار والمجرور (لكم) إذا استحضرنا معها الفعل المضمن (تدعون) نلحظ الإشارة إلى قصد تحديد المدعو، فلا يدخل واحد ضمن دعوة آخرين على سبيل التبعية، بل لا بد أن توجه إليه الدعوة. هذا ما يشير إليه قوله: (لكم)؛ ولو قال من غيرها: «إلا أن يؤذن إلى طعام»، لما أفاد هذا التحديد. ثم إننا لا نجد قلقًا من توالي حرفين في قوله: (يؤذن لكم إلى...)؛ ولو وجد هذان الحرفان متواليين في نظم بشري، لأدى إلى قلق كبير.

وهكذا نجد استعمال حرف الجر (إلى) والتضمين الناشيء عنه يؤدي إلى غزارة

الدلالة وتكاثرها، وتولد بعضها من بعض فضلا عن النظم المعجز.

أما الحذف في الآية والذي يدل على تكاثر الدلالة، فنجده في قوله: (ولكن إذا دعيتم فادخلوا)، وقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن هذه الجملة استدراك من النهي قبله في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾.

لكني أستبعد هذا التخريج لسببين:

الأول: طول المسافة بين الاستدراك والمستدرك منه «النهي».

الثاني: أن الاستثناء في الآية ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ يقوم بمهمة الاستدراك؛ لأن معنى الاستثناء مع ملاحظة ما فيه من تضمين: ولكن إذا دعيتم وأذن لكم فادخلوا، وإلا فما فائدة الاستثناء؟ وهنا يلوح السؤال عن موقع قوله: (ولكن إذا دعيتم فادخلوا)، وهل هو تكرار للمعنى الموجود في الاستثناء؟

والحق أنه لا تكرار، ولكن هذه الجملة استدراك من نهي محذوف يدل ما سبق عليه؛ لأن التقدير والله أعلم: لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام، ولكن إذا دعيتم فادخلوا، ويكون هذا من إعادة النهي مقدرًا، وذلك للأغراض التالية:

١- التشديد على النهي السابق بذكره مرتين: مرة ملفوظًا به، ومرة مقدرًا، وذلك للتأكيد[1] على ضرورة الالتزام به؛ لأن بعض الصحابة كانوا قد ألفوا الإتيان لبيت النبوة من غير دعوة، والدخول من غير إذن، ومحادثة نسائه قبل آية الحجاب، وكان من الصعب التخلي عن تلك العادة التي ألفوها، فشدد في النهي وأكده بإعادته مقدرًا لقسر النفس على الالتزام به، ومخالفة ما اعتادته وما ألفته.

٢- التأكيد على ألا يكون الدخول إلا بدعوة - أي أن يكون المجيء بقصد الطعام مسبوقًا بدعوة - وهذا واضح من ذكر الإذن مرة، وذكر الدعوة مرتين: الأولى مضمنة فى فعل الإذن بدليل التعدية بحرف الجر (إلى).

والثانية مصرح بها في قوله: (ولكن إذا دعيتم فادخلوا).

---

(١) والتأكيد بإعادة الكلام لفظًا أو تقديرًا من أساليب القرآن الكريم .

وسبب التشديد في الدعوة دون الإذن أنهم كانوا قد تعودوا الاستئذان إلى حد ما لسبق الأمر به في سورة النور التي نزلت قبل سورة الأحزاب حيث قال سبحانه هناك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا. . .﴾ [سورة النور: ٢٧] لكن تلك أول مرة ينهى عن الدخول لطعام من غير دعوة، ولهذا أعاد ذكره تشديدًا عليه، وليحدث نوع من التوازن بين ذكر الاستئذان والنهي عن الدخول للطعام من غير دعوة، فقد جاء هذا مرتين في سورة الأحزاب، وورد ذاك مرتين: مرة في النور ومرة في الأحزاب، وإن كان الأمر في سورة النور عامًا وفي سورة الأحزاب خاصًا، والقرآن كيان كلي توزع المعاني فيه وفق مقاييس محددة وليس حسبما اتفق.

٣- ثم إن إعادة النهي مقدرًا قبل حرف الاستدراك يؤدي إلى اتساق المعنى والنظم.

٤- ولما كان الابتداء بالنهي عن الدخول مما يؤدي إلى الاستيحاش وقد يشق على بعض النفوس في قوله: (لا تدخلوا) لهذا أعاد المعنى في صورة أخف إذ قدر النهي واستدرك بما يفيد الإباحة مع عدم التفريط في ذلك الشرط (ولكن إذا دعيتم فادخلوا).

٥- كل هذه المعاني قد تداعت من التعبير بحرف الاستدراك الذي دل على حذف هو أبلغ من الذكر لما يترتب عليه من معان شتى.

٢- ومن وسائل تكاثر الدلالة الاختصاص بالنفي والاستثناء:

وذلك كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [سورة مريم: ٦٤].

فقد جاء في البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الرسول ﷺ قال لجبريل: «**ما يمنع أن تزورنا أكثر مما تزورنا**» فنزلت هذه الآية على سبيل الحكاية عن جبريل[1].

وخصوصيات نظم هذه الآية يتناسب تمامًا مع ذلك السبب؛ فلو لم يأت

---

(١) الصحيح المسند من أسباب النزول ١٤٩ .

قوله: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ بأسلوب الاختصاص، وبالنفي والاستثناء، لما كان لها موقع، ولما كانت هناك مطابقة لمقتضيات أحوال النزول وأسبابه، ذلك لأن عتاب رسول الله ﷺ لجبريل عندما تأخر الوحي، وقوله: «**ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا**» اقتضى أن يأتي القرآن بالرد الذي ينفي عن جبريل أي اختيار له في توقيت النزول، ويستبعد أدنى احتمال لأن يكون ذلك بتوقيته واجتهاده، وأن تنزله بالوحي لا يكون إلا بأمر الله، والنفي والاستثناء هو الذي يؤدي هذا المعنى، فهو ينفي نفيًا قاطعًا أن يكون نزول جبريل من نفسه، ويثبت ذلك لأمر الله وحده، ولعل ما في النفي والاستثناء من خصوصية الخطاب إلى المنكرين يشير إلى أن رسول الله ﷺ ليس مقصودًا وحده بهذا الخطاب، وإنما يتوجه لفريق من المؤمنين وفريق من المنافقين والكافرين، فالمؤمنون كانوا يتساءلون عن تأخر الوحي قلقًا، والكافرون كانوا يتحدثون تشفيًا وتشكيكًا كقول بعضهم: هجره ربه وقلاه.

فانظر إلى النفي والاستثناء وكيف أدى إلى كل هذه التداعيات والدلالات.

ويلفتنا في هذه الآية قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ فهو عتاب في داخله تلطف وطمأنة؛ أما العتاب ففي نفي النسيان عن رب العزة سبحانه مؤكدًا بصيغة المبالغة (نسيًا)، ورسول الله ﷺ يعلم أن ربه لا ينسى، لكنه لما قلق وتحير نُزِّل منزلة من يظن هذا فعوقب عليه، فالعتاب ليس للظن لعدم وجوده ولكن للقلق والتحير، لكن في داخل هذا العتاب ترفق وتلطف وطمأنة، وذلك مفهوم من التعبير بلفظ الرب مضافًا إلى رسول الله ﷺ[1] (ربك)؛ أي: أن الذي رباك على عينه وتعهدك بالعناية والرعاية ما كان ليتخلى عنك، كقوله سبحانه في سورة الضحى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾.

فقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ جملة قصيرة تضرب بسهمين وتؤدي غرضين معًا في وقت واحد على الرغم من تباينهما تباينًا ظاهرًا وهما العتاب والتلطف والطمأنة، فقد دلت عليهما تلك الجملة بطريقة خاصة في الصياغة والنظم.

---

(١) في قوله من الآية: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ .

ومن تكاثر الدلالة بالنفي والاستثناء قوله تعالى: ﴿طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [سورة طه ١ : ٣] أول سورة طه نزلت هذه الآية عندما وجد المشركون محمدًا ﷺ يقوم وأصحابه ليصلي بما نزل من القرآن، فقالوا: ما أنزل الله هذا القرآن على محمد إلا ليشقى به»(١).

وهذا السبب الوارد يتناسب مع الآية الأولى وحدها - والتي جاءت في جملة تامة منفية ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾.

أما إذا ضممنا إليها الاستثناء في الآية التالية ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ وجدنا معنى آخر يتولد من انضمام الآيتين هو: ما أنزلنا عليك القرآن يا محمد ليكون تعبًا لك وشقاء، فلا تتعب نفسك مع قساة القلوب الذين لا فائدة منهم؛ لأنه تذكرة لمن يخشى الله ويخافه (إنما تنذر الذين يخشون ربهم).

فالنظم القرآني معجز، وهو ظاهر في هاتين الآيتين اللتين لا نظير لنظمها في كلام الناس، لأنهما معًا يمثلان جملة اختصاص بالنفى والاستثناء، وجملة النفي وحدها تقوم بغرض تام وتنهض بوظيفة خاصة هي الرد على قول الكفار ما أنزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى به، ثم تقوم هذه الجملة المنفية مع الاستثناء بأداء غرض آخر مختلف عن الغرض الذي تؤديه جملة النفي وحدها.

وقد حاول بعض المفسرين تخريج هذه الظاهرة التي تجد النفي فيها مستقلًا تامًا ثم يأتي بعده الاستثناء، فابن عاشور لجأ إلى تقدير نفي ثان قبل إلا حتى يصير الكلام على نظام كلام العرب المعروف فقال: «المعنى ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، وما أنزلناه في حال من الأحوال إلا تذكرة لمن يخشى»(٢) وقبله فسره البقاعي تفسيرًا حسنًا دون حاجة إلى تقدير، فذكر أنه من باب قول الشاعر:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

يعني أنه استثنى صفة مدح من صفة ذم منفية فيما يسمى بالمدح بما يشبه الذم.

والذي أقصده أن في النظم القرآني شيئًا آخر، وهو أن جملة النفي وحدها

---

(١) أسباب النزول ٢١٠ بتصرف .

(٢) التحرير والتنوير ١٦/ ١٨٥ .

تؤدي غرضين: الأول: هو الرد على قول الكفار الذي سبق. والثاني: هو التسرية عن رسول الله ﷺ ليهون عن نفسه فلا يشقى ولا يتعب ولا يحزن عندما يعرض قومه، ثم إن جملة الاستثناء تكمل هذا المعنى وتدعمه لأنها بانضمامها إليها تؤكد التسرية، حتى لا يحزن رسول الله ﷺ لإعراض هؤلاء القساة الذين لا يخشون الله، فإنما القرآن تذكرة لمن يخشى.

فإذا نظرنا إلى أن هذا القصر يمكن أن يكون إضافيًا على معنى: ما أنزلنا عليك القرآن إلا تذكرة لمن يخشى لا شقاء لك يا محمد بمن لا يخشى، فإنه بهذا يتحقق غرض ثالث من بين الغرضين السالفين، وهو التعريض بهؤلاء الكفار الذين قالوا بأن القرآن شقاء لمحمد، فهو يعرِّض بهم، وكأنه يقول لهم: إنما يشقى محمد بكم وبأمثالكم ممن لا يخشون الله سبحانه.

ثم يلفتنا قوله في حيز الاستثناء: (إلا تذكرة) ولم يقل: إلا ذكر، وذلك لأن التذكرة هى خطور المنسي بالذهن، وفي ذلك إشارة إلى أن التوحيد الذي هو محور هذا الدين مستقر في الفطرة الإنسانية، فالدعوة للإسلام تذكير لما في الفطرة، وفي ذلك إشارة إلى خيبة هؤلاء وعنادهم؛ لأنهم طمسوا نور الفطرة في نفوسهم، وإن ظهرت الحقيقة في فلتات اللسان عندما قالوا: ما أنزل الله هذا القرآن على محمد إلا ليشقى به، فهذا يتضمن اعترافًا غير مقصود بأن ما ينزل عليه من عند الله، وهذا يدينهم وإن لم يقصدوه وانفلت من ألسنتهم، ونبه إليه القرآن بقوله: (إلا تذكرة...)، فهل نجد نظيرًا لهذا النظم العجيب الذي تتكاثر دلالاته في وفرة وقوة؟

٣- القراءات القرآنية:

القراءات القرآنية من الظواهر التي تؤدي إلى كثرة الدلالة وهي من السمات المميزة للأسلوب القرآني، ولهذا عدها السيوطي من وجوه الإعجاز لما فيها من إيجاز بليغ ليس له نظير، وهو يعلل هذا التميز بقوله: «إذ تنوع القراءات بمنزلة

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن ١/١٦٩ وانظر مدخل القراءات القرآنية في الإعجاز البلاغي للمؤلف، ففيه تفصيل كلام السيوطي .

الآيات»[١].

ومن ذلك في مقامات أسباب النزول قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة الزمر: ٥٣].

وردت عدة أسباب في نزول هذه الآية، بعضها يفيد أن المقصود بالخطاب هم المشركون، وتفيد أخرى أن المقصود بها المؤمنون الذين أسرفوا على أنفسهم بالذنوب والمعاصي[٢]، وقد أخذ بعض المفسرين بالسبب الأول فحصر الخطاب في المشركين والذين فتنوا عن دينهم في مكة عندما تاقوا للتوبة فاستعظموا ذنوبهم، وأخذ البعض بالسبب الثاني الذي يحصر الخطاب في المؤمنين كأبي السعود الذي يستدل على هذا بأن «إضافة العباد إلى الله سبحانه تخصصه بالمؤمنين على ما هو معروف في القرآن»[٣].

وأرى شمول الخطاب ليتناول المؤمنين والكفار، ويدل على هذا قراءتان وردتا في النداء:

الأولى: هي القراءة المشهورة بالإضافة (يا عبادي)، وهي قراءة الجمهور، وتناسب خطاب المؤمنين.

الثانية: رواها أبو بكر عن عاصم وهي (يا عباد) من غير إضافة، وهي تناسب نداء عموم الناس ومنهم الكفار والمفتونون عن دينهم، وكل الناس عباد لله على كل حال.

- ولا شك أن هاتين القراءتين تؤديان إلى اتساع دائرة الخطاب بأقل لفظ وأوجزه ودون حاجة إلى نداء المؤمنين مرة ونداء الكفار مرة أخرى لإعلام هؤلاء وهؤلاء بأن رحمة الله واسعة وغفرانه متاح لمن تاب وأناب.

وعلى الرغم من تباين الفريقين (المؤمنين والكفار) فقد تحقق الخطاب لهم جميعًا بلفظ واحد عن طريق هاتين القراءتين، وبهذا يتضح مغزى قول السيوطي: «إن تنوع القراءات بمنزلة الآيات» كما يتضح أن القراءات القرآنية من وسائل تكاثر

---

(١) راجع فتح القدير للشوكاني ٢/ ٦٩٤ .

(٢) إرشاد العقل السليم ٤/ ٢١٢ - المطبعة المصرية بالأزهر الشريف .

الدلالات، وهي لا شك وسيلة معجزة، ولا نظير لها في أي نتاج بشري.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [سورة الزخرف: ٥٧].

يذهب أكثر المفسرين أن الآية نزلت في مجادلة عبد الله بن الزبعرى رسول الله ﷺ لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٨] - حيث قال ابن الزبعرى: خصمتك يا محمد، أليست النصارى يعبدون المسيح، واليهود عزيرًا؟

- يقصدون أن العابد والمعبود في النار - نظرًا للآية ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ ففرح المشركون بحجة ابن الزبعرى وضجوا فرحًا فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠١].

- فقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ نزلت في ذلك الموقف.

وقد قرأ الجمهور (يصدون) بكسر الصاد بمعنى يضجون فرحًا، وقرأ نافع وابن عامر والكسائي بضمها بمعنى يعرضون.

وتوجيه هذا أن القوم لما استمعوا إلى حجة ابن الزبعرى فرحوا بها وضجوا وصاحوا إعجابًا، وهذه هي قراءة (يصدون) بالكسر، ثم لما ضجوا انصرفوا، ويدل على الانصراف والإعراض قراءة الضم.

وبهذا دل فعل واحد على موقفين وحدثين متواليين بقراءتيه وبمجرد تغيير حركة الفاء فيه، وهذا من الإعجاز الذي لا نظير له في كلام البشر، لأن القراءة الواحدة أغنت عن آية كاملة، وحركة واحدة في الفعل دلت على موقف كامل، فأي إعجاز هذا؟

ولعل هذا يعين على فهم عبارة السيوطي وهو يتحدث عن فائدة القراءات في القرآن قائلًا: «المبالغة في إعجازه بإيجازه إذ تنوع القراءات بمنزلة الآيات» فما كنت أفهم معنى قوله: «المبالغة في إعجازه» حتى عشت مع القراءات، فوجدتها درجة عليا في الإعجاز.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ [سورة المسد ١ : ٥].

سبق الحديث عن سبب نزول هذه السورة وأنها رد على أبي لهب الذي قال لرسول الله ﷺ: تبًا لك سائر هذا اليوم، ألهذا جمعتنا؟

فقد وردت الآية الأولى بقراءتين:

القراءة الأولى المشهورة عن الجمهور: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾؛ أي: افتقرت يداه وهلك.

القراءة الثانية لابن مسعود: (تبت يدا أبى لهب وقد تب)، وتوجيه هذا أن المعنى في القراءة الأولى دعاء عليه بالافتقار والهلاك؛ أي: افتقرت يدا أبي لهب وهلك، وهو دعاء بلفظ الخبر وبالفعل الماضي الذي يعني أن فقره وهلاكه أمر واقع لا ريب فيه.

أما قراءة ابن مسعود (وقد هلك)، فتدل على أن هلاكه قد وقع وأن الدعاء عليه قد استجيب على سبيل الإخبار.

ولا شك أن أداء معنيين يترتب أحدهما على الآخر بلفظ واحد من الإعجاز الذي يأتي عن طريق قراءتين في اللفظ الواحد ولكل قراءة معنى، فتعدد القراءات بمنزلة الآيات؛ لما يترتب على كل منهما من دلالات متكاثرة.

وفي الآية الثالثة ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ ورد قراءة الفعل بقراءتين.

الأولى: القراءة المشهورة للجمهور (سيصلى) بفتح الياء وتخفيف اللام؛ أي: سيصلى من نفسه لأنه يقلب في النار المؤصدة التي تقبل عليه.

الثانية: وهي قراءة ابن مقسم وابن حيوة والأعمش (سيُصلَّى) بضم الياء وتشديد اللام؛ أي: يصليه الله سبحانه بواسطة ملائكة العذاب، وهذه درجة أخرى من العذاب أشد للإمعان والتنكيل، فالقراءتان معًا تشيران إلى درجتين من العذاب: الأولى: من النار نفسها عندما يقلب فيها. والثانية: من الله سبحانه بواسطة ملائكة العذاب عندما يتدخلون لزيادة تعذيبه انتقامًا وتنكيلاً، وبهذا يدل الفعل الواحد بقراءتيه على هاتين الدرجتين وهذين النوعين من العذاب، وهذا من الإعجاز الذي يثمر تكاثرًا في الدلالة بأقل الألفاظ.

- وفي الآية الرابعة ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ قرئ اللفظ (حمالة) بقراءتين:

الأولى: هي القراءة المشهورة عن عاصم بنصب (حمالة) على الذم مع تقدير فعل يناسب هذا الذم أو على الحال من (امرأته) ويكون الخبر المتمم للمعنى محذوفًا يدل عليه ما قبله؛ أي وامرأته حمالة الحطب كذلك ستصلى إلخ أو قوله: ﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ﴾ هو الخبر؛ فيكون الحال مقدمًا للتعجيل بذكر ما يدل على تلك الصورة الذميمة التي كانت سببًا في مصيرها المشئوم فلقد كانت تجمع الحطب والشوك لتضعه في طريق الرسول ﷺ على قول ابن زيد والضحاك في تفسير (حمالة الحطب) أو الخطايا والذنوب كما فسره سعيد بن جبير على سبيل التشبيه (الاستعارة) بالحطب[1]، وسواء كان هذا أو ذاك فيكون قد قدم الحال للتعجيل بذنبها العظيم الذي أودى بها إلى ذلك المصير.

القراءة الثانية: هي قراءة الجمهور برفع (حمالة) وذلك على أن الجملة مستأنفة مسوقة للإخبار بمصير امرأة أبي لهب، فيكون (حمالة) مرفوعة على الخبر، وجملة ﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ﴾ حالية، وعلى هذا يكون الخبر هو ذنبها (حمالة الحطب) والحال هو عقابها ﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ﴾.

والفرق بين قراءة النصب وقراءة الرفع في (حمالة) أن قراءة النصب تفيد أنها تعذب بعذابين: الأول هو نفس عذاب زوجها وهو الاصطلاء بالنار، وذلك على تقدير: وامرأته كذلك حالة كونها حمالة الحطب. أما العذاب الثاني، فهو عذاب الحبل من النار المربوط في عنقها ليكون الجزاء من جنس العمل؛ لأنها كانت تحتطب وتجمع الشوك في حبل مربوط في عنقها لتضعه في طريق رسول الله ﷺ.

أما قراءة الرفع فتسلط الضوء على عذاب الحبل من النار.

والقراءتان معًا تشيران إلى أنها تشترك مع زوجها في نوع عذابه، ثم تختص هي بنوع آخر من العذاب من نوع الإيذاء الذي كانت تقدمه لرسول الله ﷺ سوى أن القراءة الثانية تسلط مزيدًا من الأضواء على هذا النوع من العذاب الذي تختص به تلك المرأة.

---

(١) ويجوز أن يكون على سبيل الكناية؛ لأن العرب تكني بالحطب عن الخطايا والذنوب أو النميمة، وهذا من باب قوله تعالى: (يحملون أوزارهم على ظهورهم).

وبهذا يتبين أن الوجوه الإعرابية المتعددة الناشئة من تعدد تلك القراءات تثمر وجوهًا معنوية متعددة تؤدي في النهاية إلى تدفق الدلالات وتكاثرها، وبهذا تغني تلك القراءات عن آيات كثيرة كان يمكن أن تؤدي تلك المعاني المقصودة والتي تدور حول التنكيل بهؤلاء الذين آذوا رسول الله ﷺ وإيقاع ضروب من العذاب عليهم للإمعان في تعذيبهم وإيذائهم؛ لأنهم كانوا يمعنون في إيذاء رسول الله ﷺ فتكون تلك الصنوف من العذاب جزاء عادلاً من الله سبحانه.

ثانيًا: التوازن الصوتي من توافق نهايات الجمل(١):

لا أعني بهذا توافق فواصل الآيات القرآنية، فهذا أمر ظاهر معروف، وقد سبق رصده عند البلاغيين(٢) وفي دراسات حديثة مستقلة(٣)، وإنما أعني هنا توافق نهايات الجمل القصيرة في داخل الآية توافقًا يحدث انسجامًا صوتيًا له دلالاته المعنوية وأسراره البلاغية، ومن ذلك في مقامات أسباب النزول قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ جاء في صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن هذه الآية نزلت عندما رأى رسول الله ﷺ في بدر قلة عدد المسلمين وكثرة عدد المشركين، فاستقبل القبلة ورفع يديه وجعل يهتف مستغيثًا: «**اللهم أنجز لي ما وعدتني. اللهم، إن تهلك هذه العصبة المؤمنة، فلا تعبد في الأرض أبدًا**».

ويتجاوب الوحي مع هذه الاستغاثة الصادقة فينزل قوله سبحانه: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [سورة الأنفال: ٩] وفيها نلاحظ انسجامًا صوتيًا ناشئًا من توافق نهايات جمل ثلاث قصيرة متوالية كما هو واضح؛ وإذا تأملنا وجدنا أن هذا التوازن الصوتي اللافت نابع من توخي طريقة خاصة في النظم، ولولاه لما حدث ذلك التوافق.

---

(١) هذه هي الثمرة الثانية من ثمرات النظم المعجز .

(٢) راجع «تشابه الأطراف» في باب مراعاة النظير في كتب البلاغة، وراجع باب المناسبة وباب ائتلاف الفاصلة في بديع القرآن لابن أبي الأصبع .

(٣) راجع كتاب الفاصلة في القرآن للحسناوي .

ففي قوله بداية: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ لم يقل: إذ يستغيثوني فاستجبت لكم، وذلك ليجري مع النظم السابق في نسق واحد، إذ قال قبله: (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم) فقد انتقل متوافقًا من لفظ الجلالة «الله» إلى لفظ الرب ولو قال: (إذ تستغيثوني) لكان تحولاً في الطريقة. ثم إن قوله: (إذ تستغيثون ربكم) يتيح ظهور لفظ الرب مسندًا إلى ضمير هذه العصبة المؤمنة للإشعار بالبشرى ابتداء حتى تمتلئ النفوس ثقة بربهم الذي يرعاهم ويتولاهم ولا يتخلى عنهم، ولو قال: «إذ تستغيثوني» لما أشعر بهذا.

على أن قوله: (إذ تستغيثون ربكم) بدل (تستغيثوني) يؤدي إلى توافق نهاية هذه الجملة مع الجملتين التاليتين، فتصير نهايات الجمل الثلاث متوافقة ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [سورة الأنفال: ٩] فنهاية هذه الجمل الثلاث القصيرة بصوت واحد يمثل مقطعًا واحدًا متفقًا في حرفيه (كم) يؤدي إلى نوع من التوزيع الصوتي المتوازن والمنسجم، ويزيده حلاوة قربه من نهاية الآية التي تختتم بذلك المد الذي يعطيه السكون بعده فرصة الامتداد (فهو المد العارض للسكون).

وهذا التوافق والتوزيع الصوتي المنسجم ليس هدفًا في ذاته، ولكنه ثمرة حلوة لغاية أساسية من ذلك النظم، هي الإشعار بالتأييد والمعية المؤكدة، وهذا واضح من ختم الجمل الثلاث بضمير الجمع الذي يعود إلى رسول الله ﷺ ومن معه من أهل بدر، ففي ترديده بشكل متوال في مسافات قريبة إشارة إلى مزيد الاعتناء بأمرهم.

على أن هذا التوازن والتوزيع الصوتي يحقق لمن تتفتح مشاعره نوعًا من التوافق النفسي مما يبعث على القلب شعورًا بالطمأنينة والرضا.

كما يشعر هذا التوافق الصوتي بتوافق صعود الهتاف المستغيث مع نزول الرحمات، وهذا يتجاوب مع التعقيب بالفاء بين الاستغاثة والاستجابة في قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ وفي التعقيب تعجيل بالبشرى (وما جعله الله إلا بشرى لكم).

ثم إن هناك إشارة تنبعث من أطياف النفس وتحليقات الروح مع آفاق السياقات

القرآنية عندما ننظر في سورة آل عمران وعند الحديث عن غزوة بدر أيضًا نرى قوله سبحانه: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٢٤].

فقال في سورة الأنفال بألف... مردفين، وقال في آل عمران: بثلاثة آلاف... وبعدها بخمسة آلاف، مع أن الموقعة هي (بدر) ذلك لأن الألف عندما تكون جماعات متوالية يردف بعضها بعضًا في صورة لا تتوقف، فإنها تصير أضعاف العدد الذي نزلت به حتى تصل إلى ثلاثة أو خمسة. والله أعلم.

فما المانع أن يكون توافق نهايات الجمل الثلاث القصيرة من أهدافه الإشعار بمضاعفة عدد الألف أو تهيئة النفس للإحساس بكثرة هذا العدد حتى إذا أخبر به لم تتعجب، ولعل مما يؤيد هذا أن «الأنفال» التي ورد فيها ذكر الألف نزلت قبل «آل عمران» التي ورد فيها ذكر الثلاثة والخمسة آلاف. والله أعلم.

وقد نجد ذلك التوازن الصوتي ناشئًا من توافق نهايات الكلمات المتوالية، كقوله تعالى في شأن بني النضير عندما حاصرهم رسول الله ﷺ والمسلمون: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ [سورة الحشر: ٢].

والشاهد هنا في ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾، فقد جاء النظم على هذه الطريقة التي تجد فيها ثلاث كلمات قد انتهت نهاية واحدة بضمير الجمع (هم)، وقد نشأ هذا التوافق الصوتي من التصرف في النظم تصرفًا ما يؤدي إلى أسرار ومزايا وملابسات فضلًا عن ذلك التوازن الصوتي؛ لأن الأصل أن يقال: وظنوا أن حصونهم مانعة لهم من الله، ولكن أتى النظم على ما جاء عليه باتصال ضميرهم بأن وما يليها في قوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم﴾ وذلك للإشعار بالثقة والاعتداد والاعتزاز الذي كانوا هم عليه بما فعلوه من تحصينات مانعة، كأنه أراد - وهو يعكس ما في نفوسهم - وظنوا أنهم في عزة ومنعة بعد أن أخذوا بكل وسائل الحيطة والحذر والمنعة.

ثم إنه قال: (مانعتهم) ولم يقل: تمنعهم؛ لأن الفعل المضارع يفيد تجدد المنعة وقتًا بعد وقت، وليس هذا مقصودًا لهم؛ لأنهم بتحصيناتهم المحكمة ظنوا

أنهم في منعة دائمة أو هكذا كانوا يستشعرون الحاجة إلى المنعة والأمان في كل لحظة وعلى سبيل الاستمرار وسعوا إلى ما يحقق لهم ذلك في ظنهم... كل هذا يفيده التعبير بالاسم في (مانعتهم).

على أن تقديم الخبر (مانعتهم) على (حصونهم) التي هي في الأصل اسم لأن يدل على شدة الحاجة إلى تلك المنعة، ولعلها تشير من طرف خفي إلى الوهم الذي أوهموا أنفسهم به، وهو أنهم بحصونهم في منعة من قدر الله.

ثم إن انتهاء ثلاث كلمات بالضمير (هم) في ﴿أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم﴾ يعطي توازنًا صوتيًا لافتًا بحيث يشعر الانتهاء المتكرر بالمقطع القصير المقفول يشعر بالشدة والقوة والاستحكام، بعدما أخذوا كل الأسباب التي تجعلهم يشعرون بهذا، فإذا كان الله سبحانه قد أعان رسوله والمؤمنين على اختراق هذه الحصون على الرغم من كل هذه المنعة والقوة والشدة والاستحكام، كان هذا من فضل الله عز وجل، وكان لزامًا عليهم أن يذكروا فضل الله عليهم، وأن يمجدوه ويقدسوه ويسبحوه؛ لهذا بدأت السورة بالتسبيح وانتهت الآية الأولى بالعزة والحكمة ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَما الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وأسند سبحانه من أجل هذا إخراج بني النضير إليه وحده على سبيل الحصر والاختصاص ﴿هُوَ الَّذِيٓ أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ الْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟﴾... وبهذا تنسجم خصوصيات النظم وإيقاع الأصوات المتوازن والسياق وتتعاون جميعًا في الدلالة على فضل الله ونعمته على المؤمنين.

ثالثًا: روح القوة وعزة الربوبية:

وهذه خصوصية للأسلوب القرآني يشعر معها المتابع لآيات القرآن بقوة فذة وهيبة مسيطرة لا يمكن أن يصدر مثلها من بشر، ولا يمكن أن توجد في كلام بشر، وقد ألمح القدماء والمحدثون إلى تلك الخصوصية بعبارات مختلفة، لكن أول من نبه إليها هو الخطابي الذي أنقل نص عبارته لأهميتها: «قلت في إعجاز القرآن وجهًا آخر ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه في القلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلامًا غير القرآن منظومًا ولا منثورًا، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن

الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود وتنزع له القلوب، يحول بين النفوس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها، فكم من عدو لرسول الله ﷺ من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله، فسمعوا آيات من القرآن، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول وأن يركنوا إلى مسالمته، ويدخلوا في دينه»[١].

وتتبلور هذه العبارة في امتلاك أسلوب القرآن للقوة والهيبة التي توقع الرهبة، وتستحوذ على القلوب والنفوس، وأن هذه الخصوصية له وحده لا تجدها في نظم ولا في نثر، وأنه قادر على التأثير على المؤمن والكافر، حتى إنه يجعل الكافر المستبد يتحول إلى موالٍ لهذا الدين كما كان مع عمر بن الخطاب.

ومما استوقفني من آيات مقامات أسباب النزول قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ فقد وردت هذه الآية في مشركي قريش عندما عذبهم الله تعالى بالجوع حتى أكلوا الجلود والجيف، فجاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ يقول: ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين، ثم قتلت الآباء بالسيوف والأبناء بالجوع، فادع الله أن يكشف عنا هذا القحط، فدعا فكشف عنهم، فنزلت هذه الآية، والمعنى أخذناهم فما أطاعوا.

وورد من طريق آخر أن هذا ما نالهم يوم بدر من القتل والأسر، وأن ذلك مع شدته لم يردعهم»[٢]. وسواء كان هذا أو ذاك أو السببان معًا، فإننا نشعر بجو الكبرياء والعزة والرهبة المسيطرة والسائدة في هذه الآية وفي سائر السياق الذي وردت فيه، فقبلها قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦]، ثم قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ

(١) بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل.. للخطابي ٧٠ .

(٢) راجع التفسير الكبير ٢٣/١١٣ .

فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ٦٤، ٦٦] حتى يصل إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ٧٥، ٧٦].

فإن المتأمل في هذا السياق يجده على منهج واحد في المواجهة القوية الحاسمة التي لا تصدر إلا من خالق قادر مسيطر يهدد وينذر ولا يرفع العذاب مع أن رحمته واسعة وذلك لعلمه سبحانه بأنه لو رحمهم لعادوا إلى أسوأ مما كانوا عليه، فقد سبق أن أخذ الله كبراءهم بالعذاب فما استكانوا وما تضرعوا.

وهنا تتجلى الربوبية في عظمتها وعزتها وعدلها: لأنه لا ينتقم إلا ممن سبق ردعهم فلم يرتدعوا، وسبق تخويفهم فلم يخافوا أو ينزجروا، ولقد كان من مظاهر القوة والعزة ترديد نون العظمة حتى لا تخلو منها آية من تلك الآيات، فهل تجد مثل هذا فى كلام بشر؟ وهل يقدر بشر على مثل هذا النظم الفذ الذي يتدخل في الإحساس بتلك القوة الجبارة.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ وعلى الرغم من هذا فإنه يريد أن يطمئن كل مستمع إلى أنه لا يأخذ بالعذاب إلا بحق، فيقسم على ذلك قسمًا مطويًا يدل عليه حرف اللام في (ولقد)، ولم يقل: ولقد عذبناهم ليشعرنا بأنهم كانوا يُتخطفون بالأخذ (ولقد أخذناهم)، وعبر بالعذاب ولم يحدد نوعه ليوقع في النفس الرهبة، لكنهم لقسوة في قلوبهم لم يستكينوا، ولم يقل (فما استكانوا لنا) ليجري مع (ولقد أخذناهم) ولكنه تحول من التكلم الفخم بالنون إلى الغيبة في (لربهم) وذلك إشارة إلى أنهم لو استكانوا وخضعوا وانزجروا لما كان ذلك عارًا عليهم؛ لأنهم إنما يخضعون لربهم، فكان حقهم أن يخضعوا له، وإشارة ثانية إلى أنهم لو خضعوا لربهم لرحمهم لأنه ربهم، ولكنهم لم يخضعوا لظنهم أن إيمانهم وخضوعهم هو تسليم لمحمد وخضوع له.

ثم إن الله سبحانه قال: ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ ولم يقل: (فما استكانوا لربهم وما تضرعوا) فخالف في التضرع وجعله مضارعًا للإشارة إلى أنهم ما استكانوا لربهم، وما فكروا مجددًا في التضرع، وما راجعوا أنفسهم مرة كي يتضرعوا، وفي هذا إيماء إلى أن الله سبحانه تركهم فترة من الزمن وأمهلهم وقتًا بعد العذاب الأول حتى يراجعوا أنفسهم فما تغيروا، ووراء ذلك قسوة القلوب

وخداع الشيطان ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٤٣]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [سورة الحج: ٣٩].

فقد نزلت هذه الآية بعد تعدد ضروب الإيذاء من مشركي مكة لأصحاب رسول الله ﷺ. وأول ما يلفتنا توالي ثلاثة أفعال مبنية للمفعول (أُذن، يُقاتلون، ظُلموا) وقد جرى نهج النظم القرآني على كثرة هذه الصيغة في أقل مساحة تعبيرية مع ما يترتب عليها من طي الفاعل والتركيز على الأحداث التي تتناولها تلك الأفعال، وذلك عند إرادة الفصل الحاسم والتغيير القاطع للأوضاع القائمة تغييرًا لا يكون إلا بقدرة قادرة وقوة قاهرة، فلقد كان المسلمون يسامون العذاب من المشركين أشكالاً وألوانًا، وكانوا يعانون الجوع والحرمان وطال صبرهم، فكانوا يقلبون وجوههم في السماء ويستشرفون ويترقبون تدخل الأقدار لانتشالهم من تلك الآلام النفسية والمعاناة الجسدية، فإذا بهذه الآية القاطعة تنزل بردًا وسلامًا على قلوبهم، وكانوا أحوج ما يكونون إلى أن يستشعروا تلك القوة التي تلوح من كل كلمة فيها.

على أن نظم الآية يطوي وراءه أحداثًا عظامًا ماضية، ويشعرنا بأن وراءه أحداثًا كبارًا أخرى آتية، فيها انتصاف للمقهورين وانتصار للمظلومين، وفيها مسح لآلام المعذبين، وتطييب لخواطر المنكسرين، وفيها بشرى بالنصر لهؤلاء المظلومين وطمأنتهم بأن ما يحدث من ظلم وتعذيب لا يغيب عن علم الله سبحانه.

ولا ريب في أن هذه التجليات التي تشع أنوارها من نظم الآية لا تغيب عن بصائر الذين لهم بالقرآن صلة وقرب ومودة.

وإشارات ذلك النظم الدالة على عزة الربوبية لا تنتهي، فمن ذلك أنه لم يواجه هؤلاء المستضعفين بالخطاب، فيقول مثلًا: أذنت لكم بالقتال، ليحتفظ الأسلوب بقوته الدالة على هيبة المتحدث سبحانه، ولتكون القضية عامة تتناولهم وتتناول كل من قوتل ووقع عليه ظلم من كل زمن، فمن حقه أن يدفع عن نفسه ذلك الظلم فذلك إذن الله وفي الإذن إيذان بالبشرى، وكذلك في الجملة التالية التي صدرت وعدًا بالنصر من رب العزة للمظلومين في كل زمان ومكان ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ

﴿لَقَدِيرٌ﴾.

وقد احتشدت تلك الجملة بوسائل التأكيد (إن)، واسمية الجملة، واقتران الخبر باللام مع صيغة المبالغة (لقدير) فضلاً عن الإسناد للفظ الجلالة (الله) لتربية المهابة، وتقديم الجار والمجرور: ﴿عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾، فقد احتشدت كل هذه الوسائل المؤكدة؛ لأن المظلوم الذي يستشرف النصر ويترقبه يكون في حاجة ماسة إلى بث الثقة المهزوزة ومعاودة الطمأنينة المفقودة، ويكون أحوج ما يكون إلى أسلوب قوي يدفع عنه الإحساس بالهوان والضعف.

ثم إنه قال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ ولم يكتف بذكر النصر فيقول مثلاً: وإن الله ناصرهم، وذلك لمزيد من الطمأنة بتقديم الدليل على أن نصرهم آت لا ريب فيه، وهو أن الذي يعدهم بالنصر قادر عليه، بل إن قدرته على هذا ليس لها حدود، وليس لها نظير، وهذا ما تدل عليه صيغة (فعيل).

فهذا الأسلوب يمتلك كل وسائل السيطرة والقوة الرادعة للمشركين والمثبتة للمؤمنين، ولا يقول هذا الكلام إلا قادر عظيم هو رب العالمين؛ ولذلك يقول الزمخشري: «والإخبار بكونه قادرًا على نصرهم عدة منه بالنصر واردة على سنن الجبابرة»[1]. والله أعلم.

ولا تجد مثل هذه القوة والهيبة مهما فتشت في كلام البشر، فهي من خصوصيات القرآن، ومن ثمرات نظمه المعجز.

رابعًا: الإعجاز الغيبي: (من ثمرات النظم المعجز)

عد كثير من العلماء الأخبار الغيبية من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، سواء كان منها ما يتصل بالماضي كقصص السابقين التي لم يكن للرسول ﷺ ولا للعرب عهد بها ولا معرفة، كما قال سبحانه: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة هود: ٤٩].

أم كان يتصل بالمستقبل، كقوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم

---

(١) الكشاف ٣/ ١٥ .

مِنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ﴾ وقد قالوا هذا بعد نزول الآية، مما يدل على أن هذا القرآن من لدن عليم خبير يعلم ما كان وما يكون قبل أن يقع.

وقد ذهب بعض العلماء كالخطابي والرازي إلى أن الأمور الغيبية ليست من الإعجاز؛ لأن التحدي قد وقع بكل سورة، والإخبار عن الغيوب لم يوجد في كل سورة(١)، وقد جعل سبحانه في صفة كل سورة أن تكون معجزة بنفسها(٢) فيترتب على هذا أن السورة التي لا يوجد بها إخبار عن الغيوب ليست معجزة، وهذا باطل.

والذي أراه أن الأمور الغيبية ليست معجزة بذاتها، ولكنها معجزة بنظمها الذي وردت فيه - علمًا بأن النظم نظم معان في ألفاظ مرتبة حسب الغرض المقصود، ويبلغ في القرآن درجة الإعجاز - فالنظم هو الإطار الذي يضم وجوهًا أخرى كثيرة مرتبة عليه، والنظم هو الذي يطرد إعجازه في كل السور، وما الأخبار الغيبية إلا ثمرة من ثمرات ذلك النظم المعجز.

فكل سور القرآن معجزة بنظمها، سواء وجد فيها غيب أم لم يوجد، والدليل على أن النظم هو الإطار المعجز الذي يترتب عليه وجوه أخرى منها الأخبار الغيبية أن تلك الأخبار لو جاءت في نظم غير النظم القرآني لما كانت معجزة.

ومن شواهد هذا في مقامات أسباب النزول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ﴾ [سورة النساء: ٩٤].

فقد ورد في مسند الإمام أحمد عن عبد الله بن أبي حدرد قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى إضم، فخرجت في نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة الحارث بن ربعي، ومحلم بن جثامة بن قيس، فخرجنا، حتى إذا كنا ببطن إضم مر بنا عامر الأشجعي

---

(١) نهاية الإيجاز للرازي ت د. بكرى شيخ أمين، دار الملايين بيروت ص٨٠.

(٢) بيان إعجاز القرآن للخطابي ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ت محمد خلف الله ومحمد سلام، دار المعارف ص٢٣.

على قعود له ومعه متيع ووطب من لبن، فلما مر بنا سلم علينا، فأمسكنا عنه، وحمل عليه محلم بن جثامة فقتله بشيء كان بينه وبينه وأخذ بعيره ومتيعه، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ وأخبرناه الخبر نزل فينا القرآن(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ﴾ الآية.

لم تذكر الآية ما إذا كان المقتول كان مؤمنًا أم لا، فليست هذه هي القضية، بل ربما كان ترك بيان ذلك مقصودًا حتى يظل تفويض العلم بما فى القلوب إلى الله، على أن ما ورد عن الراوي الذي كان أحد الذين بعثهم رسول الله ﷺ من وصف تفاصيل الأشياء التي كانت مع عامر الأشجعي، وأنه كان على قعود - وهو الجمل الصغير - والقعود عادة يكون ذا منظر حسن، ثم المتيع والوطب واللبن يدل على أنهم كانوا يحدقون في تفاصيل ما معه من أشياء، وأنها قد حلت في عيونهم، وأنهم لم يردوا التحية والسلام عليه، وتوهموا ما توهموا مما ألقاه الشيطان في قلوبهم طمعًا فيما معه، وقد جاء النظم القرآني مناسبًا لهذا، فقال سبحانه يكشف عن الدافع الحقيقي إلى قتل ذلك الرجل ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

وهذا من الإعجاز الغيبي؛ لأنهم عندما قتلوا الرجل لم يكن هناك دافع غير الطمع، وقد أخفوا ذلك عن رسول الله ﷺ فأظهره الله عليه، وقد زاد ابن جرير وابن المنذر في رواية ابن أبي حدرد أن النبي ﷺ قال للقاتل: «**أقتلته بعد ما قال آمنت بالله؟**» وورد في حديث ابن عمر ما يدل على أنه لم تقبل توبته(٢).

وهنا تظهر أهمية التعويل على موقع الآية وسياقها في إضاءة المقصود منها، فإن وقوعها بعد قوله سبحانه: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤] يشير إلى مصير محلم بعد ما قتل من ألقى عليه سلام المؤمنين.

ومن دقة النظم القرآني الدالة على أن الإعجاز الغيبي نشأ منه وترتب عليه أن جملة ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ حالية من ضمير القائلين (لست مؤمنًا)،

---

(١) راجع الصحيح المسند من أسباب النزول ٨٥ .

(٢) المرجع نفسه.

ومن المعروف أن الحال ملتبس بما في الجملة من فعل أو قول؛ أي أنهم كانوا يقولون للرجل الذي ألقى عليهم السلام (لست مؤمنًا) في نفس الوقت الذي يحفزهم الطمع فيما معه نحو قتله، فلم يقولوا بألسنتهم (لست مؤمنًا) إلا بدافع الطمع المضمر في نفوسهم والذي أطلعنا الله عليه في الجملة الحالية ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

فالإعجاز حقًّا في وقوع تلك الجملة التي تحمل السر الخفي - حالية - لأن هذا الموقع يدل على أنهم أرادوا عرض الحياة الدنيا في وقت حملهم عليه وقتله، وكان هذا ملتبسًا بذاك مما يزيد من شناعة ما ارتكبوه، وينفي أي احتمال للشك، على أن التعبير عما طمعوا فيه وقتلوا الرجل من أجله بقوله: ﴿عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ مما يزيد من فظاعة ما ارتكبوه، لأنهم استحلوا دم رجل ألقى سلام المؤمنين من أجل شيء زائل عارض، وهذا تشنيع لما فعلوه ينسجم مع تشديد السياق على قتل المؤمن عمدًا في الآية السابقة: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

ومما يدل على أن الإعجاز الغيبي إنما يكون ثمرة من ثمرات النظم المعجز قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [سورة الفتح: ١١].

سكت مؤلفو أسباب النزول عن هذه الآية، لأنهم إنما يذكرون الآيات التي جاءت لاحقة لأسبابها، لكن هذه الآية نزلت سابقة لأحداث تالية لم تكن قد وقعت عند نزول الآية، وقد نزلت بعد صلح الحديبية وتنبئ عما سيقوله الأعراب المنافقون من غفار وجهينه وأشجع وأسلم وغيرهم بعد عودة رسول الله ﷺ والمسلمون من الحديبية للمدينة، عندما يأتون ويعتذرون لتخلفهم عن الخروج ابتداء عندما أعلن رسول الله ﷺ الاستعداد للزحف نحو مكة لدخول المسجد الحرام.

لقد قال القرآن: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ وقد قالوها بعد نزول الآية، فتحقق صدق القرآن وأنه من عند علام الغيوب سبحانه وتعالى.

وهذا الإعجاز الغيبي نابع من النظم المعجز في قوله: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ حيث تقدم الجار والمجرور (لك) على الفاعل بما يفيد الاختصاص؛ أي: أنهم كانوا يهمسون باعتذارهم لرسول الله ﷺ خاصة، فلم يفصحوا عن اعتذارهم أمام غيره ولا توجهوا به لأحد سواه؛ لعلمهم أن ذلك إن حدث فلن يأمنوا ثورة المسلمين عليهم أو سخريتهم منهم. فهذا النظم يكشف عن خصوصية ذلك الاعتذار، وأغنى تقديمهم الجار والمجرور عن كلام كثير في تفاصيله وكيفيته، ثم إنه سبحانه كشف بواسطة النظم عن كذبهم في اعتذارهم عندما اعتذروا اعتذارًا غير حقيقي ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾.

وهذا الاعتذار لا يبرئهم مع كونه كاذبًا؛ لأن المانع الحقيقي لخروجهم مع رسول الله ﷺ والمؤمنين كان اعتقادهم أن الرسول والمؤمنين هالكون لا محالة ولن يعودوا، كما قال سبحانه: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [سورة الفتح: ١٢].

واللافت أنه هنا قد تحول بالخطاب إليهم وهو يواجههم بما يخفونه من أسباب حقيقية ليكون أوقع في فضحهم مواجهة، ومفاجأتهم بما يخفونه حتى يتفكر في ذلك من يتفكر، فيعلم إن عقل فيخشى علام الغيوب الذي ينتزع ما في الصدور.

خامسًا: من الإعجاز التشريعي:

لقد أثبت كثير من الدارسين الإعجاز التشريعي في آيات القرآن الكريم وذلك مقارنة بالقوانين التي وضعها البشر، وقامت حول هذا مقارنات كثيرة تسعى إلى بيان ما في تشريع القرآن من إعجاز.

وحين نتحرى الدقة والموضوعية نرى أن التشريع القرآني ما كان يمكن أن يكون معجزًا لولا أداؤه المتميز بالنظم القرآني المعجز، ولنا في الموازنة التي قدمها الرماني وتبعه العلماء فيها دليل أكيد على هذا، فمع أن قول العرب (القتل أنفى للقتل) يؤدي أصل المراد من قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ إلا أن النظم المعجز أكثر في الفائدة لتضمنه إبانة العدل بذكر القصاص والترغيب فيه بذكر الغرض منه وهو الحياة؛ وفي القصاص والحياة معًا استدعاء لحكم الله بالرغبة والرهبة، على أن النص القرآني أوجز في العبارة وأبعد عن كلفة التكرار وأحسن

تأليفًا بالحروف المتلائمة[١].

ولا شك أن التشريع الذي يتضمن العدل والاستدعاء إليه بالترغيب والترهيب مع كونه أوجز وأحسن تأليفًا بالحروف والكلمات المتلائمة لا يكون إلا من رب العالمين؛ ولهذا جاء في النظم المعجز الذي هو منهج القرآن عمومًا.

ولا يجادل أحد مهما كانت ملته أن حكم الله في الميراث معجز، وهذا في الحقيقة نابع من النظم القرآني المعجز بدليل أننا لو أخذنا قوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ وعبرنا عن معناه بنظم آخر من تأليفنا فقلنا مثلاً «للأنثى نصف الذكر» لضاع الإعجاز، وذهب جلال النظم القرآني، وتطرق إلى هذا التعبير احتمالات معنوية أخرى لا يمكن أن تتطرق إلى قوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾.

ثم إن هذا النظم المعجز يتضمن علة الحكم وعلة هذه القسمة، وهي أن حظ الرجل يعدل حظ امرأتين تفكيرًا واتزانًا وتحملاً للمسئولية وسعيًا للمعاش، فليكن مثل ذلك في الميراث، وقد دعم هذا في مجال الشهادة؛ إذ جعل شهادة الرجل بشهادة امرأتين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٢].

ومن هنا يتبين سر التعبير بكلمة (حظ) مع أن كلمة نصيب ربما خايلت المتعجلين فيتوهمون أنها هي الأنسب بحسب الظاهر في مجال الميراث، لكن الحق أن كلمة (حظ) تؤدي معنى (نصيب) وزيادة هي ما تلفت إليه من علة الحكم، وهي أن للذكر مثل حظ الأنثيين عقلاً واتزانًا وسعيًا للمعاش وتحملاً للمسئولية؛ ولهذا كان له مثل حظ الأنثيين في الميراث، على أن النساء مهما كثر عددهن فهن في حاجة دائمة إلى حماية الرجل؛ ولهذا كان من عدل الله سبحانه ألا تنفرد النسوة بالميراث، ولا بد من وجود الرجل الذي يعصبهن، والمهم أن إعجاز النظم هو الذي جعل التشريع القرآني معجزًا.

خذ دليلاً آخر على هذا في مجال الأسرة والزواج، قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [سورة النساء: ٣].

---

(١) راجع النكت ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ٧٧، ٧٨ .

فقد ورد في سبب نزول هذه الآية: عن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً كانت له يتيمة فنكحها، وكان له عذق كان يمسكها عليه، ولم يكن من نفسه شيء فنزلت فيه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾[1].

وقد وضح الشوكاني هذا في أثناء بيان ارتباط الجزاء بالشرط، يقول: «كان الرجل يكفل اليتيمة لكونه وليًا لها ويريد أن يتزوجها فلا يقسط «لا يعدل» لها في مهرها ولا يعطيها ما يعطيها غيره من الأزواج، فنهاهم الله أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن، ويبلغوا بهن أعلى ما هو لهن من الصداق، وأمروا إن لم يعدلوا في اليتامى عند الزواج بهن فلينكحوا غيرهن ما طاب لهم من النساء حتى أربع.

وهنا نقف على تشريع إسلامي أثار جدلاً واسعًا، ولا يمكن أن يفهم على وجهه الصحيح إلا من خلال سياقه ومناسبته وصياغته ونظمه، فلقد كان الرجل - قبل نزول الآية - يستغل تربيته لليتيمة والتي تحل له، فيقدم على زواجها دون أن يعطيها ما تستحقه أي امرأة من صداق مستغلًا ضعفها وحياءها، وليس هناك من يطالبه بشيء؛ لأنه يخطبها لنفسه من نفسه متصورًا أن تربيته لها تسوغ له أن يتزوج منها دون أن يعطيها حقها من صداق، ودون أن يدخل على نفسها البهجة التي تشعر بها أمثالها عند الزواج؛ لهذا فإن الآية تحث على إنصاف هؤلاء اليتامى بوسائل مؤثرة في النظم لا مفر من الوقوف عليها لنرى السياق الذي شرع فيه التعدد، فمن ذلك:

١- قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ بمعنى ظننتم كما يذكر المفسرون، لكنه لم يقل: وإن ظننتم، وقال (خفتم) للإشارة إلى التعويل في هذا الأمر على ضمير المسلم ووازعه الديني، وقياسه كل أمر على رضا الله أو غضبه، وعلى إحساسه بالأمن أو الخوف؛ لذلك قال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم﴾؛ أي: إن خفتم ألا تعدلوا في زواجكم باليتامى؛ فانكحوا غيرهن، واتركوهن لمن يضمن لهن حقهن، والمغزى هو حمل كافل اليتيمة على أن يعطيها حقها، إن كان يرغبها وأن يتقي الله فيها، وليس المقصود دفعه إلى الزواج من غيرها.

---

(١) الصحيح المسند ٧٢ .

٢- إن الصوت الأعلى في صدر سورة النساء هو التوصية باليتامى إناثًا أو ذكورًا، حتى لقد ورد ذكرهم خمس مرات في خمس آيات تكاد تكون متوالية، وهذا يشير إلى أن المقصود الأساسي في الآية التي معنا ينصرف إلى إنصاف اليتامى عند الزواج منهن، ويأتي تشريع التعدد فرعًا له وتبعًا، وليس الغرض الأساس من تلك الآية الدعوة إلى تعدد الزوجات كما قد يفهم من ارتباط الشرط بالجواب في ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ إنما هو حكم تفرع عن حكم وتولد منه.

٣- ونظم الآية وخصوصيات التعبير فيها يشير إلى أن زواج كافل اليتيمة منها وإن جاز فإنه من المستحسن ألا تحلو اليتيمة في نظر من كفلها ورباها فيرى الزواج منها سهلًا غير مكلف، ثم إنها ستظل دائمًا شاعرة بالانكسار وتستحيي من المطالبة بحقوقها عنده في ظل تربيته لها؛ ولهذا نبه القرآن من طرف خفي إلى استحسان الزواج من غيرها عند مجرد الخوف من هضمها حقها والتفريط في مهرها، (وإن خفتم)؛ أي: أن مجرد الشعور بالخوف من عدم العدل في التعامل معهن ينبغي أن يكون صارفًا للرجل إلى ما طاب له من النساء حتى أربع.

٤- التعبير بالفعل (طاب) يسهم في خلق هذا الجو النفسي الذي يجعل كافل اليتيمة يميل عنها إلى غيرها؛ لأن أي امرأة غير اليتيمة سيكون وراءها من يضمن لها كل حقوقها دون تفريط، ثم إن اليتيمة حينئذ سيتقدم لها رجل آخر، حينئذ سيضمن كافلها نفسه لها حقوقها التي كان سيهضمها لو تزوج هو بها.

ومن هنا نشعر أن الفعل (طاب) لا يسهم في الترغيب في تعدد الزوجات، فليس هذا هو المقصود منه، وإنما يرغب هذا الفعل كافل اليتيمة - إن خاف ألا ينصفها - في الزواج بغيرها وهن كثر.

وهنا نفهم سبب تشريع التعدد في هذا الموضع بالتحديد باعتباره مخرجًا نفسيًّا مشجعًا للرجل للانصراف عن الزواج باليتيمة التي رباها إن هو خاف ألا ينصفها.

٥- وهناك سبب آخر لتشريع التعدد في هذا الموضع بالتحديد هو إثارة تفكير الرجل الذي يخشى الجور ويحرص على الإنصاف، فإن ذلك لن يتحقق في حالة ما لو تزوج اليتيمة ثم تزوج بغيرها، فمن المرجح ألا يعدل بينهما أو بينهن؛ وأن

الجور والإهمال سيكون عادة من نصيب اليتيمة؛ لأن اليتم ضعف وانكسار.

٦- وهذا ينبهنا إلى أننا لا ينبغي أن نحصر معنى قوله: ﴿أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ فيما ذكره بعض المفسرين من الجور في الصداق، فلماذا لا نأخذ بالعموم المفهوم من الآية ﴿أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ فيكون المقصود: إن خفتم ألا تعدلوا في حقوقهن عمومًا، ابتداء من المهر قبل الزواج، ثم الإنفاق عليهن بعده كما ينبغي، إن خفتم هذا فتزوجوا بغيرهن من النساء، ولعل الرجوع إلى سبب النزول الذي روي عن عائشة رضي الله عنها وورد في البخاري يؤيد هذا، ونصه: أن رجلًا كانت له يتيمة فنكحها، وكان له عذق، وكان يمسكها عليه، ولم يكن لها من نفسه شيء، فنزلت فيه الآية[1]. فمن الواضح أن هذا الإهمال وعدم الإنصاف كان بعد الزواج؛ إذ كان الرجل يمسكها على عذق تمر لا يأتي لها بسواه، وهي لا تتكلم ولا تطلب بحكم يتمها، وتربيته لها.

وبهذا يتبين ارتباط النزول بنظم الآية، كما يتبين أن تشريع التعدد تولد من التوصية بإنصاف اليتامى، وأن صياغة هذا التعدد تأثرت بهذه التوصية، فجاء لفظ (طاب) للترغيب في التعدد لا لذاته، ولكن لتمتلئ عين الرجل بعيدًا عن تلك اليتيمة التي يخشى عدم إنصافها لو تزوج ذلك الرجل منها.

ويفهم من روح النظم روح التشريع، والذي يتبلور في أن إباحة التعدد ليست مطلقة، ولكنها مقيدة بوجود الداعي، وهو وإن قد تحدد في هذه الآية بالخوف من الجور في حق اليتيمة[2] فإن روح التشريع لا يمنع أن تكون هناك دواع أخرى للتعدد مقيسة على الداعي المذكور في الآية، كحاجة الرجل إلى أكثر من امرأة للإشباع والإعفاف أو مرض الزوجة الأولى، أو رغبة الرجل في كثرة نسله عند اليسر مع الحاجة إلى هذا النسل الكثير. وذلك كله في إطار ما وضعه الشرع من قيود كالثقة في العدل بينهن، وألا تزيد الزوجات عن أربع، فإن لم يتوفر داع من هذه الدواعي أو خاف الرجل من عدم العدل، لزمه الاقتصار علي واحدة، والخوف

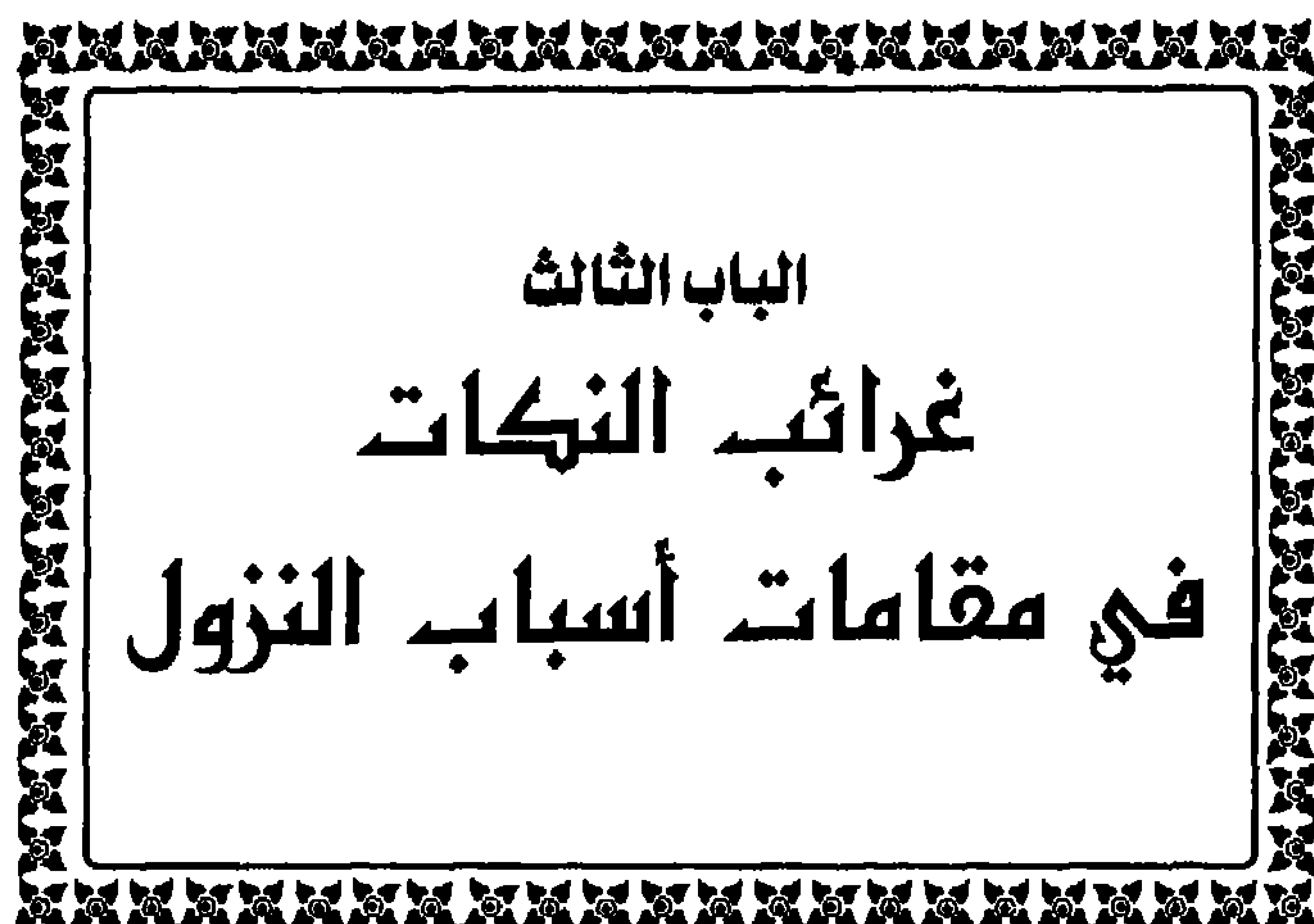
(١) الصحيح المسند ٧٢ .

(٢) وذلك عند الزواج منها، فإن الزواج من غيرها متاح حتى أربع .

من عدم العدل ليس له قانون يضبطه، ولكنه يعود إلى وازع الرجل وتقواه، وإن كانت مظاهر العدل بين الزوجات معروفة.

إن كل هذه المعاني المتداعية من النص والذي يدخل في صميم الإعجاز التشريعي إنما يعود إلى إعجاز النظم القرآني.





الباب الثالث
غرائب النكات
في مقامات أسباب النزول

*** أسعى في هذا الباب إلى تتبع اسرار نظم الآيات التي ذكرها العلماء في أسباب النزول حسب ترتيب سورها، واقتصرت على ما ورد في نزولها سبب حقيقي بسند صحيح معتمدًا في هذا على كتاب صنِّف للتحقق من أسباب النزول، واقتصر على ما صح سنده وهو كتاب «الصحيح المسند من أسباب النزول» لأبي عبد الرحمن الوادعي. وقد استرشدت في هذا الأمر بمدى التلاؤم بين ما ورد في السبب وما تشتمل عليه الآية من معان وإشارات وخصوصيات؛ أما النهج الذي توخيته في التناول، فكان كما يلي:**

١- ذكر سبب النزول.

٢- بيان موقع الآية في سياقها بما يساعد على معرفة الإطار العام للمعنى الذي وردت فيه هذه الآية.

٣- الكشف عن الصلة بين ملابسات النزول وبين نظم الآية.

٤- ولا شك أن كل هذا مما يساعد على الاستهداء لأسرار النظم وغرائب نكاته[1].

وقد أنصت طويلًا لخصوصيات كل آية مستلهمًا دلالة السياق، ومسترشدًا بملابسات النزول، ومستضيئًا بإشارات المفسرين، ومستعينًا بالله سبحانه ومستعصمًا بهداه من الزلل في استخلاص تلك الغرائب، وكلي يقين بأن القرآن بحر لا ينفد عطاؤه، وأن العبد مهما كان توفيقه فلن يخرج من سعيه إلا بما قدره الله له، وإني أدعوه عز وجل أن أكون قد خرجت من سعيى بقطرة أو برذاذ من ذاك البحر، وأدعوه سبحانه أن يغفر لي سهوات الفكر وغفلات البشر.

(١) غرائب النكات: هي مزايا النظم غير الظاهرة، والتي تلحظ من خصوصيات النظم بمعونة السياق .

في سورة البقرة

١- قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة البقرة: ٩٧].

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «أقبلت يهود على رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، إنا نسألك عن خمسة أشياء؛ فإن أنبأتنا بهن، عرفنا أنك نبي واتبعناك، فأخذ عليهم ما أخذ على بني إسرائيل على نبيه، إذ قالوا: الله على ما نقول وكيل، قال: **هاتوا**، قالوا: أخبرنا عن علامة النبي، قال: «**تنام عينه ولا ينام قلبه**».

قالوا: أخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف تذكر؟

قال: «**يلتقي الماءان؛ فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرت؛ وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثت**».

قالوا: أخبرنا ما حرم إسرائيل على نفسه؟ قال: «**كان يشتكي عِرْق النَّسا فلم يجد شيئًا يلائمه إلا ألبان كذا وكذا، فحرم لحوم الإبل**».

قالوا: صدقت، فأخبرنا ما هذا الرعد؟

قال: «**ملك من ملائكة الله عز وجل موكل بالسحاب**».

قالوا: صدقت، إنما بقيت واحدة وهي التي نبايعك إن أخبرتنا بها، فإنه ليس من نبي إلا وله ملك يأتيه بالخبر، فأخبرنا من صاحبك؟

قال: «**جبريل عليه السلام**».

قالوا: جبريل ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا، لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقطر لكان، فأنزل الله عز وجل ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الآية[1].

---

(١) الصحيح المسند من أسباب النزول ٢٢ .

موقع الآية:

وردت تلك الآية في سياق الحديث عن بني إسرائيل وامتناعهم عن الإيمان بما أنزل الله على محمد ﷺ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [سورة البقرة: ٩١].

ثم إنهم امتنعوا عن الإيمان بمحمد بحجة أن جبريل هو الذي ينزل بالوحي عليه وهو ينزل بقرآن ينذر بني إسرائيل بالحرب لأنهم هم الذين ابتدعوا الربا ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾(١) وينذرهم بالقتال والعذاب وهم أحرص الناس على حياة، وقد جاء بعد الآية التي معنا قوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ. . . .﴾ [سورة البقرة: ٩٦].

فهذا يرشح لذلك السبب الوارد في نزول تلك الآية الدالة على عداوتهم لجبريل عليه السلام وتصريحهم بهذا، ثم إنهم قالوا: لو كان الذي ينزل عليك بالوحي ميكائيل لآمنا، ونجد ردًا على هذا بأنهم حينما عادوا جبريل وهو أمين الوحي الذي كلفه الله به يكونون قد عادوا الله، وعادَوْا جميع ملائكته ورسله بما فيهم ميكائيل الذي رشحوه وفضلوه، وذلك في قوله سبحانه: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [سورة البقرة: ٩٨].

وهكذا نجد موقع الآية وسياقها دالًا بوضوح على شدة ارتباطها بملابسات نزولها.

غرائب النظم وخصوصياته:

١- بدأت الآية بالأمر (قل) للدلالة على أن المأمور بقوله ذو شأن وأهمية، ولا يأتي هذا الأمر إلا إذا كان هناك خطأ واعوجاج يجب تقويمه على وجه السرعة، فلو أنه قال: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾؛ لكان قرآنًا يتلى، وربما لا يسمع اليهود هذه الآية، ولهذا كان تصديرها بالأمر (قل) لقصد تبليغ الآية إليهم وإسماعهم إياها ردًا لقولهم وإقامة الحجة عليهم.

---

(١) والخطاب في صدر هذه الآية للمؤمنين، ولكن هذا الوعيد الشديد لليهود نصيب فيه لأنهم أساس الربا، ناهيك عن مواضع أخرى في القرآن تخزيهم وتلعنهم لمخازيهم الكثيرة .

٢- لم يرد لليهود في هذه الآية اسم ولا ضمير على سبيل التجاهل لأمرهم وعدم المبالاة بعداوتهم، ولقد ورد الحديث عنهم بضميرهم في الآية السابقة: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ فلم يقل بعد ذلك وهم الذين عادوا جبريل على الطريقة نفسها، وإنما قال: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾؛ لأن المجال انتقال من مجرد حكاية الأخطاء والمواقف المخزية إلى الرد الذي يحذر وينذر ويفند تلك المغالطات، ولأن الخطاب في هذه الطريقة يعرِّض تعريضًا موجعًا، وفي التعريض شمول فيه تحديد[1] مفهوم من ظلال الموقف ودلالة السياق، وفي الشمول والتعميم فائدة أخرى ليدخل معهم أمثالهم من كل ملة وفي كل زمن.

٣- التعبير بالفعل الماضي الناقص ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ يشير إلى أنها عداوة قديمة متأصلة متمكنة في نفوسهم، وهي ناشئة من نقصان في تفكيرهم.

٤- طوى جواب الشرط في قوله: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ لأنه مفهوم، وتقديره فإنه عدو لله أو فهو فاسق، وكثيرًا ما يطوى الشيء المفهوم لتسليط الضوء على الخفي غير المعلوم، وقد قصد هنا المبادرة إلى كشف خفايا نفوسهم وإبراز سبب عداوتهم لجبريل، وهو نزوله بالوحي على قلب رسول الله ﷺ ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فهذا ما يملأ صدورهم حقدًا وإن حمَّلوا غيظهم وعداوتهم لجبريل، وأكثر خصوصيات النظم في هذه الآية تشير إلى هذا.

٥- التعبير بالفعل المضعف (نَزَّله) يدل على كثرة التنزيل بالقرآن من السماء إلى الأرض؛ لأن القرآن نزل منجمًا، وهذا يعني خطورة المهمة التي كلف بها جبريل من ناحية، ويزيد من غيظ قلوب اليهود من ناحية أخرى؛ لأنهم كلما علموا بنزول جديد توقدت قلوبهم حقدًا وخوفًا من أن يتناولهم القرآن، وأداء الفعل المضعف يشعر صوتيًا بقصد إثارة الكامن من غمهم.

٦- جعل التنزيل على قلب رسول الله ﷺ ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ولم يقل: نزله عليك؛ ليشير إلى ما كان يقع على رسول الله ﷺ من مشقة عند تلقيه

(١) هذا من سمات التعريض: أن يكون اللفظ عامًا والمراد به مخصوص يفهم من الموقف والسياق، كقولنا للإنسان المؤذي: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده».

القرآن، فإنه لا يتلقاه بيده ولا بسمعه، وإنما يتلقاه بقلبه ليعيه ويشكل كيانه وفكره وعقيدته حتى يكون قرآنًا يمشي بين الناس، وهذا يعني أن التبليغ ليس نقلًا لنصوص قرآنية من رسول الله ﷺ إلى الناس، ولكنه تمثل إيماني وتشكيل خلقي وسلوكي يأتي بعدها الدعوة التي تخرج من القلب الذي تلقى من قبل وحينئذٍ تؤتي ثمارها في القلوب النظيفة التي لم تدنسها الوثنية أو العصبية، وهذا مما كان يقلق اليهود.

٧- جعل التنزيل بإذن الله في قوله: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ﴾(١) إشارة أن جبريل لا يتنزل من نفسه حتى يكون محلًا للتقويم والحب أو الكره، ولكنه يتنزل بما أمره الله به، فيكون اعتراض اليهود على جبريل اعتراضًا على من أمره وأذن له، وتكون عداوة جبريل موجهة إلى من أمره وأذن له، وقد صرح بهذا المعنى في الآية التالية ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾.

٨- ذكر جبريل وميكال بعد الملائكة من التخصيص بعد التعميم للتلميح إلى مقولة اليهود السابقة: جبريل عدونا، ولو كان ميكائيل هو الذي ينزل لك، لآمنا به. فكأنه يقول لهم: أنتم بعداوتكم جبريل صرتم معادين لكل الملائكة بما فيهم ميكائيل، وفي هذا كشف لما هم فيه من وهم أو مغالطة.

٩- كان مقتضى الظاهر ومجرى النظم أن يقول: من كان عدوًّا لله وملائكته فإن الله عدو له، ولكن قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ لتحديد الباعث على قولهم وهو الكفر بما أنزل على محمد ﷺ وأن الله عاداهم بسبب هذا الكفر، وفيه ما فيه من التشنيع عليهم، كما أن في تعميم اللفظ زيادة في الفائدة حتى تكون عداوته سبحانه شاملة لكل الكافرين من يهود وغيرهم، فتجري الجملة بهذا مجرى

---

(١) تكملة الآية ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وفيه تنديد وتعريض باليهود؛ لأن القرآن جاء مصدقًا لأقرب الكتب نزولًا قبله وهي التوراة والإنجيل حتى كأنها بين يديه وأمامه يشهد بصدقها، وكان موجب هذا أن يؤمنوا به، وجعل القرآن هدى؛ أي: أنه متمكن في الهداية، كأنه هو نفسه الهدى، وفيه تعريض آخر بقسوة قلوب اليهود وغيرهم ممن لم يؤمنوا بالقرآن .

الأمثال في إمكان الاستقلال والإطلاق على حالات أخرى مشابهة.

٢- قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ١١٥].

سبب النزول:

«عن سعيد بن جبير عن ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ يصلي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته...» وفيه نزلت ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أخرجه الإمام مسلم وقال الترمذي: حديث حسن صحيح[1].

وذكر السيوطي أن النبي ﷺ كان يصلى على راحلته تطوعًا وهو آت من مكة للمدينة، ثم قرأ الآية ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾.

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة أمره الله أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود، فاستقبلها بضعة عشر شهرًا، وكان يحب قبلة إبراهيم، وكان يدعو الله وينظر إلى السماء، فأنزل الله سبحانه ﴿فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ فارتاب اليهود وقالوا: (ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟) فأنزل الله سبحانه ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ وقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ ثم ذكر السيوطي: أن إسناده قوي والمعنى يساعد فليعتمد[2].

- ومن الواضح أن الرواية الأولى عن ابن عمر تفيد أن الآية نزلت في الصلاة على الراحلة تطوعًا، وقد اعتمدها صاحب كتاب «الصحيح المسند» ويستبعد أي سبب آخر، بينما يذكره السيوطي ويضيف إليه أمر تحويل القبلة ويجعله هو المعتمد مستندًا في هذا إلى ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما من أن الآية نزلت في الرد على اليهود الذين ارتابوا وتقولوا بعد تحويل القبلة، والظاهر أن الآية ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ نزلت للسببين معًا: الأول ما روي عن ابن عمر من أن الرسول ﷺ كان يصلي على راحلته وهو في طريقه من مكة إلى المدينة، ولعل السؤال كان قائمًا في أذهان كثير من المسلمين: هل تصح الصلاة على الراحلة ولو لم يكن المصلي

(١) الصحيح المسند من أسباب النزول ٢٥ .

(٢) أسباب النزول للسيوطي ٣٤ .

مستقبلًا القبلة؟ فكان قوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ﴾.
والسبب الثاني: ما قاله اليهود عندما تحول رسول الله ﷺ بأمر ربه من استقبال بيت المقدس في صلاته إلى المسجد الحرام، فلفظ الآية عام، وهو قابل للسببين معًا، ويكون هذا من إعجاز القرآن بإيجازه؛ إذ يجمع بين سببين بلفظ واحد، ويحقق غرضين برمية واحدة، وبين المعنيين والغرضيين اللذين يحققهما اللفظ صلة، فكلاهما يتعلق بالاتجاه في الصلاة، وهذا مما ساعد اللفظ على تناوله المعنيين والسببين معًا ضربة واحدة.

لكن لما كانت هناك تفاصيل أخرى في شأن تحويل القبلة، أعاد الحديث عنها فى السورة نفسها في قوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ﴾ [سورة البقرة: ١٤٢].

موقع الآية:

وردت الآية السابقة في سياق الرد على مزاعم اليهود الذين كانوا ينتهزون أدنى فرصة للنيل من هذه الرسالة، فلقد شككوا في نسخ بعض الأوامر والتكاليف، فرد الله عليهم بقوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآۗ﴾ [سورة البقرة: ١٠٦].

ولقد قال سبحانه في هذا السياق ينكر على بعض المسلمين وقوعهم تحت تأثير هذا التشكيك في قوله: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۗ﴾ [سورة البقرة: ١٠٨].

وفي هذا التشبيه تعريض باليهود بأنهم دأبوا على الارتياب والشك من قديم وأنهم كانوا يسألون نبيهم موسى عليه السلام بمناسبة وبغير مناسبة، وأن هذه ليست طبيعة عربية، وما ينبغي أن يتشبه المسلمون منهم باليهود الذين يثيرون الشكوك في أوامر الله وتكاليفه، ومما شككوا فيه تحويل القبلة، فلقد كان رسول الله ﷺ يتجه في صلاته عقب الهجرة إلى بيت المقدس، فاحتج اليهود بذلك على صحة دينهم وقبلتهم، فتمنى الرسول ﷺ في نفسه أن يأمره الله بالتحول إلى الكعبة، فأمره الله بذلك ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة البقرة: ١٤٤].

وفقد اليهود بذلك حجتهم على صحة دينهم وعز عليهم أن يفقدوا تلك الحجة، فلجأوا إلى حيلة أخرى للتشكيك؛ إذ أشاعوا بين المسلمين: إن كان التوجه إلى بيت المقدس باطلاً، فقد ضاعت صلاتكم إليها؛ وإن كان صحيحًا، فَلِمَ كان التحول؟ ووجدت هذه الحيلة طريقها إلى بعض النفوس، وكان السؤال يتردد على ألسنتهم، فقطع الله على اليهود حيلتهم، وعلى بعض المسلمين حيرتهم بقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾ وقوله بعده: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ﴾.

من خصوصيات النظم:

في قوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ﴾ تقديم الخبر «لله» يفيد التخصيص، وهذا يعني أن المشرق والمغرب لله وحده، فهو المالك لهما لا ينازعه أحد في ملكهما، وهذا يشير إلى أمرين: **الأول:** أن المالك لكل شيء هو الذي يأمر وينهى، يأمر بما شاء وينهى عما يشاء، وأن التحول في الصلاة من جهة إلى جهة ليس باجتهاد بشر حتى يكون موضعًا للتشكيك، ولكنه بأمر المالك المتصرف. **والثاني:** أن الله سبحانه موجود في كل ملكه، فأينما تولوا فثم وجه الله حيثما توجه إليه عابد «وأن تخصيص قبلة معينة هو توجيه من عند الله فيه طاعة لا أن وجه الله سبحانه في جهة دون أخرى»[1] ثم إن عموم اللفظ في قوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾ من التشريع السمح الذي يتسع لأحوال كثيرة ذكرت في أسباب النزول كالصلاة تطوعًا على الراحلة في أي اتجاه وعند الضرورة وعند عدم تبين القبلة وغير ذلك من الأحوال، والمهم في ذلك هو سلامة القلب وإخلاص الوجه لله. (إن الله واسع) لا يضيق على عباده (عليم) بنياتهم وأحوالهم، وهذا من توافق الفاصلة مع مفهوم الآية وجوًّها.

٣- قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة البقرة: ١٤٢].

وقال سبحانه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [سورة البقرة: ١٤٤].

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٩٩ ط١٢ .

سبب النزول:

وردت رواية تدل على سبب نزول هاتين الآيتين. وتدل في الوقت ذاته على ترتيب النزول - في أسباب النزول للسيوطي عن أبي إسحاق عن البراء قال: كان رسول الله ﷺ يصلي نحو بيت المقدس[١] ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله، فأنزل الله سبحانه ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ فقال رجال من المسلمين: وددنا لو علمنا حكم من مات قبل أن نصرف إلى القبلة (الكعبة) فأنزل الله سبحانه ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ وقال السفهاء من الناس: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ فأنزل الله سبحانه ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾[٢].

موقع الآية:

من الواضح أن ترتيب المصحف لم يأت وفقًا لترتيب النزول؛ لأن القرآن ليس وثيقة تاريخية تلتزم ترتيب الأحداث ترتيبًا تاريخيًا صارمًا، ولكن القرآن كتاب دعوة وتشريع وإصلاح بالدرجة الأولى؛ لذلك فإنه يرتب آياته ترتيبًا آخر يراعي فيه المناسبات والأغراض.

ولما كان الغرض العام في هذا السياق هو تعديد مواقف اليهود السلبية من تلك الرسالة ورسولها ﷺ لهذا بدأ بما يدل على هذا ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ فقد بدأ بهذه الآية لمناسبتها المقام والسياق العام وإن لم تكن هي الأولى في النزول من بين آيات تحويل القبلة.

وقد ورد قبلها في الآية (١١٥) ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ

(١) وفي رواية البخاري: صلى رسول الله «ﷺ إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا» وفيه ما يفيد أن الرسول ﷺ تحول عندما أمره الله، وكان ذلك في ركوع صلاة العصر. راجع الصحيح المسند من أسباب النزول ٢٨.

(٢) راجع المرجع نفسه ٢٨.

﴿ٱللَّهِۚ﴾... فتجد في كل منهما تخصيصًا يفيد أن المشرق والمغرب وكل اتجاه هو لله وحده، فأينما اتجهنا كان ذلك لله طالما كان التوجه مخلصًا لله، لكن الآية خطابها أعم لأنها ترد على تساؤلات متعددة، منها صلاة النافلة على الدابة في أي اتجاه، ومنها السؤال عن سبب التحول من قبلة لأخرى، كما دل النزول، أما الآية ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ﴾، فمن الواضح أنها مخصوصة بالرد على السفهاء - اليهود - عندما قالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَاۚ﴾.

غرائب النظم وخصوصياته:

١- في قوله سبحانه: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ من المواضع التي يخبر الله سبحانه فيها عن غيب سيقع، فيكون عند وقوعه دليلًا على صدق القرآن وأنه من لدن علام الغيوب؛ لأن بشرًا ما مهما كان لا يمكنه العلم بما سيقع أو يقال مستقبلًا، وكان ينبغي أن يكون هذا دليلًا يهدي هؤلاء الضالين، لكنهم لخفة في عقولهم أو مرض في نفوسهم لم يعتبروها دليلًا على صدق القرآن؛ لهذا كان من المناسب وصفهم بالسفهاء، والسفيه هو الجاهل وهو الكذاب الذي يقول ما لا يعلم، وهو قليل العقل، والسفهاء هم خفاف الأحلام كما ذكر الزمخشري نقلًا عن أهل اللغة، والمقصود هنا هو الجهل وخفة العقل بدلالة السياق؛ لأنهم لو كانوا عقلاء يفكرون لاهتدوا إلى دليل صدق القرآن؛ لأنه أخبر عن غيب سيقع، وقد وقع، ولعل من السفاهة أيضًا أنهم لم ينتهزوا الفرصة فيمتنعوا عن قول ما ذكر القرآن أنهم سيقولونه، لكنه على كل حال خبر العليم الخبير بما كان وما سيكون.

٢- في قوله تعالى: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَاۚ﴾ استفهام قصد به التعجب والإنكار والدهشة، وجاءت الأداة (ما) دون غيرها لإظهار الغموض والغرابة، وهم يعلمون أن من يسألونهم ليسوا بأعلم منهم ولا جواب عندهم، وإنما قصدوا إشاعة البلبلة وإظهار التحير والاستغراب من أناس لا يستقرون على جهة واحدة، فهذا الاستفهام لا يخلو من قصد الإثارة والإساءة والطعن، لا سيما وأن هؤلاء السفهاء لا يسألون المسلمين أنفسهم ليجدوا عندهم جوابًا، وإنما يسألون أمثالهم من اليهود والمنافقين بدليل ذكر المسلمين بضمير الغائب بما يشير إلى إرادة

الغمز بهم (ما ولاهم)، ومما يدل على سوء النية والمكر أن هؤلاء السائلين وكان فيهم يهود يعلمون أن هذا هو الحق ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾.

- ولأن هذا حكاية ما يقع مستقبلاً فلقد جاء بلفظ الماضي؛ أي: أنهم بعد تحويل القبلة سيقولون: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا﴾ وخلاصة ما سبق أن هذا السؤال فيه مكر وقصد به الطعن وإظهار المسلمين في صورة المضطرب الذي يتصرف من نفسه وغير قادر على أن يهتدي، ومن أجل هذا كان الجواب ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

٤- هذا الجواب يرد مكرهم؛ لأنه يعني أن الرسول والمسلمين لم يتحولوا من أنفسهم، ولكنهم تحولوا من جهة لأخرى بأمر الله سبحانه، فهو وحده الذي يملك كل الجهات. وقوله: ﴿يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فيه إشارة إلى أن الرسول والمسلمين مهتدون إلى صراط مستقيم؛ لأن كل ما يأمر به الله - ومنه الأمر بتحويل القبلة - فيه هداية إلى الحق، وفيه إشارة أيضًا إلى أن السائلين هم الذين لم يشأ الله لهم أن يهتدوا، فهم في ضلالهم ومكرهم يعمهون، وفي ذلك قلب للمعايير التي كانوا يريدون إشاعتها ﴿يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ والرد الموجز في قوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ يؤدي إلى الإفحام والإلجام.

٤- وإذا كان قد رد على المشككين بما يزيدهم تحيرًا؛ فإن خطاب المؤمنين يناسب من قالوا سمعنا وأطعنا ولا يعترضون ولا يتحيرون، حتى لقد ورد في سبب النزول في رواية البخاري أن الوحي لما نزل كان الرسول ﷺ في صلاة عصر وفي الركوع، فدار راكعًا من جهة لأخرى ودار المسلمون؛ ولم يخرج منهم واحد من الصلاة سائلاً أو معترضًا، فهؤلاء هم الجديرون بخطاب التحنن والمحبة والتكرم في ضمن التعليل بالتحول؛ إذ يقول سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾؛ أي: مثل ما سبق من التحويل جعلناكم أمة وسطًا، وهذا يعني أن التحويل كان لتحدث هذه الوسطية، ووسطية الكعبة وسطية مكانية، فالكعبة وسط الأرض كما قال المفسرون قديمًا، وقال العلماء حديثًا: إنها

مركز الأرض ولا فرق، أما وسطية هذه الأمة فهي وسطية المنهج والسلوك، والوسطية نقطة تقع بين الغلو والتقصير، الغلو الذي كانت عليه رهبانية النصارى، والتقصير الذي كان عليه اليهود، كما تعني الوسطية الخيرية؛ فلقد كان العرب يقولون: فلان أوسط قومه؛ أي: خيرهم.

فالمعنى المقصود إذن أن الله سبحانه اختار الكعبة لتكون هي القبلة النهائية لهذه الأمة لتتماثل وسطية الكعبة في الأرض مع وسطية هذه الأمة بين الأمم، وهذه الوسطية تكريم يتفرع عنه تكريم آخر هو ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

٥- وشهادة الرسول على أمته هي شهادة بأنه بلغ الرسالة وأدى الأمانة، وشهادة هذه الأمة على سائر الأمم هي شهادة بتبليغ الرسالة إليهم، ولا تكون الشهادة على التبليغ إلا إذا حدث التبليغ فعلاً، فيقول المسلم - مثلاً - بعدما يبلغ الرسالة لغيره من الملل الأخرى: «اللهم، بلغت. اللهم، فاشهد» ومن هنا يتبين، أن في شهادة أبناء هذه الأمة على سائر الأمم هي شهادة تشريف وتكليف، وإنما يحدث التشريف بعدما ينفذ التكليف.

وإنما يحدث التشريف بتحمل أفراد الأمة مهمة رسولهم ﷺ بعد رحيله، فهي مهمة عظيمة وشريفة، ثم تكون الشهادة على ذلك يوم القيامة، وتعدية الشهادة بالحرف (على) في قوله: ﴿وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ يوحي بهذا الشرف المستمد من أمانة التبليغ الذي كان في الحياة الدنيا، يقول الزمخشري: «لما كان الشهيد كالرقيب والمهيمن على الشهود له جيء بكلمة الاستعلاء» يقصد حرف الجر (على).

ومن هنا نستشعر حجم المسئولية التي تقع على عاتق أفراد هذه الأمة في تبليغ تعاليم هذه الرسالة إلى سائر الأمم؛ وإلا فكيف تتحقق العمومية في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾.

وهناك فهم آخر ذكره كثير من المفسرين هو أن معنى ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: تشهدون يوم القيامة للأنبياء على أممهم بأنهم قد بلغوهم ما أمرهم الله بتبليغه إليهم، وهو فهم بعيد عن روح النص ودلالته؛ إذ كيف تشهد هذه الأمة

على شيء لم تره، وربما قيل: إن ذلك - أي تبليغ الأنبياء أقوامهم - قد عرفناه من القرآن الكريم، لكن المعنى مع هذا قليل الجدوى بالقياس إلى المعنى المفهوم والذي سبق؛ لأنه يُحمّل أفراد هذه الأمة مسئولية التبليغ بعد رسول الله ﷺ لتتحقق عمومية الرسالة، وقد ضرب رسول الله ﷺ في حياته أمثلة عملية تدرب المسلمين على كيفية التبليغ عندما كان يبعث سفراءه إلى الملوك، وعندما كان يبعث للجماعات التي تدخل في الإسلام من يفقههم في أمور دينهم كما حدث مع معاذ ابن جبل عندما بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل اليمن، والله سبحانه يقول: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [سورة التوبة: ١٢٢].

على أن الاقتصار في تفسير قوله سبحانه: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ على ذلك المعنى الضيق، وهو شهادة هذه الأمة يوم القيامة للأنبياء على أممهم كما ذهب البعض يجعل هذه الشهادة مجرد تشريف، ولا يوجد في هذا الدين العظيم تشريف من غير تكليف حتى بالنسبة للرسول ﷺ.

ثم إن هذا المفهوم الذي يحصر هذه الشهادة في مجرد كلام يشهدون به يوم القيامة على تبليغ الأنبياء أقوامهم... هذا المفهوم يعفي هذه الأمة من مسئولية التبليغ لهذه الرسالة إلى الناس.

ثم إننا نسأل لماذا اقتصرت شهادة رسول الله ﷺ على أمته دون سواها كما يفهم من قوله سبحانه: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ بتقديم الجار والمجرور على المفعول، إنما اقتصرت شهادته عليه الصلاة والسلام على أمته؛ لأنه بلغهم هم، فالشهادة إذن إنما تكون ممن بلغ، وهذا يعني أن شهادة هذه الأمة على سائر الأمم لا تكون إلا بعد قيامهم بما ينبغي عليهم من تبليغ رسالة هذا الدين إليهم؛ فإذا لم يبلغوا في حدود الطاقة والاستطاعة حرموا من شرف الشهادة على الناس.

والنص القرآني من الشمول بحيث يتسع على كل حال ليشمل هذا المعنى الذي يُحمّل هذه الأمة مسئولية التبليغ في الدنيا والشهادة على هذا في الآخرة، والمعنى الآخر الذي ذكره كثير من المفسرين، وهو أن هذه الأمة تشهد على من سبقوهم من الأمم بأن رسلهم قد بلغوا رسالة ربهم، وإن كنت أرجح الأول للأسباب السابقة.

والله أعلم بمراده.

٦- إن السؤال عن سبب التوجه إلى بيت المقدس فترة من الزمن قائم في كل نفس، والقرآن يترفق بتلك النفوس المؤمنة، فيقول سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾؛ أي: لنعلم أهل اليقين من أهل الشك. كما ذكر ابن عباس، فهو الابتلاء الذي يميز الخبيث من الطيب، والله سبحانه أعلم بدواخل عباده، ولكنه عز وجل يريد تنقية الصف المسلم من ضعفاء الإيمان، ولقد كان الاختبار عظيمًا، فلا يثبت فيه إلا الصفوة ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ «وأخرج ابن جرير عن ابن جريح قال: بلغني أن أناسًا ممن أسلموا رجعوا فقالوا مرة ههنا ومرة ههنا»[١].

والدرس المفاد هو أن المسلم ينبغي أن يسلم وجهه إلى الله، وأن يتلقى تكاليف الله بالتسليم دون تطلب العلة؛ لأنه سبحانه أعلم بأحوال عباده، وهو الأعلم بما فيه مصلحتهم، وإنما كان يكمن الابتلاء في أن الأمر بالتوجه إلى بيت المقدس غير مقرون بعلته والحكمة منه فسقط في الابتلاء من سقط.

والتعبير عن هؤلاء الذين سقطوا بمن ينقلب على عقبيه صورة ساخرة للإنسان الذي يسير على غير هدى ولا يتبصر مواضع قدميه فينكب على وجهه إلى أسفل قدميه انكبابًا عجيبًا؛ لأنه يؤدي إلى أن ينقلب، وهي صورة مستعارة للإنسان الذي يبتلى فلا يصمد ولا يفلح.

٧- في قوله سبحانه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ هذه هي البداية حيث كان رسول الله ﷺ يتمنى في نفسه أن يتوجه إلى الكعبة التي يحبها ويرضاها قبلة لصلاته، ويبدو أن رسول الله ﷺ لم يلفظ برغبته ولم يصرح بطلبه جهرًا في دعائه حياءً من الله وخشية ألا يجاب إلى طلبه، وقد عبر القرآن عن هذه الرغبة النفسية بمظهر صادق من مظاهرها وصورة من صورها الدالة الناطقة وهي: ﴿تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ وهي من أبلغ الصور دلالة على دعاء المحب في صمت ملح؛ ولذلك نرى العلماء يفسرونها ولا يذكرون أن رسول الله ﷺ دعا ربه

(١) فتح القدير ١/١٤٩ .

أو تحرك لسانه، يقول قطرب: قوله تعالى: ﴿نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: تحول وجهك إلى السماء اهـ. وهذا من الصمت البليغ الذي لا يعلم ما وراءه إلا الله، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة كما يقول عبد القاهر، وفيه إشارة بليغة لأهل الشك والارتياب، فإن الله سبحانه علم ما جرى في نفس نبيه وما هتفت به الأشواق وإن لم يتحرك به اللسان، ثم أعلم به رسوله وأجابه إلى ما تمنت نفسه، وكل من كان له قلب يدرك العبرة والموعظة.

يقول المفسرون: ومعنى (قد) تكثير الرؤية، والذي تطمئن إليه النفس أن المقصود بالرؤية العلم، وعلم الله لا يوصف بكثرة أو قلة؛ لأنه علم غير محدد، وإنما تدل (قد) على وقوع العلم، أي: قد علمنا، وإنما عبر عن العلم بالرؤية على عادة اللسان العربي عند إرادة تأكيد العلم، وعبر عن الماضي بالمضارع في (نرى) ليعود إلى التقلب الذي يعني الرجاء والرغبة المتجددة وقتًا بعد وقت، ويشير هذا إلى أن رسول الله ﷺ لم ينقطع تطلعه ولا رجاؤه مدة الستة عشر شهرًا التي توجه فيها إلى بيت المقدس، فكانت تتجدد في نفسه تلك الرغبة، ويتطلع إلى الله سبحانه في رجاء عميق أن يأمره بالتحول إلى الكعبة، هذا ما يشعر به المضارع مع ما دخل عليه قوله: ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.

أما قوله: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ﴾ فيقول المفسرون: إن التولية من الولاية؛ أي: فلنعطينك أو من التولي، وهو التوجه؛ أي: فلنجعلنك متوليًا إلى جهة الكعبة، يقول الشوكاني: «هذا أولى لقوله: ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾؛ أي: ناحيته وجهته».

والحق أن كل لفظ في القرآن إذا احتمل معنيين فينبغى أن يحمل عليهما تكثيرًا للمعنى ما لم يتعارضا، ولا يبدو تعارض ما في اعتبار المعنيين معًا، فالأول من التولية وهو العطاء والمنح يؤيده ما في السياق من تكريم لرسول الله ﷺ وتطييب لخاطره، كما يدل عليه الإجمال المشوق في قوله: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ﴾ والذي يأتي بعده التفصيل الكاشف عقبه في قوله: ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾، فكان يمكن أن يأتي المعنى دفعة واحدة بقوله مثلًا: قد نرى تقلب وجهك في السماء؛ فول وجهك شطر المسجد الحرام، لكنه أجمل أولاً إجمالاً يوحي ببشائر

الأمل من غير بيان أو تحديد في قوله:

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَنٰهَا﴾ وذلك للتشويق وإثارة الأمل الكامن في نفس رسول الله ﷺ وفي خصوصيات الألفاظ ما يجعل ذلك الأمل يلوح أمام عين رسول الله؛ إذ نكر (قبلة) تنكيرًا يفيد التفخيم والتعظيم، ثم إنها قبلة يرضاها ويحبها وتتوق إليها نفسه، أفلا يكون في ذلك تحريك لكوامن الرغبة الملحة، وتشويق للأمل المرجو، وتلويح بقرب تحقيق ذلك الأمل؟

لا شك أن التلويح ببشائر الأمل الذي تتوق النفس إليه قبل ذكره يكون أوقع وأمكن وأدل على حديث المحبين. كل هذا يتناغم مع توجيه الفعل (فلنولينك) إلى معنى العطاء، أي: فلنعطينك ولنمنحك؛ أما المعنى الآخر وهو من التولي، أي: فلنجعلنك موليًا متجهًا، فله أيضًا ما يؤيده، وهو قوله: ﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وعلى هذا فدلالة الفعل على معنى التولي يؤيده النص، ودلالته على معنى العطاء والمنح يؤيده روح النص وخصوصية التركيب وإيحاءات الألفاظ.

٨- الأمر في قوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ للتكليف، لكنه مشبع بما في السياق من ترضية وتكريم، وإنما عبر بالوجه مع أن الإنسان يتجه بكله، وذلك لما فيه من الإشارة إلى أنه اتجاه الفكر والمشاعر؛ لأن الإقبال بالوجه من مظاهر إقبال المحب، كما أن انصراف الوجه من علامات الإعراض والبغض، فليست المسألة إذن مجرد اتجاه أجساد، ولكنها مع ذلك اتجاه أرواح ومشاعر؛ ولما كان الخطاب لرسول الله ﷺ محاطًا بالتكريم والترضية، وكان ذلك يوهم بالخصوصية، عاد بنفس الأمر لكل المسلمين في قوله: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾.

على أن مجيء هذا الأمر جوابًا للشرط ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾[١] يدل على أن التوجه للكعبة ليس بدعًا ولكنه عودة لما كانوا عليه، فهذا هو الوضع الطبيعي، وهو يشير إلى أن تلك الفترة الفاصلة والتي توجه فيها الرسول والمسلمون إلى بيت

(١) ولقد كان الرسول والمسلمون يتجهون قبل الهجرة إلى الكعبة؛ فلما هاجروا للمدينة، أمروا بالتوجه لبيت المقدس، وظلوا كذلك بضعة عشر شهرًا حتى كان الأمر بالعودة إلى القبلة الأولى وحيثما كانوا .

المقدس كان شيئًا مؤقتًا لحكمة تتلخص في قوله سبحانه: ﴿لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾.

أما قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ فإنه يشير إلى أمور منها:

أ- أن الذين أوتوا الكتاب هنا هم اليهود، وأن الحكم عليهم والإخبار عنهم بما ذكر يدل على أنهم استنكروا هذا التحول، وأنهم من السفهاء الذين قالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾.

ب- أن قولهم: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ مع علمهم بأنه الحق يدل على سوء نيتهم وكذبهم.

جـ- أن تعريفهم باسم الموصول، وصلته ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فيه ما فيه من تشنيع صنيعهم والتشهير بموقفهم؛ لأنهم أهل كتاب وكان ينبغي أن يكونوا أول المصدقين، فما بالك إذا كانوا هم أول المنكرين، وصدق الله القائل عنهم في موضع آخر: ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ [سورة البقرة: ٤١].

د- ثم إنه يلمّح إلى مصدر علمهم بأن هذا التحويل للقبلة هو الحق، فذلك المصدر هو كتابهم الذي أنزله الله عليهم، وفيه نص على النبي الخاتم وقبلته التي يتجه، إليها أو يعلمون ذلك من يقينهم الذي يخفونه بأنه نبي آخر الزمان، وأن ما ينزل عليه وحي يوحى إليه من الله، وأنه أمين في تبليغه ولا يكذب.

هـ- ولما كان علمهم بصحة هذا شيئًا خفيًا مطويًا في نفوسهم، وكان مواجهتهم بما يعلمون ويكتمون يستدعي نفورهم وإنكارهم، من أجل هذا واجههم به مواجهة قوية لا تدع لهم فرصة الإنكار، فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ فأكد هذا بعدة مؤكدات منها (إن)، واسمية الجملة، واقتران الخبر باللام المؤكدة.

و- قوله في الفاصلة: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ تهديد شديد، وفيه تنزيلهم حين مكروا وكتموا ما يعلمون أنه حق منزلة من يظن أن الله سبحانه غافل عن سوء ما يفعل، فنفى ما يظنون وألمح إلى تهديدهم بالعذاب؛ لأن من يظن أن الله غافل أو يعمل عمل من يظن أن الله غافل ليس له جزاء إلا النكال والويل والعذاب، ففي

الجملة تهديد مبهم وهو أقوى من التهديد الصريح.

٤- قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ﴾ [سورة البقرة: ١٨٧].

سبب النزول:

وردت روايات في البخاري تشير إلى تعدد أسباب النزول لهذه الآية، فقوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ﴾ نزلت في قيس بن صرمة الأنصاري الذي صام نهاره، وكان يعمل حتى إذا أفطر الناس أتى امرأته ولم يجد ما يأكله فنام حتى طلع الصبح، فلما انتصف النهار غشي عليه، فذكر ذلك للنبي ﷺ فانتظر حتى نزل قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ﴾.

وفي قوله: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ﴾ ورد أنه «لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجال يخونون أنفسهم فنزلت».

ثم نجد رواية ثالثة عن سهل بن سعد أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ ولم ينزل (من الفجر)، فكان رجال إذا باتوا ليلتهم ربط في رجله خيطًا أبيض وخيطًا أسود، ولم يزل يأكل حتى يتبين له رؤيتهما، فأنزل الله بعد (من الفجر) فعلموا أنه إنما يعني الليل والنهار[(١)].

وقد أحسن ابن جرير الطبري وتبعه ابن المنذر حين لف بين هذه الروايات في بيان واضح موجز، فقال: «إن المسلمين كانوا في شهر رمضان إذا صلوا العشاء حرم عليهم النساء والطعام والشراب إلى مثلها من القابلة، ثم إن أناسًا من المسلمين أصابوا النساء والطعام في رمضان بعد العشاء منهم عمر بن الخطاب، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله الآية...»[(٢)].

---

(١) الصحيح المسند من أسباب النزول ٣١، ٣٢ .

(٢) فتح القدير ١/ ١٨٣ .

موقع الآية:

هذه الآية التي تتناول ضروبًا من التخفيف والتيسير من الرحمن بعباده جاءت بعد قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ والتناسب بين الآيتين واضح، وذلك لأن بعض المسلمين وجدوا حرجًا شديدًا من طول الفترة التي يمتنعون فيها عن الأكل والشرب والنساء «من بعد صلاة العشاء حتى مغرب اليوم التالي» وأن بعضهم لم يصبر فأكل أو شرب أو جامع ليلاً بعد العشاء، وقد شكوا إلى رسول الله ﷺ وهذا كناية عن عدم القدرة على الامتناع طول تلك الفترة وتعريض بطلب الدعاء أن يخفف الله سبحانه، ولا معنى للشكوى غير هذا.

لهذا كان مجيء آية التيسير بعد قوله: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ في غاية المناسبة، ولا أستبعد أن يكون رسول الله ﷺ قد توجه ولو بقلبه إلى ربه بعد شكوى المسلمين، ولعل هذا التدرج كان مقصودًا؛ إذ يبدأ بالأشق حتى إذا انتقل منه إلى الأقل مشقة؛ استشعر المسلمون فضل الله ورحمته عليهم، فيقبلون على الصيام بعد التخفيف وهم راضون دون أدنى تحفظ أو تبرم، لا سيما وأن الصيام في ذاته من أشق العبادات لما فيه من منع النفس من شهواتها.

غرائب النظم وخصوصياته:

١- البداية بقوله سبحانه: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ يشعر بالامتنان والفضل، وهو من المبادرة بالطمأنة لمن ينتظر هذا الحكم، وهو من الكلام الوارد على سنن الملوك، وكل من يستمع بداية إلى قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ يدرك أن هذا ليس من كلام بشر؛ لأنه لا يقوله إلا من يملك الحل والتحريم سبحانه.

وتدل هذه البداية على أن الاقتراب من النساء ليلة الصيام كان محرمًا، وأن الله سبحانه أحله تخفيفًا ورحمة بعبادة، وكذلك قوله بعده: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ يدل على إباحة ما كان محظورًا بعد العشاء من أكل وشرب.

لكننا لا نعلم على سبيل القطع أيّ المحظورين وقع أولاً؛ إتيان النساء؟ أو الأكل والشرب؟ وابتداء الآية بقوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ لايدل يقينًا على أن الرفث هو الذي وقع أولاً؛ لأن القرآن لا يلتزم الترتيب الزمني

للأحداث دائمًا، وإنما يبدأ بالأهم وإن كان تاليًا في الزمن، والظاهر أنه بدأ هنا بإباحة الرفث في ذلك الوقت من هذا المنطلق؛ لأن النفس أضعف في مقاومتها شهوة الفرج؛ ولذلك بدأ بما حاجتهم إليه أشد ومقاومتهم له كانت أضعف.

٢- ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ هذه الجملة القصيرة تتناول ما طرأ من حكم (أحل لكم... الرفث) وظرفه (ليلة الصيام) فالحل مقيد بليلة الصيام وليس مطلقًا، وكان الترتيب الأصلي لعناصر هذه الجملة أن يتأخر الظرف، فيقال مثلًا: أحل لكم الرفث إلى نسائكم ليلة الصيام، وإنما تقدم الظرف على نائب الفاعل للتشديد في تعيين زمن الحل، وأنه مقصورعلى الليل فقط، وبهذا يجتمع تشديد مع تيسير في جملة واحدة، فالتيسير من متن اللفظ (أحل لكم..) والتشديد من التصرف في النظم، ولكنهما؛ أي: التيسير والتشديد مفهومان من جملة واحدة، وهذا من الإعجاز الذي لا نظير له في كلام بشر، ومغزاه الإشارة إلى أن التيسير مقيد بحد معين لا يتجاوزه حتى لا تمضي النفس الأمارة في إطلاق العنان لشهواتها.

٣- أصل الرفث هو قول الفحش، أو ما يكون بين الرجل والمرأة من التبسط ورفع الكلفة عند الجماع، يقول الرازي: «الأصل في الرفث هو قول الفحش، ثم جعل اسمًا لما يتكلم به عند النساء من معاني الإفضاء، ثم جعل كناية عن الجماع وما يتبعه»[(١)] وإنما كنّى عن الجماع وإتيان النساء بالرفث دون غيره من ألفاظ الكناية عن هذا المعنى؛ كالمباشرة والإفضاء واللمس والدخول والتغشي لخصوصية المقصود في هذا السياق، فإن الله سبحانه أراد أن يضمن هذا الحكم استهجان ما كان منهم قبل الإباحة من مجاوزة أو اختيان كما سماه القرآن أو على حد تعبير الرازي: «استهجان ما وجد منهم قبل الإباحة كما سماه القرآن اختيانًا لأنفسهم»[(٢)] فهذه الإشارة ما كانت تفهم من غير لفظ الرفث.

٤- فائدة قوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[(٣)] في هذا السياق يمكن أن

---

(١) التفسير الكبير ٥/ ١٠٥ .

(٢) التفسير الكبير ٥/ ١٠٥ .

(٣) تشبيه بليغ يعني أن المرأة كاللباس لزوجها، وأن الرجل كاللباس لزوجته، والصفة=

يكون تعليلاً لإباحة الرفث ليلة الصيام مراعاة لطبيعة العلاقة الخاصة بين الرجل وزوجه، والتي تتوفر أسبابها ليلاً عندما يخلوان بما يصعب معه تنفيذ الحكم السابق الذي كان يحرم الجماع بعد العشاء إلى مغرب اليوم التالي.

ويمكن أن تكون هذه الجملة بيانًا لمدى ما يكون بين الرجل وزوجه عند الرفث من امتزاج حتى يحقق الإشباع الذي لا تفكير بعده إذا بدأ الصوم، والأولى أن يتسع المراد من هذا التشبيه ليتناول إلى جانب خصوصية السبب الذي نزل من أجله معاني أخرى يكتسبها من السياق حتى صار تصويرًا نادرًا لعلاقة زوجية تضمن السكن والمودة والعفاف.

٥- عبر عن التجاوز بالاختيان في قوله: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ لأنهم كانوا يتجاوزون على الرغم من علمهم بالحرمة تحت وطأة الشهوة واندفاع الرغبة، وكانوا يعدون ذلك خيانة منهم لدينهم، فقسوة التعبير مستمدة من الواقع النفسي الذي اطلع عليه العليم الخبير؛ إذ كانوا يفعلون ما يفعلون ثم يعودون على أنفسهم باللوم الشديد بدليل ذكرهم ذلك للرسول ﷺ انتظارًا لحكم الله فيهم، وكان الله بهم رءوفًا رحيمًا عندما قال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾.

٦- في قوله سبحانه: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [سورة البقرة: ١٨٧] سبق أن الآية نزلت في البداية من غير ذكر الفجر، وكان ذلك على سبيل التجوز الذي استعير فيه الخيط الأبيض للضياء والخيط الأسود للظلام، ومع أنها من الاستعارات القريبة التي روعي فيها الحال حيث يشتد القرب بين المستعار له والمستعار منه، بحيث يمكن لمن يتأمل بداية طلوع الصبح أن يرى تلك الخيوط البيضاء إلى جانب خيوط سوداء، لكن المعنى التبس على بعض الصحابة، فأخذوا بالظاهر وربطوا خيطًا أبيض وخيطًا أسود في أرجلهم، فلم يتبين أحدهما من الآخر إلا بعد انفضاح النهار وقرب طلوع الشمس

= المقصودة هي الامتزاج والالتصاق والاشتمال وغير ذلك من الصفات المستمدة من اللباس كالزينة والستر والحماية، ولم يقتصر على تشبيه واحد للإشارة إلى ما ينبغي من التفاعل حتى يتحقق المقصود لهما معًا.

وهم يأكلون ويشربون[(١)]، وفى الصحيحين وغيرهما عن عدي بن حاتم أنه جعل تحت وساده خيطين أبيض وأسود، وجعل ينظر إليهما فلا يتبين له الأبيض من الأسود، فغدا على رسول الله ﷺ فأخبره فقال: «**إن وسادك إذًا لعريض، إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل**» [(٢)].

وحاصل هذا أن المعنى المجازي لم يفطن إليه بعض الناس؛ لعدم ذكر قرينة دالة مع أن القرينة ملحوظة من السياق، وقد فطن إليها بعض الصحابة، ونبه الرسول إلى المراد بقوله لعدي: «**إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل**» ورحمة من الله سبحانه بعقول عباده، ومراعاة لمقتضيات كل الأحوال نزل قوله: «من الفجر» فصار المجاز تشبيهًا بليغًا[(٣)]

تكمن أهميته في تخير المشبه به مع ما يشير إليه الخيط من الدقة البالغة، فذلك ينبه إلى تلمس أقل الضياء من خلال الظلام ليكون بداية الامتناع عن الأكل والشرب وليس انتظار الضوء الكامل، وبهذا تتضح خصوصية التصوير القرآني الذي يستمد سموه من سمو الأهداف التي يحققها.

٥- قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [سورة البقرة: ١٩٨].

سبب النزول:

ورد في البخارى: حدثنا علي بن عبد الله عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقًا في الجاهلية، فلما كان الإسلام تأثموا من التجارة؛ فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾»[(٤)].

---

(١) الصحيح المسند ٣٢ .

(٢) فتح القدير ١/ ١٨٣ .

(٣) حيث يشبه ما يكون في الفجر من تبين خيوط الضياء من خيوط الظلام بتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود .

(٤) الصحيح المسند ٣٧ .

موقع الآية ومدى التلاؤم مع سبب النزول:

عندما نقرأ سبب النزول نفهم أن تحرج المسلمين من التجارة في تلك الأسواق كان عامًّا غير مخصوص بوقت، وعد لقوله: «فلما كان الإسلام تأثموا من التجارة، فأنزل الله هذه الآية». لكن عندما ننظر في موقع الآية نجدها قد وردت في قلب الحديث عن مناسك الحج، فقبلها: (الحج أشهر معلومات) وعقبها عطف بالفاء قوله: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ بما يشير إلى أن التحرج والتأثم من التجارة كان مخصوصًا بزمن أداء مناسك الحج لا في كل وقت، ويبدو أن رواية البخاري عن ابن عباس فيها سقط لبعض الكلمات الدالة على هذا، ومما يؤكده أن هناك رواية أخرى في مسند الإمام أحمد: حدثنا أبو أمامة التيمي قال: كنت رجلاً أُكرى في هذا الوجه(١)، وكان ناس يقولون: إنه ليس لك حج، فلقيت ابن عمر، فقلت: يا أبا عبد الرحمن، إني رجل أكرى في هذا الوجه، وإن ناسًا يقولون: إنه ليس لك حج؟ فقال ابن عمر: أليس تحرم وتلبي وتطوف بالبيت وتفيض من عرفات وترمي الجمار؟ قال: بلى. قال ابن عمر: فإن لك حجًّا، جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن مثل ما سألتني عنه، فسكت عنه رسول الله ﷺ ولم يجبه حتى نزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فأرسل إليه رسول الله ﷺ وقرأ عليه هذه الآية وقال: لك حج(٢).

خصوصيات النظم:

ينسجم نظم هذه الآية مع ما ورد في رواية الإمام أحمد من قصة أبي أمامة الذي كان يلتمس الرزق في أثناء حجه، وهو يتحرج من تأثير ذلك على حجه، وقد رفع الله سبحانه عنه هو وأمثاله هذا الحرج، ونفى عنهم أي إثم بقوله سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ وهو أقوى مما لو قال: لا جناح عليكم؛ لأن زيادة

---

(١) الفعل أكرى مضارع كارى، والمصدر: الكراء: الأجرة، والمقصود أنه كان يعمل ويساعد غيره بأجرة في أثناء الحج .

(٢) الصحيح المسند ٣٨ .

المبنى في (ليس) أدعى إلى قوة النفي، وتقديم الجار والمجرور (عليكم) فيتسلط النفي عليه لتحقيق مزيد من الطمأنة، وتنكير (جناح) للتقليل؛ لأن المراد نفي أقل الإثم، وهذا يتلاءم مع التعبير عن الخير بالفضل، وإيثار ذكر (رب) مضافًا إلى ضميرهم ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾، ففي كل هذا مزيج من الامتنان والإشعار بالرضا؛ لأنه سعي للرزق لدفع الفقر والذي أتاحه اجتماع الناس لأداء الحج، فينبغي أن يكون بنية الابتغاء من فضل الله والتماس الرزق والبركة في هذه الأيام المباركة.

وعلى هذا فإن نظم المعنى يتجاوز نفي الإثم إلى الإشعار بالرضا والحث على فعل ما كانوا يتحرجون منه، طالما كان بنية ابتغاء فضل الله، مع مراعاة وقوع هذه الآية بين الأمر بالتقوى في نهاية الآية السابقة ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وذكر الله عقبه ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾، فوقوع تلك الإباحة محاطة بالتقوى والذكر إشارة إلى أن يكون السعي للرزق حينئذ غاية ثانوية تابعة لغاية أصيلة هي الحج المقرون بتقوى الله وذكره دائمًا.

٦- قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٢٢].

سبب النزول:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يواكلوها ولم يجامعوهن، فسأل أصحاب النبي ﷺ فأنزل الله تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ الآية[1].

موقع الآية:

وردت هذه الآية في سياق عام تتعدد فيه الأسئلة بالصياغة نفسها(يسألونك)، كقوله قبله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ [سورة البقرة: ٢١٧]، وقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [سورة البقرة: ٢١٩]، وقبيل الآية نهي عن نكاح المشركات

(١) الصحيح المسند ٤٠ .

حتى يؤمن: ٢٢١، وهكذا نجد توافقًا مع السياق العام الذي تتعدد فيه الأسئلة بطريقة واحدة، ومع السياق القريب الذي يتعلق بأحكام النكاح والحيض... إلخ.

خصوصيات الآية:

١- بدأت الآية بسؤال محدد شديد الإيجاز بمناسبة المسئول الذي لا يحتمل أكثر من هذا اللفظ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ والمقصود من السؤال مفهوم.

٢- جاء الجواب متخير الألفاظ دقيق النظم؛ إذ بدأ بجملة خبرية موجزة للمبادرة إلى التنفير منه «هو أذى» فكونه أذى يستدعي النفور منه وعدم القرب من النساء في فترة الحيض. وهذا الحكم يهيئ النفس لتلقي الحكم المترتب عليه والذي يتضمنه الأمر.

٣- في قوله: ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ الأمر حقيقي تكليفي يعني طلب حصول الفعل على سبيل الإلزام والفور، والتعبير بالاعتزال يعني التجنب النافر[1] حتى لا يتجنب البعض وهو راغب، فإن التجنب الراغب مهزوز، ولا يأمن صاحبه من الوقوع في المحظور، وفيه مخالفة للطبيعة السوية.

٤- لا تكرار في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ مع قوله قبله ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾؛ لأن الأمر يعني البعد النافر حسمًا للحكم، لكن النهي يتناول معنى آخر هو بيان التوقيت الذي يباح فيه مجرد القرب دون جماع، فذلك عندما ينقطع الحيض ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾.

٥- ولا تكرار كذلك لجملة الشرط ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾ مع النهي قبله ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾؛ لأن النهى كما سبق يفيد جواز القرب والمباشرة من غير جماع إذا انقطع الحيض؛ أما جملة الشرط، فإنها تفيد جواز الجماع بشرط الاغتسال، وهذا الفرق ناشئ من اعتماد القرآن على الألفاظ ذات الدلالات الدقيقة فالفعل ﴿يَطْهُرْنَ﴾ مخففًا يعنى انقطاع الدم، لكن الفعل ﴿تَطَهَّرْنَ﴾ بالتشديد يفيد الاغتسال من الحيض، وطالما اختلف المعنى اختلف الحكم.

وعلى هذا فإن ههنا ثلاث جمل لكل واحدة منها معنى ووظيفة.

---

(١) ومنه قوله سبحانه: ﴿وأعتزلكم وما تدعون من دون الله﴾ فالاعتزال يعني التجنب النافر.

فالجملة الأولى: ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ أمر بالتجنب النافر والبعد أثناء المحيض.

والجملة الثانية: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ نهي يتضمن جواز القرب والمباشرة من غير جماع عند الطهارة بانقطاع الدم.

والجملة الثالثة: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾ بيان بجواز الجماع بشرط التطهر والاغتسال بعد الطهر الذي يعني انقطاع الدم.

٦- قوله تعالى: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ كناية عن الإتيان من المكان المشروع وهو القبل، وفيه تحذير من الدبر، والمقصود منه الإشارة إلى فائدة الاعتزال والبعد أثناء الحيض؛ لأن القرب حينئذ قد يؤدي إلى الإثارة التي تدفع الرجل إلى قضاء شهوته بعيدًا عن المحظور فيقع في محظور أكبر فى الدبر المنهي عنه؛ فقوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ يعني إذا خالفتم ذلك فتعجلتم وقاربتم النساء قبل التطهر فلا يؤمن الإتيان في غير ما أمر الله.

٧- قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ (٢٨٥) لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [سورة البقرة ٢٨٥ - ٢٨٦].

سبب النزول:

أخرج أحمد ومسلم وابن جرير وابن المنذر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت على الرسول ﷺ ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوه عليه الصلاة والسلام ثم جثوا على الركب (بركوا) فقالوا: يا رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزل الله عليك هذه الآية ولا نطيقها، فقال رسول الله ﷺ: «**أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير**»،

قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما قالها القوم وذلت بهم ألسنتهم»؛ أنزل الله في أثرها: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ فلما فعلوا ذلك نسخ ما شق عليهم وأنزل: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ الآية(١).

خصوصيات النظم ونكاته:

قدم سبحانه الآية بإسناد الإيمان إلى رسوله والمؤمنين، ثم سجل كلامهم الذي قالوه تأكيدًا للإيمان على سبيل الامتداح لهم والرضا عنهم لانقيادهم: ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ وقد جاء نظم الآيتين على وجوه من التصرف المناسبة للموقف.

١- فقد عبر عن محمد ﷺ بالرسول؛ لأنه الوصف المناسب لهذا الموقف الذي قام فيه بمهمة الرسول عندما استوقف الصحابة ولفتهم إلى خطورة موقفهم قائلًا: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين: سمعنا وعصينا. بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير؛ فقالوها وجرت بها ألسنتهم.

٢- أخر عطف المؤمنين على الرسول، فلم يقل: آمن الرسول والمؤمنون، ولكن قال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، وذلك إشعارًا لهم بتأخر إيمانهم لترددهم في قبول قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ فلما تأخر إيمانهم بها تأخر ذكرهم فلم يحظوا بشرف جوارهم للرسول في النظم.

٣- أعاد ذكر الجميع؛ الرسول والمؤمنين بلفظ واحد مسندًا إلى الفعل في قوله:

﴿كُلٌّ ءَامَنَ﴾ وذلك جبرًا للخواطر المنكسرة التي استشعرت الوحشة من الفصل بينها وبين الرسول في الإسناد الأول، فقوله: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ﴾ إرضاء لكل من استوحش بجمعهم في لفظ واحد (كل)، ثم إن هذا الإسناد إلى الكل يمنع تكرار المتعلق؛ إذ

---

(١) راجع الصحيح المسند ٥١، وفتح القدير ١/٢٩٩ .

لو لم يجمعهم في لفظ واحد لقال: آمن الرسول بالله وملائكته وكتبه ورسله، وآمن المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله، وليس هذا سبيل النظم في القرآن الكريم؛ لهذا جمع المؤمنين مع رسولهم ﷺ فى لفظ واحد ﴿كُلٌّ ءَامَنَ﴾.

٤- خالف في طريقة الأسلوب، فلم يقل: كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولم يفرق بين أحد من رسله، وإنما انتقل من الغائب إلى التكلم في: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ تلقينًا لهم ما يقولونه ليقولوه كما جاء في الآية بنصه إشارة إلى خطورته وأهميته؛ لأنه نتيجة للإيمان بجميع الكتب والرسل، ولأنه إظهار للنجاة من المزالق التي وقع فيها السابقون من الأمم حتى أصبح قوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ شعارًا لهذه الأمة.

٥- ليس هناك تكرار في المعنى بين قوله: ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ وما قبله؛ لأن ما قبله ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إيمان بالقلب ويقين واطمئنان وتسليم؛ أما قوله: ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ فإنه تصديق اللسان ونطقه بما فى القلب من إيمان وتسليم، على أن هذا حكاية كلام الصحابة للرسول ﷺ جيء به للتنويه بهم وامتداحهم، وقد وقع الموقع الذي يناسبه ويكمله في نظم متقن معجز.

٦- تقديم السمع والطاعة على طلب الغفران في قوله ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ يشير إلى ما ينبغي من التوسل بالعمل الصالح قبل الدعاء، وقد عبر بالغفران دون المغفرة ليتناول العفو العام عن كل الذنوب ما كان وما سيكون.

٧- الأصل في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أن يكون تعليلًا وسببًا لطلب المغفرة؛ لأن من أيقن أن المصير إلى الله وحده فيحاسبه، طلب الغفران منه سبحانه، وكان الأصل أن تترك الواو على أساس هذا[1] ولكن جاءت لتحسين النظم من ناحية، وزادت المعنى من ناحية أخرى، وكأنه قال: غفرانك ربنا وإليك المصير فارحمنا يوم نصير إليك، فصارت جملة ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ مكملة لما قبلها وصالحة

---

(١) أي على أساس أن جملة (إليك المصير) استئناف بياني معلل، فهذه صلة معنوية تحقق الربط وتغني عن أداة العطف كما هو معروف .

لإفادة جديدة عند الابتداء بها على التقدير السابق.

٨- ذكر المفسرون أن قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ينسخ قوله قبله: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ مستشهدين بما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل**» والمعنى أن الله سبحانه لا يكلف عباده بأمر فيه مشقة وعنت، ومقاومة حديث النفس فيه ما فيه من المشقة، فكان من رحمة الله سبحانه أنه لا يكلفها إلا بما تطيقه، وجاء المعنى بأسلوب القصر لطمأنة العباد ودفع علل الكسالى وحجج أصحاب الأهواء الذين يستثقلون تكاليف الله بحجج واهية.

٩- لما كان قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ مجملاً ويفتح أبوابًا شتى لتفسيره حدده بقوله عقبه: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾؛ أي: أن التخفيف فى نطاق ما تحدث به النفس، فذلك ما يعفو الله عنه؛ أما ما يدخل في نطاق القول والعمل، فإن الإنسان محاسب عليه، وكأنه لما قال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ استشرقت النفوس الفاهمة متسائلة: إذا كان هذا فيما نحدث به أنفسنا فما بال ما نقوله أو نفعله، فاستأنف كالمجيب على هذا بقوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾؛ أي: أن التجاوز في حدود ما تحدث به النفس فقط.

١٠- تستعمل اللام في جانب النفع (لها ما كسبت) و(على) في جانب الضرر (وعليها ما اكتسبت) وهذا يعني أن الفعل (كسبت) يكون في الخير والطاعات، و«اكتسبت» يكون في الشر والمعاصي، وإنما عبر باكتسب في جانب المعاصي والذنوب؛ لأنه من الاكتساب، ففيه افتعال، وهذا يناسب الذنوب لحاجتها إلى كلفة ومشقة؛ لأنها مخالفة للفطرة والطباع السوية ومصادمة للأعراف والتقاليد المستقيمة، بخلاف الطريق للطاعات فإنه سهل ميسور وبأيسر الأعمال نكسب الطاعات، ففي إماطة الأذى عن الطريق صدقة، وفي تبسم المؤمن في وجه أخيه صدقة؛ لهذا ناسبه الفعل الأخف حروفًا ونطقًا (كسب).

١١-تقدم الجار والمجرور في هاتين الجملتين لإفادة الاختصاص، بمعنى أن لكل نفس ما كسبته من طاعات لا يتعداها لغيرها فلا يضيع ثوابه، ولكل نفس ما

اكتسبته من معاص لا يتعداها لغيرها، فلا يتحمل غيره وزره، وفي هذا طمأنة وترغيب للطائعين وتحذير وتخويف للعاصين المتجاوزين.

١٢- ولما كان قوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ يؤدي إلى خوف آخر وفزع مما يكتسبه الإنسان خطأً أو نسيانًا، لهذا سارع النظم الكريم إلى استثناء الخطأ أو النسيان بغير أسلوب الاستثناء المعروف حتى لا نركن إلى التراخي والتساهل الداعي إلى نسيان كثير وخطأ أكثر، وإنما عرض هذا في صورة دعاء يعلمنا الله إياه ويكون مظهرًا نفسيًا من مظاهر يقظة المؤمن وحرصه على ألا ينسى أو يخطئ، وأن ذلك إن وقع منه سيكون نادرًا بدليل استعمال «إن» في قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

ثم إن الدعاء بأن يتجاوز الله سبحانه عن النسيان أو الخطأ دليل على استبعاد وقوع الذنب العمد، وكأن هذا عهد بأن لا يقع، فيكون دعاء المسلم بقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ التزامًا منه بعدم إتيان الذنب عمدًا، وأنه إذا وقع ذلك منه استوجب المؤاخذة والعقوبة.

١٣- في قوله سبحانه: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ عطف دعاء لاحق على دعاء سابق يتوسطهما ذلك التوسل والتضرع بالنداء (ربنا) الذي يلحظ فيه عدة أمور منها:

- أنه ينادي ويدعو وهو يستشعر الضعف عندما ينادي ربه الذي خلقه ورباه ورعاه، فهذا الإحساس من التعطف الذي يستدر العفو والتجاوز.

- أنه أضاف لفظ (رب) إلى ضمير التكلم للإشعار بشدة الحاجة ممن تعود أن يلجأ إليه دون غيره، ثم إن جمع الضمير في ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾... يشير إلى أن دعاء الجماعة أولى من دعاء الفرد، وأنه أقرب إلى القبول.

- ثم إن هذا النداء (ربنا) قد تكرر ثلاث مرات لتعدد المطلوب، وهذا تعليم لنا كيف ندعو، فلا يليق بنا أن نطلب عدة أشياء بنداء واحد، وإنما نعيد النداء مع كل طلب تأدبًا مع من ندعوه وعلامة على التضرع والتوسل والتذلل الذي يستدر الرحمات.

وقد فسر العلماء (الإصر) تفسيرات عدة أهمها في هذا السياق: التكليف الشاق أو الذنب الذي ليس فيه توبة ولا كفارة، وهذا هو المقصود بدليل قوله: ﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ وهم بنو إسرائيل الذين عبدوا العجل من دون الله فكانت توبتهم قتل أنفسهم لقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [سورة البقرة: ٥٤].

وروح الدعاء يعني طلب العصمة من الوقوع في فتنة الشرك التي وقع فيها من قبلهم، وعلى هذا فتفسير الإصر بالتكليف الشاق مستبعد حتى لا يكون هناك تكرار بقوله عقبه:

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾، وقد سبق أن الله سبحانه خفف عن عباده مقدمًا فأسقط المحاسبة على ما لا طاقة لهم به من هواجس النفس ووساوسها بقوله سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وإنما يعلمنا بقوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ أن ندعو لتدريب المؤمنين على ضرورة المقدمات ومباشرة الأسباب؛ لأن رحمات الله سبحانه تكون لمن يطلبها متضرعًا ويستنزلها خاشعًا.

١٤- في قوله سبحانه في نهاية هذه الأدعية: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾ دعاء بثلاثة أشياء بلفظ الأمر، وقد سبق الدعاء بلفظ النهي ثلاث مرات، وإنما قدم ما يتعلق بالتخلي على ما يتعلق بالجلب، وذلك على سبيل الترقي في الطلب، ولأن حاجة المسلمين إلى المقدم أولى والتضرع فيه أشد؛ ولهذا تعدد النداء فيه (ربنا).

والعفو: ترك العقوبة عن المذنبين.

والغفران: ستر العيوب والذنوب.

والرحمة: هي التفضل بالمن ابتداءً.

فقد بدأ بالأهم وهو ترك العقوبة على ما مضى من الذنوب، وثنى بما يليه في الأهمية وهو ستر ما يجد من الذنوب، وثلث بطلب الرحمة تفضُّلًا بعد العفو والغفران.

وإنما تأخر طلب الرحمة؛ لأن رحمة الله سبحانه منحة لا تمنح إلا للتوابين المتطهرين أصحاب الأيدى النظيفة من الأوزار والقلوب المتطهرة من الآثام؛ ولهذا جاءت بعد العفو والغفران.

وآثار رحمة الله سبحانه تظهر في قدرته ونعمته، وفي تحقيق ما لا يتحقق بالأسباب المعروفة، فزكريا عليه السلام كانت ولادته من أب عجوز وأم عقيم رحمة من الله ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [سورة مريم: ٢]، وعيسى عليه السلام ولد من غير أب برحمة من الله ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ [سورة مريم: ٢١]، وأهل الكهف نجاهم الله سبحانه وأحياهم بعد نوم طويل بطلبهم الرحمة من الله ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [سورة الكهف: ١٠].

١٥- ختم الدعاء بطلب النصرة على القوم الكافرين؛ لأن الأمن من مقومات الحياة، ولا يتحقق ذلك الأمن مع تهديد الكافرين؛ ولهذا قُدِّم له بوصف الله عز وجل بالوصف الذي يستجلب النصر وهو (أنت مولانا)؛ يعني: ولينا وسيدنا وناصرنا.

وقد تأخر هذا الطلب على الرغم من أهميته القصوى، وذلك لأن نصر الله لا يتنزل على قوم مذنبين عاصين متهاونين في دينهم مقصرين في أداء حق الله عليهم، لهذا كان من المناسب أن يطلبوا من الله التطهر من الذنوب عفوًا وغفرانًا كمقدمة ضرورية لطلب الرحمة وطلب النصر؛ لأن الله سبحانه لا ينصر إلا من رحمه، ولا يرحم إلا من تطهر واستغفر وكان أهلًا لنصره سبحانه.



سورة آل عمران

١- قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة آل عمران: ٧٧].

سبب النزول:

أخرج البخاري ومسلم وأهل السنن عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**من حلف على يمين هو فيها فاجر ليقتطع بها مال امرئ مسلم، لقي الله وهو عليه غضبان**». قال الأشعث بن قيس: فيَّ والله كان ذلك، كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدني، فقدمته إلى النبي ﷺ فقال لى رسول الله: «**ألك بينة؟**» قلت: لا قال عليه الصلاة والسلام لليهودى: «**احلف**». فقلت: يا رسول الله، إذن يحلف فيذهب مالي. فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ الآية... وقد روي أن سبب نزول الآية أن رجلًا كان يحلف بالسوق: لقد أعطي بسلعة ما لم يعط بها[1].

ولا تعارض بين هاتين الروايتين، ويمكن أن يكونا معًا من أسباب نزول الآية؛ لأن حاصلهما واحد وهو الحلف كذبًا لأكل أموال الناس بالباطل، وقد جاء لفظ الآية عامًا بحيث يتناولهما ويتناول غيرهما من الأحوال المشابهة التي يدخل فيها كل صور الجراءة على عهد الله وأيمانه في مقابل عرض زائل وثمن قليل.

موقع الآية:

على الرغم من نزول تلك الآية في سبب خاص كما تبين، فإنها تتخذ موقعًا تنسبك فيه وتتلاءم مع ما قبلها وما بعدها، فقبلها الحديث عن تعدد صنوف أهل الكتاب من جهة الوفاء بالعهد والأمانة، وأن حب الدنيا وعدم التقوى هو الذي يغر

(١) راجع فتح القدير ١/٣٤٧ والصحيح المسند ٥٢ .

الناس في كل ملة لخيانة العهد: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ ويقول بعدها: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة آل عمران ٧٥: ٧٦]، ثم يتوسع السياق في هذا فيجعل من اتخاذ النصارى نبيهم إلاهًا لهم لم يكن بقول من عيسى عليه السلام؛ لأنه لو كان كذلك لكان خيانة للعهد منه ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: ٧٩]، وهذا تعريض، بأنهم فعلوا ما فعلوا ابتداعًا وكذبًا وخيانة للعهد.

ومن نكات هذه الآية وخصوصياتها:

١- تعرض الآية حالة خطيرة من حالات التفريط في دين الله هي الجراءة على الحلف كذبًا بالله لتحقيق منفعة دنيوية فيصور هذا بالشراء الخاسر الذي يستبدل فيه الأحمق رخيصًا بغالٍ[1]، فيفرط في الغالي الباقي من أجل رخيص فانٍ، هذا مما يدل على انعدام الوازع وموت الضمير وذهاب الإيمان كلية.

٢- عهد الله هو الإيمان به سبحانه، وسمي الإيمان عهدًا للإشارة إلى أنه ارتباط وثيق مع الله لا ينفك منه إلا خائن، وفيه إشارة أخرى للتحذير والتفظيع من التفريط فيه؛ لأن الذي يدخل الإيمان كأنه عقد عهدًا مع الله سبحانه، والأيمان هنا جمع يمين والمقصود بها الأيمان الفاجرة الكاذبة، وعطفها على عهد الله يدل على التسوية بينهما في الحكم، وأن من حلف بالله كذبًا فقد انحل عهده مع الله وذهب إيمانه، سواء كان الحلف الكاذب بغرض تحقيق منفعة دنيوية أم لا، وإنما خصص الأول فى قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وذلك لإبراز اليمين الكاذبة في أشنع أحوالها عندما يكون الدافع لها تحقيق منفعة زائلة.

وقد تبين أن قوله: ﴿يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ كناية عن الحلف كذبًا؛ لأن الذي يشتري بعهد الله ويمينه ثمنًا قليلًا لا يكون إلا كاذبًا في يمينه.

٣- الشراء يستلزم بيعًا؛ وإذا كان قد اشترى ثمنًا قليلًا وعرضًا زائلًا، فقد باع

---

(١) هذا من الاستعارة التمثيلية التي يشبه فيها صورة الذين يفرطون في عهد الله مقابل عرض زائل بصورة الذي يشتري رخيصًا بغال، حذفت الصورة المشبهة، ثم استعير اللفظ الدال على صورة المشبه به (يشترون . . .) .

في مقابل هذا إيمانه، وهنا يتبين الغرض من التعبير بالشراء، ففيه تجسيد لتلك العملية التي تقوم على الاستبدال، وأن فيها أخذًا وتركًا، وكأنها صفقة خاسرة يبيع فيها آخرته بدنياه، ووراء هذا تعريض بالجهالة والحمق؛ فإن العاقل لا يفكر في هذا أبدًا.

٤- صدر الإخبار عن هؤلاء الخاسرين باسم الإشارة البعيد، فلم يقل مثلاً: إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلاً لا خلاق لهم في الآخرة إلخ...

ولكن بدأ الخبر باسم الإشارة البعيد (أولئك)، وذلك لتمييزهم أتم تمييز في مقام التحقير والتشهير والتحذير من أفعالهم حتى يتمثلهم كل الناس حاضرين مهانين يشار إليهم.

٥- يمكن في غير القرآن أن يأتي الخبر في كلمة واحدة فنقول: أولئك معذبون يوم القيامة، ولكن ليس المقصود مجرد الحكم عليهم بالعذاب، وإنما المقصود مع هذا بيان غضب الله عليهم ونقمته وطردهم من رحمته مهانين محقرين، فإنهم لا خلاق لهم ولا كرامة ولا نصيب من رأفته ورحمته، بل إن الله لا يلتفت إليهم ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ كناية عن غضبه الشديد عليهم، فلا أمل لهم بعد ذلك في النجاة من العذاب ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٦- قال سبحانه: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ولم يقل: وهم معذبون، وذلك على سبيل السخرية منهم؛ لأن اللام تستعمل أصلاً في المكافأة ففي قوله: (لهم) يجاري أطماعهم وجشعهم لعبًا بنفوسهم، لكنه يخيب تطلعهم للمنفعة بقوله (عذاب) وقد نكره وأبهمه ليفيد أنه عذاب ليس له نهاية أو حد، ووصفه بالوصف (أليم) للإيحاء بالإيجاع والتنكيل في مقام الغضب والانتقام.

ووراء كل هذا تحذير عالي الصوت لمن كان له قلب أو ألقى السمع، وفيه تفظيع شديد للمتجرئين على دين الله وأيمانهم من أجل ثمن بخس، ثم إن هذا التهديد والوعيد والعقاب الشديد فيه تطييب لخواطر من ضاعت أموالهم بأيمان كاذبة من هؤلاء الفجار، وهذا مناسب لما ورد في سبب النزول من أن الرسول ﷺ قال لليهودي: **«احلف»**، فقال الأشعث بن قيس: إذن يحلف - كاذبًا - ويضيع مالي. فقد أشارت الآية إلى أن ماله إن ضاع في الدنيا ليمين كاذبة من فاجر، فلن يضيع في الآخرة.

على أن تلك الآية تريح المظلومين أصحاب الحقوق المهضومة عندما يرون الظالمين الذين أكلوا أموالهم بالباطل وهم مهانون محقرون معذبون.

٢- قال سبحانه: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [سورة آل عمران ١١٣ : ١١٤].

سبب النزول:

عن ابن مسعود قال: أخر رسول الله ﷺ العشاء، ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة قال: «**أما إنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم**» قال - أي: ابن مسعود -: وأنزل الله هذه الآيات: (ليسوا سواءً...) حتى قوله تعالى: (وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين).. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أسلم عبد الله بن سلام وثعلبة بن سعية وأسد بن عبيد ومن أسلم من يهود فآمنوا وصدقوا، قالت أحبار يهود أهل الكفر: ما آمن بمحمد وتبعه إلا أشرارنا؛ ولو كانوا من خيارنا، ما تركوا دين آبائهم، فأنزل الله عز وجل في ذلك قوله: (ليسوا سواء... إلى قوله: وأولئك من الصالحين)[1].

بين موقع الآية ونظمها:

عندما نتأمل موقع الآية ونظمها، ثم نعاود قراءة الرواية الأولى التي وردت عن ابن مسعود نجدها مستبعدة؛ لأن فيها تقويل رسول الله ﷺ ما لا يعلمه، وهذا مستبعد، لأن رسول الله لا يقول في أمور الدين إلا ما يطلعه الله عليه.

ومن المعروف أن الآية تنزل لسبب ما، ثم يكون لها موقع تنسجم فيه من سورتها بحيث نجد توازنًا بين ما نزلت بسببه وبين موقعها وسياقها، ومن المستحيل وجود انفصال أو تباين بين موقع الآية وبين سبب نزولها، لكن الرواية التي وردت عن ابن مسعود تؤدي إلى ذلك التباين والانفصال، والآيات السابقة تتحدث عن خيرية هذه الأمة عن سائر الأمم؛ لأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر وإيمانها بالله، وأن أهل الكتاب لو آمنوا لكان خيرًا لهم، لكن قلة منهم مؤمنة وكثرة فاسقة،

(١) الصحيح المسند من أسباب النزول ١٢١، ١٢٢ .

فليسوا سواء، ولا مفر من معاودة تلك الآيات لنرى موقع الآية التي نحن بصددها، يقول سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١١١) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢) لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٠-١١٤] وهنا نلاحظ في موقع الآية ونظمها ما يلي:

١- أن قوله (ليسوا سواء) يعني أن أهل الكتاب لا يتساوون، وهذا مردود في المعنى على قوله قبل في آية (١١٠): ﴿مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، فهو نفسه (ليسوا سواء) فيكون قد ذكر المعنى موجزًا ثم عاد إليه في جملة أوجز، وهذا يعني أن الآيتين الواقعتين بنيهما وهما (١١١) و (١١٢) قد جاءتا على سبيل الاعتراض المطمئن للمؤمنين من خطر أهل الكتاب عليهم (لن يضروكم إلا أذى)..... إلخ الآيتين.

٢- أنه لما قال: (ليسوا سواء) ورده المتأمل إلى قوله: ﴿مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ عاد فاستشرف سائلاً لا عن الفاسقين منهم فهم كثر، وإنما السؤال عن المؤمنين منهم كيف يتحقق هذا، فكان قوله بعده: (منهم أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون....).

٣- يشير هذا بانضمام ما قبله إلى أن من أهل الكتاب فئة ليسوا أقل في الخيرية من خير أمة أخرجت للناس؛ لأنهم مثلهم يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، لكن سؤالاً آخر يظهر هو هل يكونون كذلك وهم على ملتهم اليهودية أو النصرانية؟

إن ذلك لا يفهم على الوجه الصحيح إلا من خلال النظم، فقد وصفت هذه الفئة من أهل الكتاب بأنهم أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون، فهذا

كناية عن إقامة الصلاة الخاشعة التي يطول فيها القيام وقراءة القرآن ويتخللها السجود، يدل على هذا التعبير عن القيام بالجملة الاسمية الدالة على الاستمرار والطول، أما السجود فيتجدد وقتًا بعد آخر كما يدل عليه التعبير بالفعل المضارع (يسجدون)، فهذه هي صلاتنا لا صلاة أهل الكتاب؛ أي: أنهم ما استحقوا تلك الخيرية، إلا أنهم صاروا منا مؤمنين ومصلين ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وإنما أخبر عنهم فوصفهم بأنهم «من أهل الكتاب» باعتبار ما كان، ولأنهم فيما يبدو آمنوا وهم بين عشيرتهم وكتموا إيمانهم خوفًا منهم، وكانوا يصلون في جوف الليل خفية بدليل (آناء الليل)، فكانوا في ظاهر الأمر من أهل الكتاب وهم في الحقيقة مؤمنون بما أنزل على محمد ﷺ ولعل مما يؤيد هذا أنهم التقوا مع خير أمة في الإيمان بالله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتقدم ذلك وصفهم بأنهم (أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون) لا ليكون زيادة لهم في الخيرية، ولكن هذا الوصف نص دال على أنهم خرجوا من اليهودية وانخرطوا في سلك الإيمان.

فهل في أهل الكتاب من يتلو آيات الله آناء الليل قائمًا وساجدًا إلا أن يكون قد آمن بالله واليوم الآخر ويحرص على أن يتوجه بإيمانه وجهة عملية نحو العمل الصالح، فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر لتصدق عليه الخيرية التي ذكرت قبل قليل في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾.

٤- في هذا الأسلوب ردٌّ لأعجاز الكلام على صدره[١] بما يؤدي إلى تآزر المعاني وتشابكها وتهليلها فرحًا بعودة بعضها على بعض في اتصال وانسجام.

وهذه التداعيات المتولدة من موقع الآية في سياقها تؤكد استبعاد تلك الرواية التي رواها ابن مسعود، وترجح الرواية الأخرى التي وردت عن ابن عباس والتي

(١) أي: رد قوله: (ليسوا سواء) على قوله قبل: (منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون)، وهذا على شمولية النظرة للسياق مع مراعاة أنه نوع من التصدير أرحب مما ذكره البلاغيون الذين حصروه في الآية وفي البيت من الشعر، مع أنه ينبغي أن يتسع ليرصد تعطّف المعاني بعضها على بعض في السياق الواسع .

تذكر أن الآية نزلت في نفر من اليهود أسلموا وحسن إسلامهم، منهم عبد الله بن سلام وثعلبة بن سعية وأسد بن عبيد، ولم تذكر الآية أسماء، بل لم تشر إلى حادثة معينة؛ لأن القرآن الكريم لا يلتزم دائمًا ذكر الأحداث ولا الأسماء، وإنما قد يقتصر على الغرض المقصود في إطار السياق العام، والسياق هو الذي يحكم نظم الآية وهو الذي يشكل خصوصياتها؛ ولولا ما ورد في الروايات الصحيحة التي ذكرها العلماء في كتب أسباب النزول، لما عرفنا سبب نزول الآية.

٣- قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٨٨].

سبب النزول:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجالاً من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ كانوا يتخلفون عن الغزو ويفرحون بمقعدهم خلاف رسول الله؛ وإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو، اعتذروا إليه وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا؛ فنزلت الآية.

وفي رواية أخرى عن ابن عباس أن الآية نزلت في اليهود دعاهم رسول الله ﷺ وسألهم عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره، ثم استحمدوا إليه بما أخبروه وفرحوا بما أتوا من كتمانهم».

وقد أخرج البخاري الروايتين وأخرج مسلم والترمذي الرواية الثانية(١).

بين المقام والنظم:

اشتركت هذه الآية مع آيات أخرى من سورة آل عمران في تصحيح المفاهيم الإسلامية، وقد صدرت تلك الآيات ببداية واحدة تنبه إلى هذا وتلفت إلى المفاهيم الصحيحة، كقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٩]، وقوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٧٨] وقوله عز وجل: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا

(١) الصحيح المسند من أسباب النزول ٦٨، ٦٩ .

لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرٌّ لَّهُمۡۖ﴾ [سورة آل عمران: ١٨٠].

واللافت أن هذا الأسلوب إذا كان في خطاب رسول الله ﷺ فالمقصود التنبيه؛ وإذا كان بصدد المنافقين والكافرين، فإن المقصود به هو التحذير والتهديد وتخييب الظنون، وحينئذٍ يستبعد أسلوب الخطاب الذي يحل محله حديث الغائب؛ لأن هؤلاء المنافقين والكافرين غير جديرين بشرف خطاب رب العزة سبحانه.

وسواء كان المقصود ما تناولتهم الرواية الأولى وهم المنافقون أم الرواية الثانية وهم اليهود، فاللفظ عام يتناولهم جميعًا بل ويتناول أمثالهم من عصاة المسلمين.

خصوصيات النظم ونكاته:

١- من يراجع سبب النزول يدرك أنه لم يكن يغيب عن فطنة رسول الله ﷺ خداع هؤلاء الناس، وإنما يكتم ما يلاحظه عليهم من باب الصبر وسعة الصدر، وقد جاءت صياغة الآية تتعامل مع هذه الروح، فلا تكشف مكرهم وخداعهم للرسول ﷺ لأنه مكشوف، وإنما يسوق الآية مساق التخويف المفزع بعد العلم بنواياهم وخداعهم: ﴿يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ﴾.

٢- نزلت الآية بعد أن حدث ما حدث وكان ما كان، ولكنه يعبر عنه بالفعل المضارع لاستحضار صورتهم العجيبة مع اقترانها في ذهن المتابع باطلاع العليم الخبير عليها.

٣- التعبير عن خداع هؤلاء المنافقين أو اليهود بقوله: (بما أتوا) على سبيل الكناية للمجاراة النفسية التي تعري دواخلهم إذ كانوا يتوهمون عندما يخدعون أنهم أتوا بما لم يأت به أحد، وأنهم أنجزوا إنجازًا عظيمًا، وضربوا بسهم وافر في الإيهام والتعمية، وكانوا يفرحون لهذا، ويتمادون في الإيهام والكذب حتى يصدقوا أنفسهم؛ فينتظرون أن يشكرهم رسول الله، وهم لم يفعلوا شيئًا.

٤- عبر باسم الموصول (الذين يفرحون بما أتوا) لعدم تعلق غرض بذكر الأسماء، ولما في الاسم الموصول من إطلاق يوسع الدائرة ليتناول نماذج كثيرة ينطبق عليها هذا الوصف، وصلة الموصول تحدد ملامح هذا الإطلاق، فتعين الصفات المذمومة التي تعين هؤلاء الناس وتتناول أمثالهم.

٥- أعاد الفعل الذي يخاطب رسول الله ﷺ أو كل من يتأتى منه الخطاب فقال: (فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب..) بعد قوله: (لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا...) وذلك لطول الصلة فحسن إعادة الفعل على ما فيه من تأكيد هذا الأمر بسبب إمعان هؤلاء المنافقين في إخفاء حقيقتهم.

٦- ترشدنا الصياغة إلى إيجاز نادر دلت الفاء عليه في قوله: (فلا تحسبنهم) فهذه الفاء ليست عاطفة حتى لا يعطف الفعل على نفسه (تحسبن) ويتعين على هذا أن يكون المفعول الثانى للفعل (تحسبن) مقدرًا تدل الجملة الثانية عليه؛ أي: لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ناجين من العذاب.

وعليه تكون الفاء في النهي الثاني داخلة على شرط مقدر يدل النهي الأول عليه أي: إنهم إن فعلوا ذلك فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب، ومعنى هذا أن الفاء تدل على محذوفين: الأول في ذيل جملة النهي الأولى، والثاني في صدر جملة الشرط، ويكون الحذف من الأولى لدلالة الجملة الثانية عليه، والحذف من الجملة الثانية لدلالة الجملة الأولى عليه.

وهذا ما يسمى عند البلاغيين بالاحتباك الذي يعتمد على حذف نصف الكلام تقريبًا دونما تأثيرٍ على المعنى ودونما تأثير على تماسك نظم الكلام، بل إنه على أمتن ما يكون تماسكًا وترابطًا. ومن العجيب أن تلك الفاء هي التي دلت على المحذوف؛ فلو أنه قال مثلًا: «لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ لَاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ»، لما كان هناك حذف؛ فلما وجدت الفاء، اقتضى الكلام أن يكون مبنيًا على طريقة خاصة، فقدر فيها المفعول الثاني في نهاية الجملة الأولى حتى تصبح مستقلة الإفادة ثم اقتضت الفاء تقدير شرط في صدر الجملة الثانية (قبل الفاء) حتى تصبح هي الآخرة مستقلة الإفادة، وتكون الجملة الثانية مؤكدة للأولى، والمقام هو الذي اقتضى هذا التأكيد؛ لأن مبالغة اليهود أو المنافقين في الإيهام وإمعانهم في الخفاء حتى وثقوا في إيهامهم وفرحوا به ورتبوا عليه طلب الشكر والثناء - اقتضى مزيدًا في فضحهم ومبالغة في التشهير بهم وتأكيدًا على تهديدهم وتخويفهم.

سورة النساء

١- قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [سورة النساء: ٦٥].

سبب النزول:

«أخرج البخاري ومسلم وأهل السنن عن عبد الله بن الزبير أن الزبير خاصم رجلًا من الأنصار إلى رسول الله ﷺ في شراج من الحرة، وكانا يسقيان به كلاهما النخل، فقال الأنصاري: سرِّح الماء يمر، فأبى عليه الزبير حتى يسقى.. وكان أقرب إلى الشراج الذي يسقي به - فقال رسول الله ﷺ «**اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك**» فغضب الأنصاري، وقال: يا رسول الله أن كان ابن عمتك؟ فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال: «**اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر، ثم أرسل الماء إلى جارك**» واستوعى رسول الله ﷺ للزبير حقه في صريح الحكم، قال الزبير: ما أحسب هذه الآية نزلت إلا فيَّ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾الآية.

موقع الآية:

وقعت هذه الآية بعد قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [سورة النساء: ٦٤]. وقبلها بآيتين قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [سورة النساء: ٦٠].

وبين هذه الآيات من المناسبة ما لا يخفى، فقد سبق حديث عن المنافقين الذين زعموا الإيمان بالقرآن والكتب السابقة، لكنهم يتركون رسول الله ﷺ ويتحاكمون إلى الطاغوت - وهو الشيطان أو كاهن من كهان اليهود، وإذا قيل لهم: تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول، أعرضوا وصدوا في كراهية ظاهرة.

من أجل هذا جاءت هذه الآية التي يرتفع صوت التحذير فيها كما تبين من تتبع وسائل النظم، وقد توثق الارتباط بينها وبين ما سبقها، وجاء قوله: (فلا) قبل القسم ليعلن عن هذا الارتباط؛ لأن النفي نفي لما سبق من احتكام هؤلاء المنافقين للطاغوت وتركهم رسول الله وما أنزل عليه دون أن يشعروا أدنى شعور بالذنب.

فالنفي رد لكل هذا واستنكار له؛ ولذلك يقول ابن جرير مما نقله عنه الشوكاني: «قوله: فلا» رد على ما تقدم ذكره[١].

خصوصيات النظم ونكاته:

على الرغم من ارتباط القسم وما بعده بمناسبة خاصة نزلت فيها الآية وهي قصة الأنصاري والزبير، فإنها مع ذلك قد وقعت في سياقها مكملة لما سبقها من معان تتصل بإعراض المنافقين عن حكم الله ورسوله، فكأن الآية الواحدة ترمي غرضين برمية واحدة، فهي تدل على المنافقين المعرضين وتحذرهم من انتفاء لقب الإيمان الذي حازوه بإعلان الشهادتين إن لم يتحقق مضمونه فيرضون بكتاب الله وبرسوله فيما شجر بينهم، وتلتفت الآية في الوقت ذاته إلى الأنصاري الذي حاك في صدره شيء من حكم رسول الله ﷺ بينه وبين الزبير، مع صياغة الآية بالجمع (لا يؤمنون حتى يحكموك) لتشمله وأمثاله في كل زمن، مع ملاحظة الفرق بين هذا الأنصاري الذي نزلت فيه الآية وبين المنافقين الذين تناولتهم تلك الآية بحكم موقعها في ذلك السياق، فهؤلاء كان يعرضون عن كتاب الله وعن رسوله ﷺ ويحتكمون إلى رأس الكفر من اليهود خفية حتى فضحهم القرآن، لكن ذلك الرجل الأنصاري رضي بأن يحتكم إلى رسول الله ﷺ وإن وجد في نفسه شيئًا من حكم رسول الله، وهكذا تكتسب الآية ظلًا من سياقها فتشير إلى أن من لا يرضى بحكم رسول الله يكون في قلبه شعبة من النفاق.

ونعود إلى خصوصيات النظم ونكاته:

١- يشعر النفي الداخل على القسم برفض سلوك هؤلاء المنافقين وأمثالهم، وسلوك هذا الأنصاري وأمثاله ويهوي بمواقفهم في وادٍ سحيق لشدة الغضب منها؛

(١) فتح القدير ١/ ٤٧٥ .

لأن رسول الله ﷺ لا يحكم بهواه وإنما يحكم بما يرضاه الله ربه سبحانه، فيكون الاعتراض على حكمه ﷺ هو اعتراض على ما قضى به الله عز وجل؛ لهذا جاء في عقبه النفي الذي يهدد بانتزاع الإيمان ممن لا يحتكم بحكم رسول الله فيرضى به ويسلم تسليمًا.

٢- نشعر في القسم تعظيمًا من شأن الأمر المقسم عليه وتوثيقًا وتأكيدًا له وتدعيمًا لموقف رسول الله ﷺ وتأكيدًا على مرجعيته كرسول يطاع بإذن الله، وفي القسم بلفظ الرب مضافًا إلى ضمير رسول الله ﷺ تكريم له، وتطييب لخاطره، ومسح ما علق بنفسه من أذى من مسلك هؤلاء وإعراضهم عن حكمه ﷺ وهذا المغزى يتحقق أيضًا من توجه الخطاب في سائر الآية إليه ﷺ فلم يقل مثلاً: فلا ورب محمد لا يؤمنون حتى يحكموه فيما شجر بينهم إلخ... وإنما توجه الخطاب في كل هذا إلى رسول الله ﷺ مع أنهم هم المقصدون بهذا الخطاب، وذلك تكريمًا للحبيب وتطييبًا لخاطره، وإشعار كل مستمع بمكانة الرسول عند ربه.

٣- نفهم من هذه الآية أن الله سبحانه واجه إعراض هؤلاء عن حكم رسول الله ﷺ بالتغليظ الذي يناسبهم، إذ نفى عنهم الإيمان حتى تتحقق فيهم تلك الشروط.

الأول: تحكيم رسول الله ﷺ في كل ما يلتبس عليهم من أمور الدنيا، وقد عبر عن الأمور التي يختلفون فيها بقوله: (فيما شجر بينهم) وهو من المجازات المنسية التي يشبه فيها الأمور الملتبسة بالتباس فروع الأشجار وتداخل بعضها في بعض، وتشاجر الرماح مأخوذ من هذا أيضًا، وكل هذه الاستعمالات تشير إلى احتدام الخلاف وعدم تبين الأمور؛ لأن كل واحد ينظر إلى الحق من زاويته الخاصة في حالة من هيجان المشاعر، فلا يمكن أن يتفق الطرفان حينئذٍ، وهم أحوج ما يكونون في هذه الحالة إلى المرجعية التي تفصل بينهم بحكم الله الذي آمنوا به.

الثاني: أن تطمئن قلوبهم إلى حكم رسول الله وترضى نفوسهم به، فلا يجدون في أنفسهم حرجًا مما قضى، والحرج هو الضيق؛ أي: أن الاحتكام لرسول الله ﷺ، والرضا بما يقضي به لا يكفي حتى يكون من صميم القلب؛ لأنه من مقتضيات الإيمان ومن لوازم التصديق.

الثالث: التسليم بما يقضي به رسول الله، وهذا ترجمة لاطمئنان القلب؛ إذ يترتب على الانقياد والإذعان سلوك دال؛ أي: أنه لا يكفي اطمئنان القلب ورضاه، بل لا بد من ترجمة عملية وتصديقه قولاً وعملاً ليس فيهما أدنى شبهة أو شك كما يدل عليه قوله: (ويسلموا تسليمًا) فهذه شروط لا بد من اجتماعها ليتحقق الإيمان؛ فإذا اختل شرط منها اختل الإيمان؛ لأن رسول الله ﷺ هو الأمين على هذه الرسالة المبلغ لها كلها؛ فإذا ضاقت النفس ولو بقليل جدًّا مما قضي به، كان هذا بابًا من الخطر ينفتح لتدمير الإيمان كله.

على أن هذه الشروط لا تقتصر على من عايش رسول الله ﷺ وإنما تنطبق على كل من بلغته رسالته فيما يتعلق بسنته قولاً وعملاً، وهذا يذكرنا بأناس ظهروا في هذا الزمان يسمون أنفسهم بالقرآنيين؛ أي: الذين يأخذون بالقرآن ويقولون: لا نأخذ إلا به فلا يحتكمون إلى سنة رسول الله ﷺ قولاً وعملاً، فهؤلاء تنطبق عليهم الآية، ويكون قد سبق حكم الله فيهم منذ نزول هذه الآية بأنهم غير مؤمنين ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

٢- قال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [سورة النساء: ٨٨].

سبب النزول:

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد، فرجع ناس خرجوا معه (جبنًا وخوفًا من القتال) فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين: فرقة تقول بقتلهم، وفرقة تقول لا،فأنزل الله سبحانه: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ الآية[1].

أضواء على سياق الآية:

سبق هذه الآية حديث عن المنافقين، وأنهم ليس عندهم عقيدة تدفعهم للقتال في سبيل الله؛ فكانوا يجبنون ويقعدون ويخذلون غيرهم ليقعدوا مثلهم، قال تعالى

(١) الصحيح المسند في أسباب النزول ٨٤ .

قبل ذلك في آية ٧٢ من سورة النساء: (وإن منكم لمن ليبطئن) فهم المنافقون كانوا يقعدون عن الخروج للقتال ويقعدون غيرهم كما يذكر المفسرون.

والآية التي معنا تعد حلقة من سلسلة مواقفهم المتخاذلة وإن تجاوزت ذلك الموقف وزمانه (غزوة أحد) حسبما وضحه سبب النزول إلى ما ترتب عليه من موقف الصحابة من هؤلاء المتخاذلين، وانقسامهم لفريقين: فريق يرى قتلهم، وفريق لا يرى هذا، وقد ترتب على هذا ما نراه في الآية من الإنكار عليهم بسبب هذا الانقسام، وكان ينبغي أن يتخذوا موقفًا واحدًا متشددًا مع هؤلاء الذين لا أمل فيهم أبدًا.

من خصوصيات الآية:

١- تصدير الآية بالاستفهام الانكاري التوبيخي كان صدى لانقسام الصحابة في شأن المنافقين، فيقول لهم سبحانه: (فما لكم فى المنافقين فئتين) يعني ما لكم انقسمتم في شأنهم فئتين، وكان ينبغي أن تجتمعوا على رأي واحد بعد أن فاح نفاقهم وانفضحت نياتهم، وجو المعنى هو تحريض المسلمين ودفعهم إلى أن يكونوا أكثر حسمًا في موقفهم من هؤلاء المنافقين باستئصالهم والراحة من شرهم حتى لا يكونوا شوكة في ظهورهم، وهو ما تدل عليه الآية التالية: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ[١] فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [سورة النساء: ٨٩] وهذا تصريح ما تضمنته الآية السابقة التي يتصدرها ذلك الاستفهام الانكاري (فما لكم في المنافقين فئتين)؛ أي: أن المعنى في الآية اللاحقة تولد من معطيات النظم في الآية السابقة.

٢- قوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ يعنى ردهم للكفر بقعودهم من الجهاد وتثبيطهم غيرهم، ووراء هذه الجملة فوائد وأغراض منها:

أ- أن عودتهم للكفر وارتدادهم إليه كان قد اتضح للمؤمنين في وقت توقفهم

(١) أي: لا توالونهم ولا تطمئنوا إليهم حتى يخرجوا للجهاد في سبيل الله؛ فإن أبوا فخذوهم واقتلوهم.

بشأنهم وانقسامهم في أمرهم لفريقين، وهذا يشدد الإنكار على ذلك الانقسام.

ب- أن الله سبحانه هو الذي يملك القلوب والنفوس، وهو الذي يقلبها كيف يشاء، وهذا ما يدل عليه تقديم لفظ الجلالة على الفعل في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾.

جـ - أن هذا الركس أو الارتكاس لم يكن ظلمًا لهم، ولكنه جزاء عادل بما كسبوا وقدمته أيديهم بقعودهم عن الجهاد لمرض في قلوبهم فزادهم الله مرضًا.

د - على أن هذه الجملة الموجزة تتضمن مقدمة ونتيجة (سببًا ومسببًا) بلفظ واحد؛ لأنهم ارتدوا عن الجهاد فردهم الله للكفر، ولفظ الآية يصلح تصويرًا لهذين المعنيين المتواصلين؛ لأن (أركسهم) من الركس أو الارتكاس بمعنى النكس أو الانتكاس، وهو قلب الشيء على رأسه، فالمعنى مستمد من صورة عربية حسية تدعو إلى السخرية والدهشة وتدل على الرجوع الكامل، وهي صورة تمثيلية للرجوع المفاجئ عن الجهاد والارتداد عن الإيمان في الوقت نفسه.

٣ - والتعقيب باستفهام إنكاري آخر في قوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ يشعر بعدم رضا الله سبحانه عن سكوت الصحابة عن هؤلاء المنافقين، ووراء هذه الجملة أغراض منها:

أ - تيئيس المؤمنين من هؤلاء الذين كتب الله عليهم الضلال بما كسبوا.

ب- حمل المؤمنين على اتخاذ موقف أكثر حسمًا، وذلك بتنزيل من يسكت عنهم طمعًا في إيمانهم بمنزلة من يسير عكس مشيئة الله الذي قدر ضلالهم بحسب علمه بأحوالهم وضمائرهم.

جـ- وفي تلك الجملة إعجاز غيبي؛ لأنه سبحانه ينتزع ما دار في نفس بعض الصحابة بعدما اطلع عليه سبحانه، فينكره عليهم ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ ولعله يُنَزِّل من يسكت من المؤمنين عن المنافقين بعد انفضاح أمرهم منزلة من يطمع في إيمانهم وكأنه يريد أن يهدي من أضل الله. والله أعلم بمراده.

٤- لما أراد المولى سبحانه أن يقرر هذا المعنى قال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ يعني هب أنك سلكت مع هؤلاء كل السبل في محاولة أن يهتدوا، فإنك لن تجد سبيلًا واحدًا لهدايتهم؛ لأن الله سبحانه قدر لهم الضلال بما كسبوا.

ولا شك أن تعاقب الاستفهام الإنكاري لجماعة واحدة يدل على التحذير

والتقريع والردع، من الاستمرار في التسامح مع المنافقين الذين أصبحوا خطرًا على هذا الدين، وهذا يعكس الغضب على هؤلاء المنافقين؛ لأنهم يستخفون بقدرة الله وعلمه، ولا يبالون بعقابه وزجره.

٥- قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [سورة النساء: ٩٤].

سبب النزول:

«قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن عبد الله عن القعقاع بن عبد الله عن أبيه عبد الله بن أبي حدرد قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى إضم، فخرجت في نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة الحارث بن ربعي ومحلم بن جثامة بن قيس، فخرجنا حتى إذا كنا ببطن إضم مر بنا عامر الأشجعي على قعود له ومعه متيع ووطب من لبن، فلما مر بنا سلم علينا فأمسكنا عنه وحمل عليه محلم بن جثامة فقتله بشيء كان بينه وبينه وأخذ بعيره ومتيعه، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ وأخبرناه الخبر، نزل فينا القرآن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾... الآية[1] ووردت الرواية في البخاري ومسلم مختصرة، وزاد ابن جرير وابن المنذر من حديث ابن أبي حدرد أن النبي ﷺ قال لمحلم: «**أقتلته بعدما قال: آمنت بالله؟!**» فنزل القرآن[2].

من خصوصيات نظم الآية:

١- النداء في الآية للذين آمنوا مع ما عرف من أن القاتل لم يعد مؤمنًا وأنه في النار... ذلك يشير إلى منهج القرآن الذي يتجاوز تفاصيل الحدث والأشخاص إلى ما يترتب من عظات وتنبيهات يتوجه بها للذين آمنوا، فهم الذين هم في حاجة إلى تلك التوجيهات والتنبيهات، ويكون الخطاب لهم على سبيل التكليف.

---

(١) الصحيح المسند ٨٤.

(٢) فتح القدير ١/ ٤٩٤.

٢- التعبير بالضرب في قوله تعالى: ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[(١)] يوحي بالعزم والحزم، وهو يتناسب مع كون الخروج في سبيل الله.

٣- يتبلور الغرض من الآية في قوله: (فتبينوا)؛ أي: تثبتوا، وهذا يجري مع منهج هذا الدين الذي لا يأخذ بالشبهة كقوله: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا﴾ . . .

٤- قال: ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ مع أن التبين والتثبيت مطلوب في كل حال، وذلك لأن الآية جاءت تكشف حكم الله في ذلك الموقف الخاص الذي نزلت فيه، ولقد كان ما حدث في سفر وفي نفر خرجوا للضرب في سبيل الله.

٥- نشعر بالمفارقة الشديدة بين ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وبين ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ وأنهما لا يلتقيان أبدًا؛ لأن كون المسلم ضاربًا في سبيل الله يقتضي منه أن تكون كل حركة وسكون منه لله لا من أجل أهواء النفس وعرض الدنيا.

٦- قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ السَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ يعد خيطًا رابطًا بين الآية وبين سبب النزول، وتؤكد صحة ما ورد، وهذه من المواضع القليلة التي نجد فيها نصًا دالًا على سبب النزول؛ لأن الغالب أن تكون الصياغة من العموم بحيث لا يمكن الوقوف على سبب النزول من الآية، وإنما من كتب أسباب النزول.

٧- قوله عز وجل: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ من الإعجاز الغيبي؛ لأنه سبحانه هو القادر على الكشف عن الدافع الخفي والذي دفع لقتل ذلك الرجل الذي ألقى عليهم السلام، فذلك الدافع هو ابتغاء عرض الحياة الدنيا، ولم يكشف عنه في جواب الرسول ﷺ الذي ورد في رواية ابن جرير، وإنما كشف عنه العليم الخبير بما تخفيه النفوس وتطويه الصدور.

٨- النهي عن القول لمن ألقى السلام: ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ السَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ معناه النهي عما يترتب على

---

(١) الضرب هو السير في الأرض، تقول العرب: ضربت في الأرض؛ إذا سرت لتجارة أو غزو. راجع لسان العرب .

هذا ويستلزمه وهو القتل؛ لأنه مفهوم من السياق ويدل سبب النزول عليه، على أن هذا النهي ﴿وَلَا تَقُولُواْ. . . لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ فيه عموم يتناول أقل الإيذاء أو النيل، ولو أنه قال: لا تقتلوا من ألقى السلام عليكم، فربما توهم جواز إيذائه أو ضربه أو سلب ما معه وتركه، ثم إن ذلك النهي يشير إلى حماية المسلم من الاتهام بالكفر صراحة أو بأي لفظ ينفي عنه الإيمان ولو بالقول: لست مؤمنًا، ومن هنا فإن الآية تؤسس مبادئ شتى بلفظ واحد بنصه وبإيحائه وإشاراته.

٩- المقصود بالعرض في قوله تعالى: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ هو جميع متع الدنيا، وفيه لوم وتوبيخ شديد؛ إذ كيف يقدمون على قتل من ألقى السلام لعرض زائل كأنهم يبيعون دينهم بدنياهم، ولو أنهم صانوا دم الرجل وحبسوا أطماعهم فيما معه لعوَّضهم الله عنه أضعافه، وهنا تدرك موقع قوله: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾، وفيه إشارة أخرى إلى أنه كان عليهم أن يحصلوا على المغانم بالطريق المشروعة وهي الجهاد في سبيل الله مغانم كثيرة، وفي ذلك تعيير خفي وذم مطوي.

١٠- يكشف الله سبحانه عن المغالطة النفسية بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي أنتم زعمتم لأنفسكم أنه ما ألقى السلام إلا ليعصم دمه، وأنه ليس مؤمنًا. . . .، فماذا كنتم قبل الإيمان وكيف دخلتم فيه؟ أليس بالنطق بكلمة الإيمان ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: كنتم كفارًا فحقنت دماؤكم بالشهادة.

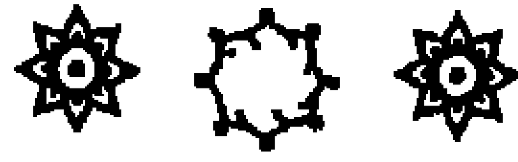
وهذه الجملة تشير إلى أمور عدة منها:

- أنهم فعلوا ما فعلوا بمغالطة مكشوفة، وليس لهم أدنى عذر.
- وفيها إلزامهم الحجة من خلالهم هم، وفيها محاصرة قوية لهم.
- وفيها إشارة إلى أن هذا الذي ألقى السلام فقتلوه كان مؤمنًا حقًا؛ وإلا فما فائدة المماثلة في ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾.

١١-كرر الأمر بالتبين في قوله: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ لتقرير هذا الأمر الخطير، ولا سيما بعد تفنيد كل مداخل الشيطان إلى النفس الطماعة.

١٢-قوله في الفاصلة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ بيان أن الناس

مهما احتالوا في المغالطة والتبرير والتغطية فإن حججهم مكشوفة معلومة للعليم الخبير الذي يعلم ما توسوس به النفوس. ثم إن هذه الفاصلة تشير في الوقت ذاته إلى أنه سبحانه هو الخبير بما فى نفس ذلك الذي نطق بالسلام، وليس لإنسان ما أن يدعي علمًا بما في نفسه فيزعم أنه نطقها بلسانه ليعصم دمه، فسبحان العليم الخبير !!



سورة المائدة

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [سورة المائدة: ٦٧].

سبب النزول:

«عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ نازل في ظل شجرة وقد علق السيف عليها إذ جاءه أعرابي فأخذ السيف من الشجرة ثم دنا من رسول الله ﷺ وهو نائم فأيقظه، فقال: يا محمد، من يمنعك مني؟ فقال رسول الله ﷺ: «الله» فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ...﴾ الآية[1].

بين الموقع والنظم:

هناك روايات أخرى تشبه هذه التي وردت عن أبي هريرة، ولكن مجموعها يدل على ارتباطها بقوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ لا بسائر الآية، وقد اتخذت هذه الجملة موقعها الذي يناسبها في النظم، فالأمر في صدر الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ﴾ لا يدل على أن رسول الله ﷺ كان ممتنعًا عن التبليغ، وما كان له أن يمتنع أو يتردد لحظة في ذلك، وهو الرسول الذي اصطفاه ربه سبحانه لينال شرف هذه المهمة الخطيرة[2]، وإنما الأمر للإلهاب والتهييج وشد الأزر وتقوية العزم، وزيادة الدافع النفسي منعًا لفتور النشاط والهمة، كقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾.

---

(١) الصحيح المسند من أسباب النزول ٩٩ .

(٢) وردت على خلاف هذا رواية عن الحسن أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله بعثني برسالته فضقت بها ذرعًا وعرفت أن الناس مكذبي، فوعدني لأبلغن أو ليعذبني**» فتح القدير ١/ ٥٩١ وهي رواية غريبة مستبعدة لمجافاتها الواقع والنصوص التي وردت على خلافها .

وهناك غرض آخر هو أن يعلم الناس أن رسول الله ﷺ دائب على التبليغ ولا يمكن أن يكتم شيئًا مما أمره الله بتبليغه، وقد يساور بعض ضعاف النفوس شك في هذا، فقد ورد في صحيح البخاري من حديث أبي جحيفة قال: قلت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: هل عندكم شيء من الوحي مما ليس في القرآن؟ فقال علي: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهمًا يعطيه الله رجلًا في القرآن».

فتح القدير ١/ ٥٩١ .

وثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: من زعم أن محمدًا ﷺ كتم شيئًا من الوحي فقد كذب» فهذا الكلام لا يصدر إلا إذا كان هناك زعم وشك.

ومع أن قوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ ظاهر الارتباط بسبب نزوله؛ إذ يدل على أن الله سبحانه يحمي نبيه وهو يبلغ من مكر الماكرين وغدر الغادرين ومحاولاتهم النيل منه ﷺ فإن اللفظ يحتمل معاني أخرى تلقاها من سياق آيته، ولعل من ذلك التلميح لمن يتوهم كتمان شيء من الوحي بحجة ما كان يتلقاه رسول الله ﷺ من الأذى مع الرد عليه في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ فكيف يكتم شيئًا من الوحي خوفًا من الناس وهو يعلم أن الله يعصمه من الناس.

وإذا كان ﷺ قد صدع بالدعوة وهو في مكة وسط الأعاصير، فكيف يكتم وهو في المدينة[1] ينعم بظلال الأمن. هذا هو المعنى الذي يكتسبه قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ من سياقه فضلًا عن دلالته الخاصة المرتبطة بسبب النزول.

خصوصيات النظم:

لم يقل: «ويعصمك الله من الناس» حسب الترتيب الأصلى لمفردات الجملة الفعلية، وإنما قدم لفظ الجلالة لإفادة أن الله وحده هو الذي يعصمك، فأنت فى عصمة من لا تأخذه سنة ولا نوم، ولست في عصمة بشر ممن يغفلون، وهذه الخصوصية في النظم تلتقي مع ما رواه الترمذي وابن جرير وابن المنذر والحاكم والبيهقي وغيرهم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يُحْرَسُ حتى

(١) ومن المعروف أن الآية من سورة المائدة،وهي مدنية .

نزلت ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ فأخرج رأسه من القبة فقال: «**أيها الناس، انصرفوا، فقد عصمني الله**» يقول الشوكاني تعقيبًا على هذا: «وهكذا من سبقت له العناية من علماء هذه الأمة يعصمه الله من الناس إن قام ببيان حجج الله وإيضاح براهينه، وصرخ بين ظهراني من حاد الله وعانده ولم يمتثل لشرعه، وقد رأينا من هذا في أنفسنا، وسمعنا منه في غيرنا ما يزيد المؤمن إيمانًا وصلابة في دين الله وشدة شكيمته في القيام بحجة الله وكل من يظنه متزلزلو الأقدام ومضطربو القلوب من نزول الضرر بهم وحصول المحن عليهم فهو خيالات مختلة وتوهمات باطلة، فإن كل محنة في الظاهر هي منحة في الحقيقة؛ لأنها لا تأتي إلا بخير في الأولى والآخرة(١).

ومما يزيد الرسول والمؤمنين ثقة واطمئنانًا ويقينًا قوله تعالى في فاصلة الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، فهذا من أهم وسائل العصمة: أن الله سبحانه لا يمكن أهل الكفر من أهل الإيمان ويحول دونهم مهما بدا في الظاهر من عزة أهل الكفر ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾ [سورة ص: ٢].

٢- قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [سورة المائدة: ٨٣].

سبب النزول:

«أخرج النسائي وابن جرير وابن المنذر عن عبد الله بن الزبير قال: نزلت هذه الآية في النجاشي. وفي حديث عروة بن الزبير أن النجاشي دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين معه، وأرسل في طلب القسيسين والرهبان، فجمعهم ثم أمر جعفر بن أبي طالب أن يقرأ عليهم القرآن، فقرأ عليهم سورة مريم، فآمنوا بالقرآن وفاضت أعينُهم من الدمع، وهم الذين أنزل الله فيهم: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۝٨٢ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ

---

(١) فتح القدير ١/ ٥٩٢ .

﴿ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾(١).

إن جوهر هاتين الروايتين واحد، ولا فرق بينهما إلا في الإجمال والتفصيل والرواية الأولى المجملة تقصر سبب النزول على آية ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾... الآية، لكن الرواية المفصلة تضم جزءًا من الآية السابقة لها من قوله سبحانه: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ فيكون هذا نصًا على أن المقصود بهم هم النجاشي وأصحابه، وقد وصفهم بما يعد ثناءً عليهم؛ لأنهم أقرب أهل الكتاب مودة للمؤمنين والدليل على هذا أنهم لا يستكبرون على الحق إذا ظهر لهم، بل وتخبت له قلوبهم وتفيض دموعهم مما عرفوا من الحق؛ وإذا صح أن المقصود خصوص هؤلاء النصارى - النجاشي وأصحابه - فإننا ينبغي أن نأخذ بما فى الآية من عموم تدل عليه الأحداث والشواهد، فبين فترة وأخرى نسمع عن إيمان نصارى ممن كانت لهم في الكنيسة مواقع كبيرة ومهمة، عندما يسطع نور الحق في قلوبهم.

خصوصيات النظم ونكاته:

١- مع أن قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يشير إلى أن ما حدث من البكاء تأثرًا بالقرآن كان من علماء النصارى وهم القساوسة والرهبان، فإنه فى الوقت ذاته ينبه كل النصارى إلى موقف علمائهم، وأنهم ينبغي أن يحذوا حذوهم، فهم منهم في موضع القدوة والتأسي، وهذا الاستدراج مقصود أيضًا في ذكر كل النصارى ابتداءً في قوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ فلم يقل: ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا القسيسين والرهبان من النصارى، وإنما بدأ بإجمال النصارى على سبيل الاستدراج والاستمالة، وكأن كل النصارى أقرب مودة للذين آمنوا، وهنا تبرز مسئولية التبليغ لهؤلاء النصارى حتى يعرفوا مقولة القرآن فيهم، فيعيدون اكتشاف أنفسهم وتذكر مواقف أسلافهم، وهنا نذكر ما قيل قبل قليل في هذه السورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن

(١) راجع الصحيح المسند ٩٩ وفتح القدير ١/ ٦٠٠ .

رَبِّكَ﴾ ولم يكن الرسول ﷺ متوقفًا في يوم ما أو في وقت من الأوقات عن التبليغ، وإنما يقصد معه مسئولية جماعة المسلمين مع امتداد الزمان واتساع المكان.

٢- قوله سبحانه: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ من الحذف البليغ للمتعلق فلم يقل: لا يستكبرون على ماذا، والنفس ربما تبادر إلى تقدير أنهم لا يستكبرون عن قبول الحق عندما يعرفونه، لكن الحذف يشير إلى غاية أبعد هي أنهم جبلوا على التواضع وعدم الاستكبار عمومًا، ومن كان هذا شأنهم فإنهم يبادرون لاعتناق الحق عندما يلوح لهم، أفلا يزيد هذا من مسئولية التبليغ إلى هذه التربة الصالحة.

٣- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ يشير إلى أن تلك المسئولية الواقعة على عاتق المسلمين تتبلور في تبليغ القرآن إليهم كي يسمعوه، فلولا هجرة بعض المسلمين وهم أضعف ما يكونون إلى الحبشة، ولولا سماع النجاشي القرآن ما كان هذا الموقف العظيم الذي كان منه عندما أدرك أنه الحق من عند الله.

٤- قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ ولم يقل: (وَإِذَا سَمِعُوا القرآن)، وذلك لأن ذكر القرآن باسمه في هذا السياق لا يتعلق به غرض، وإنما المهم هو معرفة أنه أنزل من الله على الرسول، فهذه هي الشرارة التي فجرت الأحاسيس الصادقة والمشاعر المؤمنة في نفوسهم.

ثم إن الفاعل لم يظهر، فلم يقل: وإذا سمعوا ما أنزل الله إلى الرسول، وإنما قال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ ببناء الفعل (أنزل) للمفعول للإشارة إلى أنهم استمعوا أولاً للقرآن؛ فلما مس منهم وجدانهم وسطع نوره في قلوبهم، أدركوا بل أيقنوا من أنفسهم أنه من عند الله؛ ولو قال: وإذا سمعوا ما أنزل الله إلى الرسول، لما أشعر بذلك.

٥- عبر في هذا السياق بلفظ الرسول دون النبي أو محمد؛ لأنه الأنسب في مجال تبليغ الرسالة، ولقد كان هذا الموقف من أرقى صور التبليغ، وهنا نتذكر مرة ثانية قوله تعالى قبل: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾.

٦- عبر بالمضارع عن حدث وقع في الماضي بقوله: ﴿تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ﴾، وذلك لأننا عندما ننظر إلى خصوص السبب الذي نزلت فيه الآية نجد أن هؤلاء قد فاضت أعينهم وانتهى، لكنه قال: (تفيض) بالمضارع لاستحضار تلك الصورة

العظيمة في الخيال ورسمها في الذهن، فهي صورة ناطقة بالدلالة على رقة هؤلاء القسيسين وصدق مشاعرهم نحو القرآن وعدم ترددهم في قبول الحق، وهذا في ذاته دليل صدق هذا الدين وكتابه القرآن؛ لأن هؤلاء علماء بالأديان والكتب، وفي ذلك تنبيه لدعاة هذه الرسالة أن يكون ذلك برهانًا ونورًا على صدقها من الأدلة الكثيرة، ولكن هذا الدليل خصوصًا يكون له وقعه عند النصارى.

٧- كان الأصل أن يقال: ترى دموعهم تفيض، لكنه قال: ﴿تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾[١] وذلك للإشارة إلى أن عيونهم من كثرة البكاء تكاد تذوب حتى تفيض مع الدموع، فما أعظمها من دموع وما أرقاه من موقف، والصورة عمومًا تدل على قوة التأثر[٢]، وأن منافذ الوجدان تفتحت للحق مع تفتح منافذ الفكر والعقول.

٨- قوله تعالى: ﴿مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾ تعليل لبكائهم؛ أي: أنهم بكوا لما عرفوا الحق وسطع نوره في قلوبهم ومست شرارته أفئدتهم فأيقنوا أن هذا الذي سمعوه إنما هو وحي من عند الله، فامتزجت في نفوسهم مشاعر الرهبة والفرحة بما عرفوه من الحق، «ومِنْ تفيد التبعيض؛ لأن ما عرفوه بعض الحق، وحيث أبكاهم ذلك فما ظنك بهم لو عرفوا كله وقرءوا القرآن وأحاطوا بالسنة»[٣].

وهنا نسأل ويسأل معنا كل مستمع إلى قوله سبحانه: ﴿تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾ هل نطقوا بالحق الذي عرفوه أو كتموه؟ فيسعفنا قوله سبحانه عقبه ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ فهذه الجملة تقطع التشوف والحيرة التي كانت تتردد في الصدور، وأفادت انطلاق ألسنتهم بالحق الذي أيقنته قلوبهم، فجملة (يقولون...) من الاستئناف البياني الذي يتجاوب مع الحركة النفسية للمخاطبين.

٩- والتعبير بالمضارع (يقولون) يشير إلى استحضار تلك الصورة الماضية

---

(١) من فاض الماء، فأعطى للدموع صفة الماء الذي يفيض مما يدل على غزارته (على سبيل الاستعارة المكنية).

(٢) على سبيل الكناية التي تؤدي إلى تقوية المعنى المراد بذكر الصورة التي تدل عليه، ولهذه الصورة تأثير خاص.

(٣) إرشاد العقل السليم ٢/ ٥٤.

لتكون شهادة صدق حاضرة ماثلة، وتشير في الوقت ذاته إلى تجدد الحدث فيتجدد معه ذلك القول في أزمان متعاقبة من قسيسين غيرهم ورهبان يستمعون إلى القرآن في كل زمان فيخشعون ويجهشون وينطقون بما آمنوا به كما نطق به أسلافهم ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

ولذلك أجدني وأنا أقرأ في بعض التفاسير مما أخرجه أبو حاتم عن عطاء قال: «ما ذكر الله به النصارى من خير فإنما يراد به النجاشي وأصحابه»[(١)] وهو يقصد تلك الآية؛ لأنه يريد إبقاءها على الخصوصية المرتبطة بسبب النزول... وهذا يخالف منهج القرآن في انسباك الآية ذات السبب الخاص في سياق ينقلها من خصوص إلى عموم يساعد اللفظ عليه.

١٠- نداء هؤلاء القسيسين رب العزة يشير إلى شدة إحساسهم بقربهم من ربهم في تلك اللحظات الصادقة، وقد التقط النظم هذه الأحاسيس فدل عليها بحذف حرف النداء وإضافة لفظ الرب إليهم (ربنا).

١١-لم يقولوا ربنا إننا سمعنا فآمنا، ولكن قال: (ربنا آمنا) اختصارًا للإشعار بسرعة استجابة القلوب واطمئنانها.

١٢-في قوله: ﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ حذف المتعلق فلم يقولوا: فاكتبنا مع الشاهدين من أمة محمد على الناس يوم القيامة، أو فاكتبنا مع الشاهدين بأن ما استمعنا إليه حق، أو فاكتبنا مع الشاهدين بصدق محمد ﷺ وأنه رسولك إلى الناس، فلم يذكروا شيئًا من هذا؛ لأنه لو ذكر لحدد، فلما حذف أطلق وعمم ليتناول كل هذا وغيره، وهذا من عظمة النظم القرآني الذي يدلك بالحذف على أكثر مما يدل عليه الذكر وهنا نذكر، عبارة عبد القاهر في قيمة الحذف: «هو باب عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة...»[(٢)].

٣- قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ

(١) فتح القدير ١/ ٦٠٠ .

(٢) دلائل الإعجاز ١٤٦ تحقيق محمود شاكر - الخانجي .

عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [سورة المائدة: ١٠١].

سبب النزول:

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس قال: خطب النبي ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط، فقال رجل: من أبي؟ فقال: «**فلان**» ! فنزلت هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟﴾ الآية، وأخرج ابن حبان عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ خطب فقال: «**يا أيها الناس، إن الله قد افترض عليكم الحج**» فقام رجل فقال: أفي كل عام يا رسول الله؟ فسكت عنه، فأعادها ثلاث مرات، فقال ﷺ: «**لو قلت نعم لوجبت؛ ولو وجبت، ما قمتم بها، ذروني ما تركتم**» (وفي رواية: اسكتوا عني ما سكت عنكم) «**فإنما هلك من قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم؛ فإذا نهيتكم عن شيء، فاجتنبوه؛ وإذا أمرتكم بشيء، فأتوا منه ما استطعتم**» [١].

ولا مانع أن تكون الآية قد نزلت للسببين معًا ولأكثر من هذا من الأسئلة التي تضر أكثر مما تنفع، وقد أخرج البخاري ومسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: «كانوا يسألون عن الشيء وهو لهم حلال، فما زالوا يسألون حتى يحرم عليهم، وإذا حرم عليهم وقعوا فيه».

وأخرج ابن جرير وابن المنذر والحاكم عن أبي ثعلبة الخشني قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله حد حدودًا فلا تعتدوها، وفرض لكم فروضًا فلا تضيعوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وترك أشياء في غير نسيان ولكن رحمة لكم فاقبلوها ولا تبحثوا عنها**» [٢].

من خصوصيات النظم:

١- النداء والنهي في الآية يعدان من تجاوب الوحي مع ما يقع بين المسلمين وما يطرأ من حالات وأوضاع تقتضي التوجيه والإرشاد، والمسلمون في حاجة إلى الإرشاد لما فيه مصلحتهم؛ لهذا جاء النداء للتهيئة يعقبه النهي الذي يقصد به النصح والإرشاد الممزوج بالتحذير، وليس النهي عن مطلق السؤال في كل أمر، بل هو

---

(١) ١/ ٦١٤ فتح القدير، وانظر ١٠٢ الصحيح المسند من أسباب النزول .

(٢) ١/ ٦١٤ فتح القدير .

مقيد بما لا حاجة لهم إليه ويؤدي إلى التشديد عليهم؛ أما ما سوى هذا، فإن القرآن نفسه يدعو المسلمين إلى السؤال فيما يلتبس عليهم من أمور الدين والدنيا، كقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وعليه، فإن ذلك التشديد المقترن بالنهي في قوله: (لا تسألوا...) ليس لمجرد السؤال، ولكن كما يقول أبو السعود: «لإساءتهم الأدب واجترائهم على المسألة والمراجعة، وتجاوزهم عما يليق بشأنهم من الاستسلام لأمر الله عز وجل من غير بحث فيه، ولا تعرض لكيفيته وكميته... ولقد قيل: إن سراقة بن مالك، وقيل: عكاشة بن محصن سأل رسول الله ﷺ قائلاً في شأن الحج: أفي كل عام يا رسول الله؟ وأعاد السؤال ثلاث مرات، فقال ﷺ: «**ويحك، ما يؤمّنك أن أقول: نعم؟ ووالله لو قلت: نعم، لوجبت؛ ولو وجبت، ما استطعتم**».

وهناك مواقف أخرى يسألون فيها أسئلة لا تكون في الإجابة عنها مصلحة لهم، وإنما تكشف أسرارًا تسوءهم كسؤال عبد الله بن حذافة - وكان إذا لاحى الرجال دعوه لغير أبيه - فقال: يا رسول، الله من أبي؟ فقال ﷺ: «**أبوك حذافة بن قيس الزهري**». وقام آخر فقال: أين أبي؟ قال ﷺ: «**في النار**»[1]. فهذا النوع من الأسئلة هو المنهي عنه.

٢- كلمة «أشياء» في قوله تعالى: ﴿لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ﴾ فيها إيجاز وتعميم حتى تتناول كل ما سألوا عنه مما جاء في أسباب النزول، وما يمكن أن يسألوا عنه مستقبلاً مما لا فائدة منه، وقد قامت هذه الكلمة مقام كلام كثير مما سألوا عنه وروته الكتب الصحيحة، ولا نكاد نجد في اللغة كلمة واحدة تقوم مقام مواقف عدة وأسئلة شتى تضيق عنها الصفحات كما قامت كلمة أشياء في هذا السياق، وهذا من الإيجاز القرآني المعجز، على أنه عندما وصفها بقوله: ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ لم يقصد بيانها، وإنما قصد التعليل للنهي تعليلاً يدفعهم إلى التخلي والانتهاء؛ لأنه يتناول ما فيه مصلحتهم.

٣- في قوله: ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ بمعنى: إن يظهر لكم جوابها من رسول الله ﷺ عندما يوحى إليه فيكون ذلك مؤديًا إلى ما يسوءكم من تكاليف شاقة أو

(١) رواه أنس وأبو هريرة رضي الله عنهما، انظر ٢/ ٩٣ إرشاد العقل السليم .

غيرها، ففي هذه الجملة تعليل للنهي عن تلك الأسئلة تعليلاً يفيد أنه لمصلحتهم هم، فهو لا ينهاهم ليحملهم مشقة، وإنما ليرفع عنهم المشقة.

٤- كان الأصل في الترتيب أن يقال: لا تسألوا عن أشياء إن تسألوا عنها تبد لكم[1] وإن تبد لكم تسؤكم، لكنه قدم الشرط الثاني وأخّر الأول، فقال: (إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم. . .) وسر هذا التقديم هو المبادرة بعد النهي بالنتيجة الداعية إلى الانتهاء والانزجار، وأخّر الشرط الثاني الذي يبين توقيت ظهور ما يسألون عنه وهو أنه عند نزول القرآن، فتأخير هذا الشرط لا يؤثر على المعنى، بينما يؤدي تقديم ما قدم للمبادرة إلى نتيجة السؤال ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ مما يدعو سريعًا للتخلي عن السؤال والانتهاء عنه.

وبهذا فإن المفردات والجمل تتحرك في النظم تقديمًا وتأخيرًا حسب حاجة المعنى والغرض المطلوب؛ فلما كانت الحاجة للمبادرة بعاقبة السؤال ونتيجته أهم من معرفة توقيت ظهور الإجابة، قدم ما يدل على تلك العاقبة ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ على التوقيت الذي تبدى لهم فيه ﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾.

٥- فائدة قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾ بيان أن الله سبحانه عفا عما سألوا عنه قبل النهي المحذر؛ لذلك لم يتم التكليف بالحج في كل عام مع أنهم سألوا عن هذا سؤالاً ملحًا؛ فلو لم يعف الله عن تلك الأسئلة، لوجب الحج كل عام، فالعفو إذن إنما هو لما وقع من أسئلة قبل ذلك النهي، وهذا النهي يحذر من هذا النوع من الأسئلة فيما بعد، ولم يثبت أن أحدًا من الصحابة سأل بعد نزول هذه الآية سؤالاً من تلك الأسئلة التي لا أهمية فيها سوى أنها تؤدي إلى التشديد.

٦- وفي الآية التالية استئناف مبين، ووكد عن طريق ذكر حالات مشابهة عند السابقين ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَـٰفِرِينَ﴾، كسؤال قوم صالح للناقة، وأصحاب عيسى المائدة، فكان ما سألوه وتحقق لهم، لكنه صار وبالاً عليهم، وفي هذا تلميح بفضل الله على هذه الأمة؛ لأنه سبحانه نهاهم عن السؤال حتى لا يؤدي بهم إلى مثل ما أدى بهؤلاء السابقين.

---

(١) أي: تظهر لكم فيما ينزل من القرآن .

سورة الأنعام

١- قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة الأنعام: ٥٢].

سبب النزول:

أخرج أحمد وابن جرير وابن المنذر وغيرهم عن عبد الله بن مسعود قال: مر الملأ من قريش على النبي ﷺ وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك (أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا) أنحن نكون تبعًا لهؤلاء، اطردهم عنا، فلعلك إن طردتهم أن نتبعك؛ فأنزل الله فيهم القرآن: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [سورة الأنعام: ٥١، ٥٢].

وفي رواية مسلم والنسائي عن سعد بن أبي وقاص أن المشركين لما قالوا: اطرد هؤلاء عنك. وقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ الآية[(١)].

موقع الآية:

وردت هذه الآية بعد سلسلة متصلة الحلقات من الحديث عن المؤمنين الذين هداهم الله والكافرين الذين ضلوا وعموا، كقوله تعالى في آية ٣٩ الأنعام: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وبعد عدة آيات يعلو فيها صوت الإنذار للمكذبين، يقول سبحانه في آية ٥٠: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ

(١) الصحيح المسند من أسباب النزول ١٠٦ .

إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ والمعنى هنا يؤذن ويمهد للنهي عن طرد المؤمنين كما أراد المشركون؛ لأن الرسول ﷺ لا يتبع تحريض أحد وإنما يتبع ما يوحى إليه، وقد أوحي إليه أن يلازم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي، ولا يستجيب لتحريض هؤلاء الضالين ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾.

بين النظم والمناسبة:

لا يخفى على المتأمل ذلك التوافق بين ما ورد في سبب النزول وما جاء عليه نظم الآية، فبينما يقول المشركون لرسول الله ﷺ: اطرد هؤلاء عنك. يقول القرآن: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ الآية ومن رحمة الله تعالى بنبيه ﷺ أنه لم يستجب لهؤلاء المغرضين، ولكنه ربما فكر ووقع في نفسه ما شاء الله له أن يقع، كما تذكر رواية سعد بن أبي وقاص وإن لم تذكره رواية عبد الله بن مسعود، لكنه محتمل لوقوع ما يشبهه عندما انصرف رسول الله ﷺ عن عبد الله بن أم مكتوم حرصًا على إيمان من كان موجودًا من وجهاء المشركين، فعاتبه الله سبحانه في ذلك كما هو معروف.

وفي رواية أخرى عن سلمان وخباب أن رسول الله ﷺ رفض طلبهم في البداية قائلًا: «**ما أنا بطارد المؤمنين**»، فاحتالوا قائلين: فأقمهم عنا إذا جئنا، فإذا قمنا فأقعدهم معك إن شئت. قال ﷺ: «**نعم**» طمعًا في إيمانهم[١]. وهذه الرواية لا تتناقض مع رواية سعد بن أبي وقاص، وإن جاءت رواية سعد تكني تأدبًا إذ قال: وقع في نفس نبي الله ما شاء الله أن يقع. . .إلخ، وفي النظم ما يدل على أن هذا قد وقع لما فيه من نهي وحسم وعتاب وتحذير كما سيتبين من تتبع خصوصيات ذلك النظم.

ومن خصوصيات النظم:

١- النهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ متعدد الأغراض، وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن الغرض منه تثبيت قلب رسول الله ﷺ وتخريج النهي

(١) إرشاد العقل السليم ٢/ ١٠٢ .

على هذا المعنى يعني أن الرسول ما طردهم، وما ينبغي أن يقع منه ذلك أو يفكر فيه، وإنما جاء النهي لتثبيت قلبه ﷺ على ما هو عليه، فيكون الغرض من النهي هنا كالغرض من الأمر مثلاً في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾؛ أي: استمر على ما أنت عليه، وذلك سبيل الإلهاب والتهييج، ولا شك أن هذا القول سعي إلى تبرئة ساحة رسول الله ﷺ من أن يكون قد سعى فى طرد الفقراء أو فكر في طردهم بعض الوقت؛ وهذا صحيح، ولكن جو الآية وسياقها وما ورد في أسباب النزول يدل على أن الرسول ﷺ حدث نفسه بأن ينحيهم بعض الوقت؛ ليفسح المجال أمام وجهاء القوم طمعًا في إيمانهم، فهو مجرد تفكير لم يترجم إلى فعل، وقد نزل الوحي بالآية قبل أن يحدث ذلك الفعل فنهى عن فعل لم يقع هذا ما دفع بعض المفسرين للقول أن النهي لتثبيت قلب رسول الله ﷺ ولكنه على كل حال لا يخلو من تشديد ولوم لمجرد التفكير، ونستأنس في هذا بقوله: (ولا تطرد)، ولم يقل: لا تبعد أو لا تترك؛ وذلك لما في التعبير بالطرد من تشنيع هذا الفعل إن هو قد حدث، وللإشارة إلى أن هذا كان هدفًا خبيثًا للمشركين، وهو أن يشيع بين الناس أن محمدًا يطرد أصحابه، فهم لم يكونوا صادقين في عرضهم وما كانوا ليؤمنوا لو أن رسول الله ﷺ حقق لهم ما أرادوا، وإنما قصدوا أن يصرفوا عنه أتباعه ثم لا يتبعونه فيبقى وحده، فلقد كانت دعوة خبيثة وخدعة ماكرة، وكان من لطف الله سبحانه أن كشفها ووأدها في مهدها بالنهي الأول الذي لا يخلو من تشديد وحسم؛ أما النهي الثاني: (ولا تعد عيناك عنهم)، فإنه للتأكيد والتثبيت حتى لا يترك أصحابه من أجلهم ولو للحظة؛ وأما النهي الثالث: (ولا تطع من أغفلنا قلبه)، ففيه تعليل للنهي الأول؛ لأن الله أغفل قلوبهم، فلا فائدة معهم، وفيه تيئيس منهم.

٢- لم يقل سبحانه: ولا تطرد أصحابك أو لا تطرد هؤلاء الفقراء، وإنما قال: (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) للإشارة إلى أن معيار الحكم على الناس ليس بفقرهم ولا غناهم ولا بمكانتهم الدنيوية، وإنما يكون بمدى تقواهم وإخلاصهم لله سبحانه، ثم إن التعريف بالاسم الموصول ليتاح التعليل للنهي قبله بما في الصلة بعده من أوصاف، فكونهم يدعون ربهم لا يملون (بالغداة والعشي) ولا يبتغون من وراء هذا عرضًا من أعراض الدنيا، وإنما (يريدون

وجهه)، إن كونهم كذلك يجعلهم جديرين بالإقبال عليهم لا الانصراف عنهم، والتمسك بهم لا التفريط فيهم.

٣- ذهب المفسرون إلى أن المقصود بقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾؛ أي: يعبدون ربهم مطلقًا، أو يحافظون على صلاة الجماعة أو يذكرون الله دائمًا ويقرءون القرآن، والأولى اعتبار هذا كله أخذًا بعموم اللفظ، ولأن هذه الأشياء جميعًا لا تخلو من الدعاء، وإنما خص الدعاء لأنه أساس العبادة، وهو أدل على ذل العبودية أمام عز الربوبية؛ ولهذا أسند الدعاء إلى الرب مضافًا إليهم (يدعون ربهم).

٤- قيد الدعاء بهذا الظرف (بالغداة والعشي) للإشارة إلى الاستمرار وعدم الفتور، وقد قال بعض المفسرين: «والمراد بذكر الغداة والعشي: الدوام على ذلك والاستمرار، وقيل هو على ظاهره»[١]؛ أي: وقت الغداة ووقت العشي، والحق أنه لا اختلاف ولا تعارض بين هذين القولين والجمع بينهما وارد، فكون اللفظ على ظاهره، وأن هؤلاء يدعون ربهم بالغداة والعشي على حقيقته، كونه كذلك لا ينافي الاستمرار، والكناية هي الفن الذي يجمع بين إرادة المعنى الأول «الظاهر» والمعنى الثاني اللازم[٢] وذلك في أغلب أحوالها، فيكون الغداة والعشي كناية عن الاستمرار لكونهما في طرفي النهار.

٥- في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ إشارة إلى الإخلاص في الدعاء والعبادة، وبه ترقى منزلة المسلم عند الله سبحانه، وهو الذي جعل لهؤلاء الفقراء منزلة عند الله، وجعلهم جديرين بالتكريم لا الطرد.

٦- قوله سبحانه: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾؛ يعنى: أنك لو طردتهم فما يحملك على هذا إلا عيب فيهم أو سوء أخلاق أو تقصيرمنهم في حق الله تعالى، ولو صح هذا فحسابهم على أنفسهم لا تتحمل منه شيئًا ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾. ثم إنك إن طردتهم تحملت وحدك الذنب، لا يتحملون منه شيئًا: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾.

---

(١) ١/ ٦٤٩ فتح القدير.

(٢) وهذا واضح في تعريف الخطيب الكناية بأنه: «لفظ أريد به لازم معناه، مع جواز إرادة معناه» ٤/ ٢٣٧ الإيضاح بتعليق عبد المتعال الصعيدي «بغية الإيضاح».

فهذا من المذهب الكلامي والمنطق البرهاني المقنع، وفي ضمنه معان مطوية كالمقدمات التي تعقبها النتائج، وعندما يكون هذا الخطاب لرسول الله ﷺ فإنه لا يخلو من عتاب؛ لأنه جمع بين الرسول ﷺ وهؤلاء في حكم واحد، وهو أن كل واحد هو الذي يتحمل ذنبه، ولا شك أن هذا الأسلوب يدفع إلى البحث فيهم عن عيب أو سوء يتحملون إثمه فلا يجد، ثم ينظر الرسول ﷺ في أمر نفسه إن هو طردهم ماذا تكون النتيجة؟ وهنا يقع تحت الإحساس بالحرج مما يدفعه إلى التمسك بهم والإقبال عليهم في رغبة وحب، وهذا موصول في الفكر بقوله عقبه: (فتطردهم فتكون من الظالمين).

ولذلك يروى أن جبريل عليه السلام لما نزل بالآية دعا رسول الله ﷺ هؤلاء الفقراء كما يقول سلمان وخباب «دعانا فأتيناه وجلسنا عنده وكنا ندنو منه حتى تمس ركبتنا ركبته»[(١)].

٢- قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١٢١].

سبب النزول:

عن ابن عباس: قال المشركون، وفي لفظ قال اليهود: لا تأكلون مما قتل الله (يعني: الميتة) وتأكلون مما قتلتم أنتم (أي: ذبحتم) فأنزل الله سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ الآية[(٢)].

موقع الآية:

لما قال سبحانه في الآية ١١٨ من سورة الأنعام: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ كان هذا أنسب موقع لذكر تحريض الشياطين أولياءهم من المشركين أو اليهود لجدال المسلمين في هذا التكليف مع النهي عن اتباع ما يريد: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١٢١].

---

(١) ٢/١٠٣ إرشاد العقل السليم .

(٢) ١/٦٨٦ فتح القدير .

بين نظم الآية وسبب النزول:

هذه من الآيات التي بادرت بذكرالحكم المترتب على ما حدث قبل ذكر الحدث، ذلك أن إبليس وأعوانه كانوا يوحون إلى مشركي قريش ليجادلوا المسلمين في التسمية على الذبيحة قبل ذبحها قائلين: لا تأكلون مما قتل الله - أي ماتت - وتأكلون مما قتلتم أنتم؛ أي: ذبحتم وسميتم، وقد سجل الوحي هذا في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ سوى أنه قدم على ما حدث من جدال وتشكيك بالحكم القاطع في هذه المسألة ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ وهذا من أقوى الأدلة على أن القرآن كتاب دعوة وأن ما فيه من أحداث إنما هي متفرعة عن ذلك الأصل.

ومن خصوصيات النظم ونكاته:

١- البداية بالنهي دون الأمر، فلم يقل: سموا على ما تذبحون أو كلوا مما ذكر اسم الله عليه؛ لأن ذلك الأمر قد سبق في الآية ١١٨، والمقام هنا مقام تحريم ما كان المشركون يريدون الإيحاء به، ومقام التحريم يناسبه النهي عن ارتكاب ذلك الشيء المحرم أي النهي عن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه، فهذا من تجاوب كيفيات النظم مع مقام نزول الآية.

٢- عرف الشيء المأكول أو المذبوح باسم الموصول في قوله (مما) أي - من الذي - اختصارًا يتناسب مع جلال النظم القرآني، وإن شئت فوازن بين ما لو عرّفه باسمه أو صفته، وبين تعريفه بما كما جاء عليه، فلم يقل مثلاً: ولا تأكلوا من الذبيحة التي لم يذكر اسم الله عليها، ولكن قال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فقامت (ما) مقام الذبيحة، ولا شك أن اسم الموصول (ما) أليق بجمال وجلال النظم القرآني.

٣- بنى الفعل للمفعول في قوله: ﴿مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ولم يقل: (مما لم تذكروا اسم الله عليه) حتى لا يقتصر التحريم على ما لم يسم عليه من ذبائح المسلمين، وإنما يتناول كل ما لم يذكر اسم الله عليه، سواء كان عند المسلمين أم

غيرهم من أهل الكتاب؛ لأن الله سبحانه ما أحل طعامهم لنا إلا لأنهم يسمون على ذبائحهم.

٤- في قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ توقف العلماء لتخريج عطف هذا الخبر على الإنشاء في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا﴾ فقال البعض: إنه على الاستئناف، أو أن جملة الخبر حالية[1] وذهب آخرون إلى التقدير؛ أي: ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه فإن الأكل لفسق، أي: خروج عن منهج الله خروجًا هو الكفر. لكن ربما يرد على هذا أن النظم القرآني جاء بالواو لا بالفاء كما جاء عليه هذا التقدير.

وأشعر أن هناك تعليلاً للنهي بجملة كاملة محذوفة يدل عليها قوله: (وإنه لفسق) والتقدير: فإن أكلتم مما لم يذكر اسم الله عليه كان حرامًا ما أكلتموه وإنه لفسق، وهذا التقدير يحل مشكلة الخلاف الواقعة بين الفقهاء حول حكم من ترك التسمية «فيذهب ابن حنبل إلى الحرمة عمدًا أم نسيانًا، وقال مالك والشافعي بخلافه فيما يتعلَّق بترك التسمية نسيانًا لقوله ﷺ: «**ذبيحة المسلم حلال وإن لم يذكر اسم الله عليه**» وقوله عليه السلام لعائشة عندما سألته عن احتمال أن يكون ما يهدى إليهم مما لم يسم عليه فقال ﷺ: «**سموا أنتم وكلوا**» [2].

قلت: إن التقدير الذي يقتضيه نظم الآية يحل هذا الإشكال، فإننا لو قدرنا: ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه فإن أكلتم مما لم يذكر اسم الله عليه نسيانًا، فلا حرج، وإنه لفسق لو تركتم التسمية عمدا، ومعنى هذا أن تارك التسمية عمدًا لا يكتفي فيه الحكم بالحرمة؛ لأنه خالف أمر الله فيكون فاسقًا.

٥- في قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ معناه أن الشياطين يوحون للمشركين ليجادلوا المسلمين، فهؤلاء الشياطين يتخذون من المشركين أعوانًا لهم ووسطاء لتشكيك المسلمين، وفي ذلك إشارة إلى أن المشركين أقدر من الشياطين على الجدال والتشكيك حيث تتاح لهم الظهور والجدال الذي يعتمد على الحوار، ثم إن المسلمين أشد حذرًا من الشياطين.

---

(١) ٢/ ١٣٢ إرشاد العقل السليم .

(٢) المرجع نفسه ٢/ ١٣٢، وفتح القدير ١/ ٦٨٥ .

٦- قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾ ولم يقل: (وإن الشياطين ليوحون إلى المشركين) للإشارة إلى أن المشركين صاروا أولياء وزعماء للشياطين يلجأون إليهم فيما يعجزون هم عن تحقيقه.

٧- قال: ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ ولم يقل: وإن أطعتموهم إنكم لمثلهم وذلك لتخويف المسلمين من الشرك، وتفظيع هذا الفعل الذي يؤدي إليه، وفيه إشارة إلى أن من ترك التسمية عمدًا صار مشركًا.



سورة الأعراف

١- قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٣١].

سبب النزول:

أخرج مسلم والنسائي وغيرهم عن ابن عباس أن النساء كن يطفن عراة إلا أن تجعل المرأة على فرجها خرقة، فنزلت: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه قال في الآية: كان الرجال يطوفون بالبيت عراة فأمرهم الله بالزينة، والزينة اللباس وما يواري السوءة[1].

وهذا سبب يبدو عجيبًا؛ إذ كيف كانت النساء يطفن عراة، وعلى أي ملة كن يفعلن هذا؟ ومتى كن يفعلنه؟ كل هذه الأسئلة لا يظهر لها جواب شافٍ، وأكثر المفسرين يذهبون إلى أن المقصود: «خذوا ثيابكم لمواراة عوراتكم»، سواء كان هذا المعنى مستمدًا من دلالة اللفظ دلالة حقيقة، فتكون الزينة بمعنى الثياب، وزينتكم بمعنى ثيابكم الذي يستر عوراتكم، أم كان هذا المعنى مستمدًا من اللفظ عن طريق اللزوم؛ لأن الزينة في الأصل شيء زائد على الثياب الساترة، كما قال سبحانه: ﴿قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ﴾ فاللباس لستر السوءة، والريش للزينة؛ فيكون قد قال: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾؛ ولازم هذا ستر العورات؛ لاقتران الزينة باللباس الساتر للعورة، أو أن الزينة لا تتخذ إلا بعد اللباس.

من خصوصيات النظم:

١- أن الله سبحانه نادى بني آدم ولم يناد المسلمين أو المؤمنين، وذلك ليتسق النظم مع ما قبله في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ﴾ وقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ وللإشارة إلى

---

(١) فتح القدير ١/٧٢٨ .

أن ستر العورة عام في كل بني آدم فهو مما يميزهم عن الحيوانات.

٢- قال سبحانه: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ ولم يقل: استروا عوراتكم عند كل مسجد، حتى لا يتوهم أن ستر العورات خاص بالمساجد، وإنما ذكر اللفظ الذي يستلزم المقصود ويجعله مفهومًا وهو ستر العورات عند الطواف، فنظم الآية ومفرداتها تدل على أن ذلك السبب الوارد في نزول الآية له أصل من الصحة.

٣- لم يحدد المسجد الحرام، فلم يقل: يا بني آدم، خذوا زينتكم عند المسجد الحرام. مع ما ورد من أن طواف الناس عرايًا حوله كان سببًا في نزول الآية حتى لا يتوهم أن الأمر خاص به، وجريًا مع منهج القرآن في تعميم اللفظ على الرغم من خصوص السبب لتعم الفائدة ويتحقق شمول التشريع.

٤- ثم إنه قال: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ ولم يقل: تزينوا؛ ليشير إلى أن الناس كانوا يسترون عوراتهم في بيوتهم وطرقاتهم حتى إذا ذهبوا للطواف حول المسجد تركوها جهلًا وظنًّا خاطئًا أنه تجرد من زينة الحياة الدنيا، فقال لهم الله سبحانه: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ أي التي طرحتموها وتركتموها بل وحرمتموها كما يدل قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ وبهذا يساعدنا نظم الآية على تقبل ذلك السبب العجيب، ويدلنا على أن سبب النزول الوارد لم ينشأ من فراغ.

أما قوله سبحانه: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ فقد ورد في سبب نزوله أن بني عامر كانوا في أيام حجهم لا يأكلون الطعام إلا قوتًا (تقوتًا)، ولا يأكلون دسمًا؛ يعظمون بذلك حجهم، فهمَّ المسلمون بمثله، فنزلت:(1) ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾.

٥- ومن تجاوب النظم مع ذلك السبب الوارد حذف متعلق هذين الفعلين (كلوا واشربوا) وذلك لإطلاق الإباحة فلا تكون في أشياء معينة دون غيرها مما أحله الله وذلك ردًّا على من حرموا على أنفسهم أشياء معينة عدوها من الترف الذي حرموه على أنفسهم في الحج، وبدل القرآن ضابطًا آخر ينتظم كل الأوقات - في الحج وفي غيره - وهو (ولا تسرفوا).

(١) إرشاد العقل السليم ٢/ ١٦٤ .

سورة الأنفال

١- قال تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأنفال: ١].

سبب النزول:

وردت أحاديث كثيرة في سبب نزول هذه الآية، حاصلها ما أخرجه أحمد وابن جرير وغيرهما عن أبي أمامة قال: سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال؛ فقال: نزلت فينا أصحابَ بدر حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا، فانتزعه الله من أيدينا، وجعله إلى الرسول ﷺ فقسمه بين المسلمين(١).

وهناك رواية أخرى تفيد أن سبب الاختلاف هو إحساس كل جماعة بأنها الأحق من غيرها، أو أحق بالأكثر من غيرها، فجماعة لاحقت المشركين ضربًا وقتلًا بعد الهزيمة، وجماعة اشتغلت بجمع الغنائم التي صارت بين أيديها لا تريد أن تتخلى عنها، وهذا يكشف عن مفارقة عجيبة وتساؤلات كثيرة... أهذه هي الجماعة المؤمنة المستضعفة التي خرجت وهي مستعدة للتضحية عن هذا الدين بأرواحها، وكانوا يستشعرون القلة أمام الكثرة والضعف أمام القوة، ولكن ثقتهم بالله شحنت قلوبهم بالعزيمة والإصرار حتى إذا نصرهم الله تحولوا هذا التحول المفاجئ للنزاع من أجل الدنيا،، وقد كانوا منذ قليل يبذلون أرواحهم.

تفسير هذا يعود إلى أمرين:

الأول: أن الشيطان عز عليه أن تنتصر هذه القلة المؤمنة في أول حلقة من حلقات الصراع بين الإيمان والكفر الذي يمثله ذلك الشيطان، فزين الدنيا في قلوب وأعين هؤلاء الأبطال ونفث في صدورهم ما شاء الله له أن ينفث ونفخ في الغنائم والأنفال ما شاء الله له أن ينفخ حتى حَلَتْ في القلوب وفي العيون.

---

(١) فتح القدير ١/٨٠٨ .

الثاني: أن هذا الخلاف يكشف عن حقيقة نفسية في الطباع البشرية وهي حب الذات، وإحساس كل نفس بأنها تحملت العبء الأكبر حتى داخل هذا الشعور نفوس الجميع، وقد التقى هذا الإحساس مع تزيين الشيطان ونفثه ونفخه، فاعتقد كل واحد بأن من حقه الحظ الأوفر من تلك الأنفال، ومن هنا نشأ الخلاف واحتدم وتصادمت الآراء، لولا نزول القرآن فحسم النزاع.

خصوصيات النظم ولطائفه:

١- قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ يدل على أن المسلمين وإن احتدم الخلاف بينهم حول امتلاك الكم الأكبر من الغنائم إلا أنهم في الوقت ذاته لم ينسوا أن لهم مرجعًا يعودون إليه ويسألونه وهو رسول الله ﷺ وهذا ما يدل عليه الفعل (ويسألونك)، وهذه حسنة في داخل تلك السيئة، ذلك لأنهم لو كانوا في الجاهلية لاستلت السيوف من أغمادها، أما وإنهم قد آمنوا، ورسول الله بينهم، فإنهم يرجعون إليه فيما شجر بينهم.

وقد نزل الوحي يسجل ما قالوه، ويؤكد العبرة والعظة، وهي ضرورة الشعور بالمرجعية عند نشوء أي خلاف بين الجماعة المؤمنة، فليس لمسلم أن يُنَصِّبَ من نفسه قاضيًا، وإنما لا بد من الرجوع لأولي الأمر الذين لهم الحق في الفصل والحكم والحل أو العقد، كل هذا يشير إليه الفعل: (يسألونك).

٢- تتجلى روعة الإعجاز في هذه الجملة القصيرة التي تطوي وراءها أحداثًا جمة، وأقوالاً شتى، وخلافًا دار فيما بينهم ثم رجوعهم لرسول الله ﷺ يسألونه عن حكمه الفاصل فيما نشأ بينهم من خلاف حول تقسيم الغنائم، وهذا من جلال الأسلوب القرآني الذي يترفع عن التفاصيل المألوفة في أساليب الناس.

٣- لم يتركهم في حيرة من أمرهم بل عاجل الوحي لحاجة المقام والموقف إلى إجابتهم بقوله سبحانه: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾.

ولقد أظهر في موضع الإضمار؛ لأن الأصل أن يقال: يسألونك عن الأنفال قل هي لله والرسول، ولا لبس أو ضير في ذلك؛ لأن بين الضمير ومرجعه فاصلاً قصيرًا بكلمة واحدة، فلماذا أعاد اسم الأنفال ولم يستغن عنه بالضمير؟ ذلك ليصير قوله: ﴿ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ قولاً مرددًا معمولاً به في حكم الجملة المستقلة، فالضمير حينئذٍ لا يقوم مقام الاسم الظاهر.

٤- لما كان هذا المقام هو مقام الإجمال، اكتفى بقوله: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾؛ أي: تقسيمها بأمر الله على يد رسول الله ﷺ وليس لأحد منكم فيها حكم أو رأي، ومع أن لكل سورة مقامًا عامًا، فإنه في إطار هذا المقام العام تتنوع المواطن وتتحرك المعاني ما بين الإجمال والتفصيل، ففي صدر السورة ترى موطنًا من مواطن الإجمال، وفي داخلها ترى موطنًا من مواطن التفصيل للمعنى ذاته، فالقول الفصل في الأنفال ورد إجمالاً في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ وورد تفصيلاً في قوله تعالى في موطن آخر من السورة نفسها في قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾(١) [سورة الأنفال: ٤١].

وإذا كان لرسول الله ﷺ ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل الخمس، فلمن تكون الأخماس الأربعة المتبقية؟ لقد ترك توزيعها لرسول الله ﷺ بوحي من ربه وتوفيق منه، وهذا هو معنى قوله في صدر السورة: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، فما كان لله جعله الله سبحانه خمسًا لرسوله، ولذوي قرباه واليتامى والمساكين وابن السبيل، وما كان متروكًا توزيعه للرسول فلقد هدى الله رسوله إلى تقسيمه، فجعل للفارس ثلاثة وللراجل سهمًا(٢).

وعلى هذا أستبعد ما ورد من أن قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ الآية ناسخ لقوله قبله في سورة الأنفال: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾(٣)

---

(١) قيل: إن التقدير: «إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أن الخمس من الغنيمة يجب التقرب به إلى الله تعالى؛ فاقطعوا أطماعكم منه، واقنعوا بالأخماس الأربعة» . إرشاد العقل السليم ٢/ ٢٣٩ وأما توزيع الأخماس الأربعة فقد تركت لرسول الله ﷺ بتوفيق من ربه، وخمس الله سبحانه كان يجعل للسلاح وفي سبيل الله وفي كسوة الكعبة، وسهم رسوله كان للسلاح والنفقة على أهله.

(٢) هذا رأي مالك والشافعي، ويرى أبو حنيفة أن للراجل سهمًا، وللفارس سهمان» راجع إرشاد العقل السليم ٢/ ٢٣٩ .

(٣) من العجيب أن ينسب هذا القول بالنسخ لابن عباس، راجع فتح القدير ١/ ٨٠٩ .

فالظاهر- والله أعلم - أن ليس هناك نسخ، ولكن الآية وردت أولاً: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ إجمال للمعنى وله مقامه، والثانية تفصيل للمعنى ذاته وله مقامه في السورة نفسها.

والذي يعنينا هو لماذا جاء الإجمال في صدر السورة؟ ذلك لأن البدايات تكون موجزة عادة يليها التفصيل، ثم إن الآية الأولى في صدر السورة نزلت لحسم الخلاف حول الأنفال، فمن المناسب في هذا المقام أن يجمل الحكم فيها وأنه لله ولرسوله، وأن يعقب بالغاية الأساسية في هذا السياق؛ وهي رد المسلمين إلى الحبل الذي يعتصمون به جميعًا ولا يتفرقون ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وهذه الأمور الثلاثة: تقوى الله، وإصلاح ذات البين، وطاعة الله ورسوله هي الركائز الأساسية التي تعصم من الخلاف والتفرق.

٥- تقدم الأمر بالتقوى على إصلاح ذات البين؛ لأن تقواه سبحانه تؤدي إلى نبذ الخلاف خشية الله عز وجل، وإصلاح ذات البين تؤدي إلى تحقيق التعاطف والتراحم، فالبداية بالتقوى للتخلية، وإصلاح ذات البين للتحلية، والتخلية مقدمة على التحلية.

٦- كان الأصل أن يقال: أصلحوا الحال التي بينكم من خلاف ونحوه، لكن لما اشتدت تلك الحال وتحكمت فيهم صارت كأن لها صورة مجسدة وتحكُّمًا وتصرُّفًا، ولذلك قال: (أصلحوا ذات بينكم)؛ أي: أصلحوا صاحبة بينكم، وهي تلك الحال التي اشتدت واحتدمت وصار لها تحكم فيما بينهم، وإصلاحها يكون بالمواساة والمساعدة كما ذكر أبو السعود(١).

٧- توسيط الأمر بإصلاح ذات البين بين الأمر بالتقوى والأمر بالطاعة لإظهار كمال العناية بالإصلاح لحاجة مقام الخلاف إليه كما ذكر أبو السعود وليندرج الأمر بعينه تحت الأمر بالطاعة؛ لأن طاعة الله سبحانه تشتمل حتمًا على إصلاح ذات

---

(١) راجع إرشاد العقل السليم ٢/٢٢٦ .

البين، فكأن النظم ذكر إصلاح ذات البين مرتين مرة مستقلًا، ومرة في ضمن طاعة الله ورسوله.

٨- علق الله سبحانه تحقق إيمانهم على تحقق التقوى وإصلاح ذات البين وطاعتهم لله سبحانه ولرسوله، وذلك في قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ أي: إن كنتم مؤمنين، فاتقوا لله وأصلحوا... وأطيعوا...، وهذا تشديد عليهم يقتضيه ذلك الموقف؛ لأن النزاع على الدنيا هو قاصمة الظهر للمسلمين، وقد حاول بعض المفسرين نفي هذا بالتخفيف من المقصود بهذا الشرط؛ فقالوا: المراد به هو الإلهاب والتهييج وليس حقيقة الشرط[1]، أو تنشيط المخاطبين وحثهم على المسارعة إلى الامتثال، والمراد بالإيمان كماله؛ أي: إن كنتم كاملي الإيمان... فإن كمال الإيمان يدور على هذه الخصال الثلاث[2].

ولست مع هذا ولا ذاك، وإنما يبدو - والله أعلم - أن المقصود هو التشديد على هؤلاء الذين نصرهم الله وهم قلة في العدد والعدة، فخرجوا من النصر إلى خلاف حول الدنيا، والأنسب لهذه الحالة أن يشدد عليهم فيعلق إيمانهم على تحقق هذه الأمور الثلاثة، وفي التشديد حسم للخلاف وتحذير من المعاودة إليه، وإشارة إلى ضرورة أن يعتصم المؤمنون بإيمانهم فيحققوا تقوى الله والإصلاح فيما بينهم وطاعة الله ورسوله في كل آنٍ طالما ارتبط الإيمان بهذه الثلاثة.

٢- قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [سورة الأنفال: ٩].

سبب النزول:

ثبت في صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن عدد المشركين يوم بدر ألف، وعدد المسلمين ثلاثمائة وسبعة عشر رجلًا، وأن النبي ﷺ لما رأى ذلك استقبل القبلة ثم مد يديه (إلى السماء) فجعل يهتف بربه (مستغيثًا): **«اللهم، أنجز لي ما وعدتني. اللهم، إن تهلك هذه العصبة المؤمنة، فلا تعبد في**

---

(١) فتح القدير ١٠٨١ .

(٢) ينظر إرشاد العقل السليم ٢/ ٢٢٦ .

الأرض أبدًا» وأنزل الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ الآية(١).

بين النظم وسبب النزول:

مما يلفت النظر ابتداءً أن الثابت في هذه الرواية أن رسول الله ﷺ كان يستغيث وحده ويدعو وحده لكن صياغة الآية جاءت بإسناد الاستغاثة للجمع: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ مع أنه قد سبق في صدر السورة قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ وقوله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ﴾ فلماذا لم يقل: إذ تستغيث ربك؟

يفسر هذا أمران:

الأول: أن رسول الله ﷺ كان يستغيث بلسان المقال ومن سمعه من الصحابة يستغيثون بلسان الحال؛ لأنهم استشعروا جميعًا حال الضعف عندما استعظموا عدد المشركين وعدتهم، ولقد ثبت في صحيح مسلم أن عمر بن الخطاب روى عن الرسول ﷺ دعاءه؛ أي: أنه كان يسمع ويستغيث معه ولو بالتأمين، وكذلك كان أبو بكر الذي روى الإمام أحمد في مسنده أن رسول الله ﷺ ما زال يستغيث ربه عز وجل ويدعوه حتى سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر رضي الله عنه فأخذ رداءه فرده ثم التزمه من ورائه ثم قال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك.

الثاني: أن قبل تلك الآية قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾... الآية. فقد جاء الإسناد للجمع هنا ثلاث مرات، فمن حسن النظم واتساق الأسلوب أن يأتي بعده الإسناد للجمع فى قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾.

خصوصيات النظم ونكاته:

١- بداية الآية بالظرف (إذ) يدل على أن تلك الاستغاثة يتعلق وقتها بفعل آخر أو حال أخرى فما هي؟ تعددت الأقوال في هذا على النحو الذي ذكره الشوكاني نقلاً عن أبي السعود، يقول: «الظرف متعلق بمحذوف؛ أي: اذكروا وقت استغاثتكم. وقيل: بدل من (وإذ يعدكم الله...) معمول لعامله، وقيل: متعلق بقوله: (يحق الحق)»(٢).

(١) ينظر الصحيح المسند من أسباب النزول ١١٢ .

(٢) فتح القدير ٨١٣/١ عن إرشاد العقل السليم ٢٢٩/٢ .

فتعدد هذه الأقوال يعكس اختلاف الوجهات في موقع هذا الظرف وبأي معنى يتعلق، وإنما ينبغي أن ترتبط مواقع الكلمات في النظم على أساس قابلية المعنى وحاجة الغرض، وعلى هذا الأساس نستبعد أن يكون قوله: (إذ تستغيثون) بدلاً من (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم. . .) وذلك لأن الوعد كان في مرحلة التمهيد حين وعد الله المسلمين بإحدى الطائفتين (العير أو النفير)، وكون المسلمين يودون العير فقط (وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم) - دليل على أن هذا حكاية ما كان، والرؤية لم تكن تحددت بعد، وقرار المعركة لم يكن قد حسم فيما بينهم، لكن قوله: (إذ تستغيثون) كان بعد أخذ القرار وعندما رأى رسول الله ﷺ قلة عدد المسلمين وعُدَدِهِم بالقياس للمشركين، فكيف يقال: إن قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ بدل من قوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾؛ أي: أن اختلاف الظرفين وتفاوت الحدثين يمنع أن يكون الثاني منهما بدلاً من الأول؛ لأن البدل هو عين المبدل منه، وإنما أراد الله سبحانه أن يذكرهم بنعمته وفضله فالمناسب لهذا تقدير الفعل (اذكروا)؛ أي: اذكروا وقت استغاثتكم وضعفكم.

وإنما قصدت من هذا أنه ليس لنا أن نعدد أوجهًا نحوية لمجرد قابليتها حسب الصناعة الإعرابية، وإنما ينبغي أن تقتصر على الوجه النحوي والإعرابي الذي يقتضيه المعنى ويحدده الغرض؛ أي: أن ارتباط المواقع في النظم يتحدد على أساس قابلية المعنى وحاجة الغرض، وهذا لا يعني التهوين من الوجوه النحوية المتعددة التي يذكرها المفسرون للكلمة الواحدة، فقد تكون جميع هذه الوجوه صحيحة ونابعة من تعدد الاحتمالات المعنوية لهذه الكلمة، وعندما يقع هذا يكون دليلًا على ثراء المعنى القرآني وغزارة الدلالة نتيجة الوجوه المحتملة للكلمة الواحدة.

٢- لم يقل: (إذ تستغيثوني فاستجبت لكم) بالتكلم، وإنما قال: (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم. . .) ليجري في نسق واحد مع النظم السابق (وإذ يعدكم الله) مع ما في ذلك من التذكير بربهم الذي نصرهم وهم قلة مستضعفة فيستحيون من الخلاف حول الغنائم، ولقد نزلت هذه الآيات بعد بدر وفي أثناء الخلاف حول الأنفال، على ما في ذكر لفظ الجلالة الله في (وإذ يعدكم الله) من تربية المهابة، كل هذه التداعيات تلحظ من قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾، ولا تلحظ من (إذ تستغيثوني).

ثم إن قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم﴾ يؤدي إلى توافق نهايات تلك الجمل الثلاث القصيرة، ولا شك أن هذا التوافق الصوتي المتتابع في هذه المساحة القصيرة يحقق نوعًا من التوازن النفسي عند كل مستمع، مما يخلع على النفس المؤمنة شعورًا بالطمأنينة والرضا والسكينة والثقة، كما أن هذا التوافق الصوتي يشعر بتوافق صعود الهتاف والاستغاثة مع نزول الرحمات، وكأن هتافًا يصعد ورحمات تنزل، وهذا ما يشير إليه التعقيب بالفاء في قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾. وفي التعقيب تعجيل بالبشرى لتهدئة الخواطر المهتاجة (وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به).

وفي هذا درس لنا عند الشدائد، فإن الأخذ بالأسباب الممكنة مهما قلت، ثم التوجه إلى الله في تضرع وتذلل واستشعار الضعف مع يقين في الله - يؤدي إلى استنزال رحمات الله ونصره.

٣- من يتصنَّت لحركة الإيقاع في الآية يستشعر حركة الأحداث فدعوات تتصاعد ورحمات تتنزل مع نزول الملائكة جماعات يردف بعضها بعضًا، وهذا الفعل (مردفين) يصور هيئة نزول الملائكة، وأنهم لم ينزلوا دفعة واحدة، ولكنهم نزلوا متتابعين في جماعات يتبع بعضها بعضًا أو وراء كل ملك ملك كما يذكر ابن عباس، فالتعبير بالاسم في قوله: (مردفين) يدل على استمرار التتابع وعدم انقطاعه حتى يبدو الألف من الملائكة وكأنهم آلاف، وهذا الفهم يدفع ما ظاهره التعارض بين قوله في الأنفال: ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [سورة الأنفال: ٩] وقوله في آل عمران حول الغزوة نفسها: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[1] [سورة آل عمران: ١٢٤، ١٢٥].

---

(١) ذهب أبو السعود وغيره إلى التوفيق قائلين: «المقصود بالألف المذكورة في الأنفال الألف الذين كانوا على المقدمة أو هم وجوههم أو من قاتل منهم» ٢/٢٢٩ إرشاد العقل السليم، لكني أتمسك بما ذكرته من أن العدد هو الألف، ولكنه ضوعف في آل عمران بعد تكثيرهم بالإرداف المستمر وبحسب ما يظهر للمشركين . والله أعلم .

فلقد كانوا - كما ورد في الأنفال - ألفًا، لكنهم لكونهم (مردفين) يتبع بعضهم بعضًا في حركة (لعلها دائرية) مستمرة، فإن العدد يبدو في العين أضعاف الألف، ويؤيد هذا قراءة أخرى في الأنفال: (بالآف) ومن هنا نفهم ما ورد عن مجاهد وذكره الشوكاني قال: «ما أمد النبي ﷺ بأكثر من هذه الألف التي ذكر الله في الأنفال، وما ذكر الثلاثة آلاف والخمسة آلاف إلا بشرى»[1].

٤- ولما كان الوعد بشيء عزيز وهم في أشد الحاجة إليه لتوقف حياتهم عليه أكد ما وعد به لتطمئن القلوب وذلك في قوله: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ ومن وسائل الطمأنة تحول الحديث من الحكاية التي يعبر فيها عن رب العزة بالاسم أو ضمير الغائب في ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم﴾ إلى التكلم الذي يقترب فيه المتكلم من مخاطبه في ﴿أني ممدكم﴾ فلو أنه جرى على طريقة واحدة في الحديث لقال: فاستجاب لكم وأمدكم، لكنه عدل عن هذا إلى التكلم الذي يستشعرون فيه معية الله وقربه مع تأكيد الكلام لطمأنة القلوب وتهدئة النفوس.

٣- قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة الأنفال: ٦٧].

سبب النزول:

«عن ابن عمر رضي الله عنهما قال استشار رسول الله ﷺ في أسارى بدر أبا بكر فقال: قومك وعشيرتك فخل سبيلهم، فاستشار عمر، فقال: اقتلهم، قال (أي ابن عمر): ففداهم رسول الله ﷺ[2] فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ الآية.

موقع الآية:

تدور هذه الآية في إطار السياق الغالب على سورة الأنفال وهو الحديث عن غزوة بدر والملابسات التي أحاطت بها، بدأت السورة بالحديث عن الأنفال وما دار حولها من خلاف بين المسلمين، وهذه الآية تتجه باللوم لفداء أسارى بدر وإطلاق

---

(١) فتح القدير ١/ ٨١٤ .

(٢) وفي رواية ابن مسعود فقال ﷺ: «لا ينفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق».

سراحهم في مقابل أموال.

ويجمع بين البداية وبين هذه الآية التي تقع قرب النهاية ما فيهما من لوم للمسلمين بسبب الحرص على الدنيا، فإنه السبب في خلافهم حول الغنائم وهو السبب في تفريطهم في الأسرى مقابل فداء (تريدون عرض الدنيا)(١) وهذه هي أهم مفاتيح سورة الأنفال التي تدور حول أغراض منها التحذير من الدنيا ونجد هذا صراحة في آية ٢٨ ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

ومن لطائف النظم وخصوصياته:

١- لا خلاف أن تلك الآية عتاب من رب العزة بسبب فداء أسرى بدر وكان حريًا بالرسول ﷺ والمسلمين أن يثخنوا هؤلاء الأسرى، ويكاد يجمع المفسرون على أن الإثخان هو القتل المبالغ فيه أي: الذي لا هوادة فيه ولا رأفة؛ لأن هؤلاء الأسرى لو تمكنوا من المسلمين لقتلوهم ولكن الله مكن المسلمين منهم، ولو أن الرسول ﷺ أخذ برأي عمر لكان قتلهم جزاءً عادلاً ولأوقعت الرهبة في نفوس الأعداء لكن تركهم بالفدية وعودتهم لقومهم يزيد من عددهم، وربما عاد هؤلاء لقتال المسلمين ولعل كل هذا هو الذي دفع المفسرين إلى تفسير الإثخان في الأرض بالقتل إلى جانب جو الكلام لأنه عتاب ولوم، ولأن الله تعالى قال: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي الفداء والمال ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي يريدكم الآخرة، ثم إن الفاصلة ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ تدل على هذا لما في العزة من القوة والغلبة وما في (حكيم) من وضع الشيء في موضعه بعلم وحكمة، فنظم الآية وجوها يؤيد ما ذكر في سبب النزول ويتوافق معه، وعلى الرغم من كل هذا فإن معنى آخر يلوح من معنى الإثخان كما سيتبين في موضعه في رقم (٣).

٢- في قوله سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ﴾ تلطف في العتاب وهو بمعنى: ما صح وما جاز أو ما يصح وما يجوز، كما أنه لم يستفهم استفهامًا إنكاريًا توبيخيًا كما هي

---

(١) وأنا أكتب هذا الجزء من الآية وقبل أن يجف حبرها سمعت من إذاعة القرآن الكريم وأنا في مكة المكرمة قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ فهل هذه مصادفة؟ أعوذ بالله ممن يقول بذلك، ولك الحمد يا ربي على التوفيق.

العادة في اللوم عمومًا، لكن الله سبحانه ترفق برسوله في قوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ ومن التلطف والترفق أن ينكِّر ليعمم في قوله: ﴿لِنَبِيٍّ﴾ فلم يقل: ما كان للنبي حتى لا يخص محمدًا ﷺ بهذا، وإنما يشير التنكير إلى أن هذه سنة متبعة في كثير من الأنبياء وإلى هذا نبه أبو السعود.

ومن التلطف والترفق في العتاب قوله: ﴿أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ ومعناه: أن يكون في حوزته وتحت سيطرته فيتركهم، فترك التعبير بهذا إلى ما جاءت عليه الآية تخفيفًا في العتاب.

٣- الفعل (يثخن) من الإثخان وهو لا يدل دلالة مباشرة حقيقية على القتل؛ لأنه من أثخن في الأمر: بالغ فيه، وأثخنه الجرح: إذا أثقله وجعله بحيث لا حراك به، وأصله الثخانة التي هي الغلظ والكثافة، والإثخان: التمكن والقوة (مقاييس اللغة) فيكون استعمال قوله: - ﴿يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بمعنى يقتل استعمالاً مجازيًا بعلاقة السببية لأن الإثخان: التمكن والقوة والرهبة يستلزمان القتل.

وعلى هذا فإن ما جرى عليه الكثيرون من تفسير الإثخان بمعنى القتل مبني على التجوز في الفعل (يثخن)، ولا أجدني أميل إلى هذا، ولا يبدو أن المراد هو القتل، والأصل في الكلام الحقيقة، ولا يُعدل عنها إلى التجوز إلا بقرينة ودليل، وليس سياق العتاب واللوم دليلاً على هذا التجوز ولا دليلاً على أن المراد بالإثخان هو القتل، بل لا يدل عليه قوله: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾، لأن هذا اللوم على مجرد اختيار الفداء والمال، ولا يستلزم هذا أن يكون البديل الذي تركوه هو القتل، وعلى فرض أن القتل هو المراد، وقلنا: إن معنى الآية: ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يقتل في الأرض، فما معنى يقتل في الأرض؟ ثم إن الله سبحانه قال في سورة (محمد): ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ فإن الإثخان هنا بمعنى أوسعتموهم ضربًا وجراحًا بدليل ترتيب شد الوثاق عليه بالفاء، وهذا يجعل القتل مستبعدًا إذ كيف يشد وثاق المقتول؟ وهذا نستأنس به في تحديد معنى الإثخان في قوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فمعناه المبالغة في الجراح حتى يتمكن المسلمون من كسر شوكتهم وإذلالهم، وهذا فحوى كلام أبي السعود.

وعلى هذا فإني أميل إلى أن المقصود بالإثخان هو النيل من هؤلاء الأسرى وإذلالهم نفسيًا بضربهم وتحميلهم من الأعمال ما يهد قوتهم ويكسر شوكتهم ويقعدهم فلا يصلحون بعد ذلك لقتال أبدًا، وكل هذه المعاني أقرب إلى الإثخان الحقيقي بمعنى الغلظ والكثافة والمبالغة في الشيء وأثخنه الجرح إذا أثقله وجعله لا حراك به، وهب أن الإثخان كالألفاظ المشتركة يستعمل في القتل وفي المبالغة بالجراح والتنكيل والإذلال، فإن كل ما عدا القتل محتمل لما سبق، ويفصل في هذا أن من بين هؤلاء الأسرى من أسلم بعد ذلك كالعباس بن عبد المطلب، فالعتاب إذن يتبلور في التنبيه إلى الدرس المفاد وهو ألا تكون الدنيا هي أكبر هم المسلمين، وأن يكون حرصهم على تمكين هذا الدين أكثر من حرصهم على المال، ويدل على هذا أنه لما مكن الله لهم دينهم قال في موضع آخر: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ الآية ٤ من سورة محمد.

٣- بدأ الكلام عن النبى مفردًا - (ما كان لنبى) - حتى إذا انتقل إلى الكشف عن سبب قبول الفداء وهو الرغبة في عرض الدنيا أسنده إلى الجماعة (تريدون عرض الدنيا)، وهذا من الترفق في عتاب رسول الله ﷺ إذ أدخله في ضمن الجماعة تخفيفًا للوم، وربما أريد بالخطاب من مال من المسلمين إلى قبول الفداء وصادف في نفوسهم ارتياحًا، وأما رسول الله ﷺ فلقد كان أزهد الناس في الدنيا.



سورة التوبة

١- قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [سورة التوبة: ٣٨].

نزلت هذه الآية وما بعدها في غزوة تبوك في العام التاسع أو العاشر للهجرة، وذلك أن رسول الله ﷺ بلغه أن هرقل ملك الروم يستنفر قومه وأهل الشام لقتال المسلمين، ولم يكن من الممكن أن ينتظر رسول الله ﷺ حتى يفاجئه هرقل وجنوده، بل أمر بالجهاد لدفع الروم، وكان ذلك في زمن عسرة وجدب وحر حتى سميت هذه الغزوة بالعسرة، أما المخلصون فقد استجابوا لدعوة رسول الله ﷺ، وأما غيرهم فقد استثقلوا الغزو لبعد المسافة وشدة الحر والقحط وهيبة العدو، ولأن ثمار المدينة قد لاحت تباشير نضجها، وقد آثر ضعاف النفوس انتظار قطف الثمار[١].

لكن كل هذا لم يمنع المخلصين من الخروج مع رسول الله ﷺ مع قسوة الظروف وقلة الزاد، حتى لم يجدوا معهم غير التمر المدوّد والشعير المسوّس، وقد تبرع أبو بكر بماله كله وعمر بنصف ماله وتبرع عثمان بمال كثير، وتسابقت النساء في التبرع بما يملكن من حلي، وهذه الآية فيها عتاب ولوم وتوبيخ للمتثاقلين، وحث على الجهاد عمومًا.

من خصوصيات النظم:

١- نادى الله سبحانه الذين آمنوا وخاطبهم جميعًا مع أن الذين تثاقلوا كانوا قلة[٢] وذلك تجنبًا للفضح والتشهير فيما لو خص هؤلاء المتثاقلين بالذكر؛ لأن من

(١) ينظر أسباب النزول للنيسابوري ١٧٠، والتفسير الكبير ١٦/٥٩ .

(٢) على سبيل المجاز المرسل بعلاقة الكلية؛ حيث يطلق الكل ويراد الجزء أو البعض لسر =

منهج الأسلوب القرآني توصيل الغرض مع تجنب التشهير، لهذا فقد يخاطب الجميع والمراد التعريض ببعضهم، ولأن الخطاب القرآني يمتد عبر الزمان والمكان، والغالب فيما جد من الزمان التثاقل.

٢- توالي الاستفهام الإنكاري التوبيخي وتعاقبه يدل على أن هؤلاء المتثاقلين قد ارتكبوا إثمًا عظيمًا وجرمًا كبيرًا، وهل هناك أعظم جرمًا من القعود عن الجهاد ودفع الخطر عن هذا الدين، كما يشير تعاقب الإنكار على غضب العزيز المنتقم من هؤلاء المتخاذلين وتحذير شديد من مسلكهم، ويؤيد هذا قراءة (أثاقلتم) بفتح الهمزة على الاستفهام، وهي قراءة ذكرها أبو السعود ووجهها على الاستفهام الإنكاري التوبيخي[1].

فهذه القراءة تدعم قصد شيوع التوبيخ وتواليه مرة بعد مرة:

الأولى: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ووقوع الاستفهام الإنكاري على الجار والمجرور (لكم) يشير إلى أن جزعًا وفزعًا يستبد بهم إذا قيل لهم: انفروا، فالمعنى أي جزع وفزع يصيبكم إذا دعيتم للجهاد أو ماذا يحدث لكم من فزع وهلع ووراء هذا وصفهم بالجبن والنفاق؛ لأن المؤمنين الصادقين يسارعون طمعًا فيما عند الله ولا يتخاذلون.

الثانية: ﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ على قراءة فتح الهمزة يعنى أتقاعستم وتباطأتم والتصقتم بالأرض؟ أكان هناك شيء يجذبكم إليها ويمنعكم من التحرك سوى جبن وحرص؟

الثالثة: ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ ومع الإنكار تقرير بهذه الحقيقة، فتوالي هذه الاستفهامات يعكس شناعة القعود والتخاذل، كما يعكس غضبًا شديدًا عليهم ويترتب على الغضب انتقام يبدو في ذلك التحذير العظيم عقب ذلك في قوله سبحانه: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾.

= ما لعله تجنب التخصيص لما فيه تشهير، ولا يخلو التعبير بالكل من تحريض حتى تأخذ الجماعة موقفًا من هؤلاء المارقين حتى لا يكونوا سببًا في غرق الجماعة كلها .

(١) إرشاد العقل السليم ٢/ ٢٦٩ .

٢- قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [سورة التوبة: ٤٧].

سبب النزول:

ورد في سبب النزول أنه لما حزن رسول الله ﷺ لاعتذار المنافقين وقعودهم عن الخروج إلى تبوك، وكان على رأسهم عبد الله بن أبي نزلت هذه الآية تسرية لرسول الله ﷺ.

موقع الآية:

جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى يكشف ضعف الدافع النفسي عند المنافقين، فكره الله خروجهم فثبطهم ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [سورة التوبة: ٤٦].

فلو خرج هؤلاء المتثاقلون لكانوا عالة وعبئًا على الصف المسلم، وكان ضررهم أكبر من نفعهم وبهذا يصل المعنى في الآية السابقة بالمعنى في الآية اللاحقة التي تسري عن رسول الله ﷺ والمسلمين حزنهم لقعود هؤلاء، وفيها يفضح دواخل هؤلاء المنافقين، ويذكر صفاتهم الرديئة[1] التي تجعل الرسول والمسلمين يرتاحون ويفرحون لعدم خروجهم.

ومن خصوصيات النظم:

يستقصي نظم الآية والآيات التي بعدها صفات المنافقين، ويمكن الوقوف على أسرار النظم في أثناء تتبع تلك الصفات الرديئة التي فضحها القرآن، ومنها:

١- أنهم لا يريدون للمجاهدين الذين خرجوا في سبيل الله نصرًا، ولا يريدون لهم استقامة، وإنما يريدون لهم الخبال والاضطراب؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ والخبل في الأصل: داء في العقل يؤدي إلى الاضطراب وعدم القدرة على التفكير، والمعنى أنهم يسعون للإفساد الذي يؤدي للاضطراب، وقد صاغ المعنى بأسلوب القصر الذي يجزم بهذه الحقيقة.

٢- أنهم يلجأون لتحقيق غايتهم من الفتنة والإفساد إلى الوشاية والإيقاع بين

هذه الغزوة بالفاضحة .

المسلمين ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾.

ومعنى (أوضعوا خلالكم): ساروا فيما بينكم بالوقيعة سيرًا حثيثًا لا هوادة فيه، والغاية هي (يبغونكم الفتنة)؛ أي: يبغون ويطلبون لكم الفتنة، ولكن النظم جاء على نحو خاص؛ إذ تعدى الفعل فيها إلى مفعولين، أولهما: المسلمون، وثانيهما: الفتنة، وأدى هذا إلى المجاز العقلي في النسبة الإيقاعية، وكان الأصل أن يقال: يبغون الفتنة فيكم، لكنه قال (يبغونكم الفتنة) أي: يريدونكم أنتم أن تكونوا الفتنة نفسها، فهم لا يهدفون إلى إيقاع الفتنة فيكم، وإنما يريدون أن تكونوا أنتم نفس الفتنة حتى لا يهدأ لها أوار ولا ينطفئ لها نار، وهذا كناية عن الرغبة في تدمير المسلمين، ووراءه حقد أعمى.

٣- أنهم يتخذون لتحقيق مآربهم الدنيئة جواسيس زرعوهم بين المسلمين دون أن يشعر بهم المسلمون (وفيكم سماعون لهم)، وكان المنافقون حريصين على إخفاء هذا الأمر ففضحه القرآن الذي نزل من لدن عليم خبير، ولذا جاءت فاصلة الآية (والله عليم بالظالمين).

وقد عبر عن الجواسيس بأخص صفة فيهم (سماعون) وبصيغة المبالغة الدالة على أن هؤلاء الجواسيس كانوا مكلفين بالإصغاء لكل همس وجهر لتوصيله إلى أوليائهم لاستغلال أي مطعن، ويحتمل اللفظ معنى آخر قال به قتادة وهو: «فيكم من يسمع كلامهم ويقبل قولهم، فإذا ألقوا إليهم أنواعًا من الكلمات الموجبة لضعف القلب قبلوها، وفتروا بسببها عن القيام بالجهاد كما ينبغي» وهذا غير ممتنع فيمن قرب عهده بالإسلام أو كان من طبعه الجبن وضعف القلب كما ذكر الرازي[1].

ويبدو أن النوعين كانا موجودين في الصف المسلم، وقصد الإشارة إلى هذا بحرف الجر (في) من قوله: (وفيكم سماعون لهم) فإن ذلك التنوع لا يفاد لو قيل: «ومنكم سماعون لهم»، لأن التعدية بمن تحدد نوعًا واحدًا وهم ضعاف القلوب من المسلمين، والذين يتأثرون بإشاعات المنافقين، لكن التعبير بفي يتناول النوعين: الأول هو المدسوس بين المسلمين من المنافقين، والثاني: ضعاف القلوب من المسلمين والذين يتأثرون للإشاعات ويسمعون لها فيضعفون.

(١) التفسير الكبير ١٦/ ٨٢ .

٤- الحقد والكراهية للرسول والمسلمين: وترى من مظاهر هذا في قوله تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ والمقصود بالحسنة هنا كل ما يعود على الرسول والمسلمين بخير من ظفر ونصر وغنيمة، ونقل عن ابن عباس أنه قال: الحسنة يوم بدر والمصيبة في يوم أحد، والأولى هو الأخذ بما في التعبير من تعميم ليتناول أي حسنة أو مصيبة.

وإنما عبر بالإصابة مع الحسنة والمصيبة معًا مع أن الإصابة تكون فيما يسوء ويحزن؛ وذلك لإشاعة ما يسوء في دواخلهم من مشاعر سيئة وكراهية، فهم لا يرجون للمسلمين إلا كل شر ومصيبة، وربما كان التعبير بالإصابة سخرية بهم باستعمال اللفظ الذي يوافق هواهم وإن دل السياق على استعماله فيما يعاكس هواهم ويخيب ظنهم، وكثيرًا ما يعبر القرآن عن المعنى بلفظ غيره لوقوعه في صحبته على سبيل المشاكلة الدالة على مغزى مقصود كما تبين.

وقولهم كما حكى القرآن عنهم ﴿أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ تعبير يعكس الابتهاج بما يتوهمون من حجة الرأي وسلامة الموقف وصواب الحذر الذي أخذوا أنفسهم به عند القعود والتخلف والجهاد[(١)].

ولا نجد أقوى في الرد من قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾. وذلك لأن موقف المنافقين نابع من فقر في الإيمان بالله، وذلك القول التلقيني لا ينبع إلا عن إيمان ويقين، لأن المؤمن يسلم بقضاء الله ويرضى بكل ما قدر الله، ولا يدري أين يكون الخير ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ويقول ﷺ: **«من علم سر الله في القدر هانت عليه المصائب»**[(٢)].

﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ يعكس التسليم المطلق والرضا بكل ما يقدر الله والثقة بأنه لا يقدر إلا الخير وإن كان ظاهره غير ذلك.

---

(١) مفاد من التحرير والتنوير لابن عاشور ١٠/٢٨ .

(٢) التفسير الكبير ١٦/٨٧ .

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: يفيد الحصر، وهو كما يذكر الرازي كالتنبيه على أن حال المنافقين بالضد، وأنهم لا يتوكلون إلا على الأسباب الدنيوية واللذات العاجلة الفانية(١).

٥- الشح وعدم الإخلاص، وهذه من ثمرات النفاق حتى انهم إذا اضطروا للإنفاق - وهم حريصون على الإمعان في التخفي - أنفقوا كارهين؛ لأن النفقة لا تهون إلا بعد يقين وإيمان صادق، فقال لهم الله سبحانه: هب أن هذه النفقة عن طواعية منكم فإنها كذلك غير مقبولة، فيستوي في هذا أن تكون النفقة عن طواعية أو كراهية (قل أنفقوا طوعًا(٢) أو كرهًا لن يتقبل منكم إنكم كنتم قومًا فاسقين) والجملة الأخيرة تعليل لعدم القبول، ولا تكرار في هذا مع الآية التالية (وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله. . . .) لأن قوله: (إنكم كنتم قومًا فاسقين) خطاب غاضب يذكر للمنافقين أن فسقهم سبب في عدم القبول لما ينفقون، أما الآية التالية فخطاب للرسول وللمؤمنين لبيان السبب الأساسي وهو الكفر بالله وبرسوله فهذا من الترقي في التعليل، وإشارة إلى أن أي عمل صالح لا يقبل إلا على أساس من إيمان، فما بالك إذا انتفى الإيمان ولم يكن العمل صالحًا، لأنهم أنفقوا ما أنفقوا وهم كارهون.

إن غضب الله عليهم هو السبب في ذلك الترقي وفي تعديد وسائل الإبانة عن الرفض وعدم القبول، فهو رفض حاسم لا رجعة فيه ولا أمل فيمن طبع على قلوبهم.

أما قوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ فيدخل في هذا الإطار، وهو من مستتبعات الكفر والفسق والنفاق، وقد حسن التعبير بأسلوب القصر الذي يعني أن الإيمان لم يتسرب لحظة إلى قلوبهم حتى لا تجد صلاة واحدة من صلاتهم عن نشاط، ولا تجد نفقة واحدة من إنفاقهم عن طواعية نفس، فهذا دليل على صحة الحكم عليهم بالكفر، وأن مخالطتهم المسلمين

(١) راجع التفسير الكبير ١٥/٨٦ .

(٢) هذا الأمر ليس على حقيقته ولكنه للتسوية بين الإنفاق طوعًا والانفاق كرهًا في عدم القبول .

وحضورهم مجالس رسول الله ﷺ لم يحرك فيهم ساكنًا، فلا تكرار إذن ولكنه برهان، ولا شك أنه يحمل في طياته تحذيرًا للمؤمنين من أن يكون فيهم صفة من صفات النفاق.

٦- الجبن والحلف الكاذب:

أما الجبن فهو الدافع أساسًا إلى النفاق خوفًا من استعداء المؤمنين فيما لو أعلنوا كفرهم، وأما الحلف الكاذب فهو من لوازم النفاق حتى يؤكدوا صدقهم في ادعائهم الإيمان، قال سبحانه: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ أي يخافون. وفي هذا كناية عن كذب أيمانهم وتنبيه المؤمنين إلى عدم الانخداع بذلك الحلف التي يدفعهم إليها خوف وجبن، ولم يحدد مفعول الفعل يفرقون للإشارة إلى أن الجبن طبيعة نفسية، ثم إنهم يخافون من أي شيء، فهم يخافون من انكشاف أمرهم، ويخافون من خروجهم للجهاد كما يدل السياق العام الذي يتحدث عن غزوة تبوك واعتذار المنافقين عن الخروج.

- وفي قوله تعالى: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ صورة مجسدة للرعب الذي يعيشون فيه، وهي صورة لافتة مثيرة للخيال إذ يجعلهم من شدة الخوف كاللصوص أو كالثعالب التي تشعر بالخطر فتهرول إلى أي مكان تنحشر فيه مهما كان ضيقًا بحثًا عن الأمان، وهذا ما تصوره الآية السابقة.

فالملجأ هو المكان الذي يُتحصن فيه اضطرارًا، كما تدل مجموع الاستعمالات لمادة هذه الكلمة، والمغارات جمع مغارة وهو الموضع الذي يغور الخائف فيه ليستتر، وهو الكهف في الجبل، يقول أبو السعود: «ويجوز أن يكون من أغار الثعلب إذا أسرع فارًا أو هاربًا»[١].

فيكون على تشبيههم بالثعالب التي تسرع هاربة من الخطر، أما المدخل فهو السرب تحت الأرض، ولذلك قال الكلبي وابن زيد: هو نفق كنفق اليربوع، ويقول البقاعي: (مدخلًا) أي مكانًا يدخلونه بغاية العسر والصعوبة لضيقه أو لمانع في

---

(١) إرشاد العقل السليم ٢/ ٢٧٧ .

طريقه كما يدل عليه التشديد)[١].

على أن جملة الفاصلة (وهم يجمحون) تشير إلى تحولهم لصورة من صور الدواب والحيوانات المذعورة الطائشة، فالجموح من صفات الدواب الهائجة الطائشة التي قد تندفع إلى المهلكة، يقول البقاعي: «حالهم كحال الدابة التي نكصت على عقبيها فاندفعت مسرعة لا يردها بئر تقع فيه ولا مهلكة ولا شيء»[٢].

٧- السخط والتعييب:

ونجد هذا في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [سورة التوبة: ٥٨ - ٥٩]

يلمزك من اللمز وهو التعييب سرًّا، وأصله أن يشير الرجل إلى صاحبه بعيب جليسه، والهمز أن يكسر عينه على جليسه إلى صاحبه فهو مثل اللمز إلا أن الهمز أخفي، فالمقصود بالفعل (يلمزك) يعيبك سرًّا إلى صاحبه ولكن سبب النزول يدل على أن اللمز كان جهرًا، عن أبى سعيد الخدرى قال: بينما رسول الله ﷺ يقسم قسمًا إذ جاءه عبد الله بن ذي الخويصرة التميمي قال: فقال: اعدل بيننا يا رسول الله، فقال ﷺ: «**ويلك من يعدل إذا لم أعدل؟**» فنزلت[٣] ﴿ومنهم من يلمزك في الصدقات﴾ الآية.

ولا يمنع هذا أن يكون في المنافقين من سولت له نفسه المريضة أن رسول الله ﷺ لا يعدل فهمس إلى صاحبه سرًّا بهذا، فيكون التعبير باللمز من أجله، ويكون ما ورد في سبب النزول ترجمة لما طفحت به نفوسهم إذ قال قائلهم: «اعدل فينا يا رسول الله» وإن كان المناسب لهذا قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾.

---

(١) نظم الدرر ٨/ ٢٠٥ .

(٢) نفسه، المرجع السابق .

(٣) راجع أسباب النزول للنيسابوري ١٧٢، والصحيح المسند ١٢١ .

وربما كان التعييب في (يلمزك) منصرفًا إلى أمور أخرى ولكنه صادف وقت توزيع الصدقات والتبس به ملابسة تعود إلى طباعهم الدنيئة؛ لأن رضاهم أو سخطهم مرتبط بالمنفعة الدنيوية العاجلة، ولعل مما يدعم هذا كلمة نقلها الرازي عن شيخه: «قال مولانا العلامة الداعي إلى الله: لفظ القرآن وهو قوله: (ومنهم من يلمزك في الصدقات) لا يدل على أن ذلك اللمز كان لهذا السبب، وقد استبعد الرازي كلام شيخه، لإطباق الروايات على أن اللمز كان بسبب تقسيم الصدقات، لكن يبقى لكلام شيخه وجه ما يدل السياق والنظم عليه، لعله نظر إلى تعدي اللمز إلى الرسول ﷺ بنفسه (يلمزك) ولم يتعد إلى فعله، فلم يقل مثلًا: ومنهم من يلمز تقسيمك الصدقات أو توزيعها، ويؤيده من السياق قوله تعالى بعده بقليل ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ فهذا من ضمن اللمز والتعييب، وكان يبلغ رسول الله فيتأذى منه، ثم إنه لا يمكن حمل حرف الجر (في) على ظاهره (في الصدقات)، ولهذا لجأ المفسرون إلى التقدير؛ أي: في تفريق أو تقسيم الصدقات، على أن المنافقين لا يكفون عن التعيب واللمز فيما بينهم، وإنما خص ذلك الوقت - وقت توزيع الصدقات - ليدمج فيه التعريض بسوء أخلاقهم وجشعهم، وأن رضاهم أو سخطهم مرتبط بمدى المنفعة العاجلة.

٨- خلف الوعد:

قال سبحانه: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [سورة التوبة: ٧٥ - ٧٦].

سبق وصف المنافقين بالبخل في قوله تعالى: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ [سورة التوبة: ٦٧]، وفي هذه الآيات يقدم نموذجًا يجسد الشح وخلف الوعد، وقد ذكروا في سبب نزولها أن ثعلبة بن حاطب الأنصارى سأل النبي ﷺ أن يرزقه مالاً، فقال له النبي: **«قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه»** (١) فراجعه ثعلبة قائلًا: لئن دعوت الله أن يرزقني مالاً لأوتين كل ذي حق حقه، فقال ﷺ: **«اللهم ارزق ثعلبة**

(١) شكره: يعنى زكاته، لا تطيقه: يعني لا تطيق إبتلاءه العظيم .

مالاً» فنمت غنمه كالدود حتى ضاقت بها المدينة فانتحى بها واديًا، ونمت نموًّا عظيمًا، فترك الصلاة إلا الظهر والعصر، ثم لم يعد يصلي غير الجمعة، وعلم رسول الله بخبره، فقال: «**يا ويح ثعلبه**»، وعندما نزل قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ بعث رسول الله ﷺ رجلين إليه لتحصيل حق الله في ماله، فماطل وسماها جزية، فنزلت فيه هذه الآيات، ولما شعر بالخطر حمل الصدقات وذهب إلى رسول الله ﷺ فامتنع قائلا: «**إن الله منعني أن أقبل صدقتك**» فظل يحثو التراب على رأسه، وقبض رسول الله فجاء إلى أبي بكر بالصدقات فامتنع عن قبولها، لأن رسول الله ﷺ لم يقبلها، وهكذا عمر وعثمان حتى مات ثعلبة على نفاقه، وصدق قوله سبحانه: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾[1].

ومن خصوصيات النظم هنا:

- الجمع في قوله سبحانه: ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الآية، يشير إلى أن هناك منافقين آخرين يدخلون في حكم ثعلبة، فلعل خبر ثعلبة هو المأثور الذي تيسر للمفسرين فاكتفوا به.

- يبدو أن المنافقين لم يكونوا على درجة واحدة أو نوع واحد، فمنهم من بدأ منافقًا وانتهى منافقًا محكومًا عليه بالكفر، ومنهم من بدأ مسلمًا ثم انحرف إلى النفاق والكفر، وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ ومثلهم من تتحدث عنهم تلك الآيات السابقة عندما (عاهدوا الله لئن ءاتنا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين) كانوا مسلمين ثم تحولوا للنفاق عندما سقطوا في الابتلاء: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾.

ويبدو أن هؤلاء هم الذين مثل لهم القرآن بصورة الذي استوقد نارًا في قوله سبحانه: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٧] فاستيقاد النار حتى تضيء تمثيل

(١) ينظر أسباب النزول للنيسابوري ١٧٥ .

لطلب الإسلام حتى سطع نوره حولهم لكنه لم ينفذ إليهم؛ لأنه وجد قلبًا معتمًا يكره النور فذهب الله بنورهم الذي استجلبوه وسعوا إليه، وتركهم في ظلمات لا يبصرون، بيد أن إسلام من أسلم من المنافقين كان مشوشًا كما يدل لفظ التمثيل لحالهم ﴿أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ فنور القرآن والإسلام أضاء حوله ولم يشع في نفسه، ومما نستأنس به ههنا أنه قال: ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فالوعد بأن يكونوا من الصالحين إن أتاهم الله من فضله يدل على أنهم كانوا يفتقرون إلى الصلاح ولم يصلوا مرتبة الصالحين بعد، فهذا يدل على أن إسلام من أسلم ابتداءً من المنافقين كان مشوشًا ومهزوزًا لم يصمد أمام أقل العواصف.

- كان رسول الله ﷺ يدرك بنور الله الذي أودعه في صدره أن ثعلبة لن يصمد لهذا الابتلاء، وسيكون فتنة له ووبالاً عليه فنصحه بقوله: «**قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه**» لكن ثعلبة لم يفطن لهذه النصيحة وأعمى الجشع بصيرته.

- قال سبحانه: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ بعد قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾ فأعاد الجار والمجرور «من فضله» وكان يمكن حذفه من الثاني لدلالة الأول عليه، ولكنه أعاده للإشارة إلى تحقيق المطلوب كما طلب دون نقصان، وللتأكيد على أن كل عطاء إنما هو من فضل الله، وأن الطالب كان يدرك هذا في البداية عندما جرت على لسانه ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾ فلما سقط في الفتنة نسي ذلك فبخل بالزكاة وسماها جزية.

- تأكيد الوعد وتوثيق العهد من جانب الطالب ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(١) يزيد من إثم الخلف وذنب المخلف ويزيد من الغضب عليه، لأنه كالمستهزئ المستخف، ولهذا رفضت صدقته بعد أن منعها رفضًا أبديًا، لأن الله سبحانه حكم عليه بالنفاق، وإذا لم يحفظ عهده مع الله فمع من يحفظ عهده؟! لهذا لم تعط له فرصة ثانية، على أن من فوائد إعادة ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ أن يعود

(١) التوكيد ههنا بالنون المشددة في الفعلين، وبالقسم الذي تدل اللام عليه.

الضمير في (بخلوا به) إليه، وفي ذلك ما فيه من التعريض بغبائهم حين بخلوا بما منحهم الله من فضله.

٩- قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة التوبة: ٧٩].

سبب النزول:

عن ابن مسعود قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا: مراءاة - أو رياء - وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا: إن الله لغني عن صاع هذا، فنزلت الآية ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ الآية... رواه البخاري(١).

موقع الآية:

سبق هذه الآية قوله سبحانه منكرًا على من عاهدوا ثم بخلوا: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ وهذه الآية ربما أدت إلى الاستشراف والتساؤل عن هؤلاء الذين تجاهلوا علم الله بسرهم ونجواهم، فجاءت الآية التالية (الذين يلمزون...) استئنافًا بيانيًا بمنزلة الجواب علي ما تثيره السابقة عليها من سؤال، ويؤيد هذا الارتباط أن اللمز هو التعييب سرًّا (الذين يلمزون) والسابقة تنكر عليهم تجاهلهم علم الله بسرهم ونجواهم، فهؤلاء شأنهم التخفي وهم يطعنون ويلمزون.

ومن خصوصيات النظم:

- النص على «المطوعين من المؤمنين في الصدقات» تنبيه على فداحة ذنب هؤلاء المنافقين، لأن كون الصدقات تطوعًا يشير إلى خروجها عن رغبة وطيب خاطر، والنص على نوع المطوعين بقوله: «من المؤمنين» بيان يشير إلى أنه كان هناك متطوعون من المنافقين ولم يتجه اللمز إليهم حتى لا يلمزون أنفسهم، وفيه تعريض بحقد المنافقين الدافع إلى اللمز، لأن كون هؤلاء المطوعين من المؤمنين

---

(١) الصحيح المسند ١٢٣، وأسباب النزول للنيسابوري ١٧٦ .

يدل على صدق الدافع وأنهم تصدقوا إخلاصًا لا رياء كما زعم المنافقون، فلا يكون لمزهم وزعمهم إلا حقدًا.

- اللمز يتناول فريقين: الذين تطوعوا بالكثير والذين تطوعوا بالقليل، وهذا ما يفهم من سبب النزول، ودل عليه النظم القرآني في قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾(١) أما السخرية والاستهزاء فكانت خاصة بمن تصدق بالقليل كصاع من تمر حيث قال هؤلاء المنافقون لمن تصدقوا به: إن الله غني عن صاعه، ويؤيده أن المفسرين يعقبون على قوله تعالى: (فيسخرون منهم) بقولهم: والمراد بهم الفريق الأخير(٢) وهذا من النظم الذي يبدو إعجازه ظاهرًا لنا حيث جعل الذين لا يجدون إلا جهدهم وسطًا بين فعلين يقعان عليه: أولهما (يلمزون) والثاني (يسخرون).

وبهذا يتبين أن الذين تصدقوا بالكثير كان نصيبهم اللمز، أما الذين لا يجدون إلا جهدهم فتصدقوا بالقليل فقد كان نصيبهم اللمز والسخرية معًا، وقد رد القرآن على السخرية جبرًا لخواطر هؤلاء الفقراء، فقال سبحانه: ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾.

- إنما كان الرد على السخرية بمثلها (سخر الله منهم) مع أن ظاهر اللفظ مستحيل بالنسبة لله سبحانه، للإشارة إلى أن الجزاء من جنس العمل، وأن سخريتهم تنقلب عليهم فيكون هؤلاء المنافقون عبرة الخلق جميعًا في الدنيا، وأما في الآخرة، فلهم عذاب أليم.

١٠- قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ [سورة التوبة: ٩١ - ٩٢]

(١) الجهد بضم الجيم: الطاقة، وبفتحها: المشقة، وظاهر اللفظ القرآني يدل على أن المقصود به الذين لا يملكون شيئًا وتصدقوا بمجهودهم البدني في حمل شيء أو توصيل شيء أو السعي من أجل شيء ما.

(٢) إرشاد العقل السليم ٢/ ٢٨٥.

سبب النزول:

نزلت الآية الثانية في البكائين معقل بن يسار وصخر بن خنيس وعبد الله بن كعب الأنصاري وسالم بن عمير، أتوا رسول الله ﷺ فقالوا يا رسول الله: إن الله عز وجل قد ندبنا للخروج معك فاحملنا على الخفاف المرقوعة والنعال المخصوفة نغزو معك فقال: «**لا أجد ما أحملكم عليه**»، فتولوا وهم يبكون(١).

وهذه الآية مرتبطة بما قبلها بالعطف، فهي داخلة في حكم سابق هو رفع الحرج والإثم عمن تخلفوا في غزوة تبوك لعذر ما كضعف الشيخوخة ومرض وفقر... إلخ.

ومن خصوصيات النظم:

- تأخر اسم ليس «حرج» وتقدم الخبر في قوله ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾ فلم يقل: لا حرج على كذا أو كذا، كما قال في آية أخرى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾ إلخ الآية، وذلك للمبادرة إلى ذكر السبب في رفع الحرج كالضعف والمرض.... إلخ، على أن في التقديم تحديدًا لأصحاب الأعذار حتى لا تكون مجالاً للأهواء، فهي مقيدة بالأصناف المذكورة وبشرط ﴿إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، ثم إن تأخر المنفي يقرب منه المعطوف عليه في قوله ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ لأن المقصود كذلك نفي الحرج.

- إعادة حرف النفي مع كل صنف من أصحاب الأعذار في الآية الأولى للتأكيد على تساويهم في العذر المانع من خروجهم، وأنهم سواء في رفع الحرج عنهم؛ إذ يستوي الشيخ الضعيف مع الشاب المريض أو العاجز، ثم إن إعادة حرف النفي مشعر بفضل الله ورحمته بهؤلاء واحد بعد آخر.

- التعبير في جانب الصنف الثالث بقوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ ولم يقل: «ولا على الذين لا يملكون ما ينفقون» إشارة إلى أنهم لم يتعللوا بعدم الامتلاك، وإنما يجتهدون في البحث عن نفقة وزاد للخروج فلا

(١) ١٧٨ أسباب النزول للنيسابوري .

يجدون، فالتعبير بقوله (لا يجدون...) يشير إلى صدق الدافع ويبرئهم من المسئولية تمامًا، كما يشير إلى أن المسلم إذا لم يكن يملك فعليه أن يبحث فإن لم يجد انتفى عنه الحرج.

- ولأن الجهاد فريضة واجبة تشدد فيها التشريع لأنها سبيل تأمين الدعوة وحماية العقيدة والأنفس والأعراض، لهذا جعل لكل فرد من أفراد الأمة دورًا يقوم به في حدود إمكاناته، فمن لم يخرج للجهاد لسبب من الأسباب المشروعة فإنه لا يعفى تمامًا، وإنما يكون له دور ما يتناسب مع قدرته واستعداده كتأمين الداخل والقيام بواجب النصيحة المخلصة لغيره بالجهاد والاستعداد والخروج وعدم التقصير، لهذا شُرِط لرفع الحرج عنهم أن يقوموا بهذا الدور، لقوله سبحانه: ﴿إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وقد أطلق ما ينصحون به ليتناول كل ما يمكن أن يدخل في باب النصيحة وبحسب الظروف، قد تكون النصيحة للقادرين المتكاسلين أو القادرين الجبناء، وقد تكون النصيحة بسرعة الإعداد واكتمال الاستعداد وقد تكون النصيحة بتوفر الباعث للجهاد في سبيل الله، لا شك أن هذا يجعل لهم دورًا في الشحن المعنوي، وهو دور لا يستهان به، ثم إنه يكون دليلًا على أن عجزهم أو ضعفهم أو مرضهم لم يطمس الرغبة في نفوسهم فترجموها في نصح غيرهم، والنصيحة إذا كانت صادقة لله ورسوله تكون مؤثرة مثمرة ﴿إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فحينئذ يكون لهم دور.

- ولما أريد التأكيد على أهمية دورهم، وبالتالي التأكيد على دفع اللوم عنهم ورفع الحرج قال: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ فهذا يشير إلى لفتة مهمة هي أن تبرئة ذمتهم ورفع الحرج واللوم عنهم لم يكن لمجرد عجز أو مرض أو شيخوخة، ولكن لأن هؤلاء أدوا دورهم في حدود إمكاناتهم، وهذا ما يوحي به التعبير بالمحسنين، فالمحسن هو الذي يحسن أداء ما يكلف به أو هو الذي ينفع نفعًا كما جاء في لسان العرب.

وهذا يلفتنا إلى منهج هذا الدين في توزيع الأدوار بحسب الطاقات، وأنه لا ينبغي أن يكون في الأمة عضو عاطل أو طاقة معطلة، فإن لكلٍّ دورًا ولو بالكلمة والنصيحة المخلصة، وهنا نصل إلى مرتبة الإحسان وحينئذ تنفض الأمة عنها غبار

التخلف والقعود فلا يكون أحد عالة على أحد، والمسلم الضعيف إذا أدى دوره على هذا النحو كان جديرًا بنفي أي لوم عنه مهما كان وهذا ما يشعر به الحرف (من) في قوله: (من سبيل).

- جاء في الفاصلة بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مع أن السياق سياق تبرئة الذمة ونفي الإثم ورفع اللوم وذلك إشارة إلى «أن الإنسان محل التقصير والعجز وإن اجتهد فلا يسعه إلا العفو»[1].

- عندما ذكر القرآن البكائين الذين أتوا رسول الله ﷺ يسألونه ما يحملهم عليه مهما كان ليخرجوا معه، لم يفرد لهم القرآن حديثًا خاصًا، وإنما ضمهم في إطار قضية عامة، ولذلك نجدهم معطوفين على غيرهم، ومشاركين لهم في الحكم الذي يقضي بنفي اللوم ورفع الحرج، وهذا هو منهج القرآن الذي لا يفرد للأحداث أو الأحكام ذكرًا خاصًا وإنما يضعها في سياق عام لتعميم الفائدة وتفادي الفجوات، فنحن لا نشعر شعورًا ما بأي فجوة أو اختلاف في قوله تعالى ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا﴾ وإنما نجد النظام والالتحام والاتساق، ومن مظاهر هذا صلاحية هذه الآية لأن تعطف على الجملة القريبة منها في نهاية الآية السابقة ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ وصلاحيتها للعطف على بداية الآية السابقة: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ ويرشح العطف على القريبة منها «الفرع» أن فيها نفي السبيل، وبعدها «إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء».

ويرشح العطف على بداية الآية السابقة (الجملة الأصل) تأخير نفي الحرج ليقترب منها فيكون عطف نفي على نفي، والمنفي فيهما واحد وهو الحرج والإثم، وعد إلى بداية قوله تعالى ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ حتى تصله ببداية الآية التالية: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ﴾ لتجد هذا العطف ظاهرًا.

ولا ينبغي أن نرجح أحد الاحتمالين، لأن الميزة في أن تظل الجملة ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ﴾ صالحة للعطف على إحدى الجملتين السابقتين بدون ترجيح

---

(١) نظم الدر للبقاعي ٨/ ٥٧٣ .

للإشعار بأن اللوم والحرج قد انتفي عن هؤلاء البكائين مرة بعد مرة، وبأكثر من لفظ، فعند العطف على قوله: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ يكون النفي لأي سبيل: سبيل عتاب أو لوم، وعند العطف على ما قبلها في بداية الآية ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ يكون النفي للحرج بمعني الإثم والذنب؛ أي: لا إثم عليهم ولا عتاب، فهذا أحوط في نفي أي شيء يمكن أن يتوجه إلى هؤلاء الذين بدا صدقهم وحزنهم لعدم توفر الدواب التي تحملهم أو حتى النعال والخفاف التي تحميهم من لهيب التراب كما يدل سبب النزول، وإن شئت فقل إن العطف على صدر الآية ينفي عنهم الإثم، والعطف على عجزها ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ ينفي اللوم ويثبت الإحسان والأجر.

- في الكلام المحكي عن رسول الله ﷺ في الرد على هؤلاء البكائين آثر قوله: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على قوله مثلاً: ليس عندي، لما في اللفظ القرآني «من تلطيف الكلام وتطييب قلوب السائلين ما لا يخفي» كما ذكر أبو السعود[1]، وذلك لأن الفعل (لا أجد) يدل على العناية بطلبهم والبحث لهم عما يحملهم عليه فلا يجد، كأنه يشاركهم حرصهم علي الخروج، ويتمنى أن يلبي طلبهم فلا يجد، فالسياق يدل على أن قوله: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ خبر مشبع بالأسى.

- في قوله سبحانه ﴿تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا﴾ يدل على حزن شديد كان مظهره ذلك البكاء المتصل، وقد عبر بما يدل على هذا بإسناد الفعل (تفيض)[2] إلى أعينهم إسنادًا مجازيًا[1]، لأن الحقيقة أن العين لا تفيض بذاتها، وإنما الذي يفيض هو ما فيها من دمع غزير، وفي هذا ما فيه من الدلالة على غزارة الدمع حتى كأن العين صارت كلها دمعًا يفيض، يقول البقاعي: «وإسناد الفيض إلى العين أبلغ من حيث إنها جعلت كلها دمعًا»[3].

---

(١) إرشاد العقل السليم ٢/ ٢٨٩ . (٢) تفيض: بمعنى تسيل .

(٣) وربما كان من المجاز المرسل بعلاقة المحلية حيث ذكر المحل وأراد ما يحل فيه من دموع والسر نفسه قائم وهو الأشعار بكثرة الدموع حتى تحولت العيون إلى الدموع .

وتفسير ما يفيض في قوله: (من الدمع) يؤكد النكتة المقصودة من إسناد فعل الفيض إلى العين.

١١- قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [سورة التوبة ١١٣ : ١١٤].

سبب النزول:

عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لما حضر أبا طالب الموت دخل عليه رسول الله، ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أمية، فقال: أي عم قل معي: لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله، فقال أبو جهل وابن أبى أمية: يا أبا طالب: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا يكلمانه حتي قال آخر شيء كلمهم به: على ملة عبد المطلب فقال ﷺ: «**لأستغفرن لك ما لم أنه**» الصحيح المسند ١٢٦.

وزادت رواية أخرى: «فاستغفر له بعد ما مات، فقال المسلمون: ما يمنعنا أن نستغفر لآبائنا ولذوى قراباتنا، وقد استغفر إبراهيم لأبيه وهذا محمد يستغفر لعمه، فاستغفروا للمشركين حتى نزل ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ﴾».

وفي رواية أخرى لابن مسعود أن الآية نزلت في استغفار محمد ﷺ لأمه - آمنة بنت وهب - عندما زارها في القبور وعاد باكيًا، وسأله الصحابة عن سبب بكائه، فقال ﷺ: «**استأذنت ربى في زيارتها فأذن لى فيها، واستأذنت ربى في الاستغفار لها فلم يأذن لي فيه**» ونزلت الآية فتلاها ﷺ، ثم قال: «**فأخذنى ما يأخذه الولد للوالدة من الرقة، فذلك الذي أبكاني**» [1] وذكر الرازي هذه الرواية عن طريق ابن عباس[2].

(١) أسباب النزول للنيسابوري ١٨٣ .

(٢) التفسير الكبير ٢٠٨/١٩ .

ومن خصوصيات النظم:

- تتضمن الآية تشريعًا عامًا مستمدًا من سبب خاص بالرسول ﷺ وهو الأسوة والقدوة ليكون موضوع التشريع أكثر إقناعًا عندما يبدأ صاحب الرسالة به نفسه، وقد تجنب خطاب المواجهة فلم يقل: ما كان لك يا محمد أن تستغفر... إلخ وذلك للترفق بالرسول ﷺ تقديرًا لحزنه على موت المساند والمعاون والمربي، وللسبب نفسه ضم الذين آمنوا معه في الحكم مع أنه لو لم يضمهم لشملهم الحكم ضمنًا وذلك ليتسنى مجيء هذا الحكم بضمير الجمع حتى لا يكون الخطاب خاصًا برسول الله ﷺ.

والإنصات إلى هذا الصوت المترفق يقوي رأي أبي السعود في أن معنى قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ ما صح في حكم الله عز وجل[١] بينا يضعف رأي الرازي الذي يفسره على «ما ينبغي لهم ذلك» لأن تفسيره هذا ينفي الانبغاء، وحينئذ لا يخلو من إنكار توبيخي، وهو مستبعد ولا نجده في خطاب رب العزة سبحانه لنبيه وإنما نجد العتاب اللين واللوم المترفق.

- من نكات التقييد بالشرط في قوله: ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾ الإشارة إلى أن حكم الله ينفذ ولا مجال للشفاعة لمشرك ولو كان قريبًا، وأنه ما كان لمن هو في موقع النبي أن يستغفر لعمه المشرك من بعد ما تبين له أنه مات مشركًا، وأن مصيره إلى الجحيم، وهذا هو الأصل في ترتيب المعنى، لكن القرآن عبر بالمآل والمصير (أصحاب الجحيم) على سبيل المجاز المرسل باعتبار ما سيكون وهو يشير إلى أنه بمجرد موته مشركًا صار من أصحاب الجحيم، وهذا يقوي جانب اليأس من الاستغفار بعد أن نفذ حكم الله فيه.

وذكر النبي في هذا السياق (ما كان للنبي) للإشعار بمسئولية الاقتداء به في أمر غلبت فيه عاطفته، لهذا عطف الذين آمنوا في إشارة إلى أن بعض المسلمين ربما اقتدوا بالنبي ﷺ في الدعاء لأقاربهم المشركين، بل لقد ورد أن ذلك قد حدث، وقد عقب البقاعي على قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ بما يشير إلى سر تخير

(١) إرشاد العقل السليم ٢/ ٢٩٩ .

التعبير بالنبي فيقول: «أي الذي لا ينطق إلا بما عنده فيه بيان من الله»[١] فهذا التعقيب يشير إلى أن معنى «النبي» يكمن فيه سبب العتاب؛ لأن كونه نبيًا يجعله لا ينطق إلا بما فيه إذن من الله، ولأن كونه نبيًا يحمله مسئولية اقتداء الناس به، وهذا يعني أن النبوة كانت تقتضي عدم الاستغفار؛ لأن الله لم يأذن له، ولأن الناس تبعوه في الاستغفار لأقربائهم المشركين.

- قوله سبحانه بعد ذلك: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ يشير إلى أمور منها:

١- أن المقصود الأساسي بالعتاب هو رسول الله ﷺ.

٢- أن رسول الله ﷺ ربما قاس نفسه على نبي الله إبراهيم؛ فاستغفر كما استغفر إبراهيم عليه السلام.

يبين سبحانه أن الجهة منفكة؛ لأن إبراهيم عليه السلام استغفر بعد وعد من أبيه بأن يؤمن، فلما تبين له أنه كافر تبرأ منه، وربما قصد أن إبراهيم عليه السلام هو الذي وعد أباه بأن يستغفر له رجاء إسلامه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، وقد قال الرازى بالوجه الثاني مستدلاً بقراءة الحسن: وَعَدَهَا أباه[٢].

٤- المعنى المقصود بذكر ما كان من إبراهيم - عليه السلام - هو التأكيد على تقديم أمور الدين إذا اصطدمت بالعواطف، ويؤيده أن إبراهيم - عليه السلام - حسم عاطفته وتبرأ من أبيه لما تبين له أنه عدو لله، فلم يستسلم لعاطفة البنوة على الرغم مما كان فيه من رقة وخشوع وحلم، لهذا كانت الفاصلة (إن إبراهيم لأواه حليم)، ويذكر أبو السعود أن هذا كناية عن كمال الرأفة ورقة القلب، ويذكر الرازي سر هذه الجملة فيقول: «لأنه تعالى وصفه بشدة الرقة والشفقة والخوف والوجل والحلم، ومن كان كذلك فإنه تعظم رقته على أبيه وأولاده، فبين سبحانه أنه مع هذه الشفقة تبرأ من أبيه وغلظ قلبه عليه لما ظهر له إصراره على الكفر، فأنتم بهذا المعنى أولى»[٣].

---

(١) نظم الدرر ٩/ ٣٠ .

(٢) التفسير الكبير ١٦/ ٢١٠ .

(٣) التفسير الكبير ١٦/ ٢١١ .

- إن هذا السياق الذي يذكر قصة استغفار إبراهيم لأبيه يقوي رواية سعيد بن المسيب في سبب النزول، ويستبعد أن تكون رواية ابن عباس وابن مسعود هي السبب، وإن كان هذا لا ينفي أن رسول الله ﷺ زار قبر أمه واستعبر لما لم يأذن له في الاستغفار لها، وبقي التنبيه على أن السياق العام الذي يضم كل هذه المعاني هو التشديد على منع موالاة الكفار والمنافقين، واتخاذ الدين أساسًا لأي موالاة، وهو معنى من المعاني المحورية التي تبرز وتتردد في سورة التوبة.



سورة يونس

- قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [سورة يونس: ٢].

تدور سورة يونس حول التأكيد على وحدانية الله سبحانه وقدرته وصدق رسوله ﷺ، مع ذكر البراهين الدالة على هذا ابتداءً بالتحدي الخفي الذي يلمحه العربي في قوله في صدر السورة: ﴿الر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ ومرورًا بالتحدي الظاهر في قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [سورة يونس: ٣٨]، مع ما يصاحب هذا من ترغيب وترهيب وإنذار وتبشير وتسلية للرسول ﷺ وتسرية عنه بما يشد من أزره في مواجهة أعباء الدعوة إلى الله سبحانه.

وما يأتي من آيات هذه السورة التي نزلت لأسباب ظاهرة، مهما كان سبب نزولها فإنها تنسبك في سياقها وتلتحم مع مقام سورتها وتتصل بغرض من تلك الأغراض الأساسية التي تدور حولها تلك السورة.

وحول سبب النزول:

قال ابن عباس: لما بعث الله تعالى محمدًا ﷺ أنكرت الكفار، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشرًا مثل محمد فأنزل الله تعالى هذه الآية[1] ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ الآية...

خصوصيات النظم وغرائبه:

١- تبدأ الآية بالاستفهام الإنكاري الذي لا يخلو من غضب؛ لأنه إنكار رب العزة سبحانه على الناس ما كان منهم من عجب لنزول القرآن على رجل منهم يعرفون صدقه وأمانته، وتوخيًا لمنهج القرآن في الإيجاز تجاوز تفصيل المواقف

(١) أسباب النزول النيسابوري ١٨٣ .

التي عجبوا فيها، وما قالوا دالاً على عجبهم، وذلك اعتمادًا على ذكره في سور أخرى.

٢- المقصود بالناس هنا الكافرون؛ لأنهم هم الذين عجبوا واستهزءوا واعترضوا، وإنما ذكرهم بلفظ الناس توبيخًا «لأن الأصل في الناس هم الذين فيهم أهلية التحرك للمعالي» كما يقول البقاعي، فقد ذكرهم بحسب ما كان ينبغي أن يكون منهم لما أودع فيهم من استعدادات فطرية، وذكرهم بلفظ الناس تعريضًا بهم وبطمسهم الاستعدادات الفطرية للترقي.

٣- وقد ذكر المفسرون أن الباعث على تعجبهم أحد أمرين:

الأول: مجيء الرسول بشرًا كما قالوا وحكى القرآن عنهم: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [سورة الإسراء: ٩٤].

الثاني: تخصيص محمد ﷺ بالوحي والنبوة وليس بأعظمهم كما حكى القرآن عنهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [سورة الزخرف: ٣١].

وما ورد في سبب النزول يضم هذين الاحتمالين معًا، ونص ما ذكروه في سبب النزول: «قالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشرًا مثل محمد»، فصدر هذه الجملة يشير إلى الاحتمال الأول، وهو العجب من أن يكون الرسول بشرًا، وعجزها «مثل محمد» يشير للاحتمال الثاني الذي لا يمنع كون الرسول بشرًا، ولكن يستبعد أن يكون «مثل محمد» فضلاً أن يكون هو محمدًا نفسه.

وسياق الآية ونظمها هو الفاصل في هذا، وهو يقطع بالاحتمال الثاني؛ لأنه سياق تعجب واستهزاء وتندر تدل الصياغة عليه بداية في قوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾، فلم يقل: أعجب الناس من كذا وكذا أو أكان عند الناس عجبًا، وإنما قال: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾. وهذا معناه كما ذكر الرازي: «أنهم جعلوه لأنفسهم أعجوبة يتعجبون منها، ونصبوه وعينوه لتوجيه الاستهزاء والتعجب إليه، وليس في قولنا: «أكانَ عند الناس عجبًا» هذا المعنى[1].

---

(١) ويضيف ابن عاشور معنًى آخر هو: «الدلالة على التعجيب من تعجبهم. وللإشعار بأن هذا العجب غير متوقع منهم» ١٠/ ٨٣ التحرير والتنوير .

ولا شك أن الصياغة التي جاءت عليها الآية تلفتنا للدافع النفسي لعجب هؤلاء الكفار، والذي يتلخص في الحسد والكبر، فقد استكثروا على محمد ﷺ أن يختاره الله سبحانه نبيًا مرسلاً من بينهم، ولم يجدوا وسيلة لإراحة أنفسهم غير تكذيبه والتهوين من شأنه والسخرية منه والاستهزاء به، وكل هذا يكمن في التعجب ويختفي فيه، سوى أنه لا يلبث أن يبرز في فلتات ألسنتهم كما حكاه القرآن عنهم في عجز الآية: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾. وهذه جملة استئنافية يشير وقوعها بعد بيان غاية الوحي السامية إلى أن قولهم ذلك هو الأولى بالعجب.

وحاصل هذا أن صياغة صدر الآية مضمومًا إلى حكاية ما قالوه في عجزها يساعد على تلمس جو السخرية والاستهزاء الذي شحن به السياق وهذا يقطع بأن العجب لم يكن من اختيار بشر رسولاً، ولكن العجب من تخصيص محمد ﷺ من بينهم بهذا الشرف.

٤- المقصود برجل في قوله: ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ هو الرسول ﷺ، وإنما عبر عنه برجل للإشارة إلى أنه قد اكتملت فيه كل مقومات الرجولة التي تؤهله لنزول الوحي عليه بما يدفع عجبهم، على أن الوصف بالجار والمجرور (منهم) حجة عليهم ودفعًا لعجبهم؛ لأن كونه منهم يستلزم معرفتهم به جملة وتفصيلاً، فهم لا ينكرون أصله العريق وأخلاقه الحميدة من صدق وأمانة واستقامة.

٥- أبان عن موضوع الوحي فحدده هنا في الإنذار والتبشير؛ لأنهما من أهم الأسس التي قامت عليها الدعوة إلى الله سبحانه، ويشير ذكرهما هنا إلى أن الناس انشغلوا بالموحى إليه عن الوحي الذي أنزل عليه وما فيه من إنذار وتبشير، وفيهما مصلحتهم لو تأملوا.

٦- عبر عن الإنذار والتبشير بلفظ الأمر فقال: (أنذر. . . وبشر)، ولم يقل: بشيرًا ونذيرًا؛ لأن الأمر بالإنذار أقوى في زجر المتعجبين المستهزئين، والأمر بالتبشير أقوى في إشاعة البهجة بين المؤمنين، وقدَّم الإنذار؛ لأنه الأهم في هذا السياق الذي لا يخلو من غضب، وأخَّر التبشير ليتسنى وصف المتعدى إليه (الذين آمنوا) بوصف يكافئهم، ويدخل السرور على نفوسهم ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ

رَبِّهِمْ﴾.

٧- فسر أبو السعود القدم بالمنزلة الرفيعة أو المقام، وإنما عبر بالقدم لأنها أداة الوصول لتلك المنزلة كما يعبر باليد عن النعمة[1]، وقال ابن الأنباري: القدم كناية عن العمل الذي يتقدم فيه بلا تأخير ولا إبطاء[2]. والتفسير الأول أقرب رحمًا بالمعنى المقصود؛ لأن الله سبحانه يعدهم خيرًا في الدار الآخرة كما يدل قوله: (عند ربهم)، فتفسير القدم بالمنزلة أنسب لهذا. وقد أضاف (قدم) إلى (صدق) للدلالة على تحقق وعد الله الذي لا يخلف الميعاد، وفيه إشارة إلى أن المجازاة من جنس العمل وأن ما نالوه من قدم صدق ومنزلة رفيعة مكافأة لصدقهم أو تصديقهم وإخلاصهم، وفيه تلويح بحرمان المكذبين من تلك المنزلة وأن مجازاتهم من نوع آخر، ولا شك أن التبشير على هذا النحو المحبب يزيد من ألم الإنذار الذي يجاوره ويزيد من وقعه وهوله، ويجعل صداه موجعًا، والعرب كانت لهم معرفة بهذا وتذوق، والقرآن يخاطبهم على هذا الأساس فيمس منهم الفكر والوجدان.

٨- إن عجب الكافرين من أن يكون محمد رسولاً يوحى إليه يعنى إنكار أنه رسول، فماذا يقولون عنه وقد جاءهم بما لا عهد لهم به ولا قدرة لهم على مواجهته: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾.

وقرئ: (ما هذا إلا سحر مبين)، وكل من القراءتين تكمل الأخرى لارتباط السحر بالساحر، لكن قولهم عن القرآن سحر، أو قولهم عن محمد ساحر اعتراف منهم بعجزهم وأن القرآن أعجزهم، يقول الرازي: «واعلم أن وصف الكفار القرآن بكونه سحرًا يدل على عظم محل القرآن عندهم وكونه معجزًا» وهذا يعني معرفتهم بالحق لكنهم يكابرون، يقول أبو السعود: «وهذا اعتراف من حيث لا يشعرون بأن ما عاينوه خارج عن طوق البشر نازل من جناب خلّاق القوى والقُدر، ولكنهم

(١) على سبيل المجاز المرسل بعلاقة الآلية، أو السببية .

(٢) نقله الرازي في التفسير الكبير ١٧/٧ .

سموه بما قالوا تماديًا في العناد»[1]. وهذا الاعتراف الذي صدر عنهم دون قصد يشير إلى بزوغ نور الحق من وسط الباطل الذي قالوه بقصد ترويجه وإشاعته، وهذا يدخل في ضمن التبشير الذي يبشر به المؤمنون الصادقون (وبشر الذين آمنوا)، فمن باطن الباطل الذي ينشره أهل الضلال يولد الحق رغمًا عنهم ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [سورة التوبة: ٣٢].

ثم إن ختم الآية بما قالوه: ﴿قَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ وما يحمل في باطنه من اعتراف غير مقصود بعجزهم أمام القرآن - يتعانق في التحام والتئام مع صدر السورة ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ على ترجيح أن المقصود بهذه الحروف المقطعة هو التعجيز، فإن (ءايت الكتاب الحكيم) التي أعجزتهم مركبة من تلك الحروف التي يعرفونها ويتركب منها كلامهم، فماذا عسى أن يكون أعجزهم سوى أنه من لدن حكيم خبير؟!

وبهذا نجد الآية التي عرضت قد جاءت في أرقى صور الخطاب المعجز الذي يحاصر الكافرين المنكرين ابتداء وانتهاء، وينتزع من أعماق نفوسهم ما يخفونه فيبدو ظاهرًا لا يملكون له دفعًا.



(١) إرشاد العقل السليم ٢/ ٣٠٧.

سورة هود

قال سبحانه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ۝١١٤ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة هود: ١١٤ - ١١٥].

سبب النزول:

عن ابن مسعود أن رجلًا أصاب من امرأة قبلة، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فأنزل الله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الآية[(١)]. وقد وردت في هذا ست روايات أقربها تلك الرواية التي ذكرها ابن مسعود لقلة ما ذكر فيها دون تفاصيل قد تستبعد أو تستبشع.

وقد وقعت تلك الآية بعد قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١٢ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾، فأشار هذا التوالي إلى أن الاستقامة على أوامر الله حسب مراده سبحانه بعيدًا عن أهواء النفس ونزغات الشيطان تستلزم التخلص من آثار الذنوب بالتوبة ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾، فإنه لا يستقيم على منهج الله إلا التوابون المتطهرون، ويلي هذا تحذير من موانع الاستقامة ومعوقاتها، وأهمها تجاوز حدود الله ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾، ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾.

أما ما عدا هذا من الصغائر التي تعترض المسلم ولا يسلم منها إلا من عصم الله ويقع كثير فيها من غير قصد، فإنها لو تركت لتراكمت وصارت كالجبال، ولقد كان من رحمة الله فرض الصلوات الخمس فإنها مكفرات لما بينها إذا اجتنبت الكبائر، لهذا عقب سبحانه بقوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾. وبهذا يتضح أن هذه الآية تعطي في سياقها مفهومًا

(١) الصحيح المسند ١٣٤ .

أشمل مما تعطيه لو قصرنا فهمها على سبب نزولها.

ومن غرائب هذه الآية في سياق سورتها:

١- أنه لما قال سبحانه في صدر السورة: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [سورة هود: ٣]، وقال في سياق قصة هود مع قومه: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [سورة هود: ٥٢]، ثم وصف نبيه إبراهيم ونبيه شعيبًا بالإنابة ومن لوازمها التوبة بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [سورة هود: ٧٥]، وقوله على لسان شعيب: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [سورة هود: ٨٨]، ثم إنه لما قال سبحانه قبيل نهاية هذه السورة: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [سورة هود: ١١٢] كان ذلك كله دافعًا إلى السؤال عن كيفية الرجوع وسبيل الإنابة وطريق التوبة؛ لهذا جاء قوله سبحانه وتعالى عز وجل: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ وعجل بذكر الثمرة للطمأنة عقب هذا بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾. ويبدو أن المواظبة على الصلاة والصبر على أدائها في مواقيتها شرط لكونها مكفرات للذنوب، لهذا قال: ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، فإحسان الصلاة يستلزم الصبر في الأداء؛ لهذا كان الصبر شرطًا لتكون الصلوات مكفرات ويؤيده قوله سبحانه في سورة أخرى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [سورة طه: ١٣٢]، ومع هذا فالصبر والصلاة معًا من أقوى أسلحة المؤمن في مواجهة الشدائد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [سورة البقرة: ١٥٣].

إن بالصلاة يتم الفرض ويكفر الذنب، وبها مع الصبر يتم القرب ويتحقق الوصل والاستعانة.

٢- والصلاة فريضة وركن وأساس متين من أسس هذا الدين وصلة بين العبد وربه، فكونها مع هذا مكفرات لما بينها من الذنوب يجعل منها ثمرة وفائدة ومنحة ورحمة من الله سبحانه، والإنسان خطاء، وهو بطبيعته البشرية المركبة من الطين ووقوعه بين عدوين يناوشانه ويسولان له ويزينان: الشيطان والنفس، فكثرة الذنوب أصل فيه متوقع، وحتى تكفر تلك الذنوب أوّلاً بأول فلا تتراكم وتصبح حملاً ثقيلاً يصعب إزاحته؛ فرضت خمس صلوات في اليوم الواحد، فضاقت المساحة الزمنية بين صلاة وصلاة حتى تستمر الصلة بالله وتتجدد فيسهل السيطرة على انفلات

النفس وتنزاح الذنوب - إن وقعت - وتكفر أولاً بأول، ومن هنا نفهم قوله سبحانه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾.

٣- وقد فسر العلماء طرفي النهار تفسيرات عدة تستند إلى اجتهادات السلف، فقد نقل عن ابن عباس أنها صلاة المغرب والغداة، أي: الصبح، واستدل ابن جرير على هذا بإجماع الجميع على أن أحد الطرفين الصبح، فدل هذا على أن الطرف الآخر هو المغرب، وقيل هما الظهر والعصر، وعن الحسن قال: هما الفجر والعصر، وعن مجاهد قال: هما صلاة الفجر صلاتا العشي؛ أي: الظهر والعصر[1]، وقد اجتهد بعض المفسرين كالألوسي في البحث عن وجه يجعل الطرفين شاملين مع (زلفًا من الليل) للصلوات الخمس، فقال: المقصود بالطرفين حقيقتهما؛ أي: بداية النهار ونهايته «الصبح والمغرب»، وأن يشمل ما قبل النهاية مجازًا[2] يقصد ما قبل الصبح «الفجر» وما قبل المغرب «الظهر والعصر»، وتبقى العشاء فهي صلاة العتمة. (زلفًا من الليل)؛ أي: الساعات القريبة من الليل أو ساعة من الليل.

ولا أرى تصويب أحد أو تخطيء أحد ولكل وجهة تبدو - والله أعلم - في تحديد طرفي النهار من وجهة نظره وبحسب ما يتراءى من حاله، وعلى هذا الأساس يمكن أن يكون طرفا النهار هما الصبح والمغرب عند من ينحصر نهاره فيهما بحسب يقظته ونومه وظروفه، ويمكن أن يكون طرفا النهار هما الفجر والعصر عند من ينحصر نهاره فيهما بحسب ظروفه وحاله، أو الفجر والعشي (الظهر والعصر معًا) وهكذا، وبهذا يشمل التعبير القرآني الأوقات والصلوات الخمس وإن كان الطرفان في الأصل لا يكونان إلا اثنين؛ فيكون تسمية ما عداهما طرفًا من باب التجوز بحسب تعدد الأحوال والوجهات، وقد جمع بينها ولعل مما يؤيد هذا آية أخرى لم تذكر طرفين، ولكن ذكرت أطراف النهار بالجمع، هي قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ﴾ [سورة طه: ١٣٠].

---

(١) راجع هذا في فتح القدير المجلد ١/١٠٤٨، ١٠٤٩ .

(٢) راجع روح المعاني ٢/١٥٦ .

٤-قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ استئناف يعلل لقوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وفيه ما فيه من الترغيب، ومع أن القصد أساس للصلاة وأنها تكفر اللمم بحسب دلالة سبب النزول، فإن اللفظ جاء عامًّا ليدخل في ضمنه كل وجه من وجوه الخير ويدخل في باب الحسنات، من أجل هذا قال: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ ولم يقل: إن الصلاة تكفر الذنوب أو أن الصلوات يذهبن السيئات، وذلك لأمرين:

الأول: الإشارة إلى أن الصلوات مع كونها فرضًا يبرئ بها المسلم ساحته وذمته، فإن في إقامتها حسنات يضيفها المسلم إلى رصيده فضلًا من الله ونعمة.

الثاني: الإشارة إلى شمول الحكم، فكل حسنة يكسبها المسلم تذهب سيئة إن وجدت سيئات، سواء كانت الحسنات من صلاة أو من من زكاة أو من حج أو صوم، أو أي باب من أبواب الخير لتشترك مع الصلاة في تكفير الذنوب وذلك بلفظ (الحسنات)؛ لهذا يفسر البقاعي الحسنات بالطاعات كلها: الصلاة وغيرها، وكذلك أبو السعود مع إشارته إلى التنويه بالصلاة لأنها عمدة الحسنات.

٥- قال (يذهبن) للإشعار بالمحو التام، وفي ذلك طمأنة وحث على المسارعة إلى فعل الخير عقب كل ذنب حتى يمحوه، ولم يقل: يكفرن لأن التكفير يكون للذنوب الكبيرة التي تحتاج إلى كفارة مع توبة.

وقد تنبه ابن عاشور إلى لفتة مهمة هي أن «إذهاب السيئات يشمل إزالة وقوعها - كثمرة للصلاة - بأن يصير انسياق النفس إلى ترك السيئات سهلًا وهينًا كقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾، ويشمل أيضًا محو إثمها إذا وقعت»[(١)].

ومعنى هذا أن لإذهاب السيئات معنيين:

الأول: محو الإثم بعد وقوعه، والمقصود بالسيئات حينئذٍ: الصغائر التي تقع عفوًا دون قصد، وكثيرًا ما تعترض الإنسان في حياته فيكون تكفير الصلاة لها ومحوها رحمة من الله سبحانه بعباده.

(١) التحرير والتنوير ١٢/ ١٨٠ .

الثاني: إزالة الوقوع من أصله على أساس أن الذي يقيم الصلاة بعد الصلاة يظل موصولاً بالله فتعاف نفسه المعاصي، وذلك استنادًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾، وإن كان هذا - فيما يبدو - خاصًا بالكبائر التي يعظم ذنبها والتى لا ينبغي أن يقع فيها المسلم المرتبط بالله بحبل متين وصلة دائمة هي الصلاة، فإن وقعت الكبيرة فلا بد لها من توبة. والله أعلم.

٦ - قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة هود: ١١٥] وإن جاز عطفه على طلب الاستقامة في قوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا﴾ [سورة هود: ١١٢] - كما قيل - على معنى: واصبر على ما أمرت به من الاستقامة وعدم الطغيان لحاجة هذه التكاليف إلى صبر؛ فإن مجاورة الصبر للصلاة في ﴿وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ . . . وَاصْبِرْ﴾؛ هو جوار الألفة والحاجة، فالصلاة والمواظبة عليها في مواقيتها تحتاج إلى الصبر حتى تستقيم النفس عليها، وحينئذٍ تكون الألفة والارتباط ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾، ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ﴾.

ونخلص من هذا إلى أن سبب النزول وإن كان مهمًا في معرفة ملابسات المعنى، إلا أننا لا ينبغي أن نقتصر في فهم الآية على سبب نزولها، بل لا بد من ربطها بسياقها ومقام سورتها، ولا ريب في أن الآية تعطي بسياقها أضعاف ما كانت تعطيه وهي مقصورة على سبب نزولها.



سورة يوسف

عن مصعب بن سعد عن أبيه سعد بن أبي وقاص في قوله عز وجل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ قال: أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زمانًا؛ فقالوا: يا رسول الله: لو قصصت علينا، فأنزل الله تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ الْمُبِينِ﴾ إلى قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْءَانَ﴾ الآية، فتلاها عليهم رسول الله ﷺ زمانًا[1].

فلماذا كانت سورة يوسف أحسن القصص؟ سأوجز الإجابة إيجازًا يشبه المتن تاركًا التفاصيل لمن شاء الله له أن يفصل. إنما كانت سورة يوسف أحسن القصص للأسباب الآتية:

١- اتصال طرفيها: أولها وآخرها (الرؤيا وتفسيرها) كاتصال طرفي الثوب دون أن يؤثر طول القصة على هذا الاتصال.

٢- إثارة البداية وغرابتها في شكل رؤيا غير مألوفة على نحو يحقق القمة في جذب المستمع واستنفار فضوله وإيقاظ غريزة حب الاستطلاع لديه وضمان يقظته انتظارًا لتفسير تلك الرؤية حتى آخر القصة، مع اعتمادها على هذا العنصر[2] ثلاث مرات إلى جانب العناصر الأخرى المثيرة.

الأولى: على لسان يوسف ذاته ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ وهذه هي الرؤيا الأساس.

الثانية: على لسان صاحبي السجن، وهما يستعبران يوسف ما رأيا لما آنسا منه النور والقدرة على التأويل.

الثالثة: على لسان الملك الذي رأى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف

(١) الصحيح المسند في أسباب النزول ١٨٦، وأسباب النزول للنيسابوري ١٨٦ .

(٢) أقصد الرؤى التي وردت في القصة .

وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات.

وقد أول يوسف الرؤيا في المرتين الأخيرتين، وتحقق تأويله بما يدل على مكانته التي مهدت للملك والنبوة.

أما في المرة الأولى فكان يوسف طفلاً غير مؤهل للتأويل حتى تأولت رؤياه في الواقع بعد أحداث شتى، ولم يكن من يوسف إلا أن لفت نظر أبيه إلى أن ما يحدث أمام عينه هو تأويل رؤياه من قبل: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ الآية.

٣- اعتماد القصة على الأحداث الحقيقية والشخصيات الواقعية، ولا شك أن الواقع عندما يفوق الخيال في غرابته يكون له إثارة ومتعة، ولا تجد الواقع أكثر إثارة من الخيال إلا فى قصص القرآن المعجز.

٤- بلوغ عنصر الصراع قمته بين الخير والشر، ولقد بدا ملتهبًا بذلك الموقف المأساوي الذي اجتمع فيه الإخوة يكيدون ليوسف حتى لقد اقترح أحدهم قتله للتخلص منه، وبذلك يتفجر الصراع من بداية القصة ولا يفتر حتى نهايتها.

٥- لقد تركت هذه القصة النوازع البشرية تبرز متجسدة، كما تكون تمامًا في الواقع الملموس حتى نرى من بداية القصة الحسد يطل برأسه ويحرك شخصيات القصة «إخوة يوسف» وهو الذي يوجه أحداثها ويحدد مصائر أبطالها.

ويظهر الكذب والاحتيال والتدليس في ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ﴾ ويفصح الحب عن نفسه مقترنًا بالشهوة الجارفة عند امرأة العزيز التي لم تصبر ولم تكتم وغلقت الأبواب وعرضت نفسها (هيت لك) واستخفتها الرغبة الجنسية فنسيت موقعها منه كسيدة، وموقعها في المجتمع كزوجة للعزيز وتساقطت كل الأقنعة عندما جرت وراءه تجذب قميصه جذبًا عنيفًا حتى تمزق.

ولئن كادت وكذبت عندما فوجئت بدخول زوجها فقالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ فإنها لم تستطع المضي في دفع التهمة، وانتقلت من التحفظ إلى التبذل والإعلان والاعتراف للنسوة اللاتي خضن في أمرها؛ إذا قالت: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾.

فقد تساقطت هيبة الملك أمام نوازع النفس، ولم تفلح محاولات التكتم سابقًا على تسرب الخبر وانتشاره في المدينة، فعملت امرأة العزيز على جمع أمثالها من صاحبات البيوت العالية ليتبين لهن أنها معذورة وكان ما كان مما هو معروف حتى أعلنت أمامهن ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾.

ولئن قالت هذا في موقف الاستعلاء والتجبر والتهديد، فلقد قالت نحوه بعد سنين ولكن في موقف الانكسار والاعتراف بالخطأ حين تكشفت الحقائق ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

ناهيك عن الكيد الذي يسود هذه القصة سواء ما كان منه نابعًا من ضعف النفس ونوازعها مثل كيد الإخوة وكيد المرأة، أم ما كان صادرًا عن وحي مثل كيد يوسف بأخيه ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ﴾.

٦- ثم إن هذه القصة على ما فيها من صراع مستمر قد حشدت بالمواقف المؤثرة التي تستجيش المشاعر ابتداء بإلقاء يوسف في جب مظلم بعيدًا عن العمران، وهو الصبي الذي لا يملك من أمر نفسه شيئًا ﴿وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ ومرورًا بموقف الأب الذي لقن أبناءه الحيلة دون قصد عندما قال: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ فعادوا إليه بعد أن ألقوا يوسف في الجب يقولون: (أكله الذئب) ولقد كان الصبر عند الصدمة الأولى ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ وحين صبر وفوض واستعان بالله حفظ الله يوسف.

ثم إن من المواقف المؤثرة دخولهم عليه يطلبون الميرة فعرفهم وهم له منكرون، عرفهم وجهلوه، وشتان ما بين نور البصر ونور البصيرة، أليس من عمى بصيرتهم أن يقول لهم: ﴿ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ﴾ ثم لا يفكرون فيمن أدراه بأن لهم أخًا من أبيهم فيعرفون أنه يوسف، لكن ذلك لم يتسلل إلى خواطرهم لأن المعاصي تؤدي إلى الران الذي يغطي البصيرة.

ومن المواقف المؤثرة استقبال يوسف أخيه بالترحاب والشوق (إني أنا أخوك) ثم لما نفد وحي الله فأعمل الحيلة لإبقاء أخيه وما كان من إخوته عندما سقط في

أيديهم وتذكروا الميثاق الذي أعطوه لأبيهم بالحفاظ على أخيهم، واستبدت بهم الحيرة وبذلوا كل المحاولات لانتزاعه ﴿إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ ثم لما بلغ اليأس منهم كل مبلغ التفوا يهمس بعضهم لبعض عن المخرج من هذا المأزق: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾.

ومن أبلغ المواقف تأثيرًا عندما حان أوان تعريف يوسف بنفسه فلم يشأ أن يفاجئهم بذلك، وإنما مهد لهم تمهيدًا يجعلهم هم الذين يستنبطون أنه هو إذ سألهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ فقالوا ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾.

ثم ما كان عندما عادوا إلى أبيهم يحملون قميص الحبيب فميز رائحته من بعيد فهاجت مشاعره وهتف لسانه ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾... ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ وهذا يعني أن عماه إنما كان بسبب الحزن: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾.

فعندما زال الحزن واطمأن القلب وتحقق الأمل زال العمى فارتد بصيرًا، وكم من أمراض بدنية عارضة تكون لآلام نفسية عميقة.

٧- ثم إن هذه القصة على ما فيها من الحبكة والدقة وتكامل عناصر القص على أروع ما يكون فإن الهدف فيها ليس لغاية فنية وليس لمجرد الإمتاع ولكن لتحقيق غايات دينية هي ترسيخ المبادئ وتثبيت القلوب على التمسك بها وتحقيق العبرة والعظة، بيان هذا أن الحسد أو الشذوذ النفسي الذي يدفع إلى السلوك المنحرف والكيد بقصد الإضرار يؤدي في ظلال العناية الإلهية إلى نتائج عكسية، وفي ذلك طمأنة للمقهورين المظلومين طالما أخلصوا ولم ينحرف سلوكهم وظلوا على نقائهم وصبرهم وثقتهم في الله ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

إن يوسف تعرض للكيد أكثر من مرة فما زاده ذلك إلا ثباتًا على المبدأ، حتى لقد فضل السجن على التسليم للرذيلة ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ ومكث في السجن ظلمًا بضع سنين، وتشاء الأقدار أن يكون ذلك السجن المظلم هو طاقة النور التي فتحت له أبواب الأمل ومفتاح اتصاله بالملك عندما استدعاه

ليفسر له رؤياه الغريبة بعدما أشار عليه بذلك صاحب يوسف الذي خرج من قبل، ويرفض يوسف الخروج بالتهمة التي دخل بها، وأصر أن يرجع الرسول الذي جاءه يستدعيه إلى الملك، للتحقق أولا من براءته ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ فاستدعاهن الملك، واستجوبهن في أمر مضى عليه سنين فوقع في قلوبهن أن الأمر قد انكشف ولا مفر من الاعتراف بالحقيقة ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فلا يملك الملك في هذا الموقف المهيب إلا أن يتوجه ليوسف ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾.

ثم إن الإخوة الذين تركوا لنوازع الشر تحركهم فاستعلوا وهم كثرة على صبي وكادوا له ما شاء الله لهم الكيد يجدون أنفسهم أمامه بعد سنين في موقف الضعيف المستعطف المعترف بخطئه ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾.

ثم إن العبرة من القصة التي ذكرت في خطاب رب العزة سبحانه لرسوله ﷺ تنسحب على كل الدعاة وأصحاب المبادئ فتدعوهم أن يصمدوا أمام مكر الماكرين، وألا يخافوا كيدهم وبطشهم طالما كانوا على الحق فإنهم حينئذ يكونون في معية الله، لقد ضمن هذا في الإعجاز الغيبي الدال على أن محمدًا ﷺ لم يأت بالقرآن من عنده ولكنه بوحي من الله علام الغيوب ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ فهذا دليل عقلي يستنبطه أولو الألباب على صدق هذه الرسالة، إذ كيف يكون هذا القصص من عند محمد كما يزعم الأفاكون، ومحمد لم يكن مع إخوة يوسف وهم يكيدون له؛ وليس له أي مصدر معرفي يعرفه بذلك سوى الوحي من لدن علام الغيوب.



سورة الرعد

١- قال تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [سورة الرعد: ١١٣].

سبب النزول:

نزلت هذه الآية في عمرو بن الطفيل وأربد بن ربيعة أخي لبيد بن ربيعة أتيا النبي ﷺ يخاصمانه ويجادلانه، ويريدان الفتك به، فقال أربد بن ربيعة: أخبرنا عن ربنا أمن نحاس هو أم من حديد، ثم إنه لما رجع أربد أرسلت عليه صاعقة فأحرقته، ورمي عامر بغدة كغدة البعير ومات في بيت سلولية(١).

وقد ورد عن أنس، قال: بعث رسول الله ﷺ رجلاً من أصحابه إلى رجل من عظماء الجاهلية يدعوه إلى الله سبحانه فقال: أيش ربك الذي تدعوني إليه أمن حديد هو؟ من نحاس هو؟ من فضة هو؟ من ذهب هو؟ وتكررت الدعوة فتكرر سؤال الرجل عنادًا واستبكارًا فأرسل الله سبحانه عليه صاعقة فأحرقته، فقال ﷺ: «**إن الله قد أرسل على صاحبك صاعقة فأحرقته**» فنزلت الآية ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾(٢) وربما كان هذا من تعدد الأسباب.

موقع الآية ومقام السورة:

يغلب على سورة الرعد جو التحدي والإنذار والتذكير بآيات الله، والحث القوي على توظيف نعمة البصر في تأمل مشاهد القدرة المعجزة في هذا الكون الواسع، ولذلك نجد الإلحاح على النظر والرؤية والمشاهدة ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ فهذا الفعل له أهمية كبيرة في الاحتجاج على الناس بأنهم يرون السماوات بغير عمد، وفي ذلك حث على أن تكون تلك الرؤية للتأمل والتعقل

(١) ١٩/ ٢٧ التفسير الكبير .

(٢) الصحيح المسند ١٣٧ .

والاستدلال على أن هذه الصنعة تدل على الصانع سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الرعد: ٣].

وحين لا يمتد بصرهم للرؤية والتأمل فإنه يفرضها عليهم بالبرق الذي يكاد يخطف الأبصار ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ مع تقديم الخوف لغلبة جو التهديد الذي يناسب عناد المتكبرين، لأن الكون كله في تسبيح وتحميد خوفًا ومهابة وإجلالاً ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ [سورة الرعد: ١٣].

وكل الاحتمالات التي ذكرها العلماء في تسبيح الرعد واردة ومحتملة، سواء كان على حقيقته بما يخلقه الله فيه من قدرة على التسبيح والكون كله يسبح، أم كان المقصود أن سامعيه يسبحون تعظيمًا وتنزيهًا، كما تسبح الملائكة إجلالاً ومهابة وخوفًا، فكيف بهؤلاء المارقين الذين شذوا عن تلك المنظومة المسبحة حمدًا لله وتنزيهًا وتعظيمًا وإجلالاً ومهابة، وهنا يبلغ التهديد منتهاه ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾.

وعلى هذا فإن الجو الذي جاءت فيه تلك الآية. يتناسب مع سبب نزولها وإن كانت قد جاءت في سياق يكسوها بالجلال ويشع عليها من فيضه بما يجعلها تزداد في مدلولها عن معناها الخاص الذي كان لها وقت نزولها.

ومن خصوصيات نظم الآية:

١- تعريف المفعول بالاسم الموصول في قوله ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ لم يخرجه عن إبهامه بسبب الصلة التي تتسم بالعموم (يشاء) لأن التساؤل قائم حول من هذا الذي شاء الله أن يصيبه بالصواعق، وهذا مقصود ليظل السؤال قائمًا وليظل التهديد والفزع واقعًا، والظالم المستكبر أدرى بنفسه، ثم إن هذا ينسجم مع منهج القرآن في التركيز على الأغراض لا الأشخاص، فالتهديد قائم والتخويف العام واقع وإن كان الذي نزلت فيه الآية غير محدد فيها، لأنه مجرد نموذج لأشخاص كثيرين مماثلين في الاستكبار والعناد ولهم وجود في كل زمان، فالتهديد قائم إلى قيام الساعة.

٢- ما أروع تلك الواو في قوله: ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ لأن فيها ما فيها من التعجيب والتشهير والتلويح بغفلة هؤلاء وخيبة ما هم فيه، فبينا الكون كله في تسبيح وتحميد وإجلال وتعظيم وهيبة ورهبة من الصواعق

التي يرسلها المنتقم فيصيب بها من يشاء إذ بنا نرى هؤلاء يجادلون في الله مشككين! وقد زاد من التعجب والتشهير والتلويح تقديم الضمير الخاص بهم على الفعل في قوله ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ﴾.

وهذه الجملة حالية أو مستأنفة كما ذكر المفسرون، وليست المسألة صناعة إعرابية وإنما لكل وجه دلالة خاصة، فعلى أنها حالية يكون المقصود هو الإشارة إلى غفلتهم وخيبتهم، لأن الخطر محدق بهم في نفس الوقت الذي هم فيه يجادلون فلم تطمس بصائرهم فحسب ولكن عميت منهم الأبصار. وعلى أن الجملة استئنافية لا يكون ذلك الاقتران، وإنما المعنى على التعجيب والتشهير بهؤلاء الذين لا يكفون عن الجدال في الله سواء كانوا في أمن أم كانوا في خطر، وهو لا يخلو من الإشارة إلى تبلد الإحساس وتغييب الوعي.

٣- لقد كان الكفار يجادلون رسول الله ﷺ فيما وعد له به من البعث والحساب وفي أهليته للرسالة مع ما في المجادلة من حدة وتطاول، لكنه لم يقل: يجادلونك، مكتفيًا بجعل المجادلة في الله ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ وذلك تطييبًا لخاطر رسول الله ﷺ الذي كان يؤلمه ويحزنه توجه المجادلة إليه للطعن في أهليته أو في صدقه، لهذا جعلت المجادلة في الله للتسرية عن رسوله كقوله سبحانه: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ .

٤- يشير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ إلى تفاهة جدالهم وسذاجة تدبيرهم بالقياس إلى كيد الله وتدبيره، فهو من باب الرد باللفظ المشاكل، فإن (المحال) له معان متعددة تدور حول «شدة العقوبة» كما قال أبو عبيدة، أو شدة الانتقام كما قال الحسن، ويقال: ما حل عن أمره؛ أي: جادل كما نقل الرازي عن ابن عرفة، فقوله: شديد المحال؛ أي: شديد الجدال[١].

والمعنى الأخير هو الراجح ليكون الجزاء من جنس العمل، ويكون الرد عليهم بطريقتهم وإن كان الجدال من الله على سبيل التجوز، وهو من المشاكلة التي يعبر فيها عن المعنى بلفظ غيره لوقوعه في صحبته كقوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾

(١) التفسير الكبير ١٩/٢٨ .

والفرق أن المشاكلة المشهورة تكون باللفظ المماثل، لكن المشاكلة هنا باللفظ المرادف؛ لأن الجدال من معاني المحال كما سبق.

والمشاكلة باللفظ المرادف مما لم يذكره البلاغيون، ورب سائل يقول: لو أراد هذا لقال: وهم يجادلون في الله وهو شديد الجدال، والجواب عليه أن في (المحال) زيادة معنى فيها وهو شدة الردع والانتقام كما نقل عن الحسن، والغرض عمومًا هو تحذير هؤلاء من ذلك المسلك الذي يوردهم موارد الهلاك وفيه تحذير أمثالهم من المبالغة في التعنت.

٢- قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ﴾ [سورة الرعد: ٣١].

سبب النزول[(١)]:

عن الزبير بن العوام قال: قالت قريش للنبي ﷺ: تزعم أنك نبي يوحى إليك، وأن سليمان سخر له الريح وأن موسى سخر له البحر، وأن عيسى كان يحيي الموتى، فادع الله أن يسير عنا هذه الجبال ويفجر لنا الأرض أنهارًا فنتخذها محارث ومزارع ونأكل، وإلا فادع الله أن يحيي لنا موتانا فنكلمهم ويكلمونا، وإلا فادع الله أن يصير هذه الصخرة التي تحتك ذهبًا فننحت منها وتغنينا عن رحلة الشتاء والصيف... فبينا نحن حوله إذ نزل عليه الوحي، فلما سري عنه قال: «**والذي نفسي بيده لقد أعطاني ما سألتم ولو شئت لكان، ولكنه خيرني بين أن تدخلوا من باب الرحمة فيؤمن مؤمنكم، وبين أن يكلكم إلى ما اخترتم لأنفسكم فتضلوا عن باب الرحمة فاخترت باب الرحمة؛ وأخبرني إن أعطاكم من ذلك ثم كفرتم أنه معذبكم عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين**» فنزلت: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ﴾ [سورة الإسراء: ٥٩]، ونزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ الآية.

بين النظم وسبب النزول:

إن بداية الآية بذكر القرآن ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ يدل على أن القرآن

(١) التفسير الكبير ١٩/٢٨ .

هو محور الحديث، وأن الآية نزلت بسبب جدال حوله، لكن مراجعة سبب النزول يدل على أن الرسول ﷺ كان هو محور الحديث وأساسه بدليل ابتداء كلامهم ببداية تدل على تكذيبه إذ قالوا: «تزعم أنك نبي» ثم يطلبون بعد ذلك آيات حسية دالة على صدقه وتكون فيها منفعة لهم كتسيير الجبال من أماكنها وتفجير الأرض بالأنهار وتكليم الموتى.

لكن الذي ينبغي التنبه إليه أن تكذيب الرسول مرتبط بتكذيب ما يوحى إليه من قرآن، وأنهم عندما طلبوا معجزات حسية مرئية كان ذلك تجاهلاً منهم للقرآن باعتباره دالاً على صدقه ﷺ.

فردهم الله سبحانه للقرآن مبينًا قصورهم في إدراك قدره وتعظيم شأنه، وأنه أسمى وأرقى مما طلبوه، ولو أن الله سبحانه أراد أن يحقق بالقرآن ما طلبوه لتحقق ولكن المشكلة تكمن فيهم هم، يقول أبو السعود: «والمقصود بيان عظم شأن القرآن العظيم وفساد رأي الكفرة حيث لم يقدروا قدره ولم يعدوه من قبيل الآيات فاقترحوا غيره مما أوتي موسى وعيسى»[١].

وبهذا يتضح أن الآية وإن كانت واردة في الرد على موقف خاص فإن فيها لفتًا عامًا إلى سمو قدر القرآن الكريم واشتماله على خوارق غير ظاهرة وأن به علوم الأولين والآخرين، وأنه يحتوي ما يحقق المعجزات لو أراد الله له ذلك (بل لله الأمر جميعًا).

ومن خصوصيات النظم:

١- ذكر المفسرون تقديرين لجواب الشرط المحذوف:

الأول: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ﴾ لكان هو هذا القرآن الذي أنزلناه عليك.

الثاني: نقل الرازي عن الزجاج أن التقدير ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ لما آمنوا به كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا

(١) إرشاد العقل السليم ٣/ ١٠ .

مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾(١).

وتقدير الزجاج هو الأرجح لدلالة سياق آخر عليه في الآية السالفة، وإن كان التقدير الأول غير ممتنع، ويكون حذف الجواب لتوسيع دائرة الاحتمال لتتناول المعنيين معًا ويكون التقدير الأول لافتًا إلى قدر القرآن ومنزلته وردًا على قول الكفار في سياق آخر ﴿ائْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ وردًا عليهم ما ورد عنهم في سبب النزول من اقتراحهم تلك الآيات الحسية السالفة، فأجيب بأنه لو كان هناك كتاب يتحقق به ما سألتموه لما كان غير هذا القرآن، وهذا يتضمن سوء تقديرهم وعدم معرفتهم بمنزلة هذا القرآن، كما يشير إلى أن هذا الكتاب هو لسان هذه الرسالة ودليل صدقها ومعجزة رسولها وأنه يفوق أي معجزة أخرى، وعلى فرض تحقق ما طلبوه فلن يكون بغير هذا القرآن، ولعل بناء الأفعال الثلاثة «سيرت، وقطعت، وكلم» للمفعول مع أن الفاعل معلوم وهو الله سبحانه كان من أجل هذا المعنى حتى تبدو سببية القرآن في تحقيق هذه الأفعال قوية واضحة بما أودع الله فيه من أسرار، وفي هذا مزيد من اللفت إلى إعجازه.

إن حذف جواب الشرط يؤدي إلى ثراء المعاني المقصودة والتي يمكن تقديرها طالما احتملها السياق، سوى أن للتقدير الذي ذكره الزجاج وجاهة، وهو يشير إلى انقطاع الطمع في إيمانهم، ونصه: «أن التقدير لو أن قرآنًا سيرت به الجبال وكذا وكذا لما آمنوا» فهذا التقدير يشير إلى الحكمة من طي هذا الجواب، حتى لا يكون ذكره حكمًا مسبقًا وحجة لهؤلاء الكفار بأن الله حكم عليهم بعدم الإيمان، فكان طيه دليلًا على أنها نتيجة تستنتج من حالهم وعنادهم واستكبارهم وأنه لا فائدة منهم، ولما كان هذا يعني اليأس من إيمانهم قال سبحانه عقبه: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [سورة الرعد: ٣١].

والغاية من الآية على كل حال تعزية رسول الله ﷺ الذي كان يحزنه جدال هؤلاء الكفار وتماديهم في الإعراض وذلك ببيان الباعث على عدم إيمانهم وهو أنهم لم يقدروا القرآن حقه، ولم يدركوا قدره، فحرموا نوره، وانقطع الأمل منهم.

(١) التفسير الكبير ١٩/ ٥٣

سورة الحجر

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الحجر: ٨٧ - ٨٨].

سبب النزول:

قال الحسن بن الفضل: إن سبع قوافل وافت من أذرعات ليهود بني قريظة والنضير في يوم واحد فيها أنواع من البز وأوعية الطيب والجواهر، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها فأنفقناها في سبيل الله، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقال: لقد أعطيتكم سبع آيات هى خير لكم من هذه السبع القوافل، ويدل على صحة هذا قوله على أثرها: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ الآية، وراجع ١٩١ أسباب النزول للنيسابوري.

الخطاب في الآية وإن كان لرسول الله ﷺ فإن ما ورد في سبب النزول يدل على أن المقصود به المؤمنون، لأنهم هم الذين تمنوا أن تكون تلك الأموال لهم، وعبروا عن تمنيهم بقولهم الوارد في سبب النزول وسيأتي ما يفسر هذا ويبرهن عليه.

وفي تفسير السبع المثاني أقوال عدة منها: أنها آيات سورة الفاتحة وهي سبع، وهناك ما يشبه الإجماع على هذا كعمر وابن مسعود والحسن ومجاهد والضحاك وسعيد بن جبير وقتادة، ولعلهم يستندون في هذا إلى حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قرأ الفاتحة، وقال: «**هي السبع المثانى**» (١) ومع هذا فهناك أقوال أخرى في تفسير السبع المثانى منها:

- أنها السور الطوال: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف

---

(١) ذكره الرازي في التفسير الكبير ١٩/٢٠٧ .

والتوبة مع الأنفال، على عدهما معًا في حكم السورة الواحدة، وقد أنكر هذا بعضهم.

- وهناك من قال: إن السبع المثاني هى الحواميم أو هي القرآن كله، وهي أقوال ذكرها المفسرون ثم رجحوا الرأي الأول لإجماع كثير من الرأي عليه بسند صحيح.

ولعل مما يؤيد هذا ما ورد في سبب النزول من أن قوافل اليهود التي تمناها المسلمون كانت سبعًا، فرد عليهم القرآن بسبع أفضل منها آتاهم الله إياها، والمناسب حينئذ أن تكون سبع آيات لا سبع سور، لأن هذا هو الأنسب لتعظيم شأن آي القرآن، وأن آية واحدة منه أعظم وأبقى وأسمى من قافلة محملة بالمتاع.

ومن خصوصيات النظم:

١- التعبير بآتيناك دون أنزلنا عليك للإشعار بالعطاء والمنح وما ينبغي فيه من الاعتزاز والامتنان، وفيه ما فيه من اللفت إلى قيمته وعلو شأنه، ثم إن التعبير بالإتيان يؤكد أن المقصود بالضمير في (آتيناك) المسلمون جميعًا مع رسول الله ﷺ إذ لو كان المقصود به الرسول خصوصًا لقال: أنزلنا عليك.

٢- لم يقل: آتيناك السبع المثاني، وإنما نكر سبعًا ثم فسره بقوله: (سبعًا من المثاني) للتشويق عن طريق الإبهام ثم التوضيح، لأن قوله: (آتيناك سبعًا) فيه إبهام وقوله بعده: (من المثاني) فيه إبانة وتوضيح وهو أسلوب من أساليب الإثارة النفسية لفتًا إلى قيمة ما يتحدث عنه، وأنه في منزلة تجعله جديرًا بالإعزاز والتعظيم والإجلال.

٣- عطف العام علي الخاص في قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ للتنبيه إلى سمو وعظم ما أعطي من القرآن العظيم، وذلك من التعبير بالإتيان دون الإنزال كما سبق، سوى أن عطف العام على الخاص يجعل الخاص (السبع المثاني) كأنه مذكور مرتين: مرة مستقلًا ومرة في جملة القرآن العظيم، وفي هذا إشارة إلى اختصاص السبع المثاني بمزيد من الشرف وكأنها جنس مستقل بذاته، ولهذا كان قيام الصلاة بها، فلا يسد غيرها مسدها، والعطف بالقرآن العظيم يشير إلى أن القرآن كله نعمة عظيمة وإن كانت قد خصت آيات منه بمزيد من

الفضل، وقد ذكروا في سبب اختصاص السبع المثاني بمزيد من الشرف «أنها تشتمل على حق الربوبية بالثناء على الله وحق العبودية بالدعاء مع التوسل له بإخلاص العبادة والاستعانة»(١).

وذكر البقاعي أسبابًا أخرى لخصوصيتها منها أن السبع المثاني تكون كل واحدة منها كفيلة بإغلاق باب من أبواب النيران السبعة، وهي أم القرآن الجامعة لجميع معاني القرآن التي أمرنا بإعادتها في كل ركعة زيادة في حفظها وتبركًا بلفظها وتذكرًا لمعانيها»(٢).

٤- ذهب العلماء في تفسير تسميتها بالمثاني إلى أقوال عدة أرجحها أنها تثنى في الصلاة، لأن المثاني جمع مثناة، والمثناة كل شيء يثنى أي يجعل اثنين، ومنه ثنيت الثوب؛ إذا ضممت بعضه إلى بعض فيكون تسمية الفاتحة بهذا لأنها تثنى في الصلاة أي تقرأ في الركعتين، وأقل الصلاة المفروضة ركعتان، فالفاتحة تعاد وتثنى في الركعة الثانية، وهكذا...، وذكر الزجاج أنها سميت بذلك لاشتمالها على الثناء على الله تعالى وهو حمده وتوحيده وملكه(٣).

٥- يلوح من ظلال قوله سبحانه ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ عندما نربطها بسبب نزولها أن السبع المثاني «الفاتحة» جعلت بديلاً عظيمًا عن متاع دنيوي، فلا يمكن أن تخلو من فائدة دنيوية عظيمة لمن يعكف على قراءتها بقلبه معتقدًا في تأثيرها، هذا فضلاً عن العطاء الأخروي الأعظم والأبقى.

وإذا كان الله سبحانه قد منح رسوله والمسلمين هذا العطاء العظيم فإن أي شيء آخر من متاع الدنيا الزائل يتضاءل في نظرهم، فلا تطمح نفوسهم ولا يعظم في نظرهم أي متاع، لأن ما عند الله خير وأبقى، ولا شك أن هذا يؤدي تلقائيًا إلى

---

(١) راجع التفسير الكبير ١٩/ ٢٠٩، وحق الربوبية بالثناء عليه في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ وحق العبودية بالدعاء في: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ والتوسل للدعاء بإخلاص العبادة والاستعانة في: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

(٢) نظم الدرر ١١/ ٨٧.

(٣) راجع التفسير الكبير ١٩/ ٢٠٨.

قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾.

٦- والخطاب في هذه الآية لعامة المؤمنين وإنما توجه إلى رسول الله خاصة؛ لأنه الرسول المبلغ، وحتى لا يشق على المؤمنين فيما لو توجه الخطاب بالجمع إليهم، مع ما في النهي من الدلالة على أن المنهي عنه كان موجودًا، وأن مد العين اشتهاءً إلى ما عند الآخرين كان واقعًا كما يدل عليه سبب النزول وينسجم معه، لهذا كان توجيه الخطاب إلى الرسول خاصة باعتباره رسولاً مبلغًا مع قابلية الخطاب. لأن يتوجه إلى كل من يتأتى منه الخطاب في كل زمان ومكان.

٧- الضمير في (منهم) يعود إلى غير المؤمنين الذين يعطيهم الله ما شاء من عطاءات الدنيا ليتمتعوا، فيكون قوله: ﴿مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ منظور فيه إلى قوله تعالى في صدر سورة الحجر: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ والمعنى لا تشغل نفسك بما هم فيه من نعمة، فيكون هذا من رد عجز السورة على صدرها[1] لأنه رد قوله ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ في عجز سورة الحجر إلى قوله في صدرها ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟﴾ وهو رد إلى المعنى فالمعنى إذا تأملنا هو هو والأنسب له حينئذ اسم الإرصاد أو التسهيم.

٨- في قوله سبحانه ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ مد العين كناية عن طموح النفس، يقول أبو السعود: في قوله ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ لا تطمح ببصرك طموح راغب ولا تدم نظرك[2] وإنما عبر عن طموح النفس بمد العينين لترتسم في الخيال صورة منفرة تدعو إلى التخلي، ولعل تثنية العين في قوله ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ مشيرًا إلى قوة

---

(١) وهو نوع من التصدير أو رد الأعجاز على الصدور أو الإرصاد، لم يلتفت إليه البلاغيون لأنهم قصروه على الآية أو البيت من الشعر ولم ينظروا إلى رد العجز على الصدر في إطار السورة كلها، وإن كانوا قد أشاروا إلى المناسبة بين بداية السورة ونهايتها أحيانًا، وراجع في هذا الاتقان .

(٢) إرشاد العقل السليم ٣/ ١٥٧ ا .هـ ومن الواضح أن هذه الكناية مستمدة من استعارة؛ لأن العين لا تمد مدًا حقيقيًا حتي ينهى عنه حقيقة، فكأنه شبه إدامة النظر بامتداد اليد حذف المشبه به، ثم أثبت لازمه وهو المد للمشبه فصار مد العين، ثم نهى عن ذلك استعارة محذرة ومنفرة لأنها تجعل إدامة النظر لحاجة الغير من متاع في منزلة مد اليد، وقد اشتهرت تلك الاستعارة المكنية حتى صارت كالحقائق، لهذا أصبحت كناية عن طموح النفس مع=

الاشتهاء فيكون التنفير أقوى والنهي أوقع.

٩- التعبير بالمتاع في ﴿مَا مَتَّعْنَا﴾ يشير إلى أنه يعري النظر لكنه قصير الأمد سريع الزوال لقوله تعالى ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [سورة الحديد: ٢٠].

١٠- ليس المقصود النهي عن الحسد - عند من يأخذ بالظاهر - لأن الحسد غير موجود عند المخاطب ومن معه، ولكن المقصود إزالة التعجب والدهشة أو الانبهار الذي يقع في نفوس المؤمنين مما يكون الكفار فيه من نعمة، لأن هذه حكمة الله في أن يرزق الناس جميعًا ويزيد في العطاء والنعمة للكفار حتى يغتروا بها ويؤاخذوا عليها، ولهذا وصفهم الله تعالى بأولي النعمة في قوله: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١١].

١١- المقصود بأزواج منهم يحتمل أحد معنيين:

الأول: المعنى الحقيقي لأزواج جمع زوج، والزوج يشمل الرجل والمرأة، ويكون المقصود: لا تمدن عينيك إلى الكفار رجالهم ونسائهم وما هم فيه من متاع ونعمة.

المعنى الثاني: هو المعنى المجازي على أن المراد بالأزواج: الأصناف، وهو استعمال أثبته الراغب في المفردات، وهذا يشير إلى أن التمتع الذي نهى عن امتداد النظر إليه ليس موجودا عند جميع الكفار ولكنه خاص بأصناف منهم كالكبراء والأغنياء، وهذا هو المرجح لوصف الأزواج في الآية بشبه الجملة «منهم»، وهو يشير إلى أن التفاوت قائم بين جميع أصناف الناس، وكان علي المسلمين أن يعتبروا بهذا والمقصد الأساسي هو النهي عن الاغترار بما فيه الكفار من نعمة لأنها موقوتة.

١٢- النهي عن الحزن عليهم في قوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ كناية عن قلة الاكتراث بهم وعدم الاغتمام بإعراضهم عن الإيمان، وفيه إشارة إلى حرص رسول الله ﷺ عليهم ورحمته بهم، وفيه إشارة أخرى إلى أنهم سيحل بهم ما يثير الحزن عليهم وهى لمحة جيدة لمحها ابن عاشور[(١)].

ويلحظ البقاعي أن النهي عن الحزن عليهم من الصفح المأمور به في قوله قبل

= ادامة النظر، ويفاد من هذا أن الكناية لا تستمد من المجاز والاستعارة إلا عند شيوع هذا المجاز والاستعارة حتي تصبح الحقائق مثل سفينة الصحراء وابنة الكرم وطويل اللسان . . الخ .

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ٨٢ .

ذلك: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ وقوله بعد في نهاية السورة: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ﴾[(١)] كل هذه الإشارات واردة ويحتملها المعنى والسياق. . . .والذي أدى إلى ثراء الدلالة هو تعديه الفعل (تحزن) بعلى والأصل أن يتعدى بمن فيقال: حزن من كذا فالتعدية بعلى لا تكون إلا لمغزى هو تضمين الحزن معنى الأسف، وهو الحزن الشديد المضر كقوله تعالى ﴿يا أسفي على يوسف﴾ وحينئذ يستنبط رحمته ﷺ بهم لحزنه الشديد المضر بسبب كفرهم وإعراضهم، كما يستنبط من التعدية بعلى الدلالة على أنه سيقع بهم ما يجعله يحزن عليهم، وما ذهب إليه البقاعي من دلالة النهى (لا تحزن) على الصفح عنهم فإنه ينظر إلى أن الأصل لا تحزن منهم، ويستلزم هذا الصفح عنهم. فانظر كيف أدى تعدية الفعل بعلى إلى تحريك المياه الراكدة وإثارة تلك المعاني كلها.

١٣- في قوله سبحانه: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ دعوة من الله سبحانه إلى رسول الله ﷺ ليتحول للمؤمنين اكتفاءً بهم، فإن الله سبحانه يجعل البركة في صحبتهم وينصر بهم والمعنى: ظلل عليهم بجناحك، بمعنى تعهدهم وتلطف بهم، ففيهم الخير لك والنفع لرسالتك، وتستعمل العرب خفض الجناح كناية عن التواضع والرفق[(٢)] كما استعمله القرآن في هذا في قوله سبحانه: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [سورة الإسراء: ٢٤] ولكن هذه الكناية ليست مقصودة هنا في قوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، لأن لكل سياق خصوصية يخلعها على تراكيبه، والسياق في سورة الحجر يشير إلى أن المقصود هو أن يعطف رسول الله ﷺ على أصحابه وأن يشملهم بعنايته وتعهده، وأن يكون شفوقًا بهم كشفقة الطائر على أفراخه حتى يخفض لهم جناحه حماية لهم وضنًا بهم لأنهم عدة رسالته وجنودها الذين يسيحون بها في كل البقاع والأصقاع. والله أعلم.

---

(١) نظم الدرر ١١/٨٨ .

(٢) وأصل هذه الكناية أنها مستمدة من تمثيل حال المخاطب بصورة الطائر الذي يجنح للدنو والهبوط فيخفض جناحه، لكن التمثيل شاع وصار كالحقائق، ولهذا بنيت عليه الكناية فصار قولنا: اخفض جناحك كناية عن التواضع .

سورة النحل

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [سورة النحل: ١٠٣].

سبب النزول:

أخرج آدم بن رياس والبيهقى وجماعة عن عبد الله بن مسلم الحضرمي قال: كان لنا عبدان نصرانيان من أهل عين التمر، يقال لأحدهما: يسار، وللآخر: جبر، وكانا يصنعان السيوف بمكة، وكانا يقرآن الإنجيل، فربما مر بهما النبى ﷺ وهما يقرءان فيقف ويستمع، فقال المشركون: إنما يتعلم منهما، وفي بعض الروايات أنه قيل لأحدهما إنك تعلم محمدا فقال: لا، بل هو يعلمنى[1].

وقد وردت هذه الآية في سياق تعديد شبهات المشركين حول القرآن والوحي من جهة نزوله على محمد ﷺ مع دفع هذه الشبهات والرد عليها بالحجج الدامغة، ومعنى الآية لا يستبعد ما ذكر حول سبب النزول، وإن كانت صياغتها تشير إلى بعض التفاصيل الدقيقة الملابسة لذلك السبب كما يتسق مع سياقها ويكتسب منه معاني إضافية.

من خصوصيات النظم:

١- القسم الذي تدل عليه اللام في (لقد) يشير كما يذكر ابن عاشور إلى أن خاصة المشركين كانوا يقولون ذلك لعامتهم تمويهًا عليهم وتلبيسًا، ولا يجهرون به بين المسلمين لأنه باطل مكشوف وأن الله سبحانه أطلع المسلمين عليه بالوحي[2] أي أن ذلك لما كان همسًا بينهم وأطلع الله المسلمين عليه أكده بقد وبالقسم على سبيل الاعتداد بالعلم الخاص به سبحانه، ثم إن مضاعفة التوكيد هو الأنسب لما قد

---

(١) أسباب النزول للنيسابوري ١٩٥، وانظر الصحيح المسند ١٤١ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ١٤/٢٨٦ .

يتبادر منهم من إنكار لما يقولون.

٢- لا إشكال في دخول (قد) على المضارع (نعلم) بالنسبة لله سبحانه كما قد يتبادر لما شاع أن قد مع الماضي تفيد التحقيق ومع المضارع تفيد التقليل، وهذا ما دفع صاحب البحر إلى تأويل المضارع بمعنى الماضي قائلاً: المراد علمنا، كما نقل عنه الألوسي، لكن المعول عليه في تحديد المراد من قد وما دخلت عليه هو السياق سواء وردت مع الماضي أم مع المضارع، لهذا أسلم بعض المفسرين بدخول قد على المضارع مع تفسيره تفسيرًا حسنًا يجعل في المعنى نكتة ومزية، يقول أبو السعود: «وصيغة الاستقبال لإفادة استمرار العلم بحسب الاستمرار التجددي في متعلقه فإنهم مستمرون على تفوه تلك العظيمة»[١].

وهذه قولة ملهمة، لأنه يعني أن الله سبحانه علم ما قيل ويعلم ما يقال، وفيه إشارة إلى استمرار تلك المقولة حينا بعد حين، أي القول بأن القرآن مستمد من غيره من أشخاص أو من كتب، فالمعنى في الآية أشمل من ذلك السبب الخاص الذي ورد في كتب أسباب النزول.

ولقد سمعت بأذني في بدايات القرن الواحد والعشرين من ذمي نصراني وأنا أحاوره متبسطًا معه في الحديث، سمعته يقول: إن أكثر ما في القرآن مأخوذ من التوراة، وبعد فترة من الزمن تذكرت قوله ذاك وأنا أراجع تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ فبدا لي بعد مراجعة سبب النزول أن قصد هؤلاء: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ مما في التوراة والإنجيل من أفكار وقصص، وعلى هذا ففي الجملة القرآنية التي تحكي مقولتهم إيجاز وتركيز شديد لأنها تتضمن ما يلي: لقد علمنا مقالة المشركين ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ مما في التوراة والإنجيل، ونعلم ما يقوله أمثالهم مستقبلا، وهذا ما شير إليه (نعلم) وإنما عبر بالمضارع، لأن العلم بما لم يقع مستقبلاً يستلزم العلم بما وقع ماضيًا من باب أولى، ولازم ذكر العلم هو الإشارة والتلويح إلى ما يترتب عليه من تهديد ووعيد شديد.

---

(١) إرشاد العقل السليم، والاستمرار التجددي يحل إشكال قول الكثيرين إن المضارع يفيد الاستمرار، فبإضافة التجددي ينحل ذلك الإشكال .

٣- يعرق القرآن ما يقوله الخصوم بأمانة شديدة وبالصياغة التي تستوعب مرادهم تمامًا دون تقصير أو تزيد، فصياغة معنى ما قالوه بجمله القصر وبإنما ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ يفيد إظهار ثقتهم فيما يقولون، وأنه معلوم على عادة الكاذب في الادعاء وإظهار الثقة فيما يدعيه، كما يفيد حصر التعليم في (بشر) أنه لا يعلمه غيره ولا يتلقى من غيره يقصدون نفي أن يكون القرآن بوحي من الله فيكون هذا مسوغًا لتكذيبه والكفر به فهى دعوى خبيثة، وهذا مرتبط بكلمة (بشر) دون تحديد اسمه، لأن الذي يهمهم إشاعة أن الذي يعلمه بشر لا ملك من عند الله.

فحاصل قولهم ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ تكذيب أن محمدًا ﷺ نبي يوحى إليه من السماء، بزعم أن ما يتلوه من تعليم بشر.

ولما كان هذا أمرًا خطيرًا لأنه يطعن في أساس الرسالة ويثير الشكوك في الرسول جاء الرد سريعًا قاطعًا متوحشًا بالحجة والبرهان القاطع في قوله تعالى:

﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾.

٤- يذكر العلماء أن هذه الجملة استئناف بياني، وهذا يعني أن الجملة السابقة ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾تثير ترقب المستمع للرد عليهم، كما تؤدي إلى استشراف كل نفس وتساؤلها: ماذا يقول الله سبحانه في الجواب عليهم، فيأتي الرد ملبيًا تلك الحركة النفسية والفكرية للمخاطين ومجيبًا على استشرافهم وترقبهم بالكلام المقنع لأنه يعتمد على البرهان الساطع إذ يقول: إن هذا البشر الذي يلحدون إليه أي يميلون إليه، ويقصدون أنه هو الذي يعلم محمدًا مما عنده في الإنجيل أو التوراة لسانه أعجمي يعني إنه ألكن لا يقيم العربية ولا يحسنها لكن القرآن بلسان عربي مبين.

وهذا من المذهب الكلامي المفحم، وإن شئت فقل إنه من المنطق الوجداني الذي يضرب على الأوتار النفسية والفكرية بهدف استدراج الخصم، إذ يعرض رأيه أولاً ثم يبطله ويكشف ما فيه من ضعف، ففي عرض الزعم استدراج إلى ما بعده من الرد الذي يبطله ويدحضه، وإن كان قد ثبت أن القرآن منزل من عند الله عن طريق روح القدس وأمين الوحي، ولكنه منهج القرآن الذي ينصف الخصوم فلا يصادر عليهم وإنما يعرض ما عندهم من باطل ثم يرد عليهم بالحجة التي لا يدفعها

إلا جاهل أو معاند أو مختل.

٥- في قوله: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيٌّ﴾ عبر باللسان والمقصود اللغة، فينصرف إلى طريقة أداء المعاني لا المعاني في ذاتها، لأن المشركين قصدوا أن ما يتلوه محمد من قرآن: أفكاره وقصصه موجودة في كتب السابقين كالتوراة والإنجيل فيكون الرد عليهم هو اختصاص القرآن بالنظم العربي المبين المعجز، يقول أبو السعود: «وتقريره أن القرآن معجز بنظمه كما أنه معجز بمعناه، فإن زعمتم أن بشرًا يعلمه معناه، فكيف يعلمه هذا النظم الذي أعجز جميع أهل الدنيا»[١].

وقد نقل الآلوسي عن الكرماني لفتة دقيقة وعبارته: «المعنى أنتم أفصح الناس وأبلغهم وأقدرهم على الكلام نظمًا ونثرًا وقد عجزتم وعجز جميع العرب عن الإتيان بمثله فكيف تنسبونه إلى أعجمي ألكن»[٢].

وحاصل هذا خطاب المشركين قائلًا: أنتم عجزتم عن الإتيان بمثله وأنتم الفصحاء فكيف يستطيعه غلام نصراني أعجمي كما ادعيتم أنه يعلمه من الإنجيل سوى أن هذا من المغالطة أو سوء التفكير والافتراء.

قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [سورة النحل: ١٠٦].

سبب النزول:

قال ابن عباس: نزلت في عمار بن ياسر، وذلك أن المشركين أخذوه وأباه ياسرًا وأمه سمية فعذبوهم حتي قتل أبوه وقتلت أمه، وهما أول قتيلين في الإسلام، وأما عمار فإنه أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهًا فتركوه، فأتى رسول الله ﷺ وهو يبكي، فجعل رسول الله يمسح عينيه وقال: «**إن عادوا لك فعد لهم بما قلت**»، فأنزل الله هذه الآية»[٣].

---

(١) إرشاد العقل السليم ٣/ ١٩٤ .

(٢) روح المعاني ١٤/ ٢٣٤ .

(٣) أسباب النزول للنيسابوري ١٩٥ .

موقع الآية:

بعد أن تبين حال الذين لم يؤمنوا أصلاً في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة النحل: ١٠٤] أعقبه ببيان حال أسوأ هي حال من كفر بعد إيمانه، يدل على هذا أنه حكم على الصنف الأول بأن (لهم عذاب أليم) وحكم على الصنف الثاني بأن: (فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) لأن هؤلاء عاينوا نور الإيمان لكنهم ضاقوا به وانشرحت صدورهم بالكفر حبًا في الدنيا ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

ومن خصوصيات النظم:

١- اللافت بداية في صياغة تلك الآية أنها لم تختص بالسبب الذي ذكروه ويتصل بعمار بن ياسر، فلم تقتصر على حكم من أكره على النطق بالكفر وقلبه مطمئن بالإيمان، لم تنفرد بهذا وإنما جاءت لمعنى آخر هو الأساس وهو الذي بدأت به الآية ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ و ﴿شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

أما المعنى الذي ذكر المفسرون أن الآية نزلت بسببه فهو معنى فرعي جاء على سبيل الاستثناء، لأنه يستثنى من العودة للكفر بعد الإيمان من أكره على النطق بالكفر فنطق به وقلبه مطمئن بالإيمان فهذا لا يشمله الغضب ولا العذاب.

ولو ذهب أحد إلى أن ما ذكروه ليس هو السبب الأساسي في نزول الآية وأن هناك سببًا آخر يتعلق بشخص آخر عاد للكفر بعد الإيمان لكان لرأيه حجة، وربما كان هو الأصوب لأنه يلتحم بالمعنى الأساسي الذي سيقت له الآية وبدأت به.

ومن المؤكد أن هناك من آمن في الصدر الأول ولم يصمد لابتلاء التعذيب، فضاق بهذا الدين، ووجد في الكفر مستراحًا وانشراحًا[1] لأن الإيمان لم يمس منه

---

(١) كما تدل صياغة بقية الآية (ولكن من شرح بالكفر صدرًا) ويذكر ابن عاشور «أن الغلام الذي عنوه بقولهم (إنما يعلمه بشر) قد أسلم ثم فتن فكفر وهو جبر مولى عامر بن الحضرمي» التحرير والتنوير ١٤/ ٢٩٢ .

الشغاف، ولم يهتز له الوجدان والكيان، فلم يصمد لأول ابتلاء ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [سورة العنكبوت ٢ : ٣] ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [سورة العنكبوت: ١٠] وكان أحرى بالمفسرين أن يربطوا آية (من كفر بالله من بعد إيمانه) بسببها الحقيقي أو بالسبب الأساسي فيها فيذكرون طرفًا من هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم إلى جانب ما ذكروه من قصة عمار بن ياسر الذي أكره على النطق بالكفر.

وربما يلتمس لهؤلاء جميعًا العذر حرصهم على تعليق الآية بسبب لافت يبرز رحمة الله تعالى بعباده، لأنه سبحانه لا يؤاخذ على ما نطق باللسان مكرها، ولأنه يؤسس بذلك حكمًا عامًّا، ولا يخص حالة فردية، بدليل ما في الصياغة من عموم، فلم تحدد شخصًا أو تذكر اسمًا وإنما تتناول كل من كان على شاكلة عمار، ولعل مما يساعد على هذا التعبير باسم الوصول (من) ففيه عموم لا يوجد في (الذي)[1].

لكن هذا العذر لا يسوغ ترك الأولى وهو اللفت إلى المعنى الأساسي في الآية، والذي كان ينبغي أن يتعلق به سبب النزول وهو حكم من ارتد عن الإيمان إلى الكفر، وهذا لا يمنع من الاهتمام بالمعنى الفرعي الذي جاء استثناء من حكم عام (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) لأنه يؤسس حكمًا دالًا على رحمة الله بعباده المقهورين الذين شهدوا له بالوحدانية واطمأنت قلوبهم بالإيمان وإن نطقت ألسنتهم بغير ذلك قهرًا وقسرًا.

٢- إن وجود هذا الحكم الفرعي الخطير في ضمن معنى آخر دليل من أدلة الإعجاز ومظهرًا من مظاهر، ذلك أنه يضمن معنى مهم في داخل معنى آخر هو الإطار لدرجة أن المعنى الفرعي بلغ من أهميته درجة أنه شغل الكثيرين عن ذلك المعنى الإطار والأساس، وهذا من تكاثر الدلالات القرآنية في أقل حيز من التعبير فهو من الإعجاز.

---

(١) بدليل التعبير عن الذات الإلهية بالذي (تبارك الذي بيده الملك) والتعبير عن الخلق جميعًا بمن ﴿ولله يسجد من في السموات ومن في الأرض﴾ .

٣- أما الآية التي هى أصل فيمن تعرض للتعذيب وأكره وقلبه مطمئن بالإيمان فهى قوله تعالى في السورة نفسها وبعد الآيات السالفة بقليل: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة النحل: ١١٠] يقول أبو السعود: **«هاجروا إلى دار الإسلام وهم عمار وأصحابه رضي الله عنهم... عذبوا على الارتداد وتلفظوا بما يرضي الكفار مع اطمئنان قلوبهم بالإيمان»**(١) **ويقول الألوسى: «وكون الآية في عمار وأضرابه رضي الله عنهم مما ذكره غير واحد، وصرح ابن اسحاق أنها نزلت فيه وفي عياش بن أبي ربيعة والوليد بن أبى ربيعة والوليد بن الوليد»**(٢) **ومع أن هناك أقوالاً أخرى في سبب نزول هذه الآية ذكرها النيسابوري إلا أن ما ذكره أبو السعود والألوسي هو الأقرب إلى معنى الآية ونظمها بدليل قوله** ﴿مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾(٣) أي عذبوا في دينهم وإيمانهم، وقوله في فاصلة الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فيه إشارة إلى أن الله سبحانه وإن استثنى عمارًا وأضرابه من الكفر إلا أن هذا النطق في ذاته ذنب يحتاج إلى المحو بالجهاد في سبيل الله ليكون دليلاً عمليًا على صدق الإيمان واطمئنان القلب به والله أعلم بما في الصدور ولكن حتى لا يكونوا أسوة وذريعة يستسهلها المبتلون يقول سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وصياغة صدر الأية ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ فيها لفتة إلى أن الله سبحانه لهم فهو وليهم، وهو لهم يعينهم ويؤيدهم، وهو لهو لا عليهم، ولم يقل: ثم إن ربك مع الذين هاجروا؛ لأن هذا ليس مقام إثبات المعية، ولكنه مقام إثبات العفو والتأييد، فلن يضرهم ما نطقوا به مكرهين طالما كانوا صادقين في إيمانهم

---

(١) إرشاد العقل السليم ٣/ ١٩٥ .

(٢) روح المعانى ٤/ ٢٤٠ .

(٣) الفتن في الأصل إدخال الذهب في النار لتظهر جودته من رداءته، ثم تجوز به عن البلاء وشاع حتى نسي المجاز فصار حقيقة في الابتلاء للاختبار .

بالهجرة والجهاد والصبر.

٤- وإذا كان قوله من قبل: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ يفيد مجرد الاستثناء والخروج من حكم الغضب والعذاب الذي يقع على من كفروا بعد إيمانهم وشرحوا بالكفر صدرًا، فإن الآية التالية ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ تجاوز ما سبق إلى منزلة أسمى وأعلى هي منزلة المهاجرين من ديار الكفر إلى ديار الإيمان والمجاهدين المخلصين والصابرين.

والعطف بثم يفيد هذا التباعد في المنزلة بين ما قبلها وما بعدها، يقول أبو السعود «وثم الواقعة في صدر الآية للدلالة على تباعد رتبة حالهم هذه عن رتبة حالهم التي يفيدها الاستثناء من مجرد الخروج عن حكم الغضب والعذاب»[1] وشتان ما بين المنزلتين: الأولى: براءة من الكفر بهذا الاستثناء ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ والثانية: تأييد ونصر وغفران ورحمة، والبداية بثم في قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَٰهَدُوا﴾ يفيد هذا التباعد.

ولم يقل ثم إن الله لذين هاجروا، لأن في (ربك) ربوبية دالة على التأييد وإضافة دالة على التكريم، وفيها إشارة إلى مدخلية رسول الله ﷺ في العفو والتأييد، ولعلنا نذكر ما ورد في النزول من أن عمارًا جاء للرسول وهو يبكي أسفًا على ما نطق به فجعل ﷺ يمسح عينيه ويطبّب خاطره، وكأن الإضافة في (ربك) تلمح إلى أن الله عفا عنهم إكرامًا لرسوله ﷺ، يقول الألوسي: «وفي إضافة الرب إلى ضميره عليه الصلاة والسلام إظهار لكمال اللطف به عليه السلام وإشعار بأن إفاضة آثار الربوبية عليهم من المغفرة والرحمة بواسطته عليه السلام ولكونهم أتباعًا له»[2].

٦- أما العطف بثم بين الهجرة والجهاد في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَٰهَدُوا وَصَبَرُوٓا﴾ ففيه دليل ثان على رحمة

---

(١) إرشاد العقل السليم ٣/ ١٩٥ .

(٢) روح المعاني ١٤/ ٢٤٠ .

الله سبحانه بهؤلاء الذين فتنوا في دينهم، لأن ثم هنا تدل على أنه لا يشترط الجهاد بعد الهجرة مباشرة، إذ تعطي لهم فرصة لالتقاط الأنفاس ثم يأتي الجهاد على التراخي بعد أن يستردوا عافيتهم وقوتهم ويصبحوا قادرين على الجهاد، فهذا ما يفيده وقوع (ثم) بين هاجروا وجاهدوا ولو أنه قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا﴾ أو فجاهدوا وصبروا لكان عفو الله عن هؤلاء ومغفرته ورحمته بهم مشروطة بالجهاد بعد الهجرة مباشرة وهو غير مراد، ويؤيده الواقع التاريخي، فإن أولى الغزوات - بدر - كانت في السنة الثانية للهجرة، وهذا يتسق تمامًا مع نزول الآية في أواخر العهد المكي، وكأنها تهيئ المؤمنين وتعدهم نفسيًا للجهاد حتى أصبحوا هم الذين يتشوقون إليه وينتظرون إذن الله به.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [سورة النحل: ١٢٦].

سبب النزول:

حدثنا صالح المري قال: حدثنا سليمان التميمي عن أبي عثمان النهدي عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: **«أشرف النبي ﷺ على حمزة فرآه صريعًا، فلم ير شيئًا كان أوجع لقلبه منه، وقال: «والله لأقتلن بك سبعين منهم»** فنزلت الآية السابقة[1].

بين النظم وسبب النزول:

عندما نعود للآية ونصغي لما فيها نجد الخطاب لسائر المؤمنين بضمير الجمع الذي ورد أربع مرات، ولو أن الرسول قد توعد بقتل سبعين كما جاء في سبب النزول لجاءت الآية تخاطب الرسول وحده بضمير المفرد، وقد علمنا القرآن أن الأمر الخاص برسول الله ﷺ يتجه فيه الخطاب إليه مفردا كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ الآية.

فإذا ما عدنا إلى الآية التي معنا ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ وجدنا أن المرجح اتجاه الخطاب إلى المسلمين جميعًا للأسباب الآتية:

---

(١) أسباب النزول للنيسابوري ١٩٦ .

١- أن الآية التالية فيها خطاب للرسول ﷺ بضمير المفرد ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ معطوفًا على خطاب الجمع في ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ﴾ وقوله: ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ مما يدل على اختلاف الخطاب عن قوله ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾.

٢- أن التوعد والتهديد بذلك الانتقام الجماعي ليس مما يليق بالنبي الذي أرسله الله رحمة للعالمين.

٣- أن في إسناد ذلك الحديث ضعف نبه إليه ابن كثير ونقله النيسابوري «لأن صالحًا - الذي ورد في سلسلة الرواة - هو ابن بشير المري ضعيف عند الأئمة، وقال البخاري: هو منكر الحديث»(١).

٤- ومما يؤكد أن الخطاب لسائر المؤمنين أن هناك سببًا آخر لنزول الآية بسند صحيح من طريق آخر ذكره الترمذي في سننه هو: «عن أبي بن كعب قال: لما كان يوم أحد أصيب - قتل - من الأنصار أربعة وستون رجلًا ومن المهاجرين ستة منهم حمزة فمثلوا بهم، فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يومًا مثل هذا لنربينّ - لنزيدن - عليهم، فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ الآية(٢).

لكنا على أي حال عندما نضع في الاعتبار هذا السبب نجد ارتباط الآية بما قبلها غير واضح، فما الصلة بين قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ الآية. وبين قوله سبحانه ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ إذا وضع في الاعتبار ذلك السبب الخاص الذي نزلت من أجله وهو توعد الأنصار بالانتقام من الكفار، إن هذا ما دفع البعض إلى إنكار ذلك السبب الوارد في نزول الآية؛ لأن السورة مكية، والمناسبة التي ذكروها كانت بعد الهجرة للمدينة وبعد غزوة أحد، يقول الألوسي: «واختاره - أي إنكار هذا السبب - بعضهم لما يلزم عليه من عدم الارتباط المنزه

---

(١) أسباب النزول للنيسابوري ١٩٦ .

(٢) الصحيح المسند ١٤٣ .

عنه كلام رب العزة جل شأنه، إذ لا مناسبة لتلك القضية لما قبل»[١] ولكن تظهر المناسبة عند القول بأنها مكية، وأنها ليست لذلك السبب المذكور، والمقصود حينئذ «إيجاب مراعاة العدل في العقاب مع من يناصبهم إذا ما احتدم الجدال وأدى النزاع إلى القراع»[٢] وتمسك أهل الباطل بباطلهم، ولم تنفع معهم حكمة ولا موعظة.

وعلى الرغم من وجاهة هذه المناسبة وظهورها فإن هذا لا يتعارض مع القول بسبب النزول الذي رواه أبى بن كعب والذي يتضمن وعيدًا وتهديدًا من الأنصار بالانتقام، لا سيما وقد تواترت جهات متعددة على رواية ذلك السبب، ولكن الذي ينبغي أن نكون على ذكر منه أن الآية وإن ارتبطت في نزولها بسبب خاص فإنها تصاغ صياغة عامة من ناحية وتوضع في سياق خاص من ناحية أخرى، فلا ينبغي حينئذ أن نحكم ذلك السبب الخاص في عطاء الآية وفي مناسبتها بجاراتها.

وعلى هذا فلا يمكن أن نجد مكانًا في القرآن أنسب لهذه الآية ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ من وقوعها بعد قوله سبحانه ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ الآية؛ لأن السابقة تؤسس منهجًا في الدعوة يؤدي إلى تعطيف القلوب نحو هذا الدين، ولا شك أن هذه الغاية تتحقق بالعدالة في القصاص، والآية اللاحقة وإن جاءت لسبب خاص فإن روح معناها يتناسب مع روح المعنى في الآية التي تسبقها، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب على كل حال.

ثم إني أجد في نفسي ميلًا إلى أن قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ الآية.. أوسع في روحها من أن نحصرها في تنظيم العلاقة بين المؤمنين والكافرين، بل إن كونها في تنظيم العلاقة بين المتخاصمين المسلمين أولى وأحرى، ذلك لأن قوله ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾ يعني ترك العقوبة تسامحًا والاستعصام بالصبر، وهذا لا يمكن أن يكون مطلوبا من المؤمنين في تعاملهم مع الكافرين حتى لا نعطيهم الدنية في ديننا، وقد قال الله عز وجل: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى

---

(١) روح المعاني ١٤/ ٢٧٥ .

(٢) إرشاد العقل السليم ٣/ ٢٠١ .

ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [سورة المائدة: ٥٤].

وإذا كان المسلمون مطالبين بالعدل في الرد على الكفار فلا يجاوز المثل فإن هذا هو الحد الأدنى في التعامل معهم كما قال سبحانه: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة البقرة: ١٩٤].

فقد ذكر الرد بالمثل ولم يتعرض بكلمة واحدة للصبر أو العفو؛ لأن الحديث بشأن الرد على المشركين، أما قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة الشورى: ٤٠]، فقد ذكر الرد بالمثل ورغب في العفو ووعد بالمكافأة عليه؛ لأن هذه الآية بشأن العلاقة بين المسلم والمسلم، ومثلها - والله أعلم - قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ لا سيما وأن مادة الصبر ترددت أربع مرات: مرتان سابقًا، ومرتان لاحقًا في قوله ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أما قوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ فالغالب أنها تشير للمنافقين الذين آمنوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم، وكشفهم الله لرسوله، فلم يكن من الممكن مواجهتهم بالسيف بعد النطق بالشهادتين وهم مع ذلك يمكرون ويكيدون، لهذا سرّى الله عن رسوله بقوله ﴿وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ ثم طمأنه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾.

وعلى ذلك يكون قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ في شأن الحوار مع الكافرين.

وقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ في شأن المؤمنين فيما بينهم عند الخلاف أو النزاع.

وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ في شأن التعامل مع المنافقين، والله أعلم.

وهذا الاتجاه يعفينا من الخلاف الذي ترتب على توجيه قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟﴾ ناحية الكفار «فمن آخذ بظاهر الآية في تحديد المماثلة وهو الشافعي فيدخل فيه نوع القتل وعدده، وثان يرى أن المراد المماثلة في العدد حسب، وأما

نوع القتل فالقصاص لا يكون لا بالسيف ولو كان المقتول بحجر وهو رأي أبي حنيفة، بل يرى الواحدي أن الآية منسوخة»[١].

فإن هذا الخلاف إنما نشأ من تعليق هذه الآية بالتعامل مع الكفار، ولو اتجهنا إلى أنها تنظم العلاقة فيما بين المسلمين لكان هذا هو الأنسب للمعنى ولما كان هناك خلاف.

على أن الآية يصعب حملها على التعامل مع الكفار مع ما فيها من تعريض بالعفو مع الصبر كما سبق إلا إذا كان المسلمون في موقع القوى والمشركون في موقف الضعيف الذي ينتظر العفو ويرجوه، فلا بأس حينئذ من حمل الآية عليه، وهذا ما ألمح إليه البقاعي وهو يفسر قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ يقول: أي كانت لكم عاقبة عليهم تتمكنون فيها من أذاهم (فعاقبوا بمثل)... ويُلمح مرة أخرى إلى هذا وهو يعلل لبناء الفعل للمفعول في قوله: ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم﴾ يقول: «ولما كان الأمر عامًّا في كل فعل من المعاقبة من أي فاعل كان[٢] فلم يتعين بتعيين الفاعل غرض بنى للمفعول في قوله ﴿عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾[٣] ثم نراه يصرح بما ذكره أولاً في تفسير (عاقبتم) وأن المقصود به أن يكون المسلمون في موطن القوة والتمكن من الكفار، يقول: «فلما نزلت الآية بادر ﷺ إلى الامتثال، وكان لا يخطب خطبة إلا نهى عن المثلة، وأحسن يوم الفتح بأن نهى عن قتالهم وأعتقهم بعد أن صاروا في قبضته ﷺ»[٤].

إن الحث على الصبر والتلميح للعفو حينئذ يلقى صداه عند نفوس قوية متمكنة، ماذا يفعل بهم رسول الله ﷺ وقد نادى فيهم: ماذا تظنون أني فاعل بكم فكان جوابهم: «أخ كريم وابن أخ كريم» إنهم في هذه الحالة من الضعف والانكسار والاستعطاف جديرون بالعفو الذي ينطلق بسماحة ورضىً: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» أما

---

(١) راجع روح المعاني ٤/ ٢٥٨ .

(٢) يشير بهذا إلى إمكان تعدد المستفيدين بهذا المبدأ السمح - كفارًا - أم مؤمنين - إلخ .

(٣) نظم الدرر ١١/ ٢٨٢ .

(٤) نفسه ١١/ ٢٨٣ .

فيما سوى هذا وحين يكون الوضع معكوسا فإن العفو حينئذ ضعف، ثم إننا إذا قلنا بالعفو في حال القوة والمداراة في حال الضعف فمتى ينتصف المسلمون لأنفسهم.

إن صياغة الآية ترجح ذلك العموم الذي يتسع ليتناول المؤمنين فيما بينهم أو المؤمنين مع الكافرين حين يكون الكافرون في موقف الانكسار والضعف.

ومن خصوصيات النظم:

١- أنه عبر عن الإيذاء الذي كان سببًا في العقوبة بقوله: ﴿عُوقِبۡتُم﴾[1] وهذا من المشاكلة لقوله ﴿عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ﴾ والتعبير عن الاعتداء والإيذاء بلفظ العقاب يشير إلى أن العقاب وإن كان حقًّا مشروعًا فإن تنفيذه ربما يؤدي إلى رد، والرد يترتب عليه رد، وهكذا تستمر سلسلة العقاب، ولا شك أن حسم هذا ومنعه يكون بتوقف أفضل الجانبين وأقدرهم على الصبر، وذلك لا يكون إلا من المؤمنين الصادقين الذين تواصوا بالصبر ومارسوه فأصبحوا هم الأقدر عليه، ولهذا تجد قوله: ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ فالصبر خير من العقاب، وهو خير للصابرين، فالثمرة الطيبة يجنيها الصابرون دون غيرهم ثوابًا من عند الله وسيرة محمودة عند الناس لمنع إراقة الدماء.

٢- لم يقل: ولئن صبرتم فهو خير لكم، لكن قال: ﴿لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ وذلك لإظهار وصف الصابرين مدحًا لهم وبصيغة اسم الفاعل الدالة على أن هذه الصفة صارت عنوانًا لهم وشرفا ينتسبون إليه على الدوام، فهم قادرون عليه متمكنون منه حتى صار وصفًا ثابتًا.

٣- إن عرض المعنى بصياغة الشرط (وإن عاقبتم) يشارك، في التلميح للعفو والتعريض به؛ لأن الأداة (إن) تستعمل عندما يكون وقوع الفعل ضعيف الاحتمال، والمعنى: أن اللائق بكرمكم هو العفو فإذا كان لا بد من العقاب فليكن بالمثل دون

---

(١) ذكر البلاغيون أن هذا من المجاز المرسل بعلاقة المسببية لأنه ذكر المسبب وأراد السبب؛ أي ذكر العقوبة وأراد سببها وهو الاعتداء، والمشاكلة هى التي استلزمت هذا المجاز، وقد منع بعضهم اجتماع المجاز والمشاكلة مع أن المشاكلة لا تخلو من المجاز . راجع كتابي (من وجوه تحسين الأساليب) .

زيادة، فليس الهدف من الرد إشباع غريزة التشفي والانتقام ولكن لمجرد الردع والزجر وإقامة حدود الله دون مزيد من إراقة الدماء، وهذا يمهد لقوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ فقد صرحت جملة الصبر مما همست به جملة العقاب قبلها.

٤- في قوله سبحانه ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ خطاب للرسول ﷺ، وقد أفرده بهذا الطلب مع أنه يدخل ضمنًا في الطلب الجماعي السابق، لأن الرسول خاصة لحقه من الأذى ما لم يلحق سواه فهو في حاجة إلى المزيد من الصبر، ولأنه القدوة والأسوة، ولا شك أن الجماعة تكون أكثر التزامًا؛ بالمطلوب عندما ترى سلوك القائد منسجمًا مع ما يدعو إليه.

٥- في قوله سبحانه ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ ذهب المفسرون مذاهب عدة في تفسير معنى الباء في (بالله) لكن أقربها إلى الغرض والسياق أن تكون للاستعانة، وهي تشير إلى أن الصبر صعب عند الشدائد القاسية، لكن من يتصبر مستعينًا بالله لا يخيّبه الله، فهذا وعد بالمدد والعون عند اللجوء إليه سبحانه.

٦- قوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ يشير إلى شفقة ورحمة الرسول بقومه على الرغم من إعراضهم؛ لأنه كان يحزن أسى على قومه وخوفًا من وقوع العذاب عليهم إن هم استمروا في عنادهم، أما النهي الثاني ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ فمن أجل الرسول نفسه لأنه كان يضيق من إعراض قومه ومكرهم.

٧- التعبير بقوله: (في ضيق) يشير إلى أن ذلك الضيق قد تضخم وأصبح له صورة وبدلاً من أن يكون الضيق في نفس نبي الله ﷺ أصبح هو يدخل في ذلك الضيق، وكأنه من عِظَمِهِ أصبح ظرفا يحيط بالرسول ويشمله، ففي هذه الاستعارة إشارة إلى مدى ما كان يصيب الرسول من ضيق، كما يشير إلى الآثار النفسية والصحية التي كانت تلم بالرسول ﷺ عندما كان يضيق بمكر قومه وكيدهم.

٨- تحمل كل من هاتين الجملتين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ معنى أوليًا مباشرًا ثم تترادف وراءه معان ثوان ليس لها حصر، فالمعني الأول للجملة الأولى هو أنه سبحانه مع المتقين بالتأييد والحماية ووراء هذا تبشير

الرسول ﷺ والمؤمنين بحسن العاقبة عند التسليم والتفويض وترك الحزن والضيق، وتشير أيضًا إلى التشديد على الصبر الجميل، وهو تشديد قد يصل إلى التهديد، وهذا ما لمحه الرازي، وهو يعقب على الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾. . . . قائلا: «وهذا يجري مجرى التهديد، لأنه في المرتبة الأولى رغب في ترك الانتقام على سبيل الرمز، وفي المرتبة الثانية عدل عن الرمز إلى التصريح في قوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ وفي المرتبة الثالثة أمرنا بالصبر على سبيل الجزم، وفي المرتبة الرابعة كأنه ذكر الوعيد لمن لم يستعصم بالصبر بغية الانتقام ولم يثق في معية الله فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ عن استيفاء الزيادة ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ في ترك أصل الانتقام، فإن أردت أن أكون معك فكن من المتقين ومن المحسنين»(١).

قصد الرازي أن قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ ينصرف إلى المرحلة الأولى في ضبط النفس والرد بالمثل دون زيادة خوفا من الله، وقوله: ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ ينصرف إلى المرحلة الثانية في الترقي والتسامي وهي مرحلة الصبر وترك أصل الانتقام، وكون الله مع هؤلاء وهؤلاء يشير بالتخلي عن تلك المعية عند عدم التقوى أو الإحسان وهذا هو التهديد الذي يلمح من وراء هاتين الجملتين. والله أعلم.



---

(١) التفسير الكبير ٢٠/ ١٤٣ .

سورة الإسراء

١- وجه اجتماع بدر والمعراج والشجرة الملعونة:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [سورة الإسراء: ٦٠].

هذه من الآيات التي تعددت أسباب النزول فيها بحسب تعدد جملها فقد ورد في سبب نزول الجملة الأولى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ أنه لما تزاحم الفريقان يوم بدر ورسول الله ﷺ في العريش مع أبي بكر، كان يدعو ويقول: «اللهم، إني أسألك عهدك ووعدك لي»، ثم خرج وعليه الدرع ويقول: (سيهزم الجمع ويولون الدبر) التفسير الكبير فتكون الجملة الأولى (وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس) طمأنة للرسول ﷺ وبشرى له بالنصر، والمقصود بالناس أهل مكة، والإحاطة هي السيطرة والغلبة، ويجوز أن يكون المقصود: أحاط بالناس علمًا، فيكون فيه تهديد للكفار وتبشير للرسول ﷺ والتعبير بالناس وما فيه من شمول يرجح الاحتمال الثاني، لأن الإحاطة بالناس علما يستتبع التفسيرات الأخرى ويدل عليها باللزوم، فإحاطة العلم تستلزم السيطرة والغلبة.

أما قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾، فيقول الرازي في سبب نزولها: «**إن الله أرى محمدًا ﷺ في المنام مصارع كفار قريش ودماء بدر، قال: «والله كأني أنظر إلى مصارع القوم»** ثم أخذ يقول: «هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان» فلما سمعت قريش ذلك جعلوا رؤياه سخرية، وكانوا يستعجلون بما توعد به رسول الله ﷺ، يعني لم يصدقوا واستهزءوا فتكون الرؤيا التي عبرها رسول الله فتنة لهم أوقعتهم في التكذيب والسخرية.

ومن دواعي التناسب أن سببي هاتين الجملتين يتصلان بوقعة واحدة وهي (بدر) وهذا يفسر تجاور الجملتين، وإن كان هذا لا ينبغي أن يشغلنا عن حقيقة أخرى هي

أن سورة الإسراء مكية، لكن هذه الآية نزلت في المدينة قبيل غزوة بدر، وهذا ما جعل المفسرين يكادون يجمعون على أن تلك الرؤيا هي رؤية ما كان في الإسراء والمعراج من عجائب الأرض والسماء.

وهنا نعود إلى التساؤل عن مناسبة قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ وقد نزلت في بدر لقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ وقد نزلت كما سبق في الإسراء والمعراج؟ والجواب على هذا أن كليهما آية معجزة لرسول الله ﷺ، فإن إعلام الله تعالى رسوله بالنصر وأنه أحاط بالناس قبل المعركة ثم صدق ما أعلم به يعد آية، والإسراء والمعراج آية، فكلاهما آية، وهما معًا يتناسبان مع سياقهما، فقبلها مباشرة وفي نهاية الآية السابقة «٥٩ من سورة الإسراء» قال سبحانه: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾.

من خصوصيات النظم:

١- تصدير قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ بقوله: (قلنا لك) يجعل هذا كلامًا محكيًا، وقد جاء كذلك للإشارة إلى أنه قيل إلهاما مباشرا من غير واسطة جبريل عليه السلام، وهذا يؤكد ما جاء في سبب النزول من أنها كانت رؤيا منامية، ورؤيا الأنبياء حق.

٢- عبر عما رأى في الإسراء والمعراج بالرؤيا في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ مع أن الرؤيا تكون في المنام، والإسراء والمعراج كانا في اليقظة، وقد رأى الرسول ﷺ ما رأى بعيني رأسه (لقد رأى من آيات ربه الكبرى)، وبعض المفسرين يعلل هذا بأنه لا فرق بين الرؤيا منامية والرؤية بالعين يقظة بيد أنه قد تستعمل إحداهما في مكان الأخرى لنكتة ما وعند أمن اللبس وقد ذكر أبو السعود في تعليل هذا «أن الرؤية وقعت بالليل أو لأن الكفرة قالوا: لعلها رؤيا»[١] والحق أن وقوع الرؤية بالليل لا يسوغ تسميتها رؤيا، وتسميتها بما سماها به الكفار لا يجوز إلا عند قصد التعريض بتكذيبهم بالنص على تسميتهم سخرية وتشهيرًا بها، وهذا ربما يتسق مع معنى الجملة عندما يعلل تلك الرؤيا بأنها فتنة لهؤلاء حتى

(١) إرشاد العقل السليم ٣/ ٢٣٣ .

يخوضوا فيما خاضوا فيه من تكذيب واستهزاء بحدث فوق تصوراتهم المحدودة.

ويعلل البقاعى لاستعمال لفظ الرؤيا تعليلاً سديدًا فيقول: «ولعله إنما سماه رؤيا - وهى المنام - على وجه التشبيه والاستعارة لما فيه من الخوارق التي هي بالمنام أليق في مجاري العادات»(١).

والذي يبدو - والله أعلم - أنه عبر عن الرؤية بالرؤيا ليشاكل الرؤيا المفهومة من قوله في صدر الآية ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ ومن المعروف أن تلك الإحاطة كانت برؤيا، والمشاكلة هي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته ليحدث ضرب من التلاؤم والتلاحم، فقد ذكر الرؤية بلفظ الرؤيا لوقوع الرؤيا في الجملة المجاورة ضمنًا لا نصًا، ويكون هذا نوعًا من المشاكلة لم يذكره البلاغيون وهو المشاكلة للمفهوم، أو مشاكلة اللفظ للمفهوم، ويكون استعمال الرؤيا في الرؤية من قبيل المجاز الذي نجده مع كل مشاكلة وقد أمن اللبس لوجود قرينة دالة على المعنى الأصلي المراد وهي قوله: (فتنة)؛ فلو كانت رؤيا منام، لما استبعدها أحد، ولما كانت فتنة لهم.

٣- ربما توقفت النفس أمام التعبير عن ذلك المعنى بأسلوب القصر في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ وهو يعني انحصار حادثة الإسراء والمعراج في سبب واحد هو الاختبار الذي يوقع في الفتنة، مع أن للإسراء والمعراج أسبابًا أخرى، وأبرزها ما ذكره القرآن في صدر سورة الإسراء ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، وفي سورة النجم ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾.

والجواب على هذا أن انحصار تلك الحادثة المعجزة في سبب واحد ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ إنما هو بالنسبة للكفار، فلم تكن الإسراء والمعراج لهم إلا فتنة، أما الغايات الأخرى فلم تتحقق لهم، فلا هم يدركون أن تلك المعجزة تكريم وتسرية للرسول ﷺ، ولا هم يصدقون أنه رأى من آيات ربه الكبرى أشياء لا تستوعبها طاقاتهم الفكرية الضيقة المظلمة.

٤- على أنه قد عبر بالناس، وهو لفظ أشمل وأعم من الكفار، لأن تكذيب

---

(١) نظم الدرر ١١/ ٤٩٥ .

الكفار متوقع معلوم، فلا يكون الاختبار لهم في الأساس ولا تكون الفتنة لهم، لأنهم ساقطون في الفتنة واقعون في أوحالها من غير ذلك الابتلاء، وإنما كان الاختبار وكانت الفتنة لمجموع الناس ليزداد الكافرون كفرًا، وليتبين الصادقون في إيمانهم من غيرهم، ولقد تعددت مواقف المؤمنين من قصة الإسراء ما بين متشكك فيها وآخر مسلم واثق من صدق رسول الله ﷺ، ولم تفلح محاولات أبي جهل الذي استغل الفرصة لزعزعة أبرز الرموز الإيمانية تصديقًا وهو أبو بكر الصديق الذي يحفظ التاريخ قوله: «إني أصدقه في الوحي ينزل من السماء، فكيف لا أصدقه فيما قال...».

وحاصل هذا أن الإيمان يتبلور في الإيمان بالغيب، وأن الفتنة والابتلاء كان عامًا لسائر الناس (مؤمنين وكافرين)، بل إنها للمؤمنين أقرب وأشد ليميز الله الخبيث من الطيب والصادق من الكاذب، وقد ثبت أن بعض المؤمنين ارتدوا عندما بلغهم نبأ الإسراء والمعراج.

أما قوله سبحانه: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾.

فيذكر المفسرون في سبب نزولها «عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة الدخان ٤٣ : ٤٤]، وقوله: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ [سورة الصافات٦٢ : ٦٤]، قال أبو جهل ساخرًا: هذا محمد يتوعدكم بنار تحرق الحجارة ثم يقول: ينبت فيها الشجر، وما نعرف الزقوم إلا التمر بالزبد، وأمر جارية له فأحضرت تمرًا وزبدًا، وقال لأصحابه: تزقموا»[1].

ولا شك في أن ما ذكر يكشف لنا عن المقصود بقوله في نهاية الآية: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ وأى طغيان واستكبار أكبر من الاستهزاء بما يخوف الله به عباده حتى جعل منه أبو جهل مادة للسخرية فلا يرى الزقوم شيئًا غير

(١) راجع أسباب النزول للنيسابوري ٢٠٠ .

التمر مخلوطًا بالزبد.

ومن غرائب النكات هنا:

١- الإيجاز بالتلميح في قوله: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ إذ اكتفي بهذه الكلمة الموجزة مشيرًا بها وملمحًا إلى تفاصيل الحديث عنها في سورة أخرى (الدخان والصافات) والقرآن كيان نصي مكتمل يكمل بعضه بعضًا بدون تكرار، فلقد سبق في سورة الدخان أن شجرة الزقوم طعام الكفار، وأنه يغلي في البطون، ثم بين في سورة الصافات التربة التي تنبت فيها تلك الشجرة وشكل ثمارها في توافق عجيب، فهي تنبت في أصل الجحيم وقعره، وهل ينبت في النار إلا النار، ثم إن ثمارها غريبة تشبه رءوس الشياطين، وهل الشياطين إلا من النار، وهل في رءوس الشياطين إلا الحقد والغيظ والشر، فأي عذاب ذلك الذي يحدث من أكل تلك الثمار، ثم إن تلك الشجرة ما صارت ملعونة إلا لأن الشياطين الذين شبهت بهم ملعونون.

والحاصل أنه قال ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ ملمحًا إلى تفاصيل تلك الشجرة في مواقع أخرى، فليكن هذا من إيجاز التلميح، وهو هنا يرتبط بإيجاز الحذف أو إيجاز التقدير، لأن المعنى: وما جعلنا الشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس، فهذا هو التقدير الذي يقتضيه العطف علي ما قبله ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾، وبهذا يجتمع على كلمة واحدة نوعان من الإيجاز على أدق وأحكم ما يكون في البيان، ولا تجد لهذا نظيرًا في كلام العرب، فهو من إعجاز القرآن.

٢- وإذا كان العطف يشرك المعطوف مع المعطوف عليه في الحكم على الوجه الذي دل النظم عليه، فمعنى هذا أن الاختصاص في المعطوف عليه ينسحب على المعطوف فيكون المعنى «وما جعلنا الشجرة الملعونة فيالقرآن إلا فتنة» فكيف يحصر الغرض من شجرة الزقوم في الفتنة هنا مع أن المعارض الأخرى ليست للفتنة فحسب، ولكن هي مع ذلك (طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون).

والجواب على هذا أنه لا تعارض، وأن حصرها في الفتنة هنا لا ينفي كونها طعام الأثيم، لأن المنفي الذي يقتضيه جملة القصر شيء آخر له صلة بالفتنة ويتعلق

بالظالمين، وكأنه قال: جعلنا الشجرة الملعونة فتنة للظالمين لا خيرا لهم والله أعلم.

٣- المناسبة التي سوغت العطف والاقتران بين الرؤيا والشجرة المعلونة أن كلًا منهما فتنة، فالإسراء والمعراج كانا فتنة، وشجرة الزقوم كانت فتنة للظالمين ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ [سورة الصافات: ٦٣] وإجتماعهما معًا في الفتنة يدل على أن المقصود بالناس في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ هم الظالمون؛ أي: الذين ظلموا أنفسهم بالتشكك أو التشكيك والذين ظلموا الحقيقة بالتكذيب.

٤- قوله سبحانه: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ معطوف على التقدير السابق؛ أي: وما جعلنا الشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة، ولقد كانت الشجرة الملعونة للتخويف والإنذار، فالعطف على هذا ليس من عطف تخويف على تخويف، ولكنه قصد أن التخويف بعد حديث شجرة الزقوم بغيرها وقتًا بعد وقت بوسائل متعددة وما أكثر التخويف والإنذار في القرآن الكريم على فترات، وهذا يمهد لقوله: ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ وفيه إشارة إلى قسوة قلوب هؤلاء الذين لا ينفع معهم التخويف، وأنهم مصرون على الكفر.

٥- صياغة القصر والحصر في قوله: ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ يشير إلى أنهم لم يستجيبوا للتخويف مرة واحدة، ولم يفتحوا لعقولهم طاقة من النور أبدًا، لهذا لم يردعهم التخويف ولم يزدهم إلا طغيانًا واستكبارًا، فكلما تجدد التخويف تجدد العناد، وحاصل هذا أنهم تمسكوا بكفرهم (وما ربك بظلام للعبيد).

٢- يسألونك عن الروح

قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سورة الإسراء: ٨٥].

سبب النزول:

عن عكرمة عن ابن عباس قال: قالت قريش ليهود: أعطونا شيئًا نسأل عنه هذا الرجل؟ فقال: سلوه عن الروح، فسألوه عن الروح فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ

ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾(١) وروى أن اليهود هم الذين سعوا إلى قريش فقالوا: سلوه عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح؛ فإن أجاب عنها جميعًا أو سكت، فليس بنبي؛ وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض، فهو نبى، فبين رسول الله لهم القصتين وأبهم أمر الروح وهو مبهم في التوراة(٢).

بين النظم والسبب والموقع:

جاء لفظ الآية عامًا في السائل فلا يحدد سائلاً بعينه، وهذا يجوز إحدى الروايتين السابقتين على احتمال أن تكون قريش هي الساعية لليهود ليعرفوا منهم شيئًا؛ فلما عرفوا سألوا، أو أن اليهود هم المحرضون للسؤال ابتداء وعلى سبيل الاختبار، وهذا على صحة علمهم من التوراة أن الروح سر من أسرار الله كما ورد في نهاية الرواية الثانية: «وهو مبهم في التوراة».

ومع أن الآية نزلت في سبب خاص فإنها وضعت في السياق الملائم الذي لا تصبح فيه هذه الآية معنى قائمًا بذاته، فقبلها قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الإسراء:٨٢]، ثم قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ [سورة الإسراء: ٨٤]، ومعنى يعمل على شاكلته يعني على طريقته التي تشاكل جوهر روحه ومعدن نفسه، فالأرواح والنفوس الطاهرة يظهر فيها من القرآن إشراق ونور (نور على نور). وأما النفوس الكدرة، فيظهر فيها من القرآن خزي وضلال (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارًا).

فلما كان الحديث عن اختلاف الطرائق بحسب اختلاف الأرواح ناسب هذا عرض سؤالهم عن الروح والجواب عليه.

ويذكر الألوسي أن هذه الآية ورد بعدها ذكر القرآن ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ [سورة الإسراء: ٨٦]، وقوله:

---

(١) الصحيح المسند من أسباب النزول ١٤٦ .

(٢) نفسه ١٤٦ .

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [سورة الإسراء: ١٠٦]، وقبلها قوله تعالى: (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارًا) وبينهما جاء قوله: (ويسألونك عن الروح)... على سبيل الاعتراض للدلالة على خسار الظالمين وضلالهم بأنهم مشتغلون عن تدبر القرآن والانتفاع به إلى التعنت بسؤال ما اقتضت الحكمة سد طريق معرفته[1]. فالآية مناسبة لسياقها.

ويرى بعض المفسرين أن الروح بمعنى القرآن مستندًا في هذا إلى تسمية القرآن في قوله تعالى: **(وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا) ويرون أن ذكر القرآن قبل (ويسألونك عن الروح)** وبعدها يرشح لهذا التفسير حتى تكون آيات القرآن كلها متناسبة كما ذكر الرازي[2].

والأولى هو الأخذ بالرأي الأول، والآية مع القول به لا تقل اتساقًا وتناسبًا في موقعها كما تبين من قبل.

ومن نكات هذه الآية:

١- أنه قال: (ويسألونك عن الروح قل الروح....) وكان مقتضى الظاهر أن يقول: ويسألونك عن الروح قل هي.... بذكر ضمير الروح لقرب مرجعه، ولكنه أظهر في موضع الإضمار لشدة العناية بأمر الروح والاهتمام بشأنها، وحتى يصير الإخبار عنها مستقلًا راسخًا جاريًا مجرى الأمثال.

٢- الإضافة في قوله: (أمر ربي) قصد بها اختصاص علمها بالله سبحانه، وليس المقصود خلقها أو إيجادها، لأن هذا أمر مفروغ منه، وإنما المقام مقام تخصيص العلم بالله سبحانه، وقد لخصوا هذا بقولهم: إن الإضافة للاختصاص العلمي لا الإيجادي.

٣- إيثار ذكر الرب هنا في قوله: (من أمر ربى) ولم يقل: قل الروح من أمر الله؛ لأن المقام مقام ربوبية وما يتصل به من علم وتدبير، وإضافة رب إلى ضمير رسول الله ﷺ للاعتزاز والتشريف؛ أي: أن العلم بالروح من اختصاص ربي الذي

(١) روح المعانى ٥/١٥٢ .

(٢) التفسير الكبير ٢١/٣٩ .

أحاط بكل شيء علمًا ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء؛ ولما كان هذا جوابًا من رسول الله ﷺ على السائلين كانت فرصة للاستدلال على مصداقية دعوته إلى ربه الذي يعلم ما لا تعلمون (وما أوتيتم من العلم إلا قليلًا).

- وفي هذا الجواب حسم للأطماع في معرفة كنه الروح وفيه ردع للناس كي يقفوا عند منتهى قدرات تفكيرهم وعلمهم فلا يتجاوزون حدودهم، وليس أدل على صدق القرآن وإعجازه وصدق هذه الرسالة من أنه بعد مرور أكثر من أربعمائة وألف سنة لم يظهر حتى الآن أحد يدعي علمه بالروح في عصر التقدم العلمي الرهيب يعجز العلماء عن خلق نملة أو ذبابة لعجزهم عن معرفة سر الروح، وسبب عجزهم عن ذلك أن الله هو الذي خلق العقل وقدر المساحة التي يتحرك فيها، فهو يمنحه ما يشاء فيعلمه، ويمنعه عما يشاء فلا يعلمه. والله أعلم.

٣- ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها.

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [سورة الإسراء: ١١٠].

سبب النزول:

أخرج ابن مردويه وغيره عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ بمكة ذات يوم فدعا فقال في دعائه: «**يا الله يا رحمن**» فقال المشركون: انظروا إلى هذا الصابئ ينهانا أن ندعو إلاهين وهو يدعو إلاهين، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ الآية........(١).

بين النظم والسبب والموقع:

يشير سبب النزول إلى أن الرسول ﷺ كان يدعو بأسماء الله الحسنى، وأن الآية جاءت ردًّا على المشركين فيما قالوا، وكان مقتضى الظاهر أن يأتي الخطاب لرسول الله ﷺ فيقول: ادع الله أو ادع الرحمن ولكن الخطاب جاء بالجمع (ادعوا) أي أنه لسائر المؤمنين، وتفسير هذا هو تطويع النظم لينسبك وينسجم مع السياق، جريًا مع المبدأ المعروف في النظم القرآني والذي عبر عنه الأصوليُّون بعموم اللفظ

(١) أسباب النزول للسيوطي على هامش مصحف التجويد ٣١٢ طبعة مؤسسة الإيمان بيروت .

لا خصوص السبب واللفظ يأتي عامًا لتتسع دائرة الخطاب والتوجيه والتعليم لسائر المؤمنين، لا سيما وأن هذا العموم يتسق مع السياق، فقبل هذه الآية قوله تعالى: **(ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعًا)** وهؤلاء هم الذين أوتوا العلم وعرفوا القرآن، فإنهم يقبلون عليه متضرعين فيزيدهم القرآن خشوعًا، وحينئذ يرجون رحمة ربهم، ويتوسلون بأسمائه الحسنى؛ لهذا كان من المناسب أن يأتي بعده قوله تعالى: (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن).

وبهذا صارت الآية وكأنها قد باعدت عن سبب نزولها لتلتحم بسياقها فجاءت على طريقة النظم قبلها، سوى أن الآية لا تخلو من إشارة إلى سبب النزول؛ إذ عاد إلى خطاب رسول الله ﷺ في قوله: (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها...) وفي ذكر الصلاة هنا بعد الدعاء (ادعوا الله) وقراءة القرآن (يتلى عليهم) يشير إلى أن أفضل الدعاء وأفضل القراءة ما يكون في صلاة، لأنها قيام بين يدي الله ففيها حضور قلب وصفاء نفس وخشوع.

ومن نكات النظم وخصوصياته:

١- فحوى الآية تعليم وإرشاد المسلمين إلى التوسل في الدعاء بأسمائه الحسنى التي لا تقتصر على اسم واحد، وأنه سبحانه لا يلزم باسم واحد يسمونه به ويدعونه سبحانه، وإنما ترك لهم الاختيار على سبيل التوسع ترغيبًا في الاتجاه إليه سبحانه بما شئنا من أسمائه.

وإنما بدأ باسم الله لأنه اسم الذات بما يشير إلى أنه الاسم الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب (والله أعلم)، وتلاه بالرحمن لأنه اسم من أسماء الصفات، ولذلك نقول: الله رحمن والله رحيم، والله سميع عليم وهكذا، ولم يقصد خصوص اسم الرحمن، وإنما اكتفي به عن ذكر غيره من أسماء الله الحسنى اعتمادًا على الاستدعاء وبحسب الحاجة الدافعة للدعاء، فقد يجد المؤمن نفسه يلهج باسم الستار أو اللطيف أو الشافي يدعو بحسب حاجته.

٢- اكتفى باسم الرحمن ودل به على غيره لشموله، فالرحمن هو الذي اتسعت رحمته لتشمل الدنيا والآخرة.

٣- في قوله سبحانه: (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) إشارة إلى أنه واحد،

وأن كل الأسماء تجتمع في واحد سبحانه وتعالى، فادعوا بما شئتم من أسمائه، فكلها لواحد لا إله إلا هو.

والدليل على أن المقصود من وراء (الله والرحمن) كل الأسماء قوله عقبه: (أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى)[١].

٣- ولما كان ما سبق يتضمن الحث على الدعاء المتخشع بما نشاء من أسمائه سبحانه حسب حاجاتنا قال: (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها) فهذا بيان للكيفية المثلى التي تتيح وتناسب موقف المحتاج المتذلل المظهر افتقاره وحاجته لربه سبحانه وتعالى.

٤- ليس المقصود بالآية إذن تشريعًا محددًا صارمًا لنزولها في ظروف خاصة، وحيث كان رسول الله ﷺ في بداية الدعوة مختفيًا، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت ورسول الله ﷺ مختف بمكة، كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به، فقال الله تعالى لنبيه ﷺ (ولا تجهر بصلاتك) أي: بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن (ولا تخافت بها) عن أصحابك فلا يسمعونك (وابتغ بين ذلك سبيلًا) الصحيح المسند ١٤٧ .

وقد ذكروا أن عمر رضي الله عنه كان يجهر في قراءته ويقول: أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان، وأبو بكر كان يخفت ويقول: أناجي ربي قد علم حاجتي، فلما نزلت الآية أمر رسول الله ﷺ أبا بكر أن يرفع قليلاً وعمر أن يخفض قليلاً» التفسير الكبير ٢١/ ٧٠ .

ومع أن فحوى هذا يناسب قوله في تذييل الآية: (وابتغ بين ذلك سبيلًا) إلا أن السبب الحقيقي لنزول الآية والذي ورد فيه سند صحيح هو السبب الأول وإن ارتبط بظرف خاص وفي بداية الدعوة حيث كان المشركون يسمعون القرآن عندما يكون جهرًا فيسبون. . . . . . . إلخ. أما السبب الثاني وما ورد فيه من أمر الرسول ﷺ

---

(١) سمعت من إذاعة القرآن الكريم القارئ يتلو قوله تعالى من سورة الحشر (له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السماوات والأرض) في نفس التوقيت الذي كنت أكتب فيه (فله الأسماء الحسنى) من سورة الإسراء، يا إلهى ما أسمى هذا التوافق، مهما كان فهو إشارة مريحة ومطمئنة . والله أعلم .

لعمر أن يخفض قليلاً ولأبي بكر أن يرفع قليلا فليس سببًا في نزول الآية، ولكنه حدث بعد نزولها بدليل ما ورد في تلك الرواية «لما نزلت الآية قال رسول الله ﷺ لعمر ولأبي بكر ما قاله...... فالمعول عليه إذن هو السبب الأول؛ لأنه سبب حقيقي سابق لنزول الآية، وهو يدل على أن الآية مرتبطة بظرف خاص، وحيث كان رسول الله مختفيًا في بداية الدعوة، ولكن هذا لا يعنى أن الآية منسوخة كما توهم البعض لأن سياقها أعطاها حياة جديدة وأمدها بمعان إضافية جعل لها مساقًا واتساقًا، ويتبين هذا بالنظر إلى أنها جاءت بعد قوله سبحانه: (ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعًا) فدل هذا على أن التوسط الذي تدل عليه تلك الآية هو الأنسب لحال الخاشع المتذلل المظهر ضعفه وحاجته فيدعو ويتوسل باسم من أسماء الله الحسنى يناسب افتقاره وحاجته؛ إذ لا يناسبه الجهر الشاغل عن التأمل والتذلل، ولا يناسبه الخفوت الذي لا يتحرك فيه اللسان ليوقظ الجنان والتحنان.

٥- ومع ذلك فإن الحالة النفسية والظروف الزمانية قد تساعد على ارتفاع الصوت، ويجد الداعي في الجهر لذة فيجهر ولا يكون في هذا مخالفًا، كما قد لا تساعد الحالة النفسية أو الزمانية على تحريك اللسان فيخفت، ولا يكون بذلك مخالفًا، وقد نجد لهذا وجهًا في قول أبي السعود: «وقيل: المعنى لا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها بأسرها، وابتغ بين ذلك سبيلًا بالمخافتة نهارًا والجهر ليلًا»(١).

وإذا صح ما روي عن عائشة رضي الله عنها من تفسير الصلاة بالدعاء، فلا يكون هناك تعارض مع ما سبق؛ لأن الصلاة المفروضة كلها قرآن وذكر ودعاء.

ولم يذكر أحد سببًا صريحًا للنهي عن الجهر بالدعاء إلا ما ذكروه في سبب النزول، وقد سبق أنه يرتبط بظرف خاص خشية سماع المشركين فيسبون، لكن بقاء النهي يدل على أن له أسبابًا أخرى متجددة، فيمكن أن يكون منها ما ورد عن عائشة: إنما ذلك في الدعاء والمسألة، لا ترفع صوتك فتذكر ذنوبك فيسمع ذلك فتعير بها»(٢) ويمكن أن يكون السبب هو تجنب شبهة الرياء عند توفر الدواعي... إلخ.

---

(١) إرشاد العقل السليم ٣/ ٧٣٦ .

(٢) راجع الصحيح المسند من أسباب النزول ١٤٧ .

وإذا أخذنا بروح المقصود من النهي وهو التخلي عن دواعي الانشغال أو الرياء أو إظهار المضرة وغير ذلك من النواقص المترتبة على الجهر أو الخفوت، مع تقدير التفاوت في أحوال الناس والزمن، فإن هذا كله مما يدعم ذلك الاحتمال الذي نقله أبو السعود وهو «لا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها، وابتغ بين ذلك سبيلاً بالمخافتة نهارًا والجهر ليلاً، وبذلك لا تتعارض هذه الآية مع قوله سبحانه: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾ [سورة الأعراف: ٥٥] ولا يكون هناك داع للقول بأن هذه ناسخة لتلك كما ذهب البعض. والله أعلم بمراده.



سورة الكهف

١- من يعمل لله ويفرح لثناء الناس:

قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [سورة الكهف: ١١٠].

سبب النزول:

قال ابن عباس: نزلت في جندب بن زهير الغامدي، وذلك أنه قال: إني أعمل العمل لله، فإذا اطُلع عليه سرني. فقال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا ولا يقبل ما روئي فيه**» فأنزل الله هذه الآية.

وقال مجاهد: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني أتصدق وأصل الرحم ولا أصنع ذلك إلا لله سبحانه وتعالى، فيذكر ذلك مني، وأعمد عليه فيسرني ذلك وأُعجب به، فسكت رسول الله ﷺ ولم يقل شيئًا، فأنزل الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾(١).

موقع الآية:

بعد أن بيَّن الله سبحانه سعة علمه وأنه لا يمكن لأحد أن يحيط بهذا العلم، وتجسد هذا عن طريق التمثيل الكاشف في قوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ وبعد أن أمر رسوله ﷺ أن يكون أول معترف بهذا، مقر أنه بشر مثلهم لا يعلم إلا ما علمه الله بالوحي وعلى رأس هذا كلمة التوحيد التي هي أساس كل علم في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

ناسب هذا كل المناسبة أن يتفرع عليه ما يقتضيه توحيد الله وتعظيمه ورجاء لقائه في الآخرة من الاستعداد بالعمل الصالح الخالص لوجه الله تعالى ﴿فَمَن كَانَ

---

(١) أسباب النزول للنيسابوري .

يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾.

بين النظم وسبب النزول:

ذكر الألوسي أن قوله تعالى: (إنما إلاهكم إله واحد) يتناول الألوهية والوحدانية، فالألوهية يتفرع عنها العمل الصالح (فليعمل عملاً صالحًا) والوحدانية يتفرع عنها عدم الإشتراك (ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا)(١).

ومع ما في هذا الربط من وجاهة فإنه يفصل بين الذات والصفة (الإله الواحد) مع ما بينهما من تلازم، ثم إنه يحمل قوله: (ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا) على مجرد الوحدانية ونفي الشركاء، مع أن حمل هذا على ترك الرياء في العمل أولى لدلالة نظم الآية عليه، لأنه قدم الأمر بالعمل الصالح حيث قال: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ فيكون الكلام كما يقول الألوسي نفسه في قوة قولك: فليعمل عملاً صالحًا ولا يرائي بعمله أحدًا فيفسده.

ويؤيد هذا ما ورد في سبب النزول، فإن جندبًا لم يسأل عن شيء يتعلق بالوحدانية ونفي الشريك أو الشركاء، وإنما سأل عن العمل يعمله لوجه الله ثم يجد في نفسه سرورًا عندما يطلع أحد عليه، فكان جواب رسول الله ﷺ (إن الله لا يقبل ما شورك فيه) فنزلت الآية تُصديقا لهذا.

وربما تعارض هذا مع حديث آخر ورد في سبب نزول الآية في المشركين الذين عبدوا مع الله إلاهًا غيره وليست في المؤمنين(٢) فربما كان هذا رأيا آخر ذكره ابن عباس، لكن نظم الآية يحسم المراد، ولا يمكن تجاهل دلالة التقديم للعمل في قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾؛ فلو قلنا: إن المقصود بالنهي هو طلب اعتقاد الوحدانية، لترتب عليه البدء بالفرع وتقديمه على الأصل، وهذا على خلاف ما جرت به عادة النظم القرآني الذي يتكرر فيه قوله تعالى: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات).

ثم إننا نسمع في هذا السياق وقبيل الآية التي معنا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

---

(١) ينظر روح المعاني ١٦/ ٥٥ .

(٢) نقل الألوسي هذه الرواية بنصها عن شعب الإيمان للبيهقي في المرجع السابق ١٦/ ٥٥ .

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾، فبدأ برأس الأمر وهو الإيمان الذي يعني الوحدانية وعبادة الله وحده لا شريك له وأتبعه بالعمل الصالح، أفلا يكون ما جاء بعدها من قوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ هو امتداد لبيان العمل الصالح الذي يعتمد عليه ويعتد به؟ ومع هذا كله فلا بأس من حمل المعنى في قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ على عمومه ليتناول الشرك الجلي والشرك الخفي.

ومن نكات نظم تلك الآية:

١- في قوله سبحانه (فمن كان يرجو لقاء ربه):

يحتمل أن يكون المقصود رؤيته سبحانه أو كرامته، أو هو مجاز عن البعث واليقين به، وإنما عبر بالرجاء وهو في الأصل توقع حصول الخير وذلك للإشعار بأن المؤمن الصادق لا يخشى البعث، وإنما يرجوه ليلقى ثواب ربه، وما أعده له عوضًا عن حرمان متاع الحياة الدنيا، ومن ثم فالإيمان بالبعث يفيض على نفس المؤمن رضًا وارتياحًا وفرحًا؛ لأنه بالبعث ينتقل من دار الفناء إلى دار البقاء ومن دار العمل إلى دار الجزاء حيث يلقى الله راضيًا عنه؛ لهذا فإنه يرجو لقاء الله، على أن التعبير بلقاء ربه يعكس الفرق بين من يلقى الموت جازعًا ومن يلقاه راضيًا؛ لأنه في الطريق إلى لقاء ربه، ولا شك أن هذا الإحساس المغروس في نفس المؤمن يدفعه إلى العمل المخلص ابتغاء وجه من يرجو لقاءه.

٢- لم يقل: فمن يرجو، ولكن أدخل الفعل (كان) وهو للماضي على الفعل (يرجو) وهو للمستقبل للدلالة على ما يليق بحال المؤمن من الاستمرار على رجاء لقاء ربه، بحيث يكون هذا شعورًا ملازمًا له يترجمه إلى عمل صالح لا يتوقف؛ ولو قال: فمن يرجو لقاء ربه، لدل على أن هذا الرجاء يتجدد وقتًا بعد وقت بلا استمرار، فلما دخلت (كان) دلت على ذلك الاستمرار الذي ينبغي أن يكون عليه المؤمن، ومن داوم الرجاء داوم العمل.

٣- لم يقل: فمن كان يرجو لقاء الله كما قال في سورة العنكبوت: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ﴾.. الآية الخامسة من سورة العنكبوت، وإنما هنا: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ لأن المجال هنا مجال تذكير بمصدر الخلق والإيجاد

وترسيخ مقتضى الربوبية من عبادة وعمل صالح، ثم إن ذكر الله بلفظ الرب يتيح الإضافة المشعرة بالفضل والامتنان.

٤- ومن أجل هذا أعاد لفظ الرب في قوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ ولو أنه قال: ولا يشرك بعبادته أحدًا، لفهم المعنى وعرف مرجع الضمير، ولكنه آثر الإظهار في موضع الإضمار لترسيخ الشعور بالربوبية التي تعنى الخلق والإيجاد والرعاية والعناية، وما يقتضيه هذا من العمل الخالص لوجه الله تعالى، مع ما في هذا الإظهار من اللفت إلى قيام جملة ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ مقام المثل في الاستقلال.

٥- الفاء في قوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ للتفريع؛ أي: أن ما بعدها متفرع على (إنما إلهكم إلاه واحد) وذلك يعني أنه يوحى إليه بوحدانية الإله وبإثبات البعث وبالأعمال الصالحة المخلصة لوجهه سبحانه، لكن نظم القرآن المعجز رتب هذه الثلاثة بطريقة تشعر بأن البداية بالأساس وهو الإيمان بالله الواحد، وأن هذا الأساس كالشجرة التي تمتد جذورها في أعماق المؤمن ثم يتفرع أهم الفروع والذي يمثل الجوهر بالنسبة للمؤمن وهو الإيمان بالبعث، فهو مقدم على العبادات من صلاة وزكاة، وهذا واضح في صدر سورة البقرة في قوله سبحانه: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ .

فإن الإيمان بالغيب يتناول الإيمان بالله والإيمان بالبعث بعد الموت للحساب، وهذا يدفع للعمل الصالح النقي من كل شائبة. والله أعلم.



سورة مريم

١- وما نتنزل إلا بأمر ربك:

قال تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [سورة مريم: ٦٤].

سبب النزول:

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال النبي ﷺ لجبريل : «**ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟**» فنزلت: (وما نتنزل إلا بأمر ربك).

خصوصيات النظم:

١- في قوله سبحانه: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ جاء الفعل بالتضعيف من التنزل ليدل على أنه نزول غير عادي، فإن التنزل هو النزول على مهل بحيث يستغرق التنزل وقتًا أطول مما يستغرقه النزول، وهذا يتواءم تمامًا مع مقتضى حال جبريل الذي تأخر بالوحي فترة قيل: إنها خمسة عشر يومًا. وقيل: أربعين فاستبطأه رسول الله ﷺ ونزل بعدها جبريل بهذه الآية الدالة على أنه لا يتنزل بالوحي على مهل إلا بأمر الله.

٢- ومن تجاوب النظم القرآني مع مقتضيات النزول وملابساته مجيء قوله: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ بأسلوب القصر وبطريق النفي والاستثناء، وذلك في نظم المعنى المحكي عن جبريل عليه السلام، وهو أسلوب قوي وجدير بتبرئة ساحة جبريل لما رأى من عتاب رسول الله ﷺ فالقصر حينئذ ينفي أن يكون لجبريل عليه السلام أدنى تدخل في توقيت التنزل، وإنما مرده ومرد توقيته إلى الله سبحانه وبإذنه، وفي ذلك ترضية للرسول ﷺ وطمأنة له.

٣- ومن وسائل الطمأنة التعبير بالرب وإضافته إلى رسول الله ﷺ، فلم يقل: (بأمر الله)، وإنما قال: (بأمر ربك) فعبر بالربوبية لطمأنته ﷺ عن طريق إشعاره بأن

ربه الذي رباه على عينه وأعده لرسالته لا يمكن أن يتخلى عنه، وفي الإضافة تكريم وتشريف ومزيد من الطمأنة.

٣- قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ روح المعنى والمقصود منه التسليم المطلق لمن بيده الأمر كله والملك كله، وقد أخذ البعض بظاهره فقال: معناه: له ما قدامنا وما خلفنا من الجهات، وحاصله أننا لا نملك الانتقال من جهة إلى أخرى ومن مكان إلى مكان إلا بأمره ومشيئته، وهذا يناسب ما قبله (وما نتنزل إلا بأمر ربك). ويرى بعضهم أن قوله: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾؛ أي: ما سلف من أمر الدنيا، (وما خلفنا)؛ أي: ما نستقبل من أمر الآخرة، (وما بين ذلك)؛ أي: ما بين النفختين وهو أربعون سنة، أو له ما مضى من أعمارنا، وما بقي، والحال التي نحن فيها، أو ما قبل وجودنا، وما بعد فنائنا، أو له الأرض التي بين أيدينا، والسماء التي وراءنا، وما بين السماء والأرض.

ومع أن بعض هذه الاحتمالات أقرب إلى روح المقصود من بعض، فإن عموم النظم القرآني يجعلها جميعًا محتمله، ولهذا يقول الرازي: «وعلى كل التقديرات فالمقصود أنه المحيط بكل شيء لا تخفى عليه خافية ولا يعزُب عنه مثقال ذرة، فكيف نقدم على فعل إلا بأمره وحكمه».

وكان يكفي في جواب جبريل أن يقول كما يحكيه القرآن: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ ولكن استئنافه الكلام بقوله: (له ما بين أيدينا وما خلفنا) من التعليل الذي يتضمن التنبيه من طرف خفي إلى ما كان من قلق الرسول ﷺ لتأخر الوحي، وكأن هذا المعنى (له ما بين أيدينا وما خلفنا) غاب في ضباب القلق من رسول الله ﷺ فهو كالمعاني التعريضية التي تفهم من جانب اللفظ ومن سياق الكلام.

٤- في قوله بعد ذلك: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ يمتزج فيه الترفق والتلطف والتكريم مع العتاب الرقيق لما كان من قلق رسول الله ﷺ عندما تأخر الوحي، فالله سبحانه منزه عن النسيان، ورسول الله يعلم هذا، ولكنه بقلقه نزل منزلة من وقع في وهمه أن الله نساه، فكأن في التعبير بالنسيان عتابًا خفيفًا لا يخلو من تلطف وترفق وتكريم في (ربك)؛ أي: الذي رباك ورعاك للرسالة وأعدك لا يمكن أن يكون تاركًا لك، والدليل على هذا أنه يدير شئون السماوات والأرض ويصرّفهما

(رب السماوات والأرض وما بينهما) ثم يكشف عن وسيلة، التثبيت والاصطبار بقوله ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾.

٢- حوار حول البعث بين العاص بن وائل وخباب:

قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالٗا وَوَلَدًا ۝٧٧ أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ۝٧٨ كَلَّاۚ سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا ۝٧٩ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا﴾ [سورة مريم: ٧٧ - ٨٠].

سبب النزول:

عن مسروق عن خباب قال: كنت قينًا في الجاهلية، وكان لي على العاص بن وائل دَيْن فأتيته أتقاضاه، فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد. فقلت: لا أكفر حتى يميتك الله ثم تبعث. قال: دعني حتى أموت وأبعث فسأوتى مالاً وولدًا فأقضيك، فنزلت: ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالٗا وَوَلَدًا﴾ الآيات.

بين الموقع والنظم:

من يراجع سياق هذه الآيات في سورة مريم يجد تشكيك الكافرين في صحة مواقف المؤمنين بحجة دنيوية حاصلها أن الكافرين أيسر حالاً من المؤمنين وأكثر وجاهة ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا﴾ [سورة مريم: ٧٣]، يريدون أن يقولوا للمؤمنين: لو كنتم على الحق وكنا على الباطل لكان حالكم في الدنيا أحسن، لكن الأمر على العكس، وجاء الرد ينسف حجتهم ﴿قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا﴾ [سورة مريم: ٧٥]؛ لهذا تمادوا في العناد فقال أحدهم، وهو العاص بن وائل وعلى افتراض تحقق ما تهدد به من البعث: فسنحصل على ما حصلنا عليه في الدنيا من مال وولد.

فالآيات متمكنة في سياقها، وتمثل حلقة من حلقات عناد الكافرين.

غرائب النظم:

١- في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ المستفهم هو رب العزة سبحانه في خطابه لرسول الله ﷺ، والغرض من الاستفهام يتعلق بالمخاطبين على

سبيل التعجيب، فهو دعوة لرسول الله ولكل مستمع أن يتعجب من حال ذلك الشخص ومن جراءته على الله.

وعبر بالرؤية في (أفرأيت) مع أن الرؤية ليست شرطًا للعلم فقد يكفي فيه الاستماع، وهي غير متاحة لمن يخاطب بهذه الآية في الأزمان التالية، فالتعبير بهذا الفعل لا يستلزم حتمًا رؤية ذلك الشخص ومشاهدته، ولكنه مع هذا «يؤذن بأن حال ذلك الكافر من الشناعة والغرابة بحيث يجب أن ترى» هذا هو تعليل أبي السعود للتعبير بهذا الفعل، ولكنه يقتصر على من خوطب عند نزول الآية؛ أما من عداهم فإن الفعل يستنفر ملكات الاستحضار والتخيل التي ترسم لذلك الشخص صورة غريبة كما تدل عليها الآية، فنحن عندما نستمع إلى هذا الفعل وما تبعه، ولا سيما تلك الحال التي يقول فيها: لأوتين مالاً وولدًا إلخ، فإننا نرسم له في خيالنا صورة مدهشة ساخرة.

٢- لم يقل: أرأيت الذي كفر، وإنما قال: (أفرأيت) فعطف بالفاء للإشارة إلى معطوف مقدر دخلت عليه أداة الاستفهام، وعطف عليه الفعل (رأيت) ويدل المقام، على أن المقدر فعل آخر هو: أنظرت فرأيت ذلك الكافر، فيكون الاستفهام قد تضمن مع التعجيب معنى الحض والحث على النظر المتأمل لرؤية تلك الحال العجيبة، والداعي إلى التعجيب من حال ذلك الشخص أنه كفر بآيات الله الناطقة بوحدانيته وقدرته (كفر بآياتنا)، وإضافة الآيات إلى ضمير الجمع الذي يعود إليه سبحانه للاعتداد بتلك الآيات، وفي هذه الإضافة إشارة هامسة إلى أنها من وضوح الدلالة بحيث لا تخفى على من له مسكة من عقل.

٣- إن ما يدعو إلى الدهشة والتفكه والتندر أن ذلك الشخص يناقض نفسه بشكل فاضح، فهو يكفر بآيات الله والبعث بعد الموت - كما يدل السياق - وفي الوقت ذاته يثق فيما عند الله من عطاء، وهذه الثقة تبدو واضحة من التأكيد في قوله: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ فكيف يجتمع كفر بآيات الله مع ثقة في عطاء الله سوى أن يكون هذا استهزاءً وتبجُّحًا داعيًا إلى الدهشة والعجب. يقول البقاعي: «فلم يكفه في جهله تعجيز القادر حتى ضم إليه إقدار العاجز».

وهناك احتمال آخر هو أن يكون المقصود هو العطاء الدنيوي في (لأوتين مالاً

وولدًا)؛ أي: أنه كفر وحلف أنه سيحصل على المال والولد في دنياه التي لا يؤمن بغيرها، ويكون حصوله على المال والولد - دالًا من وجهة نظره - على صحة موقفه، ولقد كان الكفار يعتقدون - خطأ - أن غناهم ويسرهم دليل على أنهم على الحق، وأن كون المسلمين أو بعضهم في فقر دليل على أنهم على الباطل، وهذا هو المنطق الدنيوي المادي الذي انطلق منه هذا الرجل عندما كفر وحلف ليحصلن على مزيد من المال والولد كما يدل التنكير في (مالاً وولدًا).

ويبدو أن هذا التفسير هو الأقرب؛ لأنه يتجاوب مع السياق، فقبله قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [سورة مريم: ٧٣]، ويدل على هذا التجاوب أنه رد على هؤلاء بقوله: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ ورد على الذي كفر وقال لأوتين مالاً وولدًا بقوله: ﴿كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ ففي كل منهما إمهال لمزيد من الضلال ومزيد من العذاب.

وهنا نجدنا أمام معادلة صعبة، بين أن يكون المقصود بقوله: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ هو العطاء في الدنيا، والسياق قبله يؤيده، أو العطاء في الآخرة، والسياق بعده يرجحه (أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدًا) ويدل عليه سبب النزول؛ لأن العاص بن وائل كان يقسم على ذلك إن بعث.

وينبغي أن نأخذ بالمقصودين طالما وجد في السياق ما يدل على كل منهما ولا تعارض بينهما؛ ولذلك نجد الزمخشري بعد أن يذكر المعنى المرتبط بالنزول وهو العطاء في الآخرة يقول: «ويحتمل أنه قد تمنى وطمع أن يؤتيه الله تعالى مالاً وولدًا في الدنيا، وبلغ به جشعه أن حلف على ذلك، فرد سبحانه: هب أنّا أعطيناه ما اشتهى أما نرثه في العاقبة ويأتينا غدًا فردًا بلا مال ولا ولد؟ فما يجدي عليه تمنيه وحلفه». ويبدو أن الزمخشري كان يذكر هذا الاحتمال كبديل للاحتمال الأول، بدليل أنه يطوع المعنى بعده ليكون موافقا؛ لهذا استبعده الألوسي؛ لأنه لا يتفق مع سبب النزول الذي أخذ به أكثر المفسرين ليكون المقصود هو الحلف على ذلك في الآخرة إن بعث (لأوتين مالاً وولدًا) وقد ورد في سبب النزول قوله: «إني إذا بعثت

وجئتني فسيكون لي ثَمَّ مال وولد فأعطيك»[١].

فما المانع أن يكون ذلك الحلف على ما سيحصل عليه من مال وولد في الدنيا والآخرة، لا سيما وأن في السياق ما يؤيد كلًا منهما وبلا تعارض بينهما.

٤- في قوله سبحانه في الرد عليه: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ عبر عن المعنى تعبيرًا حسيًا لإبراز ذلك الشخص في صورة ساخرة عندما تجاوز حدوده كأنه أدعى علمًا بالغيب، وذلك بتصويره في صورة من ارتقى بسلم وصعد حتى أشرف على الغيب وتمكن منه فاستقرأه وعرف ما سيكون له.

وهذا كله يعبر عنه ذلك الفعل المصور «أطّلع» وهو يزيد في المعنى عن طَلَعَ؛ لأن (طَلَعَ) تعنيي الصعود، و(اطّلع) تعني الصعود بقوة والارتقاء على وجه العلو الحسي، كقوله سبحانه: ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾؛ أي: صعد عاليًا في درجات الجنة حتى تمكن من رؤية ذلك الكافر في قعر جهنم.

ومن الواضح أن هذا الفعل يرسم في الذهن صورة مركبة يتابعها الخيال فتثير النفس سخرية من ذلك الذي ادعى حصوله مستقبلاً على ما يطمع فيه، فكأنه صعد مجتهدًا إلى أعلى لاستشراف الغيب حتى تمكن منه وقرأ ما فيه، وهذه الصورة الساخرة تثير النفور من ادعاء ذلك الكافر الذي تجاوز فيه الحدود؛ لأنه ادعى ما لا طاقة له به ولا قدرة له عليه، على أن هذا يستتبع تصوير الغيب منشورًا لينظر فيه هذا السفيه.

وهذه الصورة المركبة ذات العناصر الممتدة في المكان والزمان والتي تصل بين السماء والأرض، وتحفل بالحركة المثيرة للتهكم والاشمئزاز قام برسمها وتكوينها فعل واحد في جملة واحدة من كلمتين اثنتين (أطّلع الغيب) وهذا من الإعجاز.

فما بالك إذا كان هذا واردًا في إطار الأسلوب الإنشائي الاستفهامي الذي يقصد منه التوبيخ والسخرية والتعجيب، وغير ذلك من المعاني المرتبطة بالاستفهام، والتي يولدها ذلك التصوير العجيب، وحاصل المعنى: إن قائلاً لا يقول ذلك مدعيًا حصوله على المال والولد مستقبلاً إلا إذا كان قد ضمن هذا وعلمه من قراءة

---

(١) أسباب النزول للنيسابوري ٢٠٩ .

الغيب، وهو ما لا يكون، وفيه تعريض بكذبه وجراءته.

٥- قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ يكمل طرف الصورة السابقة في إشارة إلى أنه لا يدعي ما ادعاه ذلك الكافر إلا عالم الغيب أو متخذ عند الرحمن عهدًا.

٦- وإنما قال: (عند الرحمن) ولم يقل (من الرحمن) للإشارة إلى أنه بادعائه كأنه ارتقى مرتقى صعبًا كما توحى به العندية بما فيها من ظرفية مكانية.

٧- والتعبير يتضمن أكثر من مستحيل كاتخاذ العهد وكونه عند الرحمن، فيكون ذلك الشخص - بادعائه ما ادعاه - كأنه جاوز المستحيلات، وهذا لا يشير إلى سفاهته وغبائه فحسب وإنما يرسم له صورة مضحكة.

٨- والتعبير بالرحمن يشير إلى حلم الحليم على سفاهته؛ ولولاها لبطش به وأخذه في حينها أخذ عزيز مقتدر، ولكن الرحمن الذي تتسع رحمته للمؤمن والكافر لا يعاقبه في لحظتها، وإنما يسجل ذلك عليه، ويمد له حبل العذاب استدراجًا وإمهالاً حتى يكون البطش عسيرًا يوم القيامة؛ لهذا جاء بعده قوله سبحانه: ﴿كَلَّاۚ سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا﴾.

٩- وإنما عبر بـ «كلا» وهي ردع وزجر؛ لما فيها من إيحاء بتخييب ظنه وتسفيه سعيه ووهمه، والتعبير بالكتابة كناية بطريق المجاز عن التسجيل ليكون حجة عليه؛ لأن مثله يكذب في الآخرة كما كذب في الدنيا، فيكون ما كتب حجة عليه لا يستطيع دفعها.

١٠- يجوز أن تكون الكتابة حقيقة وإنما التجوز في الإسناد؛ لأن الله سبحانه لا يكتب بنفسه، ولكن يكلف أو يأمر من يكتب من الملائكة ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٨٠].

١١- تأكيد المصدر في قوله: ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا﴾ يؤذن بشدة غضب الله تعالى عليه لكفره وافترائه على الله سبحانه واستهزائه بآياته العظام كما يذهب الألوسي، وحرف الدال ذو الجرس القوي الحاد يشعر بذلك الغضب، وتكراره يسهم في إشاعة الهول في هذا السياق.

١٢- التعبير بالميراث في قوله: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ تنبيه لذلك الغافل إلى نهايته وتهديد بقرب هلاكه، وقد بدأ بالتعميم في (نرثه) ثم خصص في قوله على سبيل الإبدال (ما يقول) أي: ماله وولده، وميراث الأموال لأنه يتركها، وأما ميراث أولاده فيرمز إلى غيب حدث بعد ذلك وهو دخول أولاده في دين الله، فعمرو بن العاص الصحابي الجليل دخل في الإسلام، وكذلك أخوه هشام الذي استشهد يوم أجنادين، ففي قوله: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ بشارة للرسول ﷺ ونكاية وكمد للعاص كما يذكر ابن عاشور.

إن قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾؛ أي: يبعث يوم القيامة بلا مال ولا ولد، ففيه تخييب لآماله، وتهييج لبلابل أحزانه.



سورة الأنبياء

١- الذين سبقت لهم منا الحسنى:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠١، ١٠٣].

سبب النزول:

عن يحيى عن ابن عباس قال: آية في كتاب الله عز وجل لا يسألني الناس عنها ولا أدري أعرفوها فلا يسالوني عنها؟ فسئل ما هي؟ قال: لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٨] شق ذلك على أهل مكة؛ فقالوا: أيشتم آلهتنا؟ فجاء ابن الزِّبَعْرَىٰ فقال: ما لكم؟ قالوا: يشتم آلهتنا. قال: فما قال؟ قالوا: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ قال: ادعوه لي، فلما دعي النبي ﷺ قال ابن الزبعرى: يا محمد، هذا شيء لآلهتنا خاصة أو لكل من عُبد من دون الله؟ قال: «**بل لكل من عبد من دون الله**» فقال ابن الزبعرى: خصمت ورب هذه البنية - الكعبة - ألست تزعم أن الملائكة عباد صالحون، وأن عيسى عبد صالح، وهذه بنو مليح يعبدون الملائكة، وهذه النصارى يعبدون عيسى، وهذه اليهود يعبدون عزيرًا. فضج أهل مكة، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ ونزلت ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾[(١)].

(١) راجع الصحيح المسند ١٥١، وأسباب النزول للنيسابوري ٢١١ .

بين النظم والسبب:

عندما ننظر في الآية السابقة التي جاءت تلك الآية في إثرها واحتج بها ابن الزبعرى، وهي قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ[1] جَهَنَّمَ﴾ نجد مغالطة في الاحتجاج؛ لأنه قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ فعبر بما وهي لغير العاقل؛ أي: الأصنام والأوثان، فكيف تتناول الملائكة وعيسى وعزيرًا إلخ.. وقد أشار إلى هذا بعض العلماء كالشيخ شرف الدين بن ريان بقوله: «إن لفظ (ما) لما لا يعقل؛ فلا يدخل العزير وعيسى والملائكة في عموم اللفظ»[2].

وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يثبت ما ورد في سبب النزول من سؤال ابن الزبعرى السابق وجواب الرسول ﷺ بقوله: **«بل لكل من عُبِد من دون الله»** فلقد كان مقتضى تعبير القرآن بـ«ما» التي تنصرف إلى الأصنام خاصة ألا يرد ذاك السؤال ولا هذا الجواب؟!

ونجدنا أمام اختيارين:

الأول: أن نبحث عن تأويل يصحح ما ورد في سبب النزول الذي أخرجه الطبراني، وذلك كأن تكون (ما) في قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ الآية مستعملة استعمالاً عامًا يشمل العاقل وغير العاقل كالأصنام وفرعون مثلًا، وذلك على تغليب غير العاقل إشارة إلى أن من يستخف قومه ويستعبدهم يفقد عقله ويصير من جملة البهائم والجمادات؛ فيصح التعبير عنه بـ«ما» دون (مَنْ)، وإلى هذا أشار النيسابوري في هامش أسباب النزول.

الثاني: أن تكون (ما) على حقيقتها وأصلها، ولا يكون فيها مجاز ولا تغليب، وقد قصد بها الأصنام والأوثان فلا يكون هناك مجال لسؤال ابن الزبعرى مع استبعاد أن يكون الرسول ﷺ قد أجاب بما ورد **«بل لكل من عُبد من دون الله»** وبهذا يرد ذلك السبب بتفصيله ولا ترد جملته، ويؤيد هذا أنه قد وردت إجابة أخرى عن

---

(١) حصب جهنم؛ أي: كالحجارة والحصى التي تتقد جهنم بها وتشتعل، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾.

(٢) الروض الريان في أسئلة القرآن ١/ ٢٦٧.

رسول الله ﷺ وذكرها بعض المفسرين، وهي قوله عليه الصلاة والسلام لابن الزبعرى: **«ما أجهلك بلغة قومك!!»**.

فهذا ما يقبله العقل، والشك في الإجابة الأولى لا ينفي الوارد في سبب النزول بجملته، لا سيما وأنه يتسق ويتلاءم تمامًا في تسلسل أحداثه مع توالي نزول تلك الآيات، ومع قوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾؛ أي: هناك من المشركين من ضرب مثلًا بابن مريم في أنه يعذب قياسًا على أصنامهم، لأنه يُعبد والأصنام تُعبد، ثم حكاية قولهم ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ ثم الرد عليهم ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٥٨].

فكل هذا يؤكد سبب النزول الوارد بجملته لا بتفصيله، ولعل ما ورد من تضعيف الحديث(١) كان يتجه إلى تفصيله لا إلى جملته، فإن حجة ابن الزبعرى واردة ومؤكدة، ولكنها مبنية على اللجاج والمغالطة واعتمادًا على القدرة في الخصام كما ذكر القرآن ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ لكن المرجح أن جواب الرسول ﷺ كان كما ذكر أبو السعود **«ما أجهلك بلغة قومك!!»** وجاء جواب القرآن الحاسم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾

والآية وإن كانت واردة في سبب خاص وتنصرف بحسب نزولها إلى عيسى وعزير والملائكة عليهم السلام، فإنها قد جاءت في صياغة عامّة تجعلها منسجمة مع سياقها؛ ولهذا نرى المفسرين يقدمون البحث في مناسبتها لسياقها على البحث عن سبب نزولها، يقول أبو السعود في تعقيبه على قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾: «شروع في بيان حال المؤمنين إثر شرح حال الكفرة حسبما جرت به سنة التنزيل من شفع الوعد بالوعيد وإبراز الترغيب مع الترهيب»(٢).

---

(١) جاء في هامش أسباب النزول للنيسابوري ٢١١ «وضعفه جماعة وابن مردويه كما في تفسير ابن كثير وابن المنذر في الدر المنثور .

(٢) إرشاد العقل السليم ٣/ ٣٥٥ .

ومن خصوصيات النظم:

١- في تعريف المتحدث عنهم باسم الموصول بدلاً من الاسم لعدم تعلق غرض بتعيين الأسماء، ولأن في الصلة ثناء عليهم (سبقت لهم منا الحسنى) وفيها إشارة إلى وجه بناء الخبر، فالذين سبقت لهم من الله الحسنى ماذا يتوقع لهم سوى أن يكونوا عن النار مبعدين (أولئك عنها مبعدون).

٢-تعريف هؤلاء باسم الإشارة لتمييزهم أكمل تمييز في مقام الثناء، وتقديم الجار والمجرور (لهم) على الفاعل (الحسنى) للإشعار بالحب وأنهم مقدمون في درجاتهم عند الله كما يشير هذا التقديم إلى الإكرام والإحسان، وتقديم (منا) يشير إلى الامتنان والاعتداد، وذلك لا يكون إلا في شيء عظيم يمنحه رب العزة سبحانه.

٣- ذكر جهنم بضميرها لا باسمها في قوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ منعًا للإيحاش، وزيادة في الإكرام والإنعام نفى عنها مجرد التأذي بسماع صوتها المنفر (لا يسمعون حسيسها).

٤- ولم يقل: لا يسمعون زفيرها؛ لأنه لو قال هذا لما امتنع سماعهم الحسيس وهو صوت النار المسموع من بعد، فلما قال: (لا يسمعون حسيسها) دل هذا على أنهم في غاية البعد عنها فلا يسمعون الصوت الآتي من قريب ولا الصوت الآتي من بعيد لا الزفير ولا الحسيس، ولا يمنع هذا من رؤية أهل النار ومخاطبتهم بقدرة الله سبحانه كما ورد في سورة الأعراف.

٥- انتقل من التخلية إلى التحلية ومن النجاة إلى الفوز بقوله: ﴿وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ والظرفية هنا (فيما اشتهت أنفسهم خالدون) يشير إلى أن النعيم يحيط بهم من كل جانب، فكأنه يلفهم وهم يتمرغون فيما تشتهي الأنفس، وفي هذا منتهى التكريم والتحبب والترغيب.



سورة الحج

١- الذين يعبدون الله على حرف:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [سورة الحج: ١١].

سبب النزول:

قال المفسرون: نزلت في أعراب كانوا يقدمون على رسول الله ﷺ المدينة مهاجرين من باديتهم، وكان أحدهم إذا قدم المدينة فإن صحَّ بها، ونتجت فرسه مُهرًا حسنًا وولدت امرأته غلامًا وكثر ماله وماشيته، آمن واطمأن وقال: ما أصبت منذ دخلت في ديني هذا إلا خيرًا، وإن أصابه وجع المدينة وولدت امرأته جارية وذهب ماله وتأخرت عنه الصدقة أتاه الشيطان فقال: والله ما أصبت منذ كنت على دينك هذا إلا شرًا. فينقلب عن دينه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾.... الآية. أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس كما في تفسير ابن كثير والدر المنثور للسيوطي[1].

وروى عطية بن أبي سعيد الخدري قال: أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده وتشاءم بالإسلام، فأتى النبي ﷺ فقال: أقلني. فقال عليه الصلاة والسلام: «**إن الإسلام لا يقال**»، فقال: إني لم أصب في ديني هذا خيرًا، أذهب بصري ومالي وولدي. فقال: «يا يهودي، إن الإسلام يسبك الرجال كما تسبك النار خبث الحديد والذهب والفضة»، قال: ونزلت ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ ....﴾ الآية.

موقع الآية وسياقها:

جاءت تلك الآية في سياق بيان مواقف الناس من عبادة الإله القادر والإقرار

(١) أسباب النزول للنيسابوري ٢١٢ .

بوحدانيته وقدرته سبحانه، فمنهم الجاحد الظاهر كأبي جهل، وفيه جاء قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾ [سورة الحج: ٣] وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ [سورة الحج: ٨]، ومنهم المذبذب المنافق، وفيه جاء بعده قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾.

ونظم الآية يتسق مع ما ورد في سبب النزول، سوى أن الرواية الأولى هي الأقرب؛ لأن قوله في وصف هؤلاء النفر: ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ﴾ يستبعد الرواية الثانية الخاصة باليهودي؛ لأن هذا الوصف ينطبق على المشركين الذين يعبدون ويدعون أوثانًا لا تضر ولا تنفع، ولا ينطبق على اليهود؛ لأنهم لا يعبدون أوثانا وإن اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله كما يذهب الألوسي[1] وإن كنت أرى أن عموم اللفظ يتسع للروايتين معًا، ولا أستبعد اليهود، لأنهم هم أيضًا يعبدون ما لا ينفع ولا يضر من الأحبار والرهبان، واتخاذ أحبارهم أربابًا من دون الله يعني التحول إلى هؤلاء الأرباب بالعبادة والتقديس.

من خصوصيات النظم:

في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾.

١- لم يحدد هؤلاء الذين يعبدون الله على حرف؛ لأن التحديد يحتاج إلى تعديد، ففي اللفظ القرآني إيجاز، ولأن القرآن لا يعنيه الأسماء وإنما تعنيه القضايا، سوى أنه قيد هذا العموم بحرف الجر (من) الدال على التبعيض.

٢- قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ﴾ ولم يقل: ومن الناس من يؤمن بالله على حرف؛ لأنه لم يؤمن أصلاً، وكان دخوله في صف المؤمنين هو دخول المختبر لا المصدق المذعن الموقن، ولم يكن أنسب لهذا من تمثيله بصورة الذي يعبد الله على حرف من الجبل أو الوادي، فهي عبادة قلقة مضطربة يكون الإنسان فيها مشغولاً بالخوف على حياته، فلا تمس العبادة وجدانه ولا تجاوز لسانه. يقول ابن عاشور وقوله تعالى: ﴿يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ تمثيل لحال المتردد في عمله يريد

(١) روح المعاني ١٧/ ١٢٤ .

تجربته بحال من يمشي على حرف جبل أو حرف وادٍ، فهو متهيئ لأن يزل عنه إلى أسفله فينقلب أو ينكب»[(١)].

فابن عاشور يستنبط من ذكر كلمة (حرف) أنها ترمز إلى صورة أخرى تشبه بها الذي يعبد الله عبادة المجرب فهو يشبه حينئذ بمن يمشي على حرف جبل أو حرف وادٍ وذلك في إشارة إلى أنها عبادة مضطربة قلقة، صاحبها متهيئ لأن ينقلب عنها كانقلاب الذي يسير على حرف جبل، ولو قلنا: إنه يشبه حال الذي دخل في الإسلام دخول المجرب المتردد بصورة الذي يعبد الله على حرف بجامع الاضطراب والقلق الذي يوقع الإنسان في الخطر، لو قلنا هذا لكان سائغًا، وهذه هي خصوصية التصوير القرآني الذي يتعدد إشعاعه، فمن أي زاوية نظرت وجدت ضوءًا ساطعًا يكشف لك عن المقصود.

٣- ثم إنه سبحانه قال: (فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه) فعبر بـ«إنْ» الشرطية في الجملتين بما يدل على العدول بها عن الأصل المعروف في استعمالها وهو الشك وعدم القطع بما دخلت عليه، فالمعنى هنا يأبى أن تأتى (إن) على الأصل فيها، وإلا فلو قلنا: إنها على أصلها، لكان قوله: ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦ﴾ دالًا على ندرة ما يصيبه من خير، وكان قوله: (وإن أصابته فتنة) دالًا على ندرة ما يصيبه من شر، ومحال أن يجتمع هذا وذاك على شخص واحد، فيبدو - والله أعلم - أن هذه الأداة خرجت عن الأصل فيها للإشارة إلى أن مقياس الناس في الحكم على الأشياء بأنها خير أو شر غير منضبط، فقد نحكم بحسب الظاهر على شيء بأنه خير وفي باطنه الشر، وكذلك العكس.

٤- لم يقل: وإن أصابته فتنة ارتد، ولكن عبر عن هذا المعنى بالتمثيل المصور (انقلب على وجهه) وذلك لتكتمل صورة القلق المضطرب الذي يعبد الله على حرف؛ فإنه لا يهدأ ولا يستقر، وإنما ينقلب على وجهه؛ لأنه كان إلى الخطر أقرب، وهو كناية عن الارتداد والانتكاس، وإنما جعل الانقلاب على الوجه دون غيره، فلم يقل انقلب على ظهره أو بطنه، وذلك للإشارة إلى نهاية العجز، وأنه

(١) التحرير والتنوير ١٧/ ٢١٢ .

سقط سقوطًا لا قيام بعده، يقول البقاعي في تعليل هذا وتفسيره: «إن الإنسان مطبوع على المدافعة بكل عضو من أعضائه عن وجهه، فلا يمكَّن منه إلا بعد نهاية العجز، والمعنى أنه راجع إلى الوجه الذي كان عليه من الكفر أو الشك رجوعًا متمكنًا، وهذا بخلاف الراسخ في إيمانه فإنه إن أصابته سراء شكر، وإن أصابته ضراء حمد وصبر، فكل قضاء الله له خير»[١].

٥- عبر عن الشر بالفتنة في قوله: ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ ذلك من التعبير عن الشيء بغايته؛ لأن غاية الشر هي الفتنة والابتلاء، وفيه إشارة إلى أن هؤلاء الذين لم يتمكن الإيمان في قلوبهم لم يفهموا الغاية من الشر عندما يصيب المؤمن، وأنه يكون على سبيل الفتنة والابتلاء والامتحان صقلاً لإيمانه واختبارًا لثباته.

٦- في قوله سبحانه: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ﴾ خسران الآخرة معروف؛ أما خسران الدنيا، فلأن الباعث على ارتداده حبه الشديد للدنيا، وأنه ربط ربطًا خاطئًا بين الإيمان والحرمان؛ لذلك كان عقابه خسران الآخرة مع خسران الدنيا التي حرص عليها وارتد من أجلها، وخسارة الدنيا لا تعني بالضرورة حرمان الأموال والأولاد، وإنما يعني بالدرجة الأولى حرمان العزة والمكانة التي تبوأها المؤمنون بإيمانهم (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون).

٧- قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ ولم يقل: ذلك هو الخسران البين أو الظاهر، وذلك لتصوير الخسران وكأنه من قوته وشدة وضوحه صار حيًا متجسدًا يكشف عن نفسه بنفسه، وفي ذلك تعريض بغباء هؤلاء المنافقين المرتدين الذين لم يعاينوا أو يشعروا بما هم فيه من خسران واضح غاية الوضوح فهم صم بكم عمي كما وصفهم القرآن في سورة البقرة، والقرآن تتجاوب معانيه التي تتصل بموضوع أو موصوف واحد مهما تعددت السور.

٢- الإذن بالقتال:

قال سبحانه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [سورة الحج: ٣٩].

---

(١) نظم الدرر ١٣/١٧ .

سبب النزول:

كان مشركو قريش يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ فلا يزالون يجيئون من مضروب ومشجوج، فشكوهم إلى رسول الله ﷺ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية، قال ابن عباس: لما أخرج رسول الله ﷺ من مكة قال أبو بكر رضي الله عنه: إن لله وإنا إليه راجعون، ليهلكن القوم، فأنزل الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ قال أبو بكر: فعرفت أنه سيكون هناك قتال(١).

موقع الآية:

كان الله سبحانه وتعالى قد نهى عن قتال المشركين في مواضع عدة ويعدهم بالمدافعة عنهم وإفساد كيد المشركين، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ وهذه الفاصلة تعليل لدفاع الله سبحانه عن المؤمنين، وهي في الوقت ذاته تؤذن بالغضب والتهديد، وتشعر بأن التحول من مرحلة المنع إلى مرحلة الإذن بقتالهم قد حانت لدفع كفرهم وظلمهم؛ لهذا كان من المتوقع أن يأتي بعده قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾.

وقد وردت قراءة الفعل (أذن) بفتح الهمزة ببناء الفعل للفاعل، وهذا يجعل ارتباط هذه الآية بالتي قبلها أبين وأشد؛ لأن الفاعل حينئذ يكون أخف استتارًا ويكون ملحوظًا في الاعتبار؛ لسبقه عما قريب في ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾.

بين النظم وسبب النزول:

جاءت الآية وكان المسلمون في ضجر بعد أن كاد صبرهم ينفذ من تمادى المشركين في الاعتداء والظلم، ونجد في النظم ما يتجاوب مع هذا الواقع في موضعين ظاهرين: **الأول**: في قوله: (يقاتلون)، فهو يعكس ما وقع بالمؤمنين من إيذاء كان يتجدد وقتًا بعد وقت وكان مبالغًا فيه حتى صح تسميته بالقتال، وقد عبر عنه بالمفاعلة الدالة على المشاركة ووقوع قتال من الطرفين، مع أن المؤمنين

---

(١) راجع أسباب النزول للنيسابوري ٢١٣ والصحيح المسند ١٥٧ .

الصابرين لم يقع منهم قتال، وذلك لأن هؤلاء المؤمنين بصمودهم وصبرهم كانوا يفتون في عضد المشركين ويشعرونهم باليأس من قدرتهم على إثناء المؤمنين عن إيمانهم، فكأنهم يقاتلونهم بهذا الثبات والصبر **والثاني**: في ذكر سبب الإذن بقوله: ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ فإن هذا من أهم أسباب نزول الآية، وقد أوجز في عرض هذا الظلم فبنى الفعل للمفعول، وأطلقه وعممه فلم يبين حدود الظلم ولا أنواعه؛ لتذهب النفس في تصوره كل مذهب فحيثما تصورته فتصورها صحيح، وفي ذلك تهويل من أمر هذا الظلم الذي تجاوز كل الحدود؛ ولهذا بنى عليه الإذن بالقتال لدفعه.

ومن نكات هذه الآية:

١- في قوله سبحانه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾ حذف متعلق الفعل (أذن) فلم يقل أذن لهم بماذا، والمقصود أذن لهم في القتال، وإنما حذف هذا المتعلق ليسر استنباطه من الفعل (يقاتلون) فضلًا عن السياق الذي يكشف عن المحذوف ويدل عليه بوضوح، لكن طيه من العبارة يشير إلى أن القتال في ذاته غير مرغوب فيه، ولا ينبغي أن يكون لمجرد الانتقام وإراقة الدماء، وإنما يكون لكف بأس الذين كفروا ودفع ظلمهم، فهذه هي غاية القتال في الإسلام، لهذا طوى ذكر القتال وأبقى ما يشير إليه، وأحاطه بمبرراته المشروعة والمفهومة من بناء الفعل للمفعول في (يقاتلون) ومن قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾.

فبناء الفعل (يقاتلون) للمفعول يشير إلى أن المشركين يعلنون الحرب عليهم، ويرفعون عليهم سياط البغضاء وسيوف الحقد، ولا يفوِّتون فرصة للنيل منهم.

٢- قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ الباء للسببية، وهي تؤذن بأن ما تدخل عليه تعليل للإذن بالقتال، وهذا من إحاطة ذلك الإذن بمبرراته المشروعة في إشارة أخرى إلى أن القتال في هذا الدين ليس لمجرد القتل وإراقة الدماء، ولكنه لدفع الظلم، ومن صور الظلم الذي لحق بالمؤمنين أن المشركين سعوا إلى تحطيمهم نفسيًا ومعنويًا بالتعذيب حتى يجبروهم على ترك ذلك الدين، ثم كانت المقاطعة التي تهدف للتجويع والترويع، ثم لما لم تفلح هذه المحاولات دفعوهم إلى ترك ديارهم وأموالهم، وعلى ذلك فإن دائرة الظلم أوسع من أن يشملها ما ورد في سبب النزول

من أن أصحاب رسول الله ﷺ من بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه. إلخ.

٣- في قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ تعددت وسائل التأكيد؛ لأن المؤمنين كانوا قلة مستضعفة، وقد ذاقوا من الظلم أنواعًا وأشكالاً، فهم أحوج ما يكونون إلى الطمأنة بالوسائل التعبيرية المؤكدة التي تملأ نفوسهم ثقة، وتدفع عنهم الإحساس بالضعف.

٤- على أنه قال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ ولم يقل: إن الله ناصرهم، فجاء للمعنى من جهة الكناية التي تلبس المعنى صورة الدعوى والدليل، فالدعوى هي الوعد بالنصر، والدليل عليها أن الله قادر على نصرهم، والأسلوب مع هذا قوي رادع؛ ولذلك يقول الزمخشري الذي يعبر عن إحساس صادق نحو هذا الأسلوب، يقول: «والإخبار بكونه قادرًا على نصرهم عدة منه بالنصر واردة على سنن كلام الجبابرة»[1].



(١) الكشاف ٣/ ١٥ .

سورة النور

١- الزواج بزانٍ أو بزانية:

قال تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة النور: ٣].

سبب النزول:

وردت في سبب النزول روايات مختلفة، حاصلها أن أحد المسلمين الفقراء استأذن رسول الله ﷺ في الزواج من امرأة موسرة لكنها كانت بغيًا فنزلت الآية، وعن عبد الله بن عمرو أن امرأة يقال لها أم مهزول كانت تسافح، وكانت تشترط للذى يتزوجها أن تكفيه النفقة، وأن رجلًا من المسلمين أراد أن يتزوجها؛ فذكر ذلك للنبي ﷺ فنزلت الآية: ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾.

سياق الآية:

سورة النور من السور التي تعنى بترسيخ المبادئ التي تحفظ للأسرة المسلمة كيانها وصونها، وتحفظ للمسلم عفته وطهارته فتشرح حد الزنا، ولا تكتفي بالنهى عنه؛ لأن الشهوة وحش كاسر إذا سيطر على الإنسان لم ينفع معه عقل أو دين؛ فكان لا بد من البداية الرادعة، ثم يتلطف بعد ذلك في تطهير المجتمع المسلم من هذه الفاحشة باتباع أسلوب الوقاية والتحذير من المقدمات كغض البصر (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم. . . . . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن)؛ لأن النفس أقدر على التحكم في التفكير والنوازع من الفعل والسلوك، وفي هذا الإطار الزاجر وردت تلك الآية.

ولا شك أن قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ والتي قبلها ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ تشتركان في تطهير المجتمع المسلم من تلك الفاحشة، فإن إقامة الحد وسيلة لتضيق مساحتها أو إزالتها، ثم إن المنع من إقامة

علاقة زوجية مع الزواني أو مع الزانيات وسيلة أخرى لإزالة ما قد يتبقى منهم بعد إقامة الحدود حتى يشعر أصحاب هؤلاء الفاحشة أنهم معزولون عن الصف المسلم، ولا نصيب لهم في الحياة الكريمة المستقرة التي تنعم بظلال الأسرة المسلمة حتى لا يتخذ الزاني أو الزانية من علاقة الزواج ستارًا لتحقيق الرغبات الشاذة الممنوعة، وحتى لا يتعرض سائر المسلمين للتهمة والطعن في النسب، وحتى لا يختل نظام الأسرة المسلمة ويسودها الشك والفوضى والاضطراب بدلاً من حياة السكن والمودة، فضلًا عن أن تطبيق ذلك المبدأ يقبح من تلك الفاحشة، وينفر الناس من أصحابها.

بين النظم وسبب النزول:

جاء نظم الآية أشمل وأعم من ذلك السبب الخاص المروي في سبب النزول والذي يتحدد في وجود زانية أو زانيات أراد بعض المسلمين أن يتزوج منها ليسرها واستعدادها تحمل أعباء النفقة. وهذا الواقع الذي كان موجودًا يتناوله قوله تعالى: ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾. أما قوله تعالى في صدر الآية: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾، فلم يرد في سبب النزول أن رجلًا زانيًا أراد أن يتقدم لامرأة عفيفة، وتفسير هذا أن سبب النزول المرتبط بالواقع حينئذ ربما يكون خاصًا ويتعلق بحالة خاصة لكن الحكم يأتي عامًا بحيث يشمل الحالة الخاصة وغيرها من الحالات المشابهة والمحتمل وقوعها؛ لأن القرآن وإن كان ينزل لحل مشكلة قائمة في وقت محدد، فإنه مع ذلك قانون الزمان كله إلى يوم الدين؛ لهذا يأتي نظم الحكم عامًا وملبيًا كل ما يطرأ من مواقف وأحوال.

وقد قدم حكم الحالة المحتملة ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ على حكم الحالة الموجودة حينئذ ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ ذلك لأن الحديث بصدد الزواج الشرعي، والرجل فيه هو المتقدم، بخلاف الزنا الذي تكون مادته المرأة وهي التي تتحمل قدرًا أكبر من المسئولية؛ لأن الفاحشة لا تقع إلا إذا سمحت، فإذا سمحت هى سمح هو بحسب الغالب؛ لهذا قدمها في قوله: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا﴾.

ومن خصوصيات النظم في قوله سبحانه: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾:

١- أن الحكم جاء مؤكدًا بأسلوب قوي حاسم هو أسلوب القصر بالنفي والاستثناء، وذلك لإفادة أن ذلك الحكم نهائي، فهو حاسم قاطع لا استثناء فيه، ولا مجال فيه للتحايل أو التوجيه الخاص الذي يؤدي إلى إباحة الزواج بالزانية، والغريب أنه على الرغم من هذا حاول بعض العلماء أن يجيزوا الزواج بزانية، وذكروا وجوهًا من الاحتمالات في فهم تلك الآية:

- فقد قيل: إن المراد بقوله: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ تقرير الواقع الذي عليه الطبائع، وليس المقصود به النهي التشريعي، ويعني هذا احتمال أن يتزوج الزاني بعفيفة أو العكس وإن قل وندر كما يقال: «لا يفعل الخير إلا التقي»، وقد يفعل الخير من ليس بتقي.

- وهناك رأي ثانٍ يرى أن المقصود نهي خاص بالذين نزلت فيهم الآية، وهم بعض المهاجرين الفقراء، ومن أجلهم كان أسلوب الاختصاص.

- ورأي ثالث يرى أن الآية تتضمن حكمًا تشريعيًا عامًا، فهو خبر أريد به الإنشاء، أو نفي أريد به النهي على سبيل العموم، ويترتب عليه أنه لا يحل للمؤمن أن يتزوج بزانية، وإذا تزوج غير زانية ثم زنت تحته (وهي في عصمته) فلا يحل له أن يقيم عليها، ولزم تطليقها لأن للحكم ديمومته، والحكم نفسه بالنسبة للمؤمنة وهو مذهب أبي بكر وعمر وعلي وابن مسعود وعائشة رضي الله عنهم أجمعين[(١)].

ومن الواضح أن صياغة الحكم بأسلوب القصر يرجح الرأي الثالث ويفصل في هذه المسألة، بينما يضعف الرأي الذي يرى أن الأسلوب ليس المقصود به النهي، ولكنه تقرير للواقع الذي تجري عليه الطبائع دون تحريم لما قد يقع من زواج زانية بعفيف أو العفيفة بزانٍ..... يضعف هذا قوله في فاصلة الآية ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

بينما يضعف الرأي الثاني القائل بخصوص النهي وقصره على المهاجرين الفقراء... يضعفه أنه يؤدي إلى تخصيص حكم عام ويخالف سنن القرآن الكريم الذي يأتي فيه لفظ الآية عامًا وإن كان السبب خاصًا.

---

(١) انظر التفسير الكبير ٢٣/ ١٥٠ وفتح القدير ٣٦/٢٢ .

ويبقى الرأي الثالث القائل بحقيقية النهي وشموله، فهو الرأي الصحيح للأدلة التالية:

الدليل الأول: نظم الآية بأسلوب القصر وبالنفي والاستثناء، وهو أسلوب لا احتمال فيه لأي استثناء كما سبق.

الدليل الثانى: فاصلة الآية التي تزيد الحكم حسمًا وتأكيدًا، وقد صرح فيه بالتحريم حتى لا يكون هناك مجال للحكم بالكراهة (وحرم ذلك على المؤمنين).

الدليل الثالث: أنه عطف المشركة على الزانية والمشرك على الزاني بما يدل على تغليظ هذه الفاحشة، وأنها تنافي الإيمان كالشرك، وهذا يؤكد حرمة نكاح العفيف للزانية، وحرمة نكاح الزاني بالعفيفة حرمة دائمة كحرمة زواج المؤمن بالمشركة أو المشرك بالمؤمنة.

الدليل الرابع: وردت قراءة أخرى للآية بالنهي وجزم المضارع (لا ينكح) والنهي صريح في المنع، وهذا يدل على أن قراءة النفي خبر قصد به الإنشاء، كقوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ولا فرق في ذلك بين الإثبات والنفي، ولفظ الخبر هو الأوقع في الدلالة على أن الشرع يستند في تحريمه إلى ما الأصل فيه أن يكون واقعًا بحسب عرف الناس وطبائعهم السوية، وكأن امتناع المؤمن من الزواج بزانية - مثلًا - أمر واقع من غير نهى. والله أعلم.

٢- في قوله سبحانه: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ اقتصر على المؤمنين مع أن الحكم يتناول المؤمنين والمؤمنات من باب التغليب للإيجاز اعتمادًا على فهم العموم من صدر الآية، وإنما غلب جمع الذكور لأن القوامة للرجال وعليهم تقع مسئولية إقامة الحدود، وتنفيذ الأحكام، وردع المنحرف، وتقويم المعوج.

٣- ذكر البقاعي أن هذا الحكم منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ وهو جمع أيم، والأيم من لا زوج له من الذكور والإناث، ثم يستدل بما رواه أبو داود والنسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ فقال: إن امرأتي لا تمنع يد لامس. قال: «طلقها». قال: إني لا أصبر عليها. قال: «أمسكها» ثم ينقل البقاعي عن الشافعي قوله: فالاختيار للرجل ألا ينكح زانية وللمرأة ألا تنكح زانيًا، فإن فعلا فليس ذلك بحرام على واحد منهما، وليست

معصية واحد منهما في نفسه تحرم عليه الحلال إذا أتاه[(١)].

والرد على هذا من وجوه:

١- أن قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ في سورة النساء، وقوله: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ في سورة النور وسورة النساء سابقة في النزول، فكيف يكون السابق ناسخًا للاحق، ثم ما وجه دلالة ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ على جواز زواج الزاني من عفيفة أو العفيفة من زانٍ؟!

٢- الحديث الذي استشهد به في قول الرجل: إن امرأتي لا تمنع يد لامس - ليس قاطعًا في الدلالة على أنها زانية، بل يجوز أن يكون اللفظ على حقيقته، وأنها تصافح الرجال ولا تستحيى من مخالطتهم والحديث معهم، ثم إن النص القرآني ظاهر المعنى وقاطع في الدلالة على التحريم ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. والله أعلم.

على أن هناك شبهة يثيرها الذين يلوون أعناق النصوص القرآنية، يقولون: إن إباحة الزواج من الزانية مثلاً يؤدي إلى قصرها على رجل واحد في علاقة شرعية، وهذا أفضل من أن تظل في حياة الفحش الذي تلوث به نفسها وتلوث به المجتمع الذي تعيش فيه، والجواب على هذا أن إقامة حد الزنا هو الكفيل بقطع دابر هذه الفاحشة، وليس الزواج من الزانيات، فإقدام العفيف على التزوج من زانية لا يؤدي إلى حياة أسرية مستقرة يسودها السكن والمودة والرحمة، لا سيما وأن لقب زانية الذي وصمت به تلك المرأة لا ينفك عنها، وسيظل يكدر صفو الحياة الزوجية، بل وستظل ظلال من الشك تحوم حول تلك المرأة حول سلوكها وحول من تنجبه من الأولاد، حتى لوقيل: إنها تخلت وأقيم عليها الحد.

على أن كل أنثى عندما تعلم أنها بقدومها على تلك الفاحشة ستحرم مستقبلاً من نعيم الحياة الزوجية الآمنة المستقرة، فإنها ستفكر ألف مرة وستحجم عن الوقوع في شرك هذه الخطيئة التي تحرمها من شرف الحياة الزوجية الشرعية الطاهرة.

---

(١) انظر نظم الدرر ١٣/٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠ وفي قوله تعالى: ﴿وأنحكوا الأيامى منكم﴾ دعوة إلى زواج الأحرار بالحرائر بدليل العطف بقوله: (وإمائكم).

٢- آيات الملاعنة:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٧ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [النور ٦: ٩].

سبب النزول:

«عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ﴾ . . . الآية قال سعد بن عبادة - وهو سيد الأنصار - أهكذا نزلت يا رسول الله؟ فقال ﷺ: **«ألا تسمعون يا معشر الأنصار إلى ما يقول سيدكم؟»** قالوا: يا رسول الله، إنه رجل غيور، والله ما تزوج امرأة قط إلا بِكْرًا، وما طلق امرأة قط فاجترأ رجل منا على أن يتزوجها من شدة غيرته، فقال سعد: والله يا رسول الله إني أعلم أنها حق وأنها من عند الله، ولكن قد تعجبت أن لو وجدت لكاع قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيجه ولا أحركه حتى آتي بأربعة شهداء. . . فما لبثوا إلا يسيرًا حتى جاء هلال بن أمية فقال يا رسول: إني جئت أهلي عشيًا، فوجدت عندها رجلًا، فرأيت بعيني وسمعت بأذني. فكره رسول الله ما جاء به هلال واشتد عليه، فقال سعد بن عبادة: الآن يضرب رسول الله ﷺ هلالاً ويبطل شهادته في المسلمين، فقال هلال: يا رسول الله، إني أرى ما قد اشتد عليك مما جئتك به، والله يعلم إني لصادق، فو الله إن رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه إذ نزل الوحي، فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي؛ إذ نزلت ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ الآية[1].

وفي التفسير الكبير زيادة أن رسول الله ﷺ لما نزلت الآيات دعا زوجته فدعيت فكذبت هلالًا، فقال عليه الصلاة والسلام: **«الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب»**. وأمر بالملاعنة، فشهد هلال أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، فقال ﷺ عند الخامسة: **«اتق الله يا هلال، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب**

---

(١) أسباب النزول ٢١٨ .

الآخرة»، فقال: والله لا يعذبنى الله عليها كما لم يجلدني رسول الله ﷺ، وشهد الخامسة ثم قال ﷺ: «**أتشهدين؟**» فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، فلما أخذت الخامسة قال لها: «**اتقي الله فإن الخامسة هي الموجبة**». فتفكرت ساعة، وهمت بالاعتراف ثم قالت: والله لا أفضح قومي وشهدت الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، ففرق رسول الله ﷺ بينهما.

خصوصيات النظم:

١- في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾، المقصود الذين يتهمون بالفاحشة، ولكنه عبر بالرمي وهو من رمي النبال أو السهام من بعيد على سبيل الاستعارة للاتهام بالفاحشة، وفي ذلك تجسيد لذلك الاتهام في صورة بشعة قاتلة، فكلاهما يصيب القلوب والأكباد، ويحطم المشاعر، وكلاهما يفتك ويقتل، سوى أن قتل السهام حقيقي، لكن القتل بالاتهام معنوي، ولا سيما إذا كان موجهًا لربات العفاف بالباطل، ثم إن الرمي الحقيقي يكون من بعيد ومن قريب؛ وإذا كان الرمي من بعيد، فقد يكون طائشًا لا يصيب؛ أي: أن التعبير بداية بهذا الفعل يدق جرس التحذير من عواقب الاتهام بالفاحشة دون يقين.

٢- ومع أن الحادثة التي تتصل بسبب النزول خاصة بشخص واحد رمى زوجته وهو هلال بن أمية، فإن فعل الرمي جاء في الآية مسندًا إلى ضمير الجمع (يرمون) وذلك جريًا على نهج القرآن في شمول اللفظ ليصير حكمًا عامًّا لسائر المسلمين في أي زمن.

٣- قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ﴾ يعد شرطًا للتعويل على شهادة الرجل يعني حلفه أربع مرات؛ فإذا جاء بالشهود الأربعة الذين عاينوا فبها ونعمت، وهذا هو الأصل؛ أما إذا لم يتيسر للزوج أن يأتي بالشهود الأربعة، فلا يغلق الباب في وجهه ويقام عليه حد القذف وقد يكون صادقًا كما كان بالنسبة لهلال بن أمية، فكان من رحمة الله سبحانه أن قدم هذا المخرج، وهو الحلف والملاعنة التي يتبادل فيها الزوجان الحلف بأيمان أربعة تقوم كل يمين مقام شهادة، شاهد ولهذا سماها القرآن شهادة؛ لأنها تقوم مقام الشهداء ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ﴾ وهذا من تجاوب التشريع مع مقتضيات الأحوال رحمة من الله سبحانه بعباده.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ يشير إلى حال المفاجأة التي تقع فيها عين الزوج على واقعة الزنا بامرأته، فلا يُطلب منه أن يتركها ويبحث عن شهود، ولم يتحدث القرآن عن تفاصيل رد الفعل الذي يمكن أن يحدث من الزوج، لأن هذه أمور فرعية والمهم هو أساس الحكم، ثم إن ترك القرآن لهذه التفاصيل يشير إلى إباحة أن يتدخل الزوج وأن يمنع ويضرب الضرب الذي يشفي غليله ولكن لا يؤدي إلى القتل؛ لأن القصاص أو الحد من اختصاص ولي الأمر، وحسبه أن الله سبحانه اعتد بشهادته كما هو واضح في ذلك الاستثناء ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

٤- عطف شهادة الزوج على الرمي بالفاء (فشهادة أحدهم) يدل على أن الرجل عندما يطرح اتهامه لزوجته بالزنا يكون ذلك مشفوعًا بالحلف بدون فاصل، فلا يكون للرمي مجلس وللحلف مجلس آخر، بل هما معًا متعاقبان في مجلس واحد وفي وقت واحد.

٥- وإنما كانت الأيمان التي يحلف بها الرجل أربعة ليقوم كل يمين مقام شاهد من الشهداء الأربعة الذين يتطلبهم رمي المحصنات، ولأن شهادة الرجل على نفسه ليست في قوة شهادة غيره عليه، لا سيما وأنه قد يكذب هروبًا من حد القذف، من أجل هذا جبرت شهاداته الأربع بخامسة فيها يلعن نفسه إن كذب، وغضب الله على المرأة إن كان زوجها صادقًا.

٦- في قوله سبحانه: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في الجملة الأخيرة تلقين صيغة الشهادة كأن يقول الرجل بعد أن يرمي زوجته: (وأشهد أني لمن الصادقين) يقولها أربع مرات بهذه الصيغة المؤكدة، ولا يجوز له التعديل فيها، فهذا هو السر في أنه لم يكتف بقوله: فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله، وإنما نص على قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ تعليمًا لكيفية الشهادة وتلقينًا لها وإلزامًا بهذه الصيغة.

٧- قال في جانب الزوجة (ويدرأ عنها العذاب. . .) ولم يقل مثله في جانب الرجل إشارة إلى ترجيح وقوع التهمة عليها إذا رماها زوجها بعد علمه بمضمون الآية السابقة، وعلمه بجزاء رمي المحصنات من غير شهود، ولأن رجلًا ما لا يقدم

على فضح نفسه ورمي زوجته من غير أساس وذلك في الأغلب وحسب طبائع الأحوال.

والتعبير بالفعل (يدرأ) بمعنى يدفع للإشعار برحمة الله تعالى في يسر التشريع الذي أقام شهادة الزوجة مقام تعذيبها بإقامة الحد عليها وهو في الأصل من درأ البلاء ودرأ العدو[١].

٨- خص الزوج الملاعن بـ«بلعنة الله عليه إن كان من الكاذبين» والزوجة بـ«غضب الله عليها إن كان من الصادقين» والفرق من وجهين:

الأول: اختصاص الزوجة بالغضب وهو أشد من اللعن[٢] تغليظًا عليها لأنها كما يقول الزمخشري: «هي أصل الفجور ومنبعه بخلابتها وإطماعها، ولذلك كانت مقدمة في آية الجلد ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ﴾ ويشهد لهذا قوله ﷺ: «**فالرجم أهون عليكم من غضب الله**»[٣].

الفرق الثاني: قال في جانب الزوج الذي يرمي زوجته ولا يملك شهودًا (فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين) فأرجع الضمير إليه في (إنه لمن الصادقين) وفي (إن كان من الكاذبين) لأنه صاحب الدعوى، والدعوى تحتاج إلى توثيق بتأكيد صدقه أربع مرات ونفي كذبه في الشهادة الخامسة تأكيد آخر لصدقه.

لكنه في جانب الزوجة قال: ﴿أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فلم يرجع الضمير إليها كما فعل في جانب الزوج لأنها ليست صاحبة دعوى ولكنها تدفع التهمة وتدرأ عنها العذاب، فمن المناسب أن تشهد بكذبه (إنه لمن الكاذبين)، ومن الطبعي أن الضمير يعود عليه في إثبات الكذب وفي نفي الصدق.

٩- شدد على الرجل في شهادته على نفسه (إنه لمن الصادقين) فلم يقل: إنه

---

(١) راجع أساس البلاغة للزمخشري مادة (درأ).

(٢) لأن اللعن طرد وإبعاد، وهو من الله انقطاع من رحمته وتوفيقه في الدنيا وعقوبته في الآخرة، ومن الإنسان لغيره دعاء عليه بهذا، لكن الغضب من الله انتقام وهو يربو على العقوبة.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٢.

لصادق؛ لأن نص الآية يعني أن الصدق صفة ملازمة له في هذه وفي غيرها، فإن من يصدق في اتهام زوجته يكون صادقًا فيما هو أهون من هذا الاتهام، وشدد عليه كذلك في الشهادة الخامسة (أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين) فلم يقل أن لعنة الله عليه إن كان كاذبًا؛ لأنه أراد أن لعنة الله عليه إن كان من صفته الكذب في هذه أو غيرها؛ لأن من يكذب في رمي زوجته بالزنا فكذبه في غيره أيسر؛ ففي صيغة شهادة الزوج تشديد عليه لشناعة ما يُرمى به حتى لا يقذف إلا عن يقين.

ولم يأت بمثل هذا في جانب شهادة الزوجة، فلم يقل مثلًا: أن تشهد أربع شهادات بالله إنها لمن الصادقات، ولم يقل: والخامسة أن غضب الله عليها إن كانت من الكاذبات؛ لأنها في موضع دفع التهمة كما سبق بتكذيبه هو ونفي صدقه، وفي ذلك تخفيف عنها في الشهادة يتعادل مع التشديد في قوله: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ﴾ لأن الغضب يستلزم الانتقام وهو شيء فوق الوصف ويزيد عن العقوبة بكثير.

كما أن قوله في جانب الرجل: (إنه لمن الصادقين) و (إن كان من الكاذبين) تشديد يتعادل مع التخفيف في قوله: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ بالقياس إلى الغضب المذكور في جانب المرأة.

وهذا التوازن الأسلوبي (فكرًا وتعبيرًا) في جانب كل طرف على حدة ثم بالموازنة بين شهادة الطرفين من الإعجاز الذي يستحيل نظيره في كلام العرب.

٣- حادثة الإفك:

قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

سبب النزول:

عن عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب وعلقمة بن وقاص الليثي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه فأيتهن خرجت قرعتها استصحبها، فأقرع بيننا في غزوة غزاها[1] فخرج سهمي فخرجت معه عليه الصلاة والسلام بعد نزول آية الحجاب، فحملت في هودج فسرنا، حتى إذا قفلنا

(١) قيل هى غزوة بني المصطلق، أسباب النزول ٢١٩ .

ودنونا من المدينة نزلنا منزلاً ثم نودي بالرحيل، فقمت ومشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فلمست صدري فإذا عقدي - من جزع ظفار - قد انفرط، فرجعت ألتمسه فحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري وهم يحسبون أني فيه لخفتي، فلم يستنكروا خفة الهودج وذهبوا بالبعير، ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس فيها داع ولا مجيب، فتيممت منزلي، وظننت أني سيفقدونني ويعودون في طلبي، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي من وراء الجيش، فلما رآني عرفني، فاستيقظت باسترجاعه فخمرت وجهي بجلبابي، ووالله ما تكلمنا بكلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه[١] وهوى حتى أناخ راحلته فوطئ على يديها فقمت إليها فركبتها، وانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش موغرين في نحر الظهيرة وهم نزول، وافتقدني الناس حين نزلوا وماج القوم في ذكري، فبينا الناس كذلك إذ هجمت عليهم فخاض الناس في حديثي فهلك من هلك، وكان الذي تولى الإفك عبد الله بن أبي بن سلول، فقدمنا المدينة فاشتكيت بها شهرًا والناس يفيضون من قول أصحاب الإفك، ويريبني في وجعي أني لا أرى من النبي اللطف الذي كنت أرى منه حين أمرض، حتى نقهت فخرجت أنا وأم مسطح نمشي فعثرتْ في مرطها، فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: أتسبين رجلًا شهد بدرًا، فقالت: يا هنتاه، ألم تسمعي ما قالوا؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضًا إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي دخل علي رسول الله ﷺ فسلم فقال: كيف تيكم؟ فقلت: ائذن لي إلى أبوي، قالت: وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله ﷺ، فأتيت أبوي، فقلت لأمي: ما يتحدث به الناس؟ فقالت: يا بنيتي هوني على نفسك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها، فقلت: سبحان الله، ويتحدث الناس بهذا. قالت: فبت تلك الليلة لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم حتى ظننت أن البكاء فالق كبدي، فبينما نحن كذلك إذ دخل رسول الله

---

(١) يعني قوله: إنا لله وإنا إليه راجعون .

ﷺ فجلس ولم يجلس عندي من يوم قيل فيّ ما قيل قبلها، وقد مكث شهرًا لا يوحى إليه في شأني شيء. قالت فتشهد ثم قال: «**يا عائشة، فإنه بلغني عنك كذا وكذا؛ فإن كنت بريئة فسيبرئك الله؛ وإن كنت ألممت بذنب، فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه**» فقلت لأبي: أجب عني رسول الله، قال: والله ما أدري ما أقول. فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله، قالت: والله ما أدري ما أقول. فقلت وأنا جارية حديثة السن: إني والله لقد علمت أنكم سمعتم ما يتحدث به الناس ووقر في أنفسكم وصدّقتم به، ولئن قلت: أني بريئة والله يعلم أنى بريئة لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنى بريئة لتصدقنّي والله ما أجد لي ولكم مثلًا إلا أبا يوسف إذ قال: (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون). ثم تحولت على فراشي وأنا أرجو أن يبرئني الله، ولكن والله ما ظننت أن ينزل في شأني وحيًا، ولأنا أحقر في نفسي من أن يتكلم بالقرآن في أمري، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله في النوم رؤيا يبرئني الله، فوالله ما رام مجلسه ولا خرج أحد من البيت حتى أخذه ما كان يأخذه من البرحاء حينما ينزل الوحي حتى إنه ليتحدر مثل الجمان من العرق في يوم شات، فلما سرّي عن رسول الله ﷺ أقبل عليَّ وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال لى: «**يا عائشة، احمدي الله، فقد برأك الله**» ثم قرأ ما نزل عليه: (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرًا لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم)(١).

موقع الآية وسياقها:

بعد أن شرع الله سبحانه الحدود التي تصون المجتمع المسلم من فاحشة الزنا وتحفظ للأسرة كيانها، وفي أثناء هذا شدد في إثبات الوقوع حتى لا يقام الحد إلا بعد التيقن وحتى لا يؤخذ مسلم أو مسلمة بمجرد الظن، وإلا انفتح الباب على مصراعيه للتهم التي تخرج من الأفواه جزافًا، وتكون عواقبها إشاعة سوء الظن واتهام الأبرياء والنيل من الشرفاء كما حدث مع عائشة رضي الله عنها.

---

(١) سورة النور «وانظر ١٦٦ - ١٦٩ الصحيح المسند» .

وبهذا نرى أن آية الإفك امتداد طبعي لما قبلها من آيات، وأنها تقدم مثلًا عمليًا من بيت النبوة للآثار السيئة التي يمكن أن تترتب على سوء الظن والاتهام دون يقين، والآلام النفسية التي تمزق الأحشاء لا سيما إذا توجه الاتهام إلى من لا يتصور أن يتوجه إليه كعائشة رضي الله عنها.

خصوصيات النظم وغرائبه:

تجاوز النظم القرآني تفاصيل هذه القصة، فلم يبين ما هو ذلك الإفك والملابسات التي أحاطت به بداية من تخلف عائشة عندما ذهبت تبحث عن عقدها حتى مجيء صفوان وركوبها على راحلته حتى وصولها إلى القوم وخوضهم في حديثها، تجنب النظم كل هذا وغيره جريًا مع جلال الأسلوب القرآني الذي يكتفي من الأحداث بمواطن العبرة فيذكر شيئًا ويطوي أشياء، والمذكور يدل على المطوي ويشير إليه، وأول ما نراه في بناء هذا النظم موافقًا للمقام:

١- البداية بتعريف الذين جاءوا بالإفك بالاسم الموصول وصلته (الذين جاءوا بالإفك) وهو تعريف يتجاوب مع رغبة النفوس المؤمنة المهتاجة في تمييز هؤلاء الأفاكين أكمل تمييز ببشاعة ما قالوه وما تفوهوا به، وكانت أصابع الاتهام تشير إلى مجموعة من الأراذل بين المسلمين حتى إذا قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ وقع التوكيد في ابتداء الكلام موقعه في النفوس المؤمنة فتأكد لها صدق ظنها في اتهام هذه العصبة المنافقة.

٢- والتعبير بداية بالفعل (جاءوا) يشير إلى أنهم أظهروه من عند أنفسهم من غير أن يكون له أصل في الواقع كما لحظه أبو السعود.

٣- وتسمية الكذب الذي افتراه (بالإفك) من دقة النظم القرآني وإيجازه؛ لأن الإفك في اللغة هو أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء وهو البهتان الذي لا تشعر به حتى يفاجئك، فانظر إلى هذه الكلمة المفردة التي دلت على ماهية الكذب وأنه أبلغه وأنه البهتان الذي يباغتك فلا تستطيع مواجهته وتعجز عن دفعه، لو خلعت هذا اللفظ من سياقه وأدرت مكانه على كل كلمات اللغة لم تجد ما يسد مسده ويؤدي ما يؤديه، إنه يصور الواقع النفسي بكل تفاصيله؛ لأن التهمة بشعة، فكونها هي الزنا، وكونها مصوبة إلى بيت النبوة الطاهر دليل على أنها أبلغ ما يكون من

الافتراء، ثم إن عائشة عندما سمعت ما يقوله الناس كانت مفاجأة هزت كيانها وتركت أثرها العميق الذي تعبر عنه عائشة نفسها في قولها: «فبتُّ تلك الليلة لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم حتى ظننت أن البكاء فالق كبدي». كل هذه المعاني والمشاعر يصورها لفظ مفرد استحكم في سياقه وهو (الإفك) وهذا من الإعجاز الذي لا نظير له في كلام العرب.

٤- والتعبير عن الجماعة التي تناولت هذا الإفك بالعصبة يدل على تعمد الإساءة والاتفاق عليها؛ لأن العصبة في اللغة كما يقول الراغب: جماعة متعصبة متعاضدة، ونحن عصبة؛ أي: مجتمعه الكلام متعاضدة (المفردات) وكون هذه العصبة من داخل الصف المسلم (عصبة منكم)؛ أي: ممن آمنوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم(١)، يشير إلى أن ما يشيعونه حينئذ يسهل نشره كانتشار النار في الهشيم، كما يشير (منكم) إلى ضرورة أخذ الحذر من العناصر الفاسدة المتداخلة في نسيج المجتمع المسلم، فهذه يجب نبذها واستئصالها قبل أن تنتشر عدواها وأذاها في سائر النسيج.

إن ذلك النظم الموجز يدل على أن أركان الإشاعة قد أراد الله لها أن تكتمل ليكون الدرس من بيت النبوة وحيث الأسوة والقدوة، فلقد كانت إفكًا وزورًا، ولقد كانت صادرة من داخل الصف المسلم مما سهل من نشرها وإشاعتها، ثم إنها جاءت من عصبة شريرة عمدت إلى التشويه والإيذاء والإساءة والنيل، ولئن كان الدرس قاسيًا والتجربة عصيبة، فلقد كان مراد الله منها أن يكون للمؤمنين الصادقين موقف حاسم من هذه الإشاعات، وألا يكون موقفهم سلبيًّا محايدًا، بل لا بد من التكذيب واتخاذ الموقف الحاسم ممن يريدون النيل والإساءة.

٥- قوله سبحانه: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لم يقتصر على نفي الشر لأنه لو اقتصر عليه فقال: لا تحسبوه شرًّا لكم، لفهم مجرد الطمأنة من الشر، فلما أراد أن يثبت عكس التصور البشري المحدود قال: (بل هو خير لكم)، فما كان أحد يتصور حينئذ أن وراء ذلك الذي يدور ويقال خيرًا أبدًا، ومن هنا فإن

(١) يذكر المفسرون أن على رأسهم عبد الله بن أبي رأس المنافقين وزيد بن رفاعة ومسطح بن أثاثة وخمنة بنت جحش وغيرهم .

وحي السماء يقلب التصورات البشرية وينبه إلى قصور الإدراك البشري لنتائج الأحداث والأشياء، وفي هذه الجملة القرآنية تسرية وتبشير، وقد اجتمع فيها الإثبات والنفي، وكل منهما يؤكد الآخر بأسلوب القصر وطريق العطف، لأنه ينفي ما يعتقدون من الشر ويثبت ما لا يتصورون ولا يتوقعون وهو الخير، ويفهم من هذه الجملة:

أ - تفويت الفرصة وإفساد النتيجة التي سعى إليها الأفاكون، فلقد أرادوا من هذا الإفك شرًا، وأراد الله منه خيرًا، وسبحان من ينبت الخير من تربة الشر.

ب- تعليم المسلمين ألا يأخذوا بظاهر الأمور، فربما كان الخير كامنًا في باطن ما نراه نحن شرًا.

أما كيف أدى ما حدث إلى الخير، وما هو ذلك الخير، فيتبين هذا من النظم القرآني ذاته والذي يتلى على مسامع الزمن شاهدًا على طهارة بيت النبوة، وفيه تنبيه على أمور عدة منها:

- أن أشرف الناس وأطهرهم ليسوا بمنأى عن الكيد والتعرض للإشاعات التي تصدر من النفوس المريضة بغرض التشويه والإساءة.

- أن على المسلمين أن يكونوا على يقظة من العناصر الفاسدة، وأن يكونوا على حذر من كل أفاك أثيم يتربص بالشرفاء شرًا.

- أن على المسلمين أن يكون لهم موقف إيجابي بوأد الفتنة في مهدها، فلا يقفون محايدين صامتين، فضلاً عن أن يكونوا مصدقين للأراجيف.

- أن على الذين تتوجه إليهم الإشاعة أن يستعصموا بالصبر، وأن يعتصموا بحبل الله ثقة بعدالة العليم الخبير، وثقة بوعده المفهوم من قوله: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فهذا وعد من لا يخلف وعده إذا نظرنا إلى أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وأن ما يتصل بهذه الحادثة ينسحب على مثلها في كل زمان ومكان، وأن كل من يُتهم ظلمًا ويفوض أمره إلى الله يكون في هذا خير له حتمًا بموجب وعد الله ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

٦- قوله سبحانه: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ سحب منهم شرف الإيمان والإسلام؛ فسمى كل من خاض في هذا الإفك (امرئ) ولم يقل «مسلم» أو

«مؤمن» ويبدو أنهم لم يخوضوا بدرجة واحدة، وأنه كانت هناك أدوار موزعة على أفراد تلك العصبة المنافقة لإشاعة ذلك الإفك، فلكل واحد منهم دور كلفه به زعيمهم رأس النفاق عبد الله بن أبي، ولهذا صار لكل واحد منها من الإثم بحسب ما قام به (لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم) أي لكل منهم من الإثم بمقدار خوضه؛ أما الذنب الكبير والعذاب العظيم، فمن نصيب رأس النفاق الذي نبتت من رأسه تلك الإشاعة (والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم)، «وفي التعبير عنه بالذي وتكرار الإسناد وتنكير العذاب ووصفه بالعظم من تهويل الخطب ما لا يخفى» كما ذكر أبو السعود[1].

٧- وهكذا تمضي الآيات في عتاب المؤمنين الذين اتخذوا موقفًا سلبيًا فلم يبادروا إلى التكذيب ثقة بأنفسهم؛ لأن المؤمنين بعضهم من بعض وقد صهرهم الإسلام في بوتقة واحدة، فما لايتوقعه مسلم لنفسه لا ينبغي أن يصدقه عن أخيه المسلم (لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرًا وقالوا هذا إفك مبين).

ولو أن كل مسلم استمع إلى هذا الإفك فقال ما قاله القرآن: (هذا إفك مبين)، لماتت تلك الإشاعة في مهدها، ولردت السهام في صدور مدبريها، وانقلب المرجفون على أعقابهم خائبين، ولكنها كانت تجد آذانًا صاغية مندهشة، والاندهاش وحده في هذه الأحوال لا يكفي، بل لا بد من المبادرة إلى الزجر والتكذيب، فهذا ما يتضمنه اللوم الذي يصل إلى التأنيب في قوله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾.

٤- حتى تستانسوا وتسلموا:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة النور: ٢٧].

سبب النزول:

عن أشعث بن سوار عن ابن ثابت قال: جاءت امرأة من الأنصار فقالت: يا

(١) إرشاد العقل السليم ٤/٤٩ .

رسول الله، إني أكون في بيتي على حال لا أحب أن يراني عليها أحد لا والد ولا ولد، فيأتي الأب فيدخل عليَّ، وإنه لا يزال يدخل عليَّ رجل من أهلي وأنا على تلك الحال فكيف أصنع؟ فنزلت الآية[١].

موقع الآية:

بعد أن بيّن الله سبحانه حد الزنا والقذف والرمي، وقدم نموذجًا لما ترتب على الجري وراء الرمي بالباطل دون بينة، وحذر مرة بعد مرة من اتهام الأبرياء ورمي الشرفاء سعيًا للفتنة ونشرًا للفاحشة؛ شرع سبحانه بعد هذا في سد منافذ الفتنة ومواطن الشبهة والقضاء على دواعي التهمة، وأهمها دخول البيوت من غير استئذان.

ومن الواضح أن الآية وإن نزلت لسبب خاص وهو سؤال المرأة الأنصارية رسول الله ﷺ سؤالًا يكشف عن رغبتها في ألا يدخل عليها أحد إلا بعد الاستئذان، فإن الآية مع هذا قد اتخذت موقعًا في غاية التمكن والارتباط بما قبلها وما بعدها؛ لأن ما قبلها تحذير من التهمة والأخذ بالشبهة، ثم يليها قوله سبحانه: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ الآية، فبهذا تكتمل دائرة العفاف والسكينة في المجتمع المسلم.

خصوصيات النظم:

١- جاء الخطاب والنداء للذين آمنوا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ مع أن السائلة امرأة، وذلك لأن النزول لا يتقيد بخصوص السبب، وإنما يأتي اللفظ عامًا متناسبًا مع التشريع الذي يتناول الرجال والنساء، ثم غلب الرجال في النداء، وأي نداء للذين آمنوا يدخل فيه المؤمنات، ثم إن المرأة كانت تتحرج من دخول الرجال عليها من غير استئذان؛ فكان من المناسب نداء هؤلاء الرجال ونهيهم عن الدخول من غير استئذان.

٢- جاء النداء لاسم الموصول (الذين) استنهاضًا للصلة: (آمنوا) فبالإيمان تتحرك دواعي الاستجابة.

---

(١) أسباب النزول ٢٢٤ .

٣- جاء الحكم في الآية في كيفية من النظم تكفل الطاعة في شأن تعودوا عليه ويريد منهم التخلي عنه، ولما كان تخلي النفس عما تعودت عليه صعبًا بدأ بالنهي، وفي النهي حبس ومنع للنفس عن الاندفاع فيما تعودت عليه و (قرنه) بالعلة التي تجعل هذه النفس راضية مسلمة، قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ﴾ فكون هذه البيوت ليست بيوتنا علة مقنعة لضرورة الاستئذان.

والإسلام يجري في تشريعه وفق الفطرة السوية؛ ولهذا لا يجد العاقل في هذا الدين مشقة في أحكامه، ولا يجد فيها إلا انسجامًا مع الفطرة السوية المستقيمة، والمسلم لا يليق به أن يقتحم بيوت الآخرين من غير استئذان أو تسليم؛ لأن للبيوت حرماتها وعوراتها، ولا يضيق بذلك الحكم إلا الشواذ وأصحاب الأهواء المعوجة والعيون الخائنة.

٤- في قوله: ﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ﴾ جمع بين الاستئناس والتسليم؛ لأن الاستئناس يزيل الوحشة، والتسليم يجلب الأمان والمودة، فالاستئذان وحده لا يكفي، والتسليم من غير استئذان لا يكفي.

٥- وإنما قدم الاستئناس على التسليم؛ لأن الإنسان يستأذن ويستأنس أولاً وهو في خارج البيت، فإذا أذن له دخل وسلم.

٦- وإنما عبر عن الاستئذان بالاستئناس؛ لأن في الاستئناس استئذانًا وزيادة مرغوبة هي شعور الزائر المستأذن بالأنس والقبول، فهو شرط مهم، وإلا فقد يأذن أهل البيت لقريب لهم حرجًا منه مع أنهم غير مستعدين لاستقباله واستضافته لسبب ما؛ ولذلك كان شرطًا في الدخول والتسليم أن يشعر الزائر بالأنس والترحيب لا بالتحفظ والانقباض، فالواجب أن يكون الزائر حساسًا بحيث لو وجد من أهل البيت تحفُّظًا أو انقباضًا، انسحب بلطف حتى يرفع الحرج عنه وعن أصحاب البيت، كل ذلك مما يحيط بلفظ (تستأنسوا) من إيحاءات وظلال.

٧- الأصل في البيوت أن تكون مأهولة بسكانها؛ لهذا لم يكن في حاجة إلى أن يقول: لا تدخلوا بيوتًا مسكونة غير بيوتكم بحجة المقابلة بقوله في الآية التالية: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ﴾ لأنه لو قال: لا تدخلوا

بيوتًا مسكونة، لكان هذا الوصف حشوًا وزيادة لا فائدة منها؛ لأن مجرد ذكر البيوت يفيد أنها مسكونة، لا سيما وقد نص على أهلها في (حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها). أما في الآية التالية، فقد نص على الصفة (غير مسكونة) لأنها مهمة ولا يُفهم المقصود من غيرها.

٨- وهناك إيحاء آخر مفاد من صيغة الفعل المضارع (تستأنسوا)، فهي صيغة تفيد التجدد بما يشير إلى تكرار الاستئذان وتجدده قبل الدخول، وهذا ما وضحه رسول الله ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «**الاستئذان ثلاث؛ بالأولى يستنصتون، وبالثانية يستصلحون، وبالثالثة يأذنون أو يردون**».

فالاستنصات لتحديد شخص المستأذن أو معرفة أن هناك مستأذنًا، والاستصلاح حتى يكون أهل البيت على الهيئة المناسبة، ويأتي بعد ذلك الإذن بالدخول أو الاعتذار لعدم الاستعداد، وكل من هذه الثلاثة تحتاج إلى بعض لحظات؛ لهذا تكون مرات الاستئذان متفرقة غير متوالية فيفصل المستأذن بينها بفواصل يسيرة، ولا يعد ذلك إهانة أو تنقيصًا من شأنه؛ لأنه تشريع يتساوى فيه الجميع، وزائر اليوم سيكون مزورًا غدًا ويرى حاجته إلى ذلك الحكم.

كما لا ينبغي أن يتأفف المستأذن من عدم الإذن له وإن رد ولم يستقبله أهل البيت، فينبغي أن يتقبل هذا بلا تبرم أو ارتياب؛ لأن هذا هو التشريع الملزم، وللبيوت أحوال، وقد قال رسول الله ﷺ: «**إذا استأذن أحدكم ثلاثًا فلم يؤذن له فليرجع**» ويفهم من هذا ما يجب بالنسبة لأهل البيوت إذا لم يكونوا مستعدين لاستقبال المستأذن، فيكتفى منهم بالصمت وترك الرد، وهذا مفهوم من قوله: (فلم يؤذن له)، فهذا أفضل من أن يقولوا: لا تدخل مثلاً.

٩- وعلى الرغم من خصوصية السبب الذي يتعلق بحادثة معينة إلا أنه يدل من حديث المرأة الأنصارية على الرغبة في عموم الاستئذان حتى من الوالد والولد، وقد تجاوب النظم مع هذه الرغبة، فجاء النهي شاملاً للجميع حتى المحارم، وخصوصًا عند الدخول على النساء فيجب استئذان الأب والابن والعم والخال، وعن عطاء بن ياسر أن رجلاً سأل النبي ﷺ على سبيل الاستبعاد: أستأذن على أختي؟ قال ﷺ: «**نعم، أتحب أن تراها عريانة؟**» وقال عطاء: سألت ابن عباس

رضي الله عنهما: أستأذن على أختي ومن أنفق عليها؟ قال: نعم، إن الله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ولم يفرق بين من كان أجنبيًا أو ذا رحم محرم(١).

٥-(ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنًا)

قال تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة النور: ٣٣].

سبب النزول:

وردت روايات كثيرة في سبب النزول، أقربها ما جاء في صحيح مسلم عن جابر قال: كان لعبد الله بن أُبي بن سلول جارية يقال لها مسيكة، فكان يكرهها على البغاء، فأنزل الله سبحانه ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ الآية.

وبقية الروايات تجمع على أن عبد الله بن أبي كان يدفع جواريه لزنا بأجرة يستولي عليها، وتذكر بعض الروايات أن الجواري اللاتي رفضن كن مسلمات، ويجمع بين هذا وذاك ما نقل عن مقاتل قال: نزلت الآية في ست جوار لعبد الله ابن أبي، كان يكرههن على الزنا ويأخذ أجورهن، فجاءت إحداهن ذات يوم بدينار، وجاءت أخرى بدونه، فقال لهما: ارجعا فازنيا، فقالتا: لا نفعل، قد جاءنا الله بالإسلام وحرم الزنا، فأتيا رسول الله ﷺ فشكيتا إليه، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

بين نظم الآية وسبب نزولها:

إن ما ورد في أكثر الروايات من أن الباعث على إكراه السيد جواريه على البغاء هو الجشع وطلب المال، فلا مانع عنده من أن يرتكبن الفاحشة طالما يجلبن له المال، يؤيده قوله سبحانه في الكشف عن ذلك الدافع: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وقد عبر عن المال بعرض الدنيا إشارة إلى أنه لا ينبغي دفع الجواري لممارسة الرذيلة في مقابل عرض يزول، ويبوء المرء بإثمه.

- ورد في بعض الروايات أن تلك الجواري كن مسلمات، ولا يوجد في النظم ما يؤيده، وقوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ لا يقطع بكونهن مسلمات، وإنما هو تعبير

(١) انظر التفسير الكبير ٢٣/١٩٩ .

يستفز نخوة هؤلاء السادة؛ إذ لا يليق بكريم أن يدفع فتاة تنشد العفاف إلى هذا المستنقع رغمًا عنها، ثم إنه من الجائز أن ترفض الفتاة الرذيلة ولو كانت غير مسلمة، وربما قصد الدخول إلى نفس السادة من جهة النخوة ليدفعهم إلى التخلي عن هذه العادة السيئة، ولو جاء لهم من جهة الدين - وهم كفار أو منافقون - لما كان له تأثير.

- ونظم الآية يدل على التلطف في اقتلاع عادة جاهلية ضربت بجذورها في البيئة العربية، وكان من وسائل هذا:

١- النهي عن الإكراه على الفعل لا عن الفعل نفسه؛ إذ قال: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ يعني أن تلك الفتيات لم تكن تذهبن للبغاء من تلقاء أنفسهن، وإنما كن يكرهن عليه، وفي الإكراه قسر وعنف وتهديد وتخويف.

ولا يعني النهي عن الإكراه أن البغاء جائز إذا رضيت به الفتيات، وإنما يشير إلى أنهن مدفوعات إلى الفاحشة من غير رغبة، وأن الغالب فيهن هو العفاف؛ ولو تركن وشأنهن، لما سرن في هذا الطريق الذي يلوث الشرف والعفاف، ويصيب المرأة العربية في صميم كرامتها، وإن كانت جارية، فالنهي يتضمن التعريض بالسادة، والتنبيه إلى ما لا ينبغي ولا يليق منهم من ذلك الإكراه.

٢- التعبير عن الزنا بالبغاء يشير إلى أن الدافع للإكراه عليه رخيص دنيء وهو ابتغاء المال؛ ولذا كان عبد الله بن أبي يقول لجارية له: اذهبى فأبغينا شيئًا[(١)].

٣- تعليق النهي على الشرط (إن أردن تحصنًا) ليس مقصودًا به ظاهر هذا الشرط؛ لأن النهي قائم سواء أردن التحصن والعفاف أم لم يردن، وإنما جاء على سبيل التأكيد على أنهن كن مكرهات، وفيه إبراز لذلك الجانب الإيجابي الذي كان موجودًا عند الفتيات ولفت أنظار السادة إليه، فربما حرك الكامن في نفوسهم من نخوة، والعربي عندما يعود إلى فطرته ونخوته وكرامته يجد من غير اللائق أن يدفع للفاحشة فتاة تلوذ بالعفاف والطهارة، وبهذا نجد النهي مشمولاً بأدوات تستنفر نفس كل حر أبي للتخلي عن المنهى عنه.

---

(١) أسباب النزول ٢٢٥ .

وقد أحسن ابن المنير عندما لاحظ من ذلك الشرط تبشيع المخاطب حتى لا يقع في ذلك الإكراه، وليتيقظ إلى أنه كان ينبغي أن يأنف من هذه الرذيلة، ووجه التبشيع أن مضمون الآية للنداء عليه بأن أمته خير منه؛ لأنها آثرت التحصن عن الفاحشة وهو يأبي إلا إكراهها عليها... وعسى هذه الآية تأخذ بالنفوس الدنية، فكيف بالنفوس العربية(١).

ومن العجيب أن الزمخشري يستنتج من إيثار الأداة (إن) على (إذا) للإيذان بأن الساعيات كن يفعلن ذلك برغبة وطواعية منهن وأن ما وجد من معاذة ومسيكة اللتين اشتكتا إلى رسول الله ﷺ من حيز النادر والشاذ(٢).

فالنفس لا تستريح إلى هذا وإن وُجِدَت (إن)، فقد تستعمل مكان (إذا) على افتراض القلة لا على ثبوتها، بمعنى أنه ينبغي لمن لديه نخوة وشهامة ألا يكره إماءه على الزنا عند رغبتهن في العفاف ولو كن قليلات، فما بالك وهن في ذلك كثيرات، ومما يدل على أن الكثرة من الإماء كن مكرهات التعبير في النهي بقوله: (ولا تكرهوا) والزمخشري نفسه يقول: «والإكراه لا يتأتى إلا مع التحصن»(٣) فكان حرًيا به أن يراعي انسجام دلالة الأدوات والكلمات، ثم إن التعبير القرآني كنى عن الإماء بالفتيات، ولا تكون هذه الكناية إلا عند إرادة التمدح والثناء، ثم إنه جمع فقال: (فتياتكم) ولا يكون ذلك إلا عند إرادة الكثرة. والله أعلم.

٤- ومن وسائل التلطف في النهي والتوسل إلى تحقيق الغرض منه قوله تعالى: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ففتح باب التوبة لمن وقع في هذا الإكراه، ووعد سبحانه بالمغفرة حثًا على التخلي وتشجيعًا عليه، وقد بدأ الرازي فجعل الكلام محتملًا لإرادة الاثنين (المكره والمكرهة)؛ أي: فإن الله غفور رحيم لهن؛ لأن الإكراه عذر، وغفور رحيم بالمكره بشرط التوبة، لكنه ضعف الثاني لحاجته إلى إضمار «بشرط التوبة»(٤).

---

(١) راجع حاشية ابن المنير على الكشاف ٣/ ٦٦ .

(٢) راجع الكشاف ٣/ ٦٧ .

(٣) الكشاف ٣/ ٦٦ .

(٤) التفسير الكبير ٢٣/ ٢٢١ .

والظاهر أن الرجال هم المقصودون بالحديث ابتداءً لتصدير الجملة بهم في قوله: (ومن يكرههن. . .) لأن ذنبهم ظاهر، وهم في حاجة إلى تلك المغفرة، وقد ضمن هذا إشارة إلى المغفرة لتلك الإماء في قوله: (من بعد إكراههن) فهو ينبئ - كما يقول الألوسي - إلى كونهن مكرهات، ووقوعه بين اسم إن وخبرها للإيذان بأن كونهن مكرهات هو سبب مغفرة الله ورحمته.

وبهذا يتبين أن جملة واحدة حققت غرضين، واتجهت إلى السادة والإماء بإشارة خاصة إلى كل منهما، وقد بدأ باللفت إلى السادة؛ لأن الذنب في الحقيقة هو ذنبهم، ثم ضمن حديثه إشارة إلى الإماء؛ وإذا كانت المغفرة لا تأتي إلا بعد ذنب، فإن هذا يشير إلى أن قلة من الإماء لم تكن تنشد العفاف، وإشارة إلى أن الإماء عمومًا لا تخلو من تبعة؛ لأن المرأة تستطيع أن تقاوم وترفض مهما كان الإكراه الواقع عليها.

الاستخلاف والتمكين في الأرض:

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [سورة النور: ٥٥].

سبب النزول:

«عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب قال: لما قدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحد، فكانوا لا يبيتون إلا في السلاح، ولا يصبحون إلا في لأمتهم، فقالوا: ترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله عز وجل؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾.

سياق الآية:

سبق هذه الآية حديث عن طاعة المؤمنين لله سبحانه فيما يكلفهم به، وقد تردد

هذا المعنى ترددًا ملحوظًا بما يشير إلى أن المؤمن ينبغي أن يصل في مدى الطاعة إلى درجة أن يذوب مراده في مراد الله سبحانه إذعانًا وخضوعًا ويقينًا ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥١-٥٢] وفي الآية ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية يبين كنه ذلك الفوز، وأنه فوز في الدنيا باستخلاف الأرض، وفوز في الدين بالتمكين، مع التأكيد على أن ذلك لا يتحقق إلا بالإيمان والعمل الصالح والعبادة المخلصة لله سبحانه.

بين المقام والنظم:

جاءت الآية على كيفية من النظم تلبي أشواق المؤمنين إلى الشعور بالأمان والاطمئنان بعد سنين من الترقب والحذر والاستعداد الدائم بالسلاح خشية مباغتة العدو بهم بالهجوم، فإن الأمان والاطمئنان الذي كانوا يستشرفونه ويتطلعون إليه هو مما وعد الله به في قوله: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ وهو نتيجة لوعد سبقه باستخلاف الأرض وتمكين الدين ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾.

واستخلاف الأرض كناية عن نصرة المسلمين، ففيه بشرى بالمكنى به والمكنى عنه؛ أي: بالنصر والاستخلاف في الأرض، ولم يضف الأرض إلى أحد، فلم يقل مثلًا: ليستخلفنهم في أرضهم، للإشارة إلى أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده وأن العاقبة للمتقين.

- لم يقل: وعدكم الله بكذا وكذا بطريق الخطاب، وإنما عبر عنهم بطريق الغائب حتى يتاح التعبير عنهم باسم الموصول وما في صلته من الثناء عليهم بالإيمان والعمل الصالح الذي يؤهلهم لما وعد الله به من استخلاف الأرض وتمكين الدين مكتفيًا بما في الضمير «منكم» من الخطاب. ثم إن التعبير عنهم بطريق الغائب ليتناولهم ويتناول غيرهم، فيكون الوعد شاملًا لكل من آمن بالله وعمل صالحًا، وبهذا الأسلوب تتجاوز الآية هؤلاء الصفوة من المؤمنين الذين تمنوا حياة الأمان واستشرفوا الاطمئنان؛ لتتناول كل من حذا حذوهم وسار على طريقهم

بالإيمان والعمل الصالح.

وإنما عبر بالوعد وأسند فعله لله لتحقيق الثقة في التنفيذ؛ لأن الله سبحانه لا يخلف وعده.

- والجار والمجرور «منكم» يشير إلى أن الوعد حاصل لمن أخلص الإيمان وأخلص العمل الصالح، وأنه لا يشمل كل المؤمنين وأنهم ليسوا جميعًا على المستوى الذي يؤهلهم في إشارة إلى أنهم هم المقصودون بالثناء والتكريم، والجديرون بهذا الوعد العظيم.

- قوله سبحانه: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ له موقع معجز، وذلك لصلاحية الجملة أن تكون استئنافًا بيانيًا بمنزلة الإجابة على المتابعة النفسية للحركة الذهنية والوجدانية عند المخاطبين، فرب مستشرف متسائل عن الوسيلة التي ينالون بها هذه المنزلة العظيمة؛ أي: الاستخلاف في الأرض والتمكين في الدين، فكان قوله: (يعبدونني. . .) بمنزلة الجواب. ثم إن الجملة نفسها صالحة لأن تكون حالية، فهي صالحة لهذا وذاك، والفرق بين الأمرين أن اعتبارها استئنافًا يعتمد على نوع من المخاطبين ينفعل بالمعنى فيستشرف ويترقب ويتطلع للربط بين الأسباب والمسببات، بين المقدمات والنتائج، فما أن يسمع قوله تعالى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ حتى يستعظم هذه المنزلة متسائلًا عن كيفية نيلها والحصول عليها، فتأتي الجملة التالية مجيبة عن هذا التساؤل (يعبدونني. . .).

أما كون هذه الجملة حالية، فهي تلبي حاجة نوع آخر من المخاطبين أقل صبرًا في الترقب والمعرفة، وأكثر تطلبًا للربط بين الأسباب والمسببات؛ لذلك فهو لا يسأل، وإنما يتلقى المعنيين في جرعة واحدة؛ لأنه لا يرى أحقية هؤلاء المؤمنين في استخلاف الأرض والتمكين في الدين إلا في حالة كونهم عابدين لله مخلصين له العبادة، فهذه الصفة النقية الناصعة ملازمة للاستخلاف والتمكن، وهكذا الحال صفة ملابسة لصاحبها المتصف بها. ويجوز إرادة المعنيين معًا لكل المخاطبين.

ومع هذا الارتباط الوثيق بين جملة (يعبدوننى. . .) وما قبلها، فإنها تلتفت لصدر الجملة فترتبط بها ارتباطًا آخر من جهة كون العبادة المخلصة وجهًا آخر

للمعنى في قوله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ فلما كان استخلاف الأرض والتمكين في الدين شأنًا عظيمًا ومنزلة سامية، أحاطها بطرفين يلتقيان في معنى واحد هو كالشرط الذي لا بد منه لتحقق ذلك الاستخلاف والتمكين. إن الإيمان يثمر العمل الصالح ويثمر العبادة المخلصة، ولا فرق بين العمل الصالح والعبادة سوى في شمول العمل الصالح؛ لأنه يتناول العبادة المخلصة ويتناول كل حركة نافعة في الحياة تؤدي إلى عمارة الأرض وتمكين هذا الدين.

وهذا ما يسمى بالإرصاد والتسهيم، وهو من رد الأعجاز على الصدور في المعنى لا في اللفظ، ولا يلتفت الناس إليه في القرآن وهو في هذا الموضع لافت معجز لقرب طرفيه والتصاقهما بالمعنى المركزي من جهة السببية والمسببية والمقدمة والنتيجة.

ترخيص للزمنى والمرضى:

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة النور: ٦١].

سبب النزول:

وردت في نزول هذه الآية روايات متعددة، أقربها إلى سياق الآية ما قاله مجاهد: «نزلت هذه الآية ترخيصًا للمرضى والزمنى في الأكل من بيوت من سمى الله تعالى في هذه الآية، وذلك أن قومًا من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا إذا لم يكن عندهم ما يطعمونهم ذهبوا بهم إلى بيوت آبائهم وأمهاتهم أو بعض من سمى الله تعالى في هذه الآية، وكان أهل الزمانة[1] يتحرجون من أن يطعموا ذلك

(١) الزمانة: مرض يدوم، والزمنى وأهل الزمانة هم مرضى يستمر مرضهم زمنًا طويلًا فلا يستطيعون الكسب.

الطعام. . . ويقولون: إنما يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وكان سعيد بن المسيب يقول في هذه الآية: «نزلت في أناس كانوا إذا خرجوا مع النبي ﷺ وضعوا مفاتيح بيوتهم عند الأعمى والأعرج والمريض وعند أقاربهم، وكانوا يأمرونهم أن يأكلوا مما في بيوتهم إذا احتاجوا إلى ذلك، لكنهم يتقون أن يأكلوا منها، ويقولون: يخشى ألا تكون أنفسهم بذلك طيبة، فأنزل الله هذه الآية»[(١)].

السياق والموقع:

وردت هذه الآية في سياق رفع الحرج عن أشياء مختلفة يجمع بينها أنها مستثناة من أحكام عامة لظروف خاصة، فلقد رفع الحرج عن القواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحًا (فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة) كما رفع الحرج عن ذوي العاهات والمرضى، فأباح لهم بسبب ظروفهم الخاصة وعجزهم عن الكسب أن يأكلوا معنا من بيوتنا أو بيوت آبائنا أو بيوت أمهاتنا. . .إلخ، وذلك توسيعًا لمجالات التكافل بين المسلمين.

بين المقام والنظم:

ليس في نظم الآية ما يمنع هذين السببين اللذين ذكرهما مجاهد وابن المسيب، وإن كان صدر الآية يتناسب مع ما ذكره مجاهد، وعجزها يتناسب مع ما ذكره ابن المسيب (أو ما ملكتم مفاتحه).

وحاصل ما ذكره أن بعض المسلمين كانوا يعجزون عن تحصيل أرزاقهم، وأن القادرين كانوا يستضيفونهم ويطعمونهم، وعندما لا يجدون في بيوتهم طعامًا يأخذونهم إلى بيوت أقاربهم، وكان ذلك يسبب حرجًا لهؤلاء العجزة، فرفع الله سبحانه عنهم هذا الحرج وأباح لهم الأكل من بيوت الصحابة أو من بيوت أقارب هؤلاء الصحابة الذين اعتادوا الأكل فيها من غير دعوة سابقة كالآباء والأمهات والإخوان والأخوات إلخ. . . وذلك على فرض أن هؤلاء العجزة ليس لهم هم

(١) أسباب النزول للنيسابوري وانظر الصحيح المسند من أسباب النزول للوادعي ١٧٣ .

أقارب من أب أو أم أو أخ أو أخت الخ. . .

- وهذا المعنى يقتضي أن يكون قوله سبحانه: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ الخ. . . معطوفًا على ما قبله مشاركًا له، ويكون كل من المعطوف والمعطوف عليه في حاجة إلى الآخر ليتمم معناه، فيصير تقدير الكلام:

ليس على الأعمى حرج أن يأكل من بيوتكم أو بيوت آبائكم إلخ. . .

ولا على الأعرج حرج أن يأكل من بيوتكم أو بيوت آبائكم إلخ. . .

ولا على الأعمى حرج أن يأكل من بيوتكم أو بيوت آبائكم إلخ. . .

ولا على أنفسكم حرج أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم إلخ. . .

فحذف الأكل ومتعلقاته من الأول لدلالة الثاني عليه، وحذف الحرج من الآخير (ولا على أنفسكم) لدلالة الأول عليه، وهذا يسمى عند البلاغيين بالاحتباك، وهو نوع من الأساليب البديعية ذات النسج المحكم والصياغة المحبكة، وهو صورة من صور الإيجاز الدقيق، وهو كثير في القرآن ونادر في كلام العرب شعرًا ونثرًا.

وقد قدر الحرج المنفي في (ولا على أنفسكم) فلم يقل: ولا على أنفسكم حرج، والمقصود بهم سائر المؤمنين - بينما أظهره مع كل من الأعمى والأعرج والمريض في قوله: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ﴾ لأن هؤلاء هم المقصودون بالحكم أصلًا، وهم المقصودون بنفي الحرج عنهم في أن يأكلوا في بيوت الصحابة أو معهم في بيوت أقربائهم؛ أما الصحابة فلم يكن يقع عليهم حرج عندما يصطحبون هؤلاء العجزة لبيوتهم، ولكن ربما يقع عليهم شيء من الحرج عندما يصطحبونهم إلى بيوت أقربائهم، ومن أجل هذا كان العطف في قوله سبحانه: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ إلخ. . .

ولعل هذا ما دفع أبا السعود إلى القول أن التقدير في قوله: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ﴾؛ أي: تأكلوا أنتم وهم معكم[1]، فهذا تقدير حسن يقتضيه السياق، ويدل

---

(١) إرشاد العقل السليم ٤/ ٧٤ .

على أن المقصود من العطف هو المشاركة، وأن ليس المقصود أن يكون لهم حكم مختلف عمن قبلهم، وفيه إشارة إلى ما ينبغي أن يكون بين المؤمنين من تعاطف وتراحم، وفيه إشعار العجزة والزمنى بأنهم ليسوا عالة على أحد، ولكنهم لهم حكم من يصطحبونهم إلى بيوت أقربائهم؛ فصاروا هم كذلك أقرباء، كما يشير من طرف خفي إلى الآباء والأمهات والإخوان والأخوات إلخ أن تتسع صدورهم لضيوف أبنائهم وإخوانهم، كأنهم هم أيضًا أبناء وإخوان.

- أما كان يكفي أن يقول: ليس على الأعمى ولا على الأعرج ولا على المريض حرج؟ فينفي الحرج مرة واحدة بدلاً من ثلاث مرات، والإجابة أنه لا يكفي؛ لأنه لو اقتصر على إسناد واحد لهم جميعًا، لتوهم أن الحرج منفي عنهم جملة عندما يجتمعون حسب، مع أن المقصود نفي الحرج عن كل واحد منهم سواء كانوا فرادى أم مجتمعين، ولعل هذا ما يعنيه قوله في نهاية الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ يعني مجتمعين أو متفرقين.

وعلى هذا يلفتنا إيجاز معجز لافت يكمن في قلب ما نسميه إطنابًا حسب مقاييسنا، فتكرار المسند في قوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ يعده كل البلاغيين إطنابًا لكنه بالقياس إلى دلالته المحكمة الغزيرة يعد إيجازًا؛ لأنه لو حذف من الثاني لدلالة الأول عليه، فقال مثلاً: لا حرج على الأعمى ولا على الأعرج ولا على المريض، لما أدى المقصود، ولأوهم أن الحرج منفي جملة عند اجتماعهم، لكن المقصود كما سبق هو نفي الحرج عن كل واحد منهم، سواء كانوا فرادى أم مجتمعين.

- وإنما خص الله سبحانه البيوت المذكورة بإباحة الأكل فيها بنفسك وبمن تدعوه معك من الأعمى والأعرج والمريض؛ لأن العادة جرت أن هؤلاء تطيب نفوسهم بأكل ذويهم عندهم، والعادة كالإذن في ذلك، يقول الرازي: «فيجوز أن يقال: خصهم الله بالذكر؛ لأن هذه العادة في الأغلب توجد فيهم؛ ولذلك ضم إليهم الصديق، ولما علمنا أن هذه الإباحة حصلت في هذه الصورة لأجل حصول الرضا فيها، فلا حاجة إلى القول بالنسخ»(١).

(١) التفسير الكبير ٢٤/٣٦ .

سورة الفرقان

كفارة الذنوب المستعظمة:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾... الآيات إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [سورة الفرقان: ٧٠].

سبب النزول:

«عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهم أن أناسًا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا، ثم أتوا محمدًا ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزلت تلك الآيات.

وعن عبد الله بن مسعود قال: سألت رسول الله ﷺ: أي الذنب أعظم؟ فقال: «أن تجعل لله ندًا وهو خلقك». قال: قلت: ثم أي؟ قال: **«أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك»** قال: قلت: ثم أي؟ قال: **«أن تزاني حليلة جارك»**! فأنزل الله تعالى تصديقًا لذلك: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ﴾.

سياق الآيات:

وردت هذه الآيات في سورة الفرقان التي تدل بدايتها ونهايتها على محورها؛ وهو وحدانية الله سبحانه في ملكه، ونسبة كل شيء إلى إرادته وقدرته، وعبودية من سواه له سبحانه حتى أكرم الخلق إليه الذي أنزل الفرقان عليه نذيرًا للعالمين، فهو عبده ورسوله، وقبيل نهاية السورة رد للعجز على الصدر بذكر صفات عباد الرحمن ما يفعلون وما يتركون، وقد بدأ بما يفعلون بقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ

يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ ثم تلى هذا ذكر ما يتركون في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾.

وقد روعي في هذه الصفات المتروكة الترتيب الواجب، فبدأ بترك الشرك؛ لأنه جوهر الإيمان وهو أصل مقدم وأساس لا بد منه، ثم يلي صحة الاعتقاد استقامة السلوك بالمحافظة على الأرواح والأعراض ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ﴾.

بين المقام والنظم:

مما سبق يتبين انسباك هذه الآيات في سياقها على الرغم من نزولها لسبب خاص هو طمأنة الذين أفرطوا على أنفسهم بأن التوبة الصادقة تَجُبُّ ما قبلها، والظاهر أنها التوبة من الكفر، فهذا ما يقتضيه سبب النزول الذي ورد عن ابن عباس ويتعلق بأناس من أهل الشرك قتلوا وزنوا فأكثروا ويسألون عما إذا كان لما فعلوه كفارة، مع أن ذنب الشرك بالله أعظم من أي ذنب آخر، ولكنهم لما لاح لهم نور الإيمان، استحضروا الكبائر التي ارتكبوها فاستعظموها فسألوا وقالوا ما قالوا؛ فنزلت الآيات لطمأنتهم، وهذا يتسق مع ما جاء قبله في سورة الفرقان ٥٨ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ فلعل هذا هو التمهيد بالطمأنة؛ لأنه سبحانه خبير بذنوب عباده ما صغر منها وما كبر، ومع ذلك فهو حليم رحيم بهم لأنهم عباده، فإضافة الذنوب إلى (عباده) يرفع القلق ويدفع الخوف من عواقب الذنوب إذا اتجه العبد إليه سبحانه تائبًا، فالسياق سياق ملاينة وطمأنة لمن تاب وآمن وعمل صالحًا مهما كان ذنبه عظيمًا.

في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ دل باسم الإشارة البعيد على أن الإشراك بالله وقتل النفس التي حرم الله قتلها والزنى أعظم الذنوب ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ ولذلك ناسبه التهديد بمضاعفة العذاب وخلوده ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ فلقد قابل عظم الذنب بعظم العذاب في كَمِّه ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ

﴿ٱلْعَذَابُ﴾ وفي زمنه ونوعه (ويخلد فيه مهانًا).

ولما كان ذلك يوقع الرعب في القلوب فتبحث عن مخرج، قال سبحانه: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ وفي التوبة ندم وتحول، وفي الإيمان تصحيح الاعتقاد، وفي العمل الصالح تكفير للأعمال السيئة، (فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات).

وهذا يدل على أن التوبة من الشرك والكبائر معًا، وهذا يرشح سبب النزول الذي رواه ابن عباس وكذا ما رواه ابن مسعود لأن الأول يتعلق بأناس من أهل الشرك قتلوا وزنوا استعظموا ذنوبهم، والثاني يتعلق بسؤال ابن مسعود عن أعظم الذنب، فبدأ رسول الله ﷺ بالذنب الأعظم وهو الشرك، ثم ثنى بقتل النفس التي حرم الله قتلها، وثلث بالزنى، وقد جاءت الآية وفق هذا الترتيب ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ بما يدل على اتساق النظم القرآني مع ملابسات النزول اتساقًا يلبى حاجات النفوس، ويترك فيها أبلغ الأثر.

ومن نكات التعبير والنظم القرآني:

- أنه سبحانه عندما أثنى على عباد الرحمن، قال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ ولم يقل: «والذين لا يشركون بالله» مع أن هذا أوجز، وذلك لإبراز الشرك في أشنع صوره، وهى دعوة مع الله إلاها آخر، مع أنه لا يوجد إله آخر، فهي دعوى خاسرة ظالمة.

- ثم إنه قال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

ولم يقل: والذين لا يدعون معي إلأهًا آخر.

وذلك جريًا مع طريقة النظم قبله في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ وقوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ولم يقل: وعبادي، وذلك لأن تحويل الضمير من التكلم إلى الغائب أتاح ظهور أسماء الله وتنويعها بحسب المعانى ابتداء بالرحمن في (وعباد الرحمن) ثم بالرب في (والذين يبيتون لربهم سجدًا وقيامًا) ثم بالله في (والذين لا يدعون مع الله إلاها آخر) مع مراعاة التلاؤم بين كل اسم وموقعه، فلما عبر بالعباد أضافهم للرحمن لحاجة العبد إلى رحمة ربه، ولما جعلهم

في خضوع وخشوع يبيتون سجدًا وقيامًا عبر بالرب؛ لأن العبادة والخشوع يناسبها مقام الربوبية، ولما تحدث عن إخلاص العبادة لله ونفي الشرك قال: (والذين لا يدعون مع الله إلاهًا آخر)؛ لأن تصحيح الاعتقاد وإخلاص العبادة يناسبه مقام الألوهية.

- في قوله: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ ولم يتعد الفعل إلى مفعول ما بخلاف قوله: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ فقد تعدى الفعل هنا؛ وذلك لأن الزنا ليس فيه حلال وحرام فكله حرام بخلاف القتل؛ لهذا كان لا بد من تعديه إلى ما تعدى إليه لبيان النهي عن قتل النفس التي حرم الله قتلها.

- مضاعفة العذاب في قوله: ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ للتغليظ والتشديد والتخويف، وتحديد ظرف هذا العذاب المضاعف بيوم القيامة إشارة إلى ما يجب في الدنيا من العقاب الرادع بإقامة الحدود.

التوبة في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ المقصود بها التوبة من الكفر، وإذا كان الإسلام يمحو الكفر قبله فمحوه لما سواه من ذنوب أولى كالقتل والزنى بشرط الاعتقاد الصحيح (آمن) والاستقامة على منهج الله (وعمل صالحًا) وبهذا فلا يرد هنا ما نقل عن ابن عباس من قوله: «توبة القاتل غير مقبولة وأن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾[1].

وذلك لأن الجهة منفكة، فما ذكره ابن عباس لا ينطبق على من قتل مؤمنًا وهو في جاهلية الكفر ثم آمن كخالد بن الوليد مثلًا.

- أعاد ذكر التوبة ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ بعد قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾.

يرى الألوسي في هذا أن قوله: (ومن تاب) يرجع إلى الماضي، فإنه سبحانه ذكر أن من أتى بهذه التوبة في الماضي على سبيل الإخلاص، فقد وعده بأنه سيوفقه للتوبة في المستقبل، وهذه من أعظم البشارات»[2].

---

(١) روح المعاني ٢٤/ ١١٣ .

(٢) المرجع نفسه .

وإن كنت أرى أن التوبة أولاً في ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ هى التوبة من الكفر، وقد اشترط فيها الإيمان والعمل الصالح؛ أما التوبة ثانيًا في: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، فهي توبة المؤمن مما يعرض له من زلات ومعاص، مع التأكيد على أن العمل الصالح شرط لصحة التوبة بنوعيها، سوى أنه لا بد من الإيمان كأساس عند توبة الكافر، فلا يكفيه العمل الصالح. والله أعلم.



سورة القصص

إنك لا تهدي من أحببت

قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [سورة القصص: ٥٦].

«عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لعمه عند الموت: «**قل: لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله يوم القيامة**»، قال: لولا أن تعيرني نساء قريش يقلن: إنه حمله على ذلك الجزع، لأقررت بها عينك. فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[1].

سياق الآية:

عند تتبع الآيات المحيطة بهذه الآية نجد حديثًا عن موقف اليهود من الرسالة والرسول، وهو موقف يتردد بين رفض بعضهم وقبول بعضهم، ولا شك أن رفض من رفض منهم خضوعًا لهواه[2] رغم علمه بالحق يدل على أن الهداية من الله سبحانه، ولو أن محمدًا ﷺ يملك أن يهدي بنفسه لآمنوا جميعًا، وبعد الآية قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ [سورة القصص: ٥٧].

فهؤلاء الذين رفضوا الهدى من المشركين متعللين بالخطر الذي يتهددهم من كل الناس، وهم في تعللهم هذا كتعلل اليهود عندما جاءهم الحق: (قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى) فهؤلاء وهؤلاء يصدق عليهم قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾.

أما قوله ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ فينصرف إلى من آمن ممن قال الله

---

(١) الصحيح المسند وأسباب النزول للنيسابوري ٢٣٤ .

(٢) قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة القصص: ٥٠] .

فيهم: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ وهم الذين يعرضون عن اللغو والتعلل بالحجج الفارغة ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [سورة القصص: ٥٥].

بين المقام والنظم:

مما سبق يتبين أن الآية التي معنا ترتبط ارتباطًا متلاحمًا بسياقها؛ إذ يلتفت جزء منها إلى ما قبلها، وجزء آخر إلى ما بعدها، على أن المعنى فيها عام، وليس فيها ما يشير إشارة ما إلى أنها خاصة بموقف أبي طالب وهو يحتضر عندما عرض عليه رسول الله ﷺ أن يؤمن، وعلى الرغم من الأخذ بالقاعدة العامة وهي أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فإن هذا لا ينفي أن يكون في اللفظ ما يدل على السبب الخاص ولو بإشارة خفيفة، وإلا لانفتح الباب لحمل الألفاظ العامة على أسباب خاصة ليس يربطها بها أدنى سبب.

ومن الآيات التي يتحقق فيها الإشارة الواضحة إلى ذلك الموقف على الرغم مما فيها من عموم قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾... الآية.

ومن العجيب أن يكون هناك ما يشبه الإجماع من المفسرين على أن سبب نزول قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ هو حرص الرسول ﷺ على إيمان عمه دون جدوى، وإنما الذي أطمئن إليه ويدل نظم الآية وسياقها عليه أن السبب هو حرص الرسول ﷺ على إيمان من لا فائدة منهم، ويدخل فيهم أبو طالب ومشركو قريش ومتعنتو أهل الكتاب، ويؤكد هذا بعض الملابسات التي اقترنت بنزول هذه الآية، وذكر الزمخشري منها أن أبا طالب عندما أجاب على رسول الله ﷺ قائلًا: «أموت على ملة الأشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف» قالت قريش لرسول الله ﷺ: نحن نعلم أنك على الحق، ولكننا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب بذلك أن يتخطفونا من أرضنا، فألقمهم الله الحجر بأن مكن لهم في الحرم الذي أمنه بحرمة البيت، وأمن سكانه بحرمته، وكانت العرب في الجاهلية حولهم يتناحرون وهم آمنون في حرمهم لا يخافون وبحرمة البيت هم قارون بواد غير ذي زرع، والثمرات والأرزاق تجبى إليهم من كل أوب، فإذا خولهم الله ما

خولهم وأعطاهم ما أعطاهم من الرزق بحرمة البيت وهم على الكفر، فكيف إذا انضم إلى حرمة البيت حرمة الإسلام.[١] قال سبحانه: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

إن الذي أوقع في اللبس وجعل الكثيرين يخصون قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ بأبي طالب هو لفظ (أحببت)؛ إذ صرفوه - فيما يبدو - إلى أبي طالب، فلقد كان رسول الله ﷺ يحبه لأنه رباه وحماه، لكن الذي أراه أن المقصود إنك لا تهدي من أحببت له الهداية من الناس، ولقد كان رسول الله ﷺ يحب الهداية لكل الناس، والله أعلم، ويبدو أن هذا التقدير قد مال إليه أبو السعود، فيقدر في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ من الناس[٢].

وحاصل هذا أن المفسرين ذهبوا إلى أن قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ نزلت في أبي طالب، وأن قوله تعالى بعده: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ نزلت في جماعة من المشركين حضروا احتضار أبي طالب.

والحق الذي يدل عليه السياق والنظم أن الأولى نزلت فيهم جميعًا، وأن الثانية جاءت بعدها على سبيل البيان بحكاية ما قالوه، ويعكس تعللهم بالحجج الفارغة، وفي ذلك نعي عليهم وإبراز لقصور إدراكهم.



(١) راجع الكشاف ٣/ ١٨٥ .

(٢) إرشاد العقل السليم ٤/ ١٥٧ .

سورة العنكبوت

أحسب الناس أن يتركوا:

قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [سورة العنكبوت: ٢ - ٣].

سبب النزول:

قال الشعبي: نزلت في أناس كانوا بمكة قد أقروا بالإسلام، فكتب إليهم أصحاب النبي ﷺ من المدينة لما نزلت آية الهجرة: أنه لا يقبل منكم إقرار ولا إسلام حتى تهاجروا، فخرجوا عامدين إلى المدينة فأتبعهم المشركون فآذوهم، فنزلت فيهم هذه الآية، وكتبوا إليهم أن قد نزلت فيكم آية كذا وكذا، فقالوا: نخرج فإن اتبعنا أحد قاتلناه، فخرجوا فاتبعهم المشركون، فقاتلوهم فمنهم من قتل ومنهم من نجا، فأنزل الله فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ﴾ [سورة النحل: ١١٠].

وقال مقاتل: نزلت في «مهجع» مولى عمر بن الخطاب كان أول قتيل من المسلمين يوم بدر، رماه عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، فقال النبي ﷺ: «**سيد الشهداء مهجع، وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة**» فجزع عليه أبواه وامرأته، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية.

أضواء على السياق:

تدور سورة العنكبوت حول ضروب من المجاهدات في الله الخالق القادر، مع طمأنة المجاهدين وإنذار المعاندين بهلاك أمثالهم من السابقين، وفي أثناء السورة يقدم الوسائل التي يستعين بها المؤمن على الاستعصام بدينه والجهاد في الله من أجل هذا الدين كتلاوة القرآن والصلاة ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٥] و ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ

عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [سورة العنكبوت:٥١]، ثم تنتهي السورة بما بدأ به بالنص على هذا المحور الذي تدور حوله السورة وهو الجهاد في الله مع الطمأنة بهداية المجاهدين إلى سبل الله ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

بين المقام والنظم:

في إطار المحور العام لسورة العنكبوت تأتي البداية بقوله: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾.

ولا شك أن ابتداء السورة بهذا الاستفهام الإنكاري يعكس حسمًا ولفتًا قويًا إلى أمر عظيم لا يتفق مع إيمان المؤمنين وهو الضعف والوهن وحب الدنيا وعدم الرغبة في التضحية، والسقوط أمام الابتلاء الذي يمحص الله به المؤمنين ويختبر صدقهم من كذبهم ليكتشف المؤمن نفسه من خلال موقفه من الابتلاءات.

وقد جاء نظم الآية على كيفية تجعلنا نستبعد ما ورد بصدد نزولها من أسباب أو ما قيل أنها نزلت من أجله وخصوصًا ما سبق ذكره نقلاً عن النيسابوري وورد في كثير من التفاسير.

فالبداية بالاستفهام الإنكاري يعكس رفض الأمر المنكر وهو اعتقادهم بأنهم سالمون لا يفتنون[1] فما بالهم لو سلكوا مسلكًا يترجم هذا الاعتقاد ويدل على رفضهم أن يبتلى المؤمن وإيثارهم السلامة وركونهم للدعة ورفضهم الجهاد في سبيل الله.

من أجل هذا عبر بالناس وأسند الفعل إليه، فلم يقل: أحسب الذين آمنوا أن يتركوا بلا فتنة، وإنما قال: (أحسب الناس) للإشارة إلى أن مجرد هذا الاعتقاد يخلع عنهم صفة الإيمان ويجعلهم غير جديرين بشرفه.

وحتى ينسجم النظم وتتلاءم أجزاؤه قال: (أن يقولوا آمنا) ولم يقل: أحسب الناس أن يتركوا بعد إيمانهم، وذلك إشارة إلى أن مجرد ظنهم أو اعتقادهم أنهم لا يفتنون يعني أن إيمانهم كان مجرد قول باللسان، لأن من مقتضيات الإيمان اليقيني

---

(١) وذلك وفق القاعدة البلاغية التي انتهى إليها عبد القاهر وهي أن المقدم هو المنكر، فالإنكار للفعل «حسب» وهو بمعنى الاعتقاد .

أن يكون المؤمن مستعدًا للابتلاء، وأن يتقبله إن وقع دون تبرم وأن يعلم أنه مفتاح خير لا شر، وأنه لتمحيص النفوس وصقل الهمم وإعداد العزائم وتعويدها على التضحيات.

أي أنه لا يجتمع في القلب إيمان مع إيثار الدنيا وكره البلاء والضيق بالجهاد وعدم الصبر على تبعات الإيمان من أذى وافتتان.

- والتعبير بقوله (أن يتركوا) مع بناء الفعل للمفعول الذي يعمم الفاعل ويبهمه يشير إلى أن أعداء الإيمان كثيرون، وأن على المؤمنين أن يستعدوا لهذا وأن يتحملوا تبعات الإيمان، وألا يدفعهم إيثار السلامة وحب الدنيا إلى موالاة الكفار واسترضائهم وإعطائهم الدنية في دينهم، وأن لا يقعوا تحت الإحساس بالضعف والخوف مما يؤدي بهم إلى التنصل من إيمانهم شيئًا فشيئًا.

إن أسلوبًا كالاستفهام الإنكاري في هذا المستوى من القوة والحسم والمواجهة لا يمكن أن يتوجه إلا إلى أناس ضعاف الإيمان (قالوا آمنا) ولم يتغلغل الإيمان في قلوبهم، هم أناس انزعجوا من أول ابتلاء، وهم ليسوا منافقين وإن صاروا مثلهم بسبب حسبانهم أنهم لا يفتنون، وإن كان التعبير عنهم بالناس وجعل الإيمان بالنسبة لهم قولاً يشير إلى أن الإيمان لم يتمكن في قلوبهم تمكنًا يجعلهم يشعرون بالقوة والثبات والصبر، وأنهم لم يصلوا بعد مرتبة المؤمنين.

ولهذا أستبعد رواية الشعبي التي ذكرها النيسابوري، والتي تذكر أن الآية نزلت في أناس كانوا بمكة أقروا بالإسلام؛ وذلك لأنهم عندما كتب إخوانهم بالمدينة إليهم أن يهاجروا لم يمتنعوا، بل هاجروا وما عادوا إلى مكة ثانية إلا مكرهين عندما تبعهم المشركون وآذوهم، ثم حاولوا الهجرة ثانية، فقتل منهم من قتل، ونجا منهم من نجا.

أفي هؤلاء ينزل قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾؟ فهل صدر منهم ما يدل على اعتقادهم أنهم لا يفتنون، وهل في الآية ما يدل على أنهم حاولوا الهجرة مرة بعد مرة؟

إن الآية التي هي أنسب لحال هؤلاء هي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا

﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة النحل: ١١٠] ومغفرته سبحانه ورحمته لهم لتأخرهم بداية عن إخوانهم لا لأنهم اعتقدوا أنهم بمنجاة من الابتلاء والافتتان.

كما أستبعد كذلك ما ذكره مقاتل من أن آية العنكبوت نزلت في مهجع مولى عمر بن الخطاب والمقصود والداه لجزعهما على استشهاده؛ لأن سياق الآية أبعد ما يكون عن ذلك السبب؛ ولأن الإنكار يتناول جماعة لا أفرادًا بدليل قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ولأن انزعاج الوالدين كان وقتيًا ولم يكن موقفًا ثابتًا يؤدي إلى الإنكار عليهما .

أما الذي يمكن أن يطمئن إليه القلب كسبب للنزول فهو ما ذكره الألوسي قال: «روى البخاري وأبو داود والنسائي عن خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ ولقد لقينا من المشركين شدة - فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: **«قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه»** (١).

ومما يرشح هذه الرواية مناسبتها في المعنى لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ والتقدير فصبروا وصمدوا وصدقوا وما كذبوا، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾ [سورة آل عمران: ١٤٦].

- أما قوله سبحانه: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فالمقصود منه التحذير والتنبيه، والله سبحانه يعلم من غير اختبار، ولهذا فسر العلماء العلم بما يترتب عليه من مجازاة، وإنما آثر التعبير بالعلم لما فيه من تلويح بالوعيد والتحذير، ولا يخلو من التعريض بكذب بعضهم في ادعاء الإيمان، وهؤلاء البعض هم المقصودون بالوعيد والتحذير.

- وقد تفاوت التعبير عن الفريقين، فالصادقون في إيمانهم عبر عنهم باسم الموصول «الذين صدقوا» لتمييزهم أكمل تميز ثناء عليهم وللإشارة بالصلة (صدقوا)

---

(١) روح المعاني ٢٠/ ١٣٥ .

إلى أنهم قلة نادرة يقل وجودها مستقبلاً كما يشير التعبير بالماضي.

أما الكاذبون الذين سقطوا في الابتلاء، فقد عبر عنهم باسم الفاعل (وليعلمن الكاذبين) للإشارة إلى استمرار وجودهم واستمرار كذبهم.

وحاصل هاتين الجملتين (فليعلمن الله الذين صدقوا، وليعلمن الكاذبين) أن هؤلاء الذين استبعدوا الابتلاء ولم يصبروا للأذى لم يكونوا سواء، فمنهم من انتبه وانزجر فصبر وصدق، ومنهم من غفل واستمر في حسبانه أنه بمنجى عن الافتتان فكان من الكاذبين في دعوى الإيمان، وهؤلاء هم الذين خصهم الله سبحانه بالذكر في السياق نفسه وفي قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة العنكبوت: ١٠].

لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق:

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٨].

سبب النزول:

عن مصعب بن سعد عن أبيه سعد بن أبي وقاص أنه نزلت فيه آيات من القرآن، قال: حلفت أم سعد ألا تكلمه أبدًا حتى يكفر بدينه ولا تأكل ولا تشرب، قالت: زعمت أن الله وصاك بوالديك وأنا أمك وأنا آمرك بهذا، قال: مكثت ثلاثًا حتى غشي عليها من الجهد، فقام ابن لها يقال له عمارة فسقاها فجعلت تدعو على سعد، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ وفيها نزل ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾[1].

بين المقام والنظم:

جاء نظم الآية مناسبًا لمقام سورة العنكبوت من ناحية ولملابسات النزول من ناحية أخرى؛ أما مقام السورة، فقد سبق أنه يتعلق بضروب من المجاهدات

(١) الصحيح المسند ١٨٠ .

المفروضة على كل مؤمن والتي كان منها مجاهدة الإنسان نفسه في رضا والديه وطاعتهما.

والنظم القرآني يطوع الآية التي نزلت في سبب خاص فتأتي في صياغة عامة ليعم المبدأ المقصود منها، ولتتوافق مع سياقها من ناحية أخرى؛ لهذا نرى أن الآية وإن نزلت بشأن سعد، فقد تجاوزت الأسماء والحدث الخاص.

وقد يشكل علينا أن آية سورة لقمان التي توصي بالوالدين جاء فيها ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ [سورة لقمان: ١٥] فنتساءل أي الآيتين نزلت في ذلك السبب الذي يتعلق بقصة سعد مع أمه، وأمامنا احتمالان.

الأول: أن تكون الآيتان - آية العنكبوت وآية لقمان - نزلتا معًا بهذه المناسبة، وما ورد في سبب النزول عن مصعب بن سعد يشير إلى هذا؛ إذ يقول بعد نزول آية العنكبوت: «وفيها نزل (فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفًا) وهي جزء من آية سورة لقمان، والسورتان مكيتان وإن لم تنزلا دفعة واحدة، فإن سورة لقمان نزلت أولًا.

الثاني: أن تكون آية سورة العنكبوت هي وحدها التي نزلت بشأن قصة سعد مع أمه، وقد يؤيده أن في سورة لقمان بسطًا في التوصية بالأم خاصة يسعى إلى ترقيق القلب لها، كقوله سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [سورة لقمان: ١٤].

وهذا البسط وإن ناسب سياق سورة لقمان الذي يغلب عليه الملاينة حيث نجد وصايا لقمان لابنه، وكانت هذه من ضمن الوصايا وحيث كانت العلاقة بين الابن وأبويه طبيعية، فإنه لا يناسب سياق سورة العنكبوت الذي لا يحتمل هذا البسط ولا هذا الترقيق؛ لأنه سياق مجاهدة النفس لمواجهة ضروب الفتن والابتلاءات، فهي الأولى بقصة سعد الذي تعرض لابتلاء موقفه مع أمه فصمد وصدق.

- واللافت في الآيات التي جاء فيها التوصية بالوالدين - في العنكبوت ولقمان والأحقاف - أن التوصية فيها جميعًا للإنسان (ووصينا الإنسان) وذلك للإشارة إلى عموم المبدأ واتساعه ليتناول الناس جميعًا؛ لأنه أصل مغروس في الفطرة الإنسانية، فكأنه يوقظ النائم، من تلك الأحاسيس الفطرية في النفس الإنسانية.

وعندما يستعمل القرآن لفظ التوصية فإنه يعني الفرضية والوجوب والإلزام الذي لا خيار فيه، ولكن في لفظ التوصية لين وخفة تتناسب في مجال التذكير بما هو أصل مغروس في الفطرة. كما تتناسب في مجال التوصية بالآباء أو بالأبناء (ووصى بها إبراهيم بنيه) و (يوصيكم الله في أولادكم).

- والقراءة المعروفة (حسنًا) بتسكين السين إذا انضمت إلى قراءة ثانية (حَسَنًا) بفتح الحاء والسين وقراءة ثالثة (إحسانًا)، فإن ذلك يجمع التوصية بالخير كله قولاً وفعلًا ورعاية وعناية على أحسن الوجوه من غير تأفف ولا تبرم ولا ضيق ولا تفضل، ولكن مع التواضع والحب والصبر، كل ذلك يشير إليه التعبير بالحسن بقراءاته المتعددة.

- ثم يأتي إلى الغرض الأساسي من هذه الآية والذي يتصل اتصالاً مباشرًا بقصة سعد (وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما) فلم يقل: وإن أمراك أو حملاك على أن تشرك بي، وإنما قال: (وإن جاهداك) من المجاهدة وهي الإفراط في بذل الجهد، وذلك يشير إلى أنهما مهما بلغا في الإلحاح والتعب لحمله على الشرك فلا يطيعهما لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

- هل يعني قوله: (ما ليس لك به علم) أن هناك شريكًا لا علم له به؟ وأنه لو فرض علمه بوجود شريك لجاز الشرك؟ حاشا لله، وإنما يكنّى بعدم العلم عن عدم الوجود، وفي هذه الكناية قوة وتأكيد؛ لأنها ذكر المعنى مقرونًا بالدليل؛ أي: أن الدليل على أن الشريك ليس له وجود أنه لا علم له به، وقد نقل الألوسي عن الطيبي نحو هذا يقول: «وجعل العلامة الطيبي نفي العلم كناية عن نفي المعلوم، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة النحل: ١٨]، وفيه إشارة إلى أن نفي الشرك من العلوم، الضرورية، وأن الفطر السليمة مجبولة عليه»[(١)].

- وفي قوله السابق: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ يشير تقديم النفي وتنكير «علم» إلى شدة النفي لأدنى علم، ووراء ذلك أن رفض طاعتهما في الشرك لا يستند إلى

(١) روح المعاني، تفسير سورة العنكبوت .

تعصب، وإنما يستند إلى المنطق العقلي، فكيف يطيعهما في عبادة ما لا يعلمه.

- فائدة جملة (إلي مرجعكم فأنبئكم) التحذير من عقوق الوالدين، ثم التحذير من طاعتهما في الشرك، والصياغة تتناغم مع هذا الغرض؛ لأن تقديم الجار والمجرور يعني أن المرجع إليه وحده لأنه لا شريك له، فكيف يطيع الابن والديه في دعوى الشرك، والتعبير بالإنباء في (فأنبئكم) يشير إلى علمه بما يكون منهم من امتثال أو مخالفة لتوصيته، وإيماء إلى ما يترتب على ذلك من ثواب أو عقاب.



سورة السجدة

تتجافى جنوبهم عن المضاجع:

قال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [سورة السجدة: ١٦].

سبب النزول:

عن أنس بن مالك قال: نزلت فينا معاشر الأنصار ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ الآية كنا نصلي المغرب فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلي العشاء مع النبي ﷺ، وعن أنس من طريق آخر قال: نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة، وقال الحسن ومجاهد: نزلت في المتهجدين الذين يقومون الليل إلى الصلاة...».

بين المقام والنظم:

من يقرأ سياق هذه الآية من سورة السجدة ويلحظ ارتباطها بما قبلها، يجد أن ما أورده مؤلفو أسباب النزول عن أنس بن مالك مستبعد، سواء ما ورد بلفظ انتظار صلاة العشاء أو انتظار صلاة العتمة، فلا فرق، ثم إن نظم الآية والتعبير بقوله: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ وهو كناية عن ترك النوم كما يذكر الشهاب الخفاجي[1] لا يعني سوى القيام بعد النوم في جوف الليل للصلاة والدعاء، ويؤيده حديث معاذ الذي ورد في سنن أحمد والترمذي والنسائي أن الرسول ﷺ فسر ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ بصلاة الرجل في جوف الليل كما نقله كثير من المفسرين[2].

وعلى هذا فإن الأقرب للقبول ما نقل عن الحسن ومجاهد من أن الآية: (نزلت

---

(١) راجع حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي دار صادر، بيروت ٧/ ١٥٢ .

(٢) راجع على سبيل المثال فتح القدير للشوكاني مجلد ٢ص ٤٨١ .

في المتجهدين الذين يقومون الليل إلى الصلاة)[١].

على أنه يبقى تساؤل لا يكف عن الإلحاح وهو: هل نزلت هذه الآية وحدها في المتهجدين، أو نزلت مع ما قبلها وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

يرى الرازي أن هذه الآية تشير إلى المرتبة العالية وهي العبادة لوجه الله تعالى بدليل قوله: ﴿إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾؛ أي: عند مجرد الذكر يوجد منهم السجود وإن لم يكن خوف ولا طمع، وفي الآية التالية إشارة إلى مرتبة تالية وهي العبادة خوفًا وطمعًا ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

وهذا الرأي يتسق مع القول أن قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ نزلت في المتهجدين دون ارتباطه بالآية قبله.

والحق أن هذا تفكيك لا مسوغ له، فمن الواضح أن قوله: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ يرتبط بالآية قبله إعرابيًا ومعنويًا على سبيل الحال كما ذهب ابن عاشور وغيره، فالجملة غير قائمة بذاتها ولكنها مكملة للتي قبلها ومبينة لحال هؤلاء الذين يؤمنون بآيات ربهم، فهم الذين إذ ذكروا بآيات ربهم خروا سجدًا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون، وكل هذا ملابس لحال قيامهم في جوف الليل يصلون ويدعون ربهم خوفًا وطمعًا.

وليس هناك ما يدعو إلى قول الرازي أن الآية الأولى ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ تشير إلى منزلة أعلى، وأن التالية: (تتجافي جنوبهم عن المضاجع) تشير إلى منزلة تالية، وذلك لأن الآيتين مرتبطتان ارتباطًا وثيقًا ولا تتحدثان عن صنفين من الناس لكل منهما منزلة، بل تتحدث عن جملة المؤمنين الصادقين، فمع التسليم بأنهم قد يقع منهم النسيان أو الانشغال بحظوظ الدنيا، لكنهم ما إن تتلى عليهم آيات ربهم حتى يخروا خاشعين خاضعين مسبحين لله منزهين حامدين لا يستكبرون، وهؤلاء تصفو أرواحهم وتسمو نفوسهم حتى تجدهم

---

(١) أسباب النزول للنيسابوري.

إذا ناموا قليلاً لفظتهم مضاجعهم فيقلقون ويفزعون إلى ربهم، فهل نقول: إن هذه مرتبة تالية أو أخيرة؛ وأما قوله: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، فإنه من متعلقات الاثنين معًا؛ فالذين إذا ذكروا بآيات ربهم خروا سجدًا إنما يفعلون ذلك خوفًا وطمعًا، والذين يسبحون بحمد ربهم وهم لا يستكبرون إنما يفعلون ذلك خوفًا وطمعًا، والذين تتجافي جنوبهم عن المضاجع إنما يقومون الليل خوفًا وطمعًا، والمؤمن لا تنفك حاله عن الخوف تارة والرجاء تارة أخرى، لأنه كلما تذكر عذاب الله خافه، وكلما تذكر ما عند الله من نعيم رجاه.

ونعود بعد هذا إلى التأكيد على أن الجملة الثانية وثيقة الارتباط بالأولى، سواء قلنا بأنها حالية أو استئنافية، فإنها على أي حال مكملة لمعنى ما قبلها مرتبطة بها أشد الارتباط حتى تجد المتحدث عنه واحدًا، وصفاته هي التي تعددت؛ ولهذا أعاد الضمير إليه في (تتجافي جنوبهم) ولم يقل تتجافي جنوب المتهجدين أو القائمين أو الذاكرين أو المؤمنين، وإنما ذكرهم بضميرهم ليظل الكلام موصولاً بصفات السابق ذكرهم.

وعلى هذا فلا معنى لتخصيص الآية الثانية ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ بصنف معين مختلف عما ترتبط به الآية السابقة: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وكلتا الآيتين مرتبطتان بنزول واحد، وإنما تعددت أوصاف المؤمنين الصادقين في معرض الثناء عليهم في مقابل ذم الكفار المعرضين قبلهم، وهم الذين حكى القرآن قولهم: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ وانتهى مصيرهم إلى قوله: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة السجدة: ١٤].

ولهذا فإن التخصيص بـ«إنما» في قوله: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا﴾. مقصود به نفي أن يكونوا كالكفار السابق ذكرهم، فضلًا عما في التخصيص من الإيحاء بالاعتداد والاعتزاز والتنويه في معرض الثناء على هؤلاء المؤمنين. ثم إننا مع هذه النظرة التي يحكمنا فيها السياق ونظم الآية وموقعها لا نستبعد أن تكون الآية ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ قد نزلت في المتهجدين الذين يقومون الليل للصلاة كما نقل عن الحسن ومجاهد، وهي على الرغم من هذا قد

جاءت على نحو من الصياغة والنظم يجعلها منسبكة في سياقها بحيث تصير جزءًا لا يستقل، وهذا من الإعجاز الذي يتبلور في:

تكييف الآيات التي تتعلق في نزولها بسبب ما لتصير مسبوكة في سياقها بحيث تتحول من كونها كلًا منفصلاً إلى كونها جزءًا في كل متصل، وكأنها لا تختص بذلك السبب.



سورة الأحزاب

ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه:

قال تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ [سورة الأحزاب ٤ - ٥].

أسباب النزول:

وزع القدماء هذا الكل المتصل فجعلوه ثلاثة أجزاء، لكل جزء سبب:

الأول: قوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ قالوا: نزلت في جميل بن معمر الفهري. . .كان يقول: إن لي قلبين أعقل بكل منهما أفضل من عقل محمد، فلما كان يوم بدر وهزم المشركون وفيهم يومئذ معمر، تلقاه أبو سفيان وهو معلق إحدى نعليه بيده والأخرى في رجله، فقال له: يا أبا معمر، ما حال الناس؟ قال: انهزموا. قال: فما بال نعليك؟ قال: ما شعرت إلا أنهما في رجلي. وعرفوا يومئذ أنه لو كان له قلبان لما نسي نعله في يده[(١)].

الثاني: قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ قالوا: نزلت في زيد بن حارثة، كان عند رسول الله ﷺ فأعتقه وتبناه قبل الوحي، فلما حرم القرآن التَّبني، وأمر الله رسوله أن يتزوج زينب بنت جحش التي كانت تحت زيد بن حارثة، قالت اليهود والمنافقون: تزوج محمد امرأة ابنه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾.

الثالث: قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ «عن سالم بن عبد

(١) ٢٤٣ أسباب النزول .

الله قال: ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد حتى نزلت في القرآن: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾. لكن الظاهر أن مجموع هذا يتصل في سبب نزوله بقصة زيد بن حارثة الذي حرم الله سبحانه التَّبني من خلاله، ونعود إلى صدر الآية وحيث نجد قوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾

فقد جعله البعض مثلًا للمعنى الذي تلاه[1]، فيكون قد صور من يجعل زوجه أمًّا له ومن يجعل دعيه ابنًا له كمن يزعم أن في جوفه قلبين، وذلك في ادعاء ما لا يكون وزعم ما لا يصح، والغاية هي التنفير الداعي إلى التخلي.

وجعله البعض الآخر حقيقة كان يعتقدها البعض، وذلك فيما ورد عن سبب النزول حيث ذكروا أنها نزلت في رجل كان يعتقد أن له قلبين أو عقلين، فنفي القرآن هذا، ويكون وجه ارتباطه بما بعده هو نفي أمور كانوا يعتقدون صحتها واحدة بعد أخرى.

وقد جمع الزمخشري جمعًا طريفًا بين كون الجملة مثلًا لامتناع اجتماع أمرين لا يجتمعان، وكونها في الوقت ذاته حقيقة تنفي ادعاءً ومعتقدًا فاسدًا كما يدل سبب النزول، يقول الزمخشرى: «كان جميل بن أسد الفهري يقول: إن لي قلبين أفهم بأحدهما أكثر مما يفهم محمد. . . فأكذب الله قوله، وضربه مثلًا في الظهار والتَّبني»[2].

ولا شك أن هذا ملحظ دقيق إذ يرى أن صدر الآية يرمي سهمين:

الأول: يكذِّب من يدعي أن له قلبين. **والثاني**: عدَّهُ مثلًا في الظهار والتَّبني، فالجملة بالاعتبار الأول حقيقة، وبالاعتبار الثاني تكون استعارة تمثيلية، فانظر كيف تؤدي الجملة الواحدة معنيين تكون بالنسبة لأحدهما حقيقة وبالنسبة للآخر مجازًا واستعارة، وهذا لا أظن أن له نظيرًا في كلام العرب؛ فهو من الإعجاز. ثم إن الجملة قد صيغت من مفردات ذات إيحاءات مشعة، فدخول النفي على الفعل

---

(١) ومثال تقدم المثل على المعنى الممثل له في الحديث النبوي قوله ﷺ: «**أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه في اليوم الواحد خمس مرات، هل يبقى ذلك من درنه شيئاً؟**» قالوا لا يا رسول الله، قال: «**فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا**».

(٢) الكشاف ٣/ ٢٤٩ .

الماضي وتنكير (رجل) يؤذي إلى نفي العموم نفيًا مؤكدًا، وكان يمكن في غير القرآن أن يقول: ما جعل الله لرجل من قلبين من غير ذكر الجوف؛ لأن القلب لا يكون إلا في الجوف، لكنه نصَّ عليه لفائدة كالفائدة في قوله: ﴿ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ وذلك كما يقول الزمخشري: «لما يحصل للسامع من زيادة التصور والتجلى للمدلول عليه؛ لأنه إذا سمع صوَّر لنفسه جوفًا يشتمل على قلبين؛ فكان أسرع إلى الإنكار»[1].

فإذا جئنا للمعنى الممثل له والذي قصد بالتصوير بداية ويتعلق بالسبب الأساس للنزول الذي ذكر سلفًا نجد قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾.

ولا نجد أوجز ولا أبلغ من هذه الجملة، في الدلالة على بطلان ما ذهبوا إليه من التَّبني، ونستنبط منها أنه يعتمد في ذلك البطلان على عدة أمور:

١- أن هذا التبني لا يستند إلى تشريع أو إذن من الله، وإنما صدر منهم بأهوائهم، ويتبين هذا من نفي الفعل مسندًا إلى الله سبحانه: (ما جعل)؛ أي: ما جعل الله وما شرع.

٢- التعبير بأدعياء جمع دعي، وهي صفة توحي بقيام هذا النسب على الادعاء والزعم الباطل والوهم الزائف، فكلمة (أدعياء) توحي بالبنوة المزورة، وهذا من التعويل على صيغة الكلمة وإيحائها في التنفير من هذا المسلك.

٣- مجاورة الأدعياء للأبناء في قوله: ﴿أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ فمع أن لهذا الجوار وظيفة معنوية خاصة في إطار صياغة الجملة وهي نفي أن يكون هذا هو ذاك، إلا أن تلك المجاورة تعطي فرصة لموازنة المستمع بين الباطل والحق، وبين الوهم والحقيقة، بين الدعي والابن، فإنهما لا يستويان أبدًا في منطق الفكر الصحيح، ويمهد بهذا لقوله عقبه: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾.

ولا يخفى ما في توحد نهايات تلك الكلمات الثلاثة (ذلكم قولكم بأفواهكم) من إيقاع حسن وتوازن لفظي يستدرج لتلقي المقصود من ناحية، ويتناسب فيه المضمون والشكل من ناحية أخرى، فالقول باللسان قد يكون حُلْوًا خادعًا بظاهره كحلاوة أداء هذه الألفاظ.

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٤٩ .

أما قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾، فإنه حسم في إسناد التشريع لله سبحانه على سبيل التخصيص بتقديم لفظ الجلالة على الفعل؛ أي: أن الله وحده هو الذي يقول الحق، وما يستتبع هذا من الاستماع والامتثال والاتباع، وفي الجملة تعريض بأن ما يقولونه هم مبني على الباطل، وأن قولهم بأفواههم لا يتجاوز الباطل.

فإذا ما تهيأنا لقبول الحق يسره الله سبحانه ويسر سبل تقبله كما يدل عليه قوله: ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾؛ أي: لمن يسعى ويطلب.

- وفي قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

لم يقل: انسبوهم لآبائهم؛ لأنه أراد أن يوثق المطلوب بدليله وتحقيق صورته الواقعية فيما يسمى بالكناية؛ لأن الكناية دعوى بدليل، وهي صورة من صور تأكيد المعنى، فالدعوى هي النسبة للآباء الحقيقيين، والدليل عليها دعوة هؤلاء الأبناء بأسماء آبائهم.

وإنما تعدى الفعل (ادعوهم) باللام ليتضمن معنى النسبة؛ لأن الذي يتعدى باللام أصالة هو الفعل «انسبوهم» وهذا التضمين يجعل الفعل المذكور والمضمن مقصودين معًا، فهو من صور الإيجاز.

وفي قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أعدل، وليس المقصود نص المفاضلة بأفعل التفضيل، فلا يُحْتَجُّ بها على أن ما سواه مفضول وليس بممنوع، ويترتب عليه توهم أن التبني عادل، وأن تركه أعدل وأقسط عند الله، وليست هذه بحجة؛ لأن المقصود قد حسم من قبل في قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾، وإنما جاءت صيغة التفضيل هنا للاستدراج إلى الحق، وللإشارة إلى أن تحريم التبني لا يعني طرد هؤلاء الأدعياء، أو إساءة معاملتهم، وإنما يقصد مجرد إلغاء التبني[1] مع بقاء الشفقة والإحسان والإنفاق عندما لا يوجد الأب الحقيقي وتكون أخوة في الدين، أو على سبيل الاسترقاق، كما قال سبحانه: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾.

وقدم الإخوة في الدين على الاسترقاق للإشارة إلى أولوية ما تقدم، فهو ترتيب

---

(١) وما يترتب عليه من نسبة الولد إلى غير أبيه، وما يترتب على ذلك من ميراث وحقوق.

مقصود، وتشير الواو إلى أنه عند الأخذ بالاسترقاق فلا بد من اعتبار الأخوة في الدين حتى تكون معاملتهم وهم عبيد غير مشعرة بأي نوع من العبودية، بل يغلب عليهم الأخوة في الدين.

يؤكد هذا التعبير بالموالي جمع مولى، والمولى في الأصل هو السيد الذي يلي الأمر، كقوله تعالى: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ وإنما أطلق على العبد مولى للتكريم من باب إطلاق الشيء على ضده تفاؤلًا كتسمية الصحراء مفازة، أو سخرية كتسمية الجبان شجاعًا والجاهل عالمًا، أو تكريمًا كما نجد هنا في إطلاق المولى على العبد، وكان رسول الله ﷺ ينادي زيد بن حارثة بـ(يا مولاي) بعد نزول هذه الآية وكانوا يقولون: سالم مولى حذيفة، وكان سالم هذا ذا عقل وعلم حتى يروى أن عمر بن الخطاب قال عند احتضاره: لو كان سالم مولى حذيفة موجودًا لوليته.

فيبدو أن العبد لا ينادى بالمولى إلا في حالات خاصة عندما يقصد تقريبه أو تكريمه لعقله وعلمه أو منزلته في الدين، وتسمية الدعي مولى بعد التحول من البنوة المدعاة إلى العبودية روعي فيها الجانب النفسي حتى لا يشعر بالفجوة والمهانة، فالمقصود بالتسمية ما يقترن بها من معاملة حسنة؛ ودعك من القول: إن البشرية قد ألغت العبودية؛ لأنها قد ألغته اسما وعنوانًا، لكنه ما يزال حقيقة ومضمونًا ماثلا في صور عدة من التمييز العنصري والطبقي.

من المؤمنين رجال صدقوا

قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [سورة الأحزاب: ٢٣].

سبب النزول:

قسم السابقون هذه الآية إلى جزأين لكل جزء سبب؛ أما الجزء الأول، فقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ﴾.

وقد نقل النيسابوري(١) عن صحيح البخاري ومسند الإمام أحمد «عن أنس قال: غاب عمي أنس بن النضر - وبه سميت أنسًا - عن قتال بدر فشق عليه لما

---

(١) أسباب النزول ٢٤٤ .

قدم، وقال: غبت عن أول مشهد شهده رسول الله ﷺ، والله لئن أشهدني الله سبحانه قتالاً ليرين الله ما أصنع، فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون، فقال: اللهم، إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء المشركون، وأعتذر إليك فيما صنع هؤلاء - يعني المسلمين - ثم مشى بسيفه فلقيه سعد بن معاذ، فقال: أي سعد، والذي نفسي بيده، إني لأجد ريح الجنة دون أحد[١]. فقاتلهم حتى قتل، قال أنس: فوجدناه بين القتلى به بضع وثمانون جراحة من بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح ورمية بالسهم وقد مثلوا به وما عرفناه حتى عرفته أخته ببنانه، ونزلت هذه الآية ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ وكنا نقول: أنزلت هذه الآية فيه وفي أصحابه» ثم عند قوله سبحانه: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ يقول: «نزلت في طلحة بن عبيد الله ثبت مع رسول الله ﷺ يوم أحد حين أصيبت يده، فقال ﷺ: «**اللهم أوجب لطلحة الجنة**» وعن عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: حدثني أبي، قال: أخبرنا وكيع عن طلحة بن يحيى بن عيسى بن طلحة أن النبي ﷺ مرَّ عليه طلحة فقال: «**هذا ممن قضى نحبه**»[٢].

بين المقام والنظم:

من المهم بداية أن نعرف أن تلك الآية نزلت دفعة واحدة لسبب واحد أو نزلت على دفعتين لسببين كما يبدو من كلامهم، وهذا يقتضي الوقوف على المقصود بقوله سبحانه: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾.

يقول الراغب: قضى فلان نحبه، وفَّي بنذره قال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ ويعبر بذلك عمن مات، كقوله: قضى أجله واستوفى أكله وقضى من الدنيا حاجته[٣] (أي: على سبيل الكناية). وجعل الزمخشري قولهم: هو نحب عليه؛ أي: نذر على سبيل الحقيقة، ومن المجاز: قضى نحبه: مات كأن الموت نذر في عنقه[٤].

---

(١) أي: بالقرب من جبل أحد، أو من ورائه .

(٢) أسباب النزول ٢٤٥ .

(٣) المفردات للراغب مادة (نحب) .

(٤) أساس البلاغة مادة (نحب) .

فهناك اتفاق بين الراغب والزمخشري على أن قضى نحبه بمعنى قضى نذره في الحقيقة، ويكون بمعنى انتهى أجله على سبيل المجاز عند الزمخشري، وعلى سبيل الكناية عند الراغب.

ومع جواز أن يقول الرسول ﷺ عن عيسى بن طلحة الذي لم يمت: هذا ممن قضى نحبه بمعنى نذر نفسه للموت وإن لم يمت (على الحقيقة)، فإنه لا يتفق على كل حال مع المقصود في الآية بقوله: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾؛ لأن المعنى هنا: قضى أجله بدليل المقابلة بقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾.

ونخلص من هذا إلى أنه لا سبيل إلى تقسيم الآية قسمين: أحدهما: لسبب. والثاني: لسبب آخر، بل إن الأولى الذي يقتضيه نظم الآية وملابسات النزول أن تكون الآية قد نزلت في أنس بن النضر ورجال معه نذروا أن يضحوا بأنفسهم في سبيل الله، فمنهم من قضى نحبه كأنس وحمزة، ومنهم من ينتظر؛ أي: لم يمت ولم يتبدل العزم في نفوسهم، وإذا كان لا بد من تقسيم الآية قسمين، فإن الأقرب إلى المقام أن يكون قوله: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ خاصة بمن نذر نفسه ووفّي فمات، كأنس بن النضر وحمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير، وأن يكون قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ خاصة بآخرين نذروا أنفسهم وصدقوا، لكنهم لم يموتوا ومازالوا على نذرهم، ومنهم طلحة بن عبيد الله؛ لأنه لم يمت في أحد وإن شارف الموت بثباته مع رسول الله ﷺ حتى جرحت يده.

وقد ذكر الزمخشري نحو هذا وإن اختلفت الرواية وبعض الأشخاص يقول: «نذر رجال من الصحابة أنهم إذا لقوا حربًا مع رسول الله ﷺ ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا وهم عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد وحمزة ومصعب (ومنهم من ينتظر) يعني عثمان وطلحة»[(١)].

والزمخشري بهذا يتسق مع الآية في تفسير قضاء النحب بالموت وفاء للنذر، بيد أنه يذهب مذهبًا آخر لا يبدو أن نظم الآية يؤيده، يقول: (فمنهم من قضى

(١) الكشاف ٣/٢٥٦ .

نحبه) يحتمل موته شهيدًا، ويحتمل وفاءه بنذره من الثبات مع رسول الله ﷺ» فهو هنا يوسع في مفهوم قضاء النحب ليتناول احتمال المعنى الحقيقى واحتمال المعنى الكنائي.

لكن الاستعمال القرآني لم يقصد غير المعنى الكنائي لقضاء النحب وهو الموت، ويؤيده نظم الآية الذي جعل الصادقين في عهدهم قسمين: أولهما: (فمنهم من قضى نحبه). وثانيهما: (ومنهم من ينتظر)؛ ولو أن من صدق في عهده ولم يمت يدخل في (قضى نحبه)، لما كان هناك معنًى لقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾.

وقد ذكر البقاعي من صفات طلحة بن عبيد الله وثباته في أحد ولزومه رسول الله ﷺ وفعله ما لم يفعله غيره - ما جعل رسول الله يشهد له بأنه ممن قضى نحبه[١]، وهذا لو صح فإنه يكون على سبيل التجوز المقصود به التكريم.

- وعودة إلى الآية نجد أن الغرض منها هو الثناء والتكريم والتعظيم لفئة من المؤمنين صبروا وقت المحنة وثبتوا عند الشدة وصدقوا ما عاهدوا الله عليه، فهم فئة خاصة يدل عليها قوله سبحانه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ابتداء بـ«مِنْ» الدالة على البعضية.

- والتعبير بلفظ (رجال) وتنكيره يدل على منتهى التعظيم والتفخيم، وفيه إلى جانب مدحهم تعريض بغيرهم ممن تفرقوا عند المحنة في غزوة أحد ولم يصمدوا.

- ومجيء هذا اللفظ مجموعًا يدل على أنهم ليسوا فردًا واحدًا، ولا فردين اثنين، بل هم فئة، ويؤكده ضمير الجمع الذي يعود عليهم خمس مرات في قوله: ﴿صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾... إلخ.

- وهذا مهم في إعادة النظر إلى ما ذكروه في سبب نزول الآية، فلقد خص بعضهم المقصود بأنس بن النضر على الرغم من الاحتياط الذي ورد في سبب النزول، ففي نهاية الرواية التي وردت عن أنس بن مالك يقول: «وكنا نقول: أنزلت هذه الآية فيه وفي أصحابه»[٢].

- ولقد استوقف المفسرين قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾؛

---

(١) نظم الدرر ١٥/ ٣٢٩ .

(٢) أسباب النزول ٢٤٤ .

لأن الأصل في الفعل (صدق) أن يتعدى بحرف الجر (في) يقال: صدق فلان في قوله، وصدق فيما عاهد الله عليه، لكنه في الآية يتعدى بنفسه، وذهبوا مذاهب شتى في تفسير هذا، لكن أقرب تلك التفسيرات ما ذكره البقاعي من أن أصحاب الهمم العالية والأخلاق الذكية يتصورون العهد من شدة ذكرهم له ومثوله حتى كأنه رجل عظيم قائم تجاههم يتقاضاهم الصدق؛ ولذلك عدى الفعل إليه(١). ولاشك أن هذا من وسائل النظم في الثناء عليهم بشدة الحرص على الوفاء بالعهد والصدق في النذر حتى كأن العهد الذي أخذوه صار من شدة حضوره في نفوسهم وكأنه قد تشخص في صورة رجل يصدقونه القول والعمل، ذلك لأنه عهد الله(٢).

- أما قوله سبحانه في فاصلة الآية: ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾، فإنه يشمل من قضى نحبه ومن ينتظر؛ لأنهم جميعًا ما حادوا عن عزمهم ولا غيروا أو بدلوا في نذرهم وإصرارهم، وإن كان هذا الوصف ألصق بمن ينتظر؛ لأنه هو الذي يكون مظنة التغيير والنكوص، فدفع تلك المظنة؛ أما من قضى نحبه، فحسبه ذلك دليلًا على الوفاء والثبات.

والجملة تصريح بمدح أهل الصدق، وتلويح بذم أهل النفاق كما ذكر البقاعى، ولعله نظر بعده إلى قوله تعالى: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فاستنتج من قوله تعالى قبله: ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ تعريضًا بالمنافقين، وإن كان الغرض الظاهر منه هو الثناء على المؤمنين الصادقين.

إن ذلكم كان يؤذي النبي :

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟

(١) راجع نظم الدرر ١٥/ ٣٣٠ .

(٢) ويكون ذلك على سبيل الاستعارة المكنية أو التمثيلية .

رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: ٥٣].

سبب النزول:

عن أنس بن مالك قال: لما تزوج النبي ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا، ثم جلسوا يتحدثون، قال: فأخذ كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا؛ فلما رأي ذلك قام وقام من القوم من قام وقعد ثلاثة، وأن النبي ﷺ جاء فدخل فإذا القوم جلوس، وأنهم قاموا وانطلقوا، فجئت وأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا».. وأنزل الله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ الآية.

وعن أنس قال: «قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه قلت: يا رسول الله، يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله تعالى آية الحجاب»[(١)].

وعن مجاهد أن رسول الله ﷺ كان يطعم معه بعض أصحابه فأصابت يد رجل منهم يد عائشة، وكانت معهم، فكره النبي ﷺ ذلك؛ فنزلت آية الحجاب. وينقل صاحب الصحيح المسند عن المعجم الصغير للطبراني ما رواه مجاهد بنص آخر هو عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت آكل مع النبي ﷺ حيسًا في قعب، فمر عمر رضي الله عنه فدعاه فأكل فأصابت أصبعه أصبعي، فقال: حس أوه أوه لو أطاع فيكن ما رأتكن عين؛ فنزلت آية الحجاب[(٢)].

وهذه الرواية تساندها رواية أخرى جاء فيها أن عمر رضي الله عنه كان يقول لرسول الله ﷺ: احجب نساءك يا رسول الله[(٣)]. وعن ابن عباس في رواية عطاء قال رجل من سادة قريش: لو توفي رسول الله ﷺ لتزوجت عائشة، فأنزل الله تعالى ما أنزل[(٤)].

---

(١) أسباب النزول ٢٤٨ والصحيح المسند ١٩٤ .

(٢) الصحيح المسند ١٩٤ .

(٣) المرجع نفسه .

(٤) المرجع نفسه .

فجملة هذه الروايات محتملة، ولكل منها رصيد في الآية يؤيدها ويرشح كونها سببًا من أسباب النزول ما عدا الرواية الأخيرة التي رواها عطاء عن ابن عباس، فإني أستبعدها؛ لأنها لم ترد في واحد من كتب الأحاديث المعتمدة كالبخاري ومسلم وغيرهما، ثم إن هذا القول لم يحدد قائله، ولكنه منسوب إلى رجل من سادة قريش لا علم لأحد به، والغالب أن أحدًا لا يقول هذا فضلًا عن أن يكون القائل مسلمًا في حياة رسول الله ﷺ وما يترتب من إيذائه عليه الصلاة والسلام.

ومع هذا وقف المفسرون عند قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ فقد أخرج ابن المنذر عن قتادة أن طلحة ابن عبيد الله قال: لو قبض النبي ﷺ تزوجت عائشة؛ فنزلت الآية، واستبعده ابن عطية، وقال: ليس هو طلحة أحد العشرة المبشرين، وإنما هو طلحة آخر من باب اشتباه الاسم، ورجح أن يكون القائل من المنافقين، فقد ورد في بعض الروايات أن بعض المنافقين قال حين تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة بعد أبي سلمة، وحفصة بعد خنيس بن حذافة: ما بال محمد يتزوج نساءنا، والله لو قد مات لأجرينا السهام على نسائه، ثم يقول ابن عطية: لعمري، إن ذلك غير بعيد عن المنافقين[1].

ومع أن ما ذكر غير بعيد عن المنافقين إلا أن نظم الآية لا يؤيده؛ لأن في صدرها نداء للمؤمنين (يا أيها الذين آمنوا) وبعد النداء وصايا للمؤمنين، والمنافق وإن كان مسلمًا بحسب الظاهر، فإن القرآن لا يسميه مؤمنًا، ولا يناديه بلقب الإيمان.

ويغلب على الظن أن أحدًا لا يقول هذا بلسانه وإن جاز أن يجري ببعض الخواطر، ويكون العليم الخبير قد اطلع على ما جال بالنفوس، وكان هذا من أسباب تعديد تلك الضوابط التي تحمي بيوت رسول الله ﷺ، وإنما كانت تنشأ تلك الخواطر من دخول الصحابة بيوت رسول الله ﷺ قبل نزول الآية، وكان دخولهم من غير إذن ولا قيد، وكانوا يتحينون طعام النبي فيدخلون ويقعدون منتظرين إدراكه، وربما كان يضيق رسول الله ﷺ بذلك ولا سيما ما ورد في سبب

(١) نقله الألوسي في روح المعاني بتصرف ٢٢/ ٧٤ .

النزول من جلوس بعضهم بعد الطعام مع حاجة رسول الله ﷺ إلى الراحة والانفراد وحيائه أن يطلب منهم الانصراف، (إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق).

بل لقد ورد أن أحد الصحابة كان يكلم إحدى نساء النبي قبل الحجاب، ولعله المقصود بقوله: (ولا مستأنسين لحديث). وفي هذا الجو الذي كانت فيه رؤية أمهات المؤمنين والحديث معهن متاحًا يمكن أن تجري خطرة بإحدى نفوس الصحابة، فيفكر في الزواج بإحدى زوجات النبي لو قبض قبله.... وهي مجرد خواطر لم يتحرك بها لسان ولم يسمع بها أحد في الغالب، لكن العليم الخبير اطلع عليها، لهذا حسم القرآن الأسباب الداعية إلى هذه الخواطر، ثم كشف عنها كشفًا عامًّا دون تحديد (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدًا).

ولم يمنع الدخول أو الأكل مطلقًا، وإنما قيده وقننه بأن يكون بإذن بعد الدعوة، وألا يمتد. الجلوس بعد الأكل، وألا يمتد النظر إلى شيء، وأن يكون الحديث مع نساء النبي لضرورة كحاجة إلى متاع، وبشرط أن يكون من وراء حجاب، ولا شك أن هذه القيود لم تنشأ من فراغ، وأن هناك دواعي أدت إليها، منها ما ذكر من تلك الخواطر التي اطلع الله عليها، ومنها مكث البعض واستمرار جلوسه دون داع، وأن هذا كان يؤذي رسول الله ﷺ؛ وإلا فما وجه مجاورة قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ لقوله: ﴿وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ حتى لا يفصل بينهما غير الواو التي يرجح أن تكون تفسيرية من العطف بالمفسر المبين، بل إن مما يؤيد وقوع هذه الخاطرة في نفس ما أن الله سبحانه قال في الآية التالية: ﴿إِن تُبْدُوا شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

فطوى ما جرى بتلك النفوس في كلمة (شيئًا) وقطع الاندهاش بأنه لا فرق في علم الله سبحانه بين أن يكون الشيء ظاهرًا للناس أو خفيًا مطويًا في النفوس، فإن ذلك كله ثابت في علم الله الأزلي (فإن الله كان بكل شيء عليمًا).

ومن لطائف النظم:

- في قوله سبحانه: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ نهى عن

الدخول مطلقًا إلا بإذن، مع التشديد على هذا الإذن إذا كان الدخول لطعام دعي إليه (إلى طعام) وبشرط ألا يمتد النظر (غير ناظرين إناه) إن دخول بيوت النبي كان لطعام، ولغير طعام، والإذن مطلوب في كل حال، وإنما قصد بالنهي أنه إذا كان الدخول لطعام، فلا يكون ذلك إلا بدعوة وإذن، وشرط الإذن مفهوم من ظاهر اللفظ (إلا أن يؤذن)؛ أما شرط الدعوة فيفهم من تعدية هذا الفعل بـ(إلى)، لأنه في الأصل يتعدى بالحرف (في)، فالتعدية بالحرف (إلى) تشير إلى تضمين الفعل معنى فعل آخر يتعدى بـ(إلى) هو (دعي)، وهذا من صور الإيجاز البليغ؛ إذ أدى معنى فعلين بفعل واحد عن طريق التجوز في التعدية، وكأنه قال: لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن تدعوا إلى طعام وبعد أن يؤذن لكم في الدخول، فالدعوة وحدها لا تكفي، والإذن وحده لا يكفي، ولا بد من الاثنين؛ فإذا تحققا - أي: الدعوة والإذن - ودخل الضيف، فحينئذٍ يأتي الشرط الثالث وهو غض البصر وعدم امتداد النظر (غير ناظرين إناه).

والغاية هي تنزيه بيت النبوة ومراعاة ما له من جلال ووقار وتعظيم، ثم ليكون ذلك تشريعًا مستمدًا من الأسوة والقدوة.

- والمقصود بـ(إناه) الأواني، وقيل: المقصود وقته، وقيل: إدراكه، فيكون هذا كناية عن عدم التبكير كما كان يحدث من اقتحام البيوت مبكرًا وتزجية الوقت في الحديث مع أمهات المؤمنين وتقليب النظر هنا وهناك، ولعل هذا الملحظ هو الباعث على التعبير بناظرين دون منتظرين، وكأنهم ينتظرون بأعينهم من شدة الترقب وتقليب النظر، ويجوز أن يكون المراد: غير ناظرين إناءه؛ أي: الطعام، ويدل على هذا قراءة الأعمش (إناءه)، وقد أوردها الألوسي[(١)].

- ويكون المراد على هذا هو عدم الدخول مبكرًا قبل إعداد الطعام، فإذا حدث الدخول بعد هذا، انحبس النظر عن التطلع إلى ما في الأواني، مع ما قد يستتبع هذا من الاطلاع على أشياء أخرى لا يصح الاطلاع عليها، وفيه إشارة إلى أن لا يكون الأكل وملء البطن بما تشتهي هو الغاية، وإنما الغاية حصول الأنس والمودة والتحاب.

---

(١) روح المعاني ٢٢/ ٧٠ .

- صرح بالمفهوم ضمنًا من التعدية السابقة في الفعل (إلا أن يؤذن لكم)، وذلك في هذا الاستدراك (ولكن إذا دعيتم فادخلوا)، فلا تكرار هنا، ولكن المقصود هو الحث على التلبية والاستجابة عند تحقق تلك الشروط، ولا ينبغي أن تمنعكم هذه القيود من التلبية، فقد تضيق بها بعض الصدور ممن ألفوا اقتحام البيوت.

- نكر كلمة (حديث) في قوله: ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ ليتناول بعمومه نوعين: الأول: حديث بعضهم مع بعض، وما يستلزمه من المكث والإطالة مع ما سبق من قوله: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾. الثاني: حديث بعضهم مع أمهات المؤمنين حديثًا فيه تسمُّع للاستئناس، فإذا كان لا بد، فليكن على قدر الحاجة من غير استئناس، وهذا وذاك محتمل ويدخل في جملة ما كان يؤذي رسول الله ﷺ؛ لهذا جاء بعده (إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم).

- والتعبير بـ(كان) في هذه الجملة يشير إلى تحمل النبي ﷺ وصبره عليهم كما يذكر الرازي، وهذا يتناغم مع قوله: (فيستحيي منكم).

- قوله على سبيل الاعتراض: (والله لا يستحيي من الحق) إشارة إلى ما كان ينبغي من رسول الله من طلب انصرافهم؛ لأنه حق والله لا يستحيي من الحق.

- قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ يشير إلى أن الحديث مع زوجات النبي ﷺ أصبح مشروطًا بالحاجة، وعلى قدرها، وأن يكون من وراء حجاب، وما بعده ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ تعليل مقصود به التعليم والتشريع، وقد جاء بصيغة التفضيل للإشارة إلى أن أصل طهارة القلوب موجودة، ولكن سد الذرائع أطهر للرجال والنساء معًا، وفيه إشارة أخرى إلى أن هذاالدين ينشد بتشريعاته الوصول إلى الأكمل والأتم، على أن مظان الفتنة تأتي من أمرين: الحديث، والنظر؛ فحدد الأول بأن جعله مقصورًا على الحاجة (وإذا سألتموهن متاعًا)، وقيَّد الثاني بكونه من وراء حجاب.

قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ مسبوق بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾ مما يدل على أن هذا غير ذاك. وأن الثاني يفسره قوله بعده: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ وقد سبق أن

الداعي إلى هذا لم يكن قولاً باللسان، وإنما كان من خواطر القلوب التي أطلعنا الله عليها دون تحديد المصدر رحمة من الله وسترًا، فكيف كان يؤذَى رسول الله ﷺ؟ لقد سبق أنَّ استئناس البعض بالحديث مع أمهات المؤمنين كان يؤذي رسول الله (ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم) وهنا إيذاء آخر مرتبط بالأول هو ما يترتب على الاستئناس من خواطر القلوب كالتفكير من جهة المتحدث، والغيرة من جانب رسول الله ﷺ، وما أدرانا بتوابع الغيرة، «أخرج جويبر عن ابن عباس أن رجلًا أتى بعض أزواج النبي ﷺ فكلمها وهو ابن عمها، فقال النبي ﷺ: **«لا تقومن هذا المقام بعد يومك هذا»**، فقال: يا رسول الله؛ إنها ابنة عمي، ووالله ما قلت لها منكرًا ولا قالت لي. قال النبي ﷺ: **«قد عرفت ذلك، إنه ليس أحد أغير من الله تعالى، وأنه ليس أحد أغير مني»**[1].

وهذا يعني أن قوله: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ تشريع يحسم ما ربما قد وقع في نفوس أحد الصحابة، وهو في الوقت ذاته يطمئن رسول الله الذي كان أغير الناس، ولا يستبعد أن يكون قد جرى هذا الخاطر في نفسه.



(١) روح المعاني ٢٢/ ٧٤ .

سورة يس

فإذا هو خصيم مبين

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [سورة يس ٧٧ - ٨١].

سبب النزول:

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن العاص بن وائل أخذ عظمًا من البطحاء ففته بيده، ثم قال لرسول الله ﷺ: أيحيي الله هذا بعد ما رُمّ؟ فقال رسول الله ﷺ: «**نعم، يبعث الله هذا ويميتك ثم يحييك ثم يدخلك جهنم**»، فنزلت الآيات من آخر (يس)[١].

سياق هذه الآيات:

تتصل آيات السورة كلها بهذه النهاية اتصالاً شديدًا، ولا سيما في موقفين ظاهرين: الأول آيات تلفت إلى مظاهر قدرة الله سبحانه، والتي تقع عليها أبصارهم، فتشير لمن كان له عقل على أن خالق هذه الأشياء قادر على البعث بعد الموت ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [الآيات ٣٣ إلى ٤٢] يس.

الموقف الثاني: حكاية قولهم الدال على الشك الذي يتردد في صدورهم إذ يتساءلون مستبعدين (ويقولون متي هذا الوعد إن كنتم صادقين) وقد جاء الرد عنيفًا مفحمًا بعد ما

---

(١) الصحيح المسند من أسباب النزول ١٩٧ .

علم سبحانه تمكن الشك في نفوسهم وعدم الفائدة منهم، فيقول سبحانه: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [الآيات من ٤٨ إلى ٥٤] يس.

وقد كشفت هذه السورة ابتداء عن أساس الداء والذي يكمن في تكذيب محمد ﷺ واستكثار الرسالة عليه، فيقسم الله سبحانه في صدر السورة على أنه من المرسلين ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ثم يقول سبحانه: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وهذا ينسجم تمامًا مع ما ورد في سبب نزول أواخر تلك السورة، والذي يفهم منه أن هؤلاء المكذبين والذين يعبر عنهم العاص بن وائل قد طبع الله على قلوبهم فلا فائدة منهم، وأن مصيرهم قد انحسم، لهذا فلا نعجب من رد الرسول ﷺ عليه إذ قال: «**نعم، ويميتك ثم يبعثك ويدخلك جهنم**» فإن الرسول ﷺ يحكم بحكم الله فيه وفي أمثاله عندما قال في صدر السورة ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

بين السياق والنظم:

- على الرغم من نزول الآيات في سبب خاص فإنها قد صيغت صياغة تنتظم مع سياق السورة، لذلك فإنه يستفتح تلك الآيات بالاستفهام المستنكر المتعجب من هذا الشخص ومن أمثاله وهم كثر، فقد عبر بالإنسان ولم يقل أو لم ير فلان، وإنما قال: (أو لم ير الإنسان).

- الغاية من هذه الآيات لا تنحصر في مجرد ذكر القصة والحدث، وإنما عرضه مقرونًا بالرد مقدمًا عليه للمبادرة بالتشنيع عليه في ذلك الخطأ البالغ وذلك في قوله: ﴿خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ ولم يقل خلقناه من تراب؛ لأن ذكر النطفة أوقع وأنسب في خطاب المجادل لإفحامه، كأنه يشير إلى ضآلة البذرة التي تكوّن منها والتي دفعت بشهوة في رحم أمه، ففي هذا لفت إلى قدرة الخلق والتكوين إن عقل ليصل إلى قدرته سبحانه على البعث والنشور.

- يشير قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ إلى مكمن الجهل والإنكار، وهو التعجيل بالجدال والمسارعة إلى العناد كما تدل الفاء، كما أن ما فيها من مفاجأة يدعونا إلى التعجب من ذلك الموقف المعكوس الذي لم يكن متوقعًا، فلقد

كان مقتضى ذلك الخلق المعجز أن يكون مذعنًا مؤمنًا لا منكرًا مجادلاً، والخصيم هو شديد الخصومة، والمبين الفصيح في خصومته؛ لأن للباطل منطقًا يزينه الشيطان فيوهم صاحبه ويخدع غيره.

- يكمن ما يتعلق بقصة نزول الآيات في قوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ وتنكير (مثلًا) للتحقير والتسفيه فهو مثل تافه لا وزن له ولا قيمة، والتعبير بالمثل يكمن فيه سبب الإنكار، وهو أن ذلك الشخص يقيس قدرة الخالق على قدرة المخلوق ويمثل هذا بذاك.

ولا شك أن إبهام المثل المضروب يدعو إلى استشراف النفوس عن كنه ذلك المثل الذي ضربه ذلك الخصيم المبين، وجاء قوله: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ مخيبًا لتطلعات المستشرفين؛ لأنه يعتمد على منطق معوج ولا يصدر من عاقل يربط بين المقدمات والنتائج.

- والاعتراض بين المثل وتفسيره بقوله ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ يعكس موطن الخلل وموضع القصور وسبب الخصومة والجدل.

- وتقييد الجملة بالحال (وهي رميم) يعكس سبب الإنكار والإمعان فيه؛ لأن رفض حقيقة البعث عند هؤلاء قائمة، ولو لم يرم العظام ويتحلل ويتفتت، فالجملة الحالية تعكس التشدد في الإنكار وتنسجم مع وصف المجادل بأنه خصيم مبين.

- وجريًا مع نهج السورة فإن هذه الآيات تعتمد على أسلوب المحاصرة بالأدلة المفحمة بداية من قوله: ﴿خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ ومرورًا بقوله: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾. ثم قوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ مع أن هذه جميعًا تصب في معنى واحد، ولكن هذا هو الأسلوب الأمثل في خطاب ضيقي التفكير؛ إذ لو كانوا مهيئين للتلقي المتأمل لاكتفى بجملة واحدة.

بل لم يكتف بما سبق حتى أضاف إليه قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾، وهو دليل آخر يعتمد على الواقع المشاهد المحسوس، فإن الذي يخرج الميت من الحي قادر على أن يخرج الحي من الميت؛ لأن الشجر لا يصلح للوقود إلا إذا جف بعد الحياة، وفي (نارًا) تهديد ضمني؛ لأنه لم يقل: جعل لكم من الشجر الأخضر وقودًا، مع أنه أوجز من (جعل لكم الشجر الأخضر نارًا فإذا أنتم منه توقدون).

- يعتمد المنطق القرآني في الرد على تعديد البراهين مع الاستدراج والترقي من القوي إلى الأقوى والمحدود إلى المتسع العظيم؛ لهذا نجده ينتقل مما سبق إلى خلق السماوات والأرض بأسلوب الاستفهام التقريري الذي لا يملك المجادل أمامه سوي العجز والتسليم (أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم) وعندما يعجز الخصم عن الرد ويقف صامتًا يتولى القرآن الإجابة تلقينًا له ولأمثاله: ﴿بلى وهوالخلاق العليم﴾.

- فسبحان من إذا قال للشيء كن فيكون ومن بيده ملكوت كل شيء وإليه وحده الرجوع والمآل.

لا تقنطوا من رحمة الله

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [سورة الزمر ٥٣ - ٥٤].

سبب النزول:

أخرج ابن جرير عن ابن عباس أن الآية الأولى نزلت في مشركي مكة لما قالوا: إن الله لا يغفر لهم ما قد اقترفوه من الشرك وقتل الأنفس وغير ذلك. وعن ابن عمر قال: كنا نقول: ليس لمفتتن توبة، وما الله بقابل منه شيئًا، عرفوا الله وآمنوا به وصدقوا رسوله، ثم رجعوا عن ذلك لبلاء أصابهم، وكانوا يحدثون أنفسهم باليأس من التوبة؛ فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، أنزل الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ الآية، قال ابن عمر: فكتبتها بيدي ثم بعثت بها إلى هشام بن العاص. يقول هشام: فلما أتتني جعلت أقرؤها بذي طوى، فألقى الله في قلبي أنها نزلت فينا، فرجعت إلى بعيري فلحقت برسول الله ﷺ وهو بالمدينة[1].

---

(١) راجع فتح القدير ٢/ ٦٩٤، والصحيح المسند ١٩٨ .

بين المقام والنظم:

لا يمنع نظم الآية من تناول ما ورد في أسباب النزول، فتكون قد نزلت في أناس من مشركي مكة تاقوا للإيمان فاستعظموا ذنوبهم واستشعروا اليأس. وكذا بعض المؤمنين الذين لم يهاجروا مع إخوانهم للمدينة وفتنهم المشركون عن دينهم، وكانوا يستشعرون الذنب ويتوقون التوبة ويخشون الرفض، وقد تجاوب الوحي مع تلك الأحاسيس المكظومة.

لكن بعض المفسرين كأبي السعود والشوكاني يميلون إلى توجيه الآية لتكون خاصة بالمؤمنين العصاة حسب مستدلين بإضافة العباد إليه سبحانه، يقول أبو السعود: «وإضافة العباد إليه تخصصه بالمؤمنين على ما هو معروف في القرآن»[(١)].

والظاهر أن الخطاب أعم من هذا؛ إذ يتناول المشركين الذين تاقوا للإسلام واستعظموا ذنوبهم والذين فتنوا عن دينهم فندموا، كما تتناول المؤمنين الذي أسرفوا على أنفسهم بالمعاصي من باب أولى.

أما إشكالية النظم والإضافة في (يا عبادي) التي ذكرها بعض المفسرين، فإنها تنتهي إذا لاحظنا أن (يا عبادي) وردت بقراءتين:

الأولى: هي القراءة المشهورة بالإضافة، وهي قراءة الجمهور، وهي تناسب خطاب المؤمنين.

والثانية: رواها أبو بكر عن عاصم (يا عباد) من غير ياء ولا إضافة؛ وهي تناسب عموم الناس، ومنهم الكفار والذين فتنوا عن دينهم.

وقد ذهب الشوكاني إلى أن الواو للاستئناف في الآية التالية: (وأنيبوا على ربكم وأسلموا له. . .) يقصد أن هذه الآية خطاب مختلف عن الآية الأولى؛ فإذا كانت الأولى للمؤمنين المسرفين على أنفسهم خاصة، فإن هذه (وأنيبوا) للمشركين والذين فتنوا عن دينهم، والذي أراه مرجحًا أن الواو للعطف وليست للاستئناف، وقد عطف بها أمر على نهي، فكأنه قال: لا تقنطوا، وأنيبوا، ويكون من تكملة المعنى؛ لأن الأولى بشرى، والثانية يقدم وسيلة التوبة وكيفية الإنابة والعودة إلى الله سبحانه.

---

(١) إرشاد العقل السليم ٤/٢١٢ .

ولما ضرب ابن مريم مثلاً

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٥٧ - ٥٨].

سبب النزول:

قال الواحدي: أكثر المفسرين على أن الآية نزلت في مجادلة ابن الزبعرى مع النبي ﷺ، لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٨] فقال ابن الزبعرى: خصمتك يا محمد، أليست النصارى يعبدون المسيح واليهود عزيرًا [فالعابد والمعبود في النار] ففرح المشركون بذلك وضجوا، فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠١]، ونزلت هذه الآية: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾.

خصوصيات النظم:

- بناء الفعل للمفعول في (ضُرِبَ) لعدم تعلق غرض بذكر الفاعل المجادل؛ ولأنه لا يستحق أن يذكر اسمه فحذف تجاهلاً له، بل لقد طوي ما قاله اكتفاء بالإشارة إليه في (ضُرب ابن مريم مثلاً) حتى لا يكون هناك في القرآن ذكر للقائل ولا لقوله، وبقي ما قاله معلومًا بحكمة الله وعلمه، وإنما نص على المهم والذي يتلخص في أن القوم كانوا يختلقون الأسباب ليعرضوا وينصرفوا.

- تتكون الآية الأولى من جملة شرط واحدة (لما وجوابها) ولقد جاء الجواب بإذا الفجائية التي أشاعت ما أشاعت من الدهشة وهي تدعو كل مستمع إلى التعجب من موقف هؤلاء القوم الذين لا يكفون عن التعلق بالباطل، ومن أجل مزيد من التعجيب أضيف القوم إلى ضميره ﷺ (قومك) فهذا يشير إلى أنهم قومك الذين هم أعرف الناس بك، وكان حريًا بهم لو أنصفوا أن يصدقوك أنت وألا يكون منهم ذلك الموقف الذي طربوا فيه لذلك التخليط، كأنه يقول انظر وتعجب إلى قومك وإلى سفاهة عقولهم وتفاهة أحلامهم.

- لم يذكر عيسى عليه السلام باسمه ولكن كنى عنه بابن مريم للتنبيه إلى قدرة

الله سبحانه في خلقه؛ إذ ليس له أب فينادى به، وفي هذا لفت إلى موطن القدرة في خلق عيسى، وذلك للإشارة إلى استحالة أن يلقى في النار من خلق بكلمة من الله وروح منه ومن كان رحمة من الله ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾.

- الفعل (صد) يتعدى بعن بحسب الأصل، ومع هذا لم يقل: إذا قومك عنه يصدون، وإنما تعدى الفعل بمن فقال: (إذا قومك منه يصدون) قال الفراء: منه وعنه سواء، وقال أبو عبيدة من ضم (أي الصاد) فمعناه: يولون، ومن كسر فمعناه يضجون[١]. ولم يربط بين هذا وبين التعدية بـ«مِنْ»، لكنه يقصد أن التعدية بمن تناسب الكسر، وهو يشير إلى القراءتين اللتين ورد الفعل بهما.

فقد قرأ الجمهور: يصدون بكسر الصاد بمعنى يضجون.

وقرأ نافع وابن عامر والكسائي بضمها بمعنى يعرضون.

وتوجيه هذا أن القوم لما استمعوا إلى حجة ابن الزبعرى فرحوا بها فضجوا وصاحوا إعجابًا، وهذه هي قراءة (يصدون) بالكسر، ثم لما ضجوا انصرفوا معرضين، وهذه هي قراءة (يصدون) بالضم.

ولأن قراءة الضم مشهورة وقراءة الكسر طارئة قليلة أتى بالحرف (منه) الذي يناسب القليلة للتنبيه عليها، وترك ما يناسب المشهورة اعتمادًا على شهرتها، هذا ما كان يقصده أبو عبيدة.

- يحكي القرآن ما قالوه في تفصيل ما ضربوه مثلًا على سبيل الجدل (وقالوا أآلهتنا خير أم هو)؛ أي: المسيح، وهذا حكاية ما رددوه بعدما نطق به ابن الزبعرى، ولذلك أسنده إلى الجمع، والاستفهام بمعنى النفي؛ أي: ليس عيسى خيرًا من آلهتنا؛ أي: لا فرق بينهما من جهة أن كليهما في النار «فإذا كان عيسى في النار ومن عبده، فلا بأس بكوننا وآلهتنا معه فيها»[٢] وهذا جدل فارغ قصدوا منه التغطية على رفضهم الحق رفضًا لا مبرر له، وقد رد عليهم القرآن فاضحًا نواياهم (بل هم قوم خصمون) فهم لم يقعوا في لبس ولا سألوا للمعرفة لكن لمجرد الجدل

---

(١) فتح القدير ٢/ ٧٨٠ .

(٢) إرشاد العقل السليم ٥/ ٥٧ .

الذي يعللون به انصرافهم عن الحق الأبلج والتماسهم الباطل المظلم.

- عبر عن نواياهم والدافع إلى ذلك المثل الذي ضربوه بأسلوب القصر في قوله: (ما ضربوه لك إلا جدلاً) للدلالة على أن ذلك المثل الذي ضربوه لم يكن التماسًا للحق بأي حال من الأحوال، وأنهم جميعًا ما قصدوا غير الجدل الذي يسوغ صدهم وإعراضهم، وأنهم يخدعون أنفسهم، ولو أن عاقلاً منهم استمع إلى هذه الآية التي تفضح نواياهم؛ لعلم أن بشرًا ما ليس في وسعه الاطلاع على نواياهم، وأن ذلك لا يكون إلا من العليم الخبير، ولكن طمس الله على قلوبهم لاستغراقهم في الضلال.

- قوله سبحانه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ قصر عيسى على كونه عبدًا، وهذا ينفي أي احتمال لما زعمه النصارى، ولم يرد هذا الأسلوب مع نبي آخر، فلقد قال سبحانه في شأن محمد ﷺ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ وقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ فجاء لفظ العبد في سياق أخبار لا تتعلق بإشكالية العبودية، ولا يقصد اختصاصها بحديث كما كان بالنسبة لعيسى الذي يخصه بالعبودية وينفي عنه أي احتمال للألوهية، يقصره على كونه عبدًا لنفي أي احتمال لكونه كما زعم حواريوه حين جعلوه إلاهًا يعبدونه، والنفي بإن المخففة لمزيد من تأكيد النفي.

وقد وصفه بالفعل (أنعمنا عليه)؛ أي: بمعجزة ولادته من غير أب وبإعداده للنبوة، فكيف تتحول نعمة الله على عيسى نقمة على قومه.

- في قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ إشارة إلى قدرة الله في خلقه من غير أب حتى صار هذا مشهورًا يتردد كالأمثال السائرة، والتعبير عن هذا بالمثل للتنبيه إلى المفارقة بين ما ضربه المشركون مثلاً على سبيل الجدل، وما جعله الله سبحانه مثلاً للعبرة والعظة، فشتان بين مثل ومثل، على أن مثل الله في خلق عيسى وإعداده للنبوة والرسالة ينفي زعم القوم على سبيل الجدل أنه في النار.

والقرآن الكريم يكشف عن الدافع للجدل المحض عند القوم وهو الشك في البعث بعد الموت وفي يوم القيامة، فهذا هو لب الكفر وجوهره والباعث على الجدال والصد عن الحق، يكشف القرآن عنه في هذا السياق بقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ

لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

يوم تأتي السماء بدخان

قال تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [سورة الدخان ١٠ - ١٦].

مناسبة الآيات:

جاء في البخاري(١) «عن الأعمش عن مسلم بن مسروق قال: قال عبد الله: إنما كان هذا الدخان لأن قريشًا لما استعصوا على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف؛ فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، فأنزل الله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾.

ويذكر الزمخشري عن ابن مسعود ما يفيد أن هذا الدخان كان حقيقيًا: «وكان الرجل يرى بين السماء والأرض الدخان، وكان يحدث الرجل فيسمع كلامه ولا يُرى من الدخان، فمشى أبو سفيان ونفر معه إلى رسول الله ﷺ وناشدوه الله والرحم، وواعدوه إن دعا لهم وكشف عنهم أن يؤمنوا، فلما كشف عنهم رجعوا إلى شركهم»(٢).

وعن علي بن أبي طالب، وأخذ به الحسن، أنه دخان يأتي من السماء قبل يوم القيامة يدخل في أسماع الكفرة حتى يكون رأس الواحد منهم كالرأس الحنيذ، ويعتري المؤمن منه كهيئة الزكام، وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه ليس فيه خصاص، وعن رسول الله ﷺ: **«أول الآيات الدخان»**(٣).

وبمراجعة كل هذا نلحظ أن الرواية الأولى التي وردت في البخاري تدل على

---

(١) الصحيح المسند ٢٠٦ .

(٢) الكشاف ٣/ ٥٠٢ .

(٣) المرجع نفسه ٣/ ٥٠١ .

أنه لم يكن دخانًا حقيقيًا، وإنما هو جهد أصاب الناس من قلة الزاد حتى يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان، لكن ما جاء في الآية لا يتفق مع هذا وإنما يدل على أنه كان دخانًا حقيقيًا ظاهرًا (دخان مبين) ثم إنه يأتي من السماء فيغطي الناس ويحجب الرؤية، وأنه لم يكن قد وقع وقت نزول الآية بدليل قوله ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾.

وإلى هذا يذهب الزمخشري فيما نقل من روايات عن ذلك الدخان الحقيقي الذي غشى الناس وحال دون الرؤية، وجعل أبو سفيان ونفر معه يلجأ إلى رسول الله ﷺ ليدعو ربه كي يكشف عنهم ذلك الدخان وهو ما يذكره القرآن ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ فهل ثبتوا على إيمانهم أو عادوا للكفر بعدما كشف الله عنهم ذلك الدخان؟ يخبر الله سبحانه أنهم عادوا كما كانوا ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾.

وينقل المفسرون اختلاف الناس في ذلك الدخان فمن قائل إنه وقع، وآخر يرى أن لم يقع بعد وأنه من علامات الساعة.

والحق الذي تدل عليه الروايات السابقة ويدل نظم الآيات عليه أن هناك دخانين: الأول: وقع في وجود رسول الله ﷺ. والثاني: لم يقع بعد، وهو من علامات الساعة.

أما الدخان الأول، فيتناسب مع رواية ابن مسعود، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ وقد عبر عن الدخان بالعذاب من التعبير عن الشيء باسم ما آل إليه، وفيه إشارة إلى أنه كان على سبيل العقاب، وقولهم: ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ كان مجرد دعوى باللسان، وقد استبعد القرآن ذلك الإيمان في قوله: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾.

فهذا الاستفهام قصد به نفي أن يتذكروا أو يؤمنوا واستبعاد ذلك منهم؛ لأنه سبحانه عالم بحالهم وأنهم لا يفون بوعدهم عندما يكشف عنهم ذلك العذاب، والدليل على هذا أن الرسول ﷺ جاءهم بالآيات المبينة المعجزة الدالة على صدقه فلم يؤمنوا ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ بل لم يكتفوا بالإعراض حتى أضافوا إليه التشنيع والافتراء عليه ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾.

والجمع بين هذين الوصفين (معلم مجنون) يدل على تخبطهم واضطرابهم

وكذبهم؛ لأن كونه (معلمًا) حسب زعمهم، أي: يعلمه غلام أعجمي من ثقيف - كما قالوا - دليل على قابليته للتعليم، فكيف يتفق هذا مع وصفه بالجنون؟ فهذه دعوى كاذبة، وهي في الوقت ذاته مضطربة قلقة تؤكد افتراءهم في زعمهم.

أما الدخان الثاني، فينزل من السماء قبيل قيام الساعة وهو علامة من علاماتها، بل هو أول العلامات كما حدثنا رسول الله ﷺ **«أول الآيات الدخان»**[1]

ويدل عليه من النظم القرآني قوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾. فمع أن المفسرين يتجهون به إلى معنى أنهم عائدون للكفر مرة ثانية بعد كشف الدخان، وكأن هذا العذاب لم يزجرهم، لكن النفس تتوقف أمام الوصف (قليلًا)؛ أي: مدة قليلة ماذا يعني سوى أنه يشير، والله أعلم، إلى عودة الدخان مستقبلًا، وأن هناك مدة زمنية فاصلة بين الدخان الأول والدخان الثاني عندما يعود، وهذه المدة الفاصلة يكشف الله فيها الدخان، وهي قليلة بالنسبة إلى علم الله وأيامه عز وجل بما يشير إلى قرب الساعة.

وقوله: ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ تعني على أساس هذا أنهم وغيرهم عائدون، أي: مبعوثون بعد الموت، وسيرون ذلك الدخان يوم الهول العظيم، ويؤيده من النظم أن قوله سبحانه: ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ موصول بظرفه: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ فذلك هو يوم القيامة والله أعلم. والدخان الذي ينزل قبيل الساعة موصول بها يوم يبطش الله سبحانه بالكفار البطشة الكبرى، ويعذبهم العذاب الأكبر.

وقيل: إن البطشة الكبرى هي يوم بدر، وهو تفسير من يحمل الآيات جميعها على نزول دخان واحد لكفار مكة عقابًا لهم، لكن المرجح كما سبق أن الدخان سيعود مرة ثانية، ويكون هو أول علامات الساعة بدليل حديث رسول الله ﷺ الذي رواه حذيفة: **«أول الآيات الدخان ونزول عيسى بن مريم»**[2] وهذا الدخان يمكث أربعين يوما وليلة فلا يصيب المؤمن منه إلا كهيئة الزكمة؛ وأما الكافر فيخرج من منخريه وأذنيه ودبره[3].

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٠١ .

(٢) الكشاف ٣/ ٥٠١ .

(٣) نفسه .

وشهد شاهد من بني إسرائيل

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة الأحقاف: ١٠].

ورد من عدة أسانيد منها الصحيحان أن هذه الآية نزلت في عبد الله بن سلام؛ إذ جاء إلى رسول الله ﷺ مسلمًا، ثم عاد إلى قومه دون علم منهم بإسلامه، فسألهم: أي رجل تعلموني فيكم يا معشر يهود؟ قالوا: والله ما نعلم فينا رجلاً أعلم بكتاب الله منك، قال: إني أشهد بأن محمدًا نبي الله الذي تجدونه في التوراة. قالوا: كذبت. وردوا عليه قوله، وقالوا فيه شرًا[1].

وروي أن عبد الله بن سلام لما سمع بمقدم رسول الله ﷺ أتاه فنظر إلى وجهه الكريم، فعلم أنه ليس بوجه كذاب، وتأمله فتحقق أنه النبي المنتظر، فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ والولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «**أما أول أشراط الساعة، فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب؛ وأما أول طعام أهل الجنة، فزيادة كبد الحوت؛ وأما الولد فإن سبق ماء الرجل نزعه؛ وإن سبق ماء المرأة نزعته**»، فقال: أشهد أنك رسول الله حقًا. ثم قال: يا رسول الله، إن اليهود قوم بهت، فإن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم، بهتوني عندك. فجاءت اليهود فقال لهم النبي ﷺ: **أي رجل عبد الله فيكم؟** فقالوا: خيرنا وسيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا. قال: **أرأيتم إن أسلم عبد الله؟** قالوا: أعاذه الله. من ذلك، فخرج عليهم عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، فقالوا: شرنا وابن شرنا. وانتقصوه، قال عبد الله: هذا ما كنت أخشى يا رسول الله»[2].

بين السياق والنظم:

سورة الأحقاف مكية إلا ثلاث آيات، منها، هذه الآية العاشرة فإنها مدنية، ولكنها وضعت في السياق الذي يناسبها من الآيات المكية، ولقد كذب المشركون

---

(١) الصحيح المسند ٢١٠ . وفتح القدير ٢/ ٨١٤ .

(٢) إرشاد العقل السليم ٥/ ٦٤ .

رسول الله ﷺ ورموه بالافتراء وأنكر الله عليهم افتراءهم في قوله في الآية الثامنة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [سورة الأحقاف: ٨] وفي هذه النهاية يشهد الله سبحانه على صدقه ﴿كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾.

ولما كان هذا المنطق القرآني لا يجدي مع من لا يقدر الله حق قدره، وينكر أن يكون ما يتلى من عند الله، عقب سبحانه بأن ينظروا بشهادة شاهد من بني إسرائيل وهم أصحاب كتاب، هذا الشاهد هو عبد الله بن سلام الذي نطق بكلمة الحق عندما قال لقومه: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا نبي الله الذي تجدونه في التوراة، ولقد طارت شهادته وما خفيت على أحد، فإذا كان كفار قريش لا يأخذون بقوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ على زعمهم أنه ليس وحيًا، فإنهم لا يستطيعون في منطق العقل أن ينكروا أو يرفضوا شهادة رجل من اليهود بأن محمدًا هو نبي الله الذي يجدونه في التوراة بصفاته وعلاماته، وكانت شهادته ملء الأسماع، ثم ينزل بها وحي يتلى، فلا يملك الإنكار بعد هذا إلا جاحد سفيه مستكبر، فهذا من المذهب الكلامي والمنطق القرآني المعجز.

من خصوصيات النظم:

- صدرت الآية بالاستفهام الذي قال البلاغيون: إنه يدل على الاستخبار، فقوله: (أرأيتم) بمعنى أخبروني، لكنه لم يقل: أخبروني لخصوصية في الاستفهام، وهي التهيئة والإيقاظ والإثارة والتنبيه على أهمية ما يتناوله؛ ليستجمع المخاطبون نشاطهم وتفكيرهم، فيتلقون ذلك الخبر بعقولهم وكأنهم يعاينون بأبصارهم؛ ولهذا عبر بالرؤية (أرأيتم).

- وفي قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة الأحقاف: ١٠] أسلوب استدراج على طريق المذهب الكلامي ذي البرهان الساطع الذي يلمح في العقول النيرة، ذلك لأنه يجري الأمر اليقيني مجرى الأمر الافتراضي، للاستدراج والاستمالة، فيقول: افترضوا أنني نبي من عند الله، وأن هذا القرآن حق منزل من الله بشهادة يهودي لا مصلحة له سوى إحقاق الحق خوفًا من الله، ثم كفرتم بعد هذا، أفلا يكون كفركم ظلما يخشى عليكم منه، وهذا الأسلوب استدعى

الشرط مع أنه يتناول حقيقة مؤكدة (إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله. . . . .) إلخ.

- حذف جواب الشرط الذي هو من نوع الهلاك والعذاب، وتقديره: إن صح صدقي فيما جئت به من عند الله بشهادة عالم يهودي فآمن واستكبرتم، فإن هذا يكون ظلمًا منكم يستوجب عقاب الله وتحرمون الهداية (إن الله لا يهدي القوم الظالمين) فهذه الفاصلة مرتبة على النتيجة المفهومة من جواب الشرط المطوي، ولولا فهمه بجلاء لما طوي، ولعل من أسرار طيه منع الإيحاش، والتلويح بالعقاب لا التصريح في مقام الاستدراج والاستمالة. والله أعلم.

- لم يكتف بقوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾ وإنما عطف عليه قوله: (فآمن)، وفائدة هذا هو الإشارة إلى صدق الشهادة، فهو لم يكتف بالشهادة؛ لأنه لو شهد بأن محمدًا هو النبي الذي تذكره التوراة ثم لم يؤمن، لما كانت لشهادته مصداقية، ولكن إيمانه يؤكد صدق شهادته، ومن هنا تبين قيمة ارتباط الشهادة بالإيمان، مع العطف بينها بالفاء للإشارة إلى أنه سارع إلى الإيمان من غير تردد لما سطع الحق في نفسه وقلبه.

- قال: (فآمن واستكبرتم)، وكان الأصل أن يقول: فآمن وكفرتم، لكنه لما سبق ذكر الكفر في مجاورة الشرط (إن كان من عند الله وكفرتم به) عاد إلى ذكر الباعث عليه وهو الاستكبار، وفيه إشارة إلى أن الحق ناصع، وهم في أنفسهم يعلمونه، ولكنهم مستبكرون، وهذا ما دفعهم إلى التعنت والإنكار، وهذه إشارة خاصة لهم لعلهم يفهمون.

ما المقصود بالفتح المبين والنصر العزيز؟

قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ۝١ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾ مطلع سورة الفتح.

أخرج البخاري ومسلم وأحمد والترمذي وغيرهم بروايات مختلفة أن سورة الفتح نزلت بعد صلح الحديبية[1] وبهذا يكون ذلك الصلح وملابساته سببًا لنزول

(١) الصحيح المسند في أسباب النزول ٢١٤ .

السورة وقد اشتملت السورة على كثير من تلك الملابسات.

وقيل: إن الفتح هو فتح خيبر التي عاد منها للمسلمين خير كثير، وقيل: بل هو صلح الحديبية نفسه، وإنه وإن لم يكن فيه حراب وقتل بل ترام بين الفريقين بسهام وحجارة، لكن لما كان الظهور للمسلمين حيث سألهم الكفار الصلح كان فتحًا بلا ريب. وروى ابن عباس رضي الله عنهما أن المسلمين رموا المشركين حتى أدخلوهم ديارهم. وعن الكلبي: ظهروا عليهم حتى سألوا الصلح، وروى أنه عليه الصلاة والسلام حين بلغه أن رجلاً قال: ما هذا بفتح، لقد صدونا عن البيت وصُدَّ هدينا، قال ﷺ: «**بل هو أعظم الفتح**» [1] وعندما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ أثناء عودة المسلمين من الحديبية قال رجل: أو فتحٌ هو يا رسول الله؟ قال: «نعم والذي نفسي بيده، إنه لفتح».

وإنما تظاهرت الأقوال والروايات على أن الفتح هو الحديبية لأسباب منها:

- تصحيح ما التبس على بعض الصحابة الذين أخذوا بظواهر الأمور، وذلك حين وقع في وهمهم أن الرسول تنازل للمشركين، وأن المسلمين قد أعطوا الدنية في دينهم بالموافقة للكفار على رد من جاء من قريش مسلمًا، هذا فضلاً عن نزول رسول الله ﷺ على رغبتهم في أن يكتب في صحيفة الصلح باسمك اللهم بدلاً من بسم الله الرحمن الرحيم، وأن يُكْتَبَ محمد ابن عبد الله بدلاً من محمد رسول الله ﷺ، وموافقته على أن يعود المسلمون من الحديبية فلا يعتمروا ولا يدخلوا المسجد الحرام في عامهم ذاك على أن يدخلوا في العام القابل، وكان هذا أمرًا قاسيًا على من أخذ بظواهر الأمور من المسلمين، لكن الله سبحانه الذي لا يعلم الغيب إلا هو أنزل السكينة على رسوله وعلى المؤمنين، ثم تبين لهم فيما بعد ما خفي عنهم من حكمة الله سبحانه كما سيتبين في آيات سورة الفتح والتي تدل على أن الحديبية كان نصرًا وفتحًا مبينًا.

فعن الشعبي قال: نزلت هذه السورة بالحديبية، وأصاب رسول الله ﷺ فيها ما لم يصب في غزوة حيث أصاب بيعة الرضوان، وغفر الله له ما تقدم من ذنبه وما

---

(١) إرشاد العقل السليم ٥/٧٩ .

تأخر. . . وكف الله عنه أيدي الغادرين من رجال قريش، وعوض من دخول المسلمين المسجد الحرام فتح خيبر (فجعل من دون ذلك فتحًا قريبًا)[1].

ومن نكات آيات ذلك الفتح:

١- بدئت السورة بالحديث عن البشارة المرتبطة بصلح الحديبية والمترتبة عليه، كأنه بدأ بالنهاية، ثم عاد إلى البداية في أثناء السورة دون التزام بترتيب الأحداث، حتى إن بدايات تلك الأحداث والتي كانت رؤيا للرسول ﷺ بدخول المسجد الحرام نجدها قبيل نهاية السورة ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾. . .

وهذا يدل على أن مراعاة الأغراض والغايات وترتيب الآيات وفق التناسب المعنوي مقدم على ترتيب الأحداث؛ لأن القرآن الكريم كتاب دعوة وهداية وتشريع وإصلاح وعبر وعظات، وليس كتاب تاريخ وتوثيق للأحداث، وإنما يأتي الحدث أساسًا لتحقيق الغرض والغاية والعبرة في السياق المناسب.

وإنما بدأت السورة بما يعد نهاية لأحداث الحديبية؛ لتكون البداية بالفتح بشرى مطمئنة فيما يسميه البلاغيون ببراعة الاستهلال.

- وقد عبر بصيغة الماضي (إنا فتحنا) مع أن سورة الفتح نزلت أثناء العودة من الحديبية، ولم تكن ثمرات الصلح قد بانت، ذلك لأن المتحدث هو الله سبحانه، وما يخبر به الله من أشياء لم تقع فهي في يقين المؤمن الواثق واقعة لا ريب فيها، ويلخص العلماء هذا بقولهم: عبر عن المستقبل بالماضى لتحقيق الوقوع، ومقام التبشير يتطلب التأكيد، وصيغة الماضي من وسائل التأكيد، كما أن التعبير بالماضي يشعر بفخامة المبشر وعزته وقدرته سبحانه وتعالى، وساعد على الإحساس بكل هذا تصدير الكلام بـ«إنَّ» المقرونة بضمير العظمة والجلال، ثم إسناد الفعل إليه (إنا فتحنا) ثم تأكيد الفتح بمصدره (فتحًا) ووصفه بذلك الوصف (مبينا)؛ أي: ظاهرًا جدًا، وقد جاء بصيغة اسم الفاعل للإشارة إلى أنه من شدة ظهوره أنه يبين عن نفسه، وفي ذلك تعريض بمن التبس الأمر عليهم ودخل الشك في نفوسهم، أو

---

(١) إرشاد العقل السليم ٥/ ٧٩ .

على الأقل تحفظوا حين توهموا أن في بنود ذلك الصُّلح تنازلاً كبيرًا للمشركين.

- تحول الخطاب من ضمير المتكلم في (إنا فتحنا) إلى لفظ الجلالة الذي يقوم مقام (هو) في قوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾، فلم يقل مثلاً: إنا فتحنا... لنغفر، وذلك على سبيل الالتفات، الذي يشير إلى أنه لا يغفر الذنوب إلا الله، ولما في التعبير بلفظ الجلالة (الله) من تربية المهابة، وفيه كثير من التفخيم، وفي ظهوره تلويح وإطماع لسائر المسلمين بالمغفرة.

- وهنا نسأل عن سر إفراد رسول الله ﷺ بهذه المكرمة والمغفرة، وسر تخصيص هذا السياق بهذا الإفراد، ويبدو سر هذا عندما نسترجع ملابسات صلح الحديبية، وما لحق رسول الله فيها من مشقة ومعاناة، فلقد صبر على موقف صحابته بعد كتابة وثيقة الصلح عندما تبرموا وتلمظوا وتفوه بعضهم بما في نفسه، كقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرسول الله ﷺ: ألست رسول الله حقًا؟ قال ﷺ: «**بلى**» قال عمر: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال رسول الله: «**بلى**» قال عمر: فلم نعطي الدنية في ديننا؟ قال ﷺ: «**إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري**».

هذه الكلمة الموجزة تشير إلى أن رسول الله ﷺ وافق على شروط الصلح التي بدت مجحفة لا من عند نفسه ورأيه، ولكن بوحي من العليم الخبير الذي وعده بالنصر «**ولست أعصيه وهو ناصري**» وقد صدق الله ورسوله.

بل لقد صبر رسول الله ﷺ على صحابته عندما طلب منهم بعد الصلح أن يقوموا لينحروا ويحلقوا - إشارة إلى أنهم نالوا الثواب وإن لم يدخلوا المسجد الحرام وكأنهم طافوا وسعوا وإن لم يطوفوا ولم يسعوا، وكرر رسول الله ذلك الطلب ثلاثًا فلم يمتثلوا من ضيقهم، وكانوا يودون القتال ودخول البيت الحرام عُنوة....لقد صبر رسول الله عليهم تقديرًا لإحساسهم بعزة دينهم وإن أخطأوا في تقدير الأمور، وأخذوا بظواهرها، وأنساهم الغضب مكان القدوة عن النبي وضرورة الاقتداء دون تحفظ؛ فلما دخل رسول الله ﷺ على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس، أشارت عليه أن يخرج ثم لا يكلم أحدًا منهم كلمة حتى ينحر ويحلق، فخرج رسول الله ﷺ ولم يتكلم حتى نحر وحلق؛ فلما رأوا صحابته ذلك قاموا

فنحروا وحلقوا وجعل يحلق بعضهم بعضًا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غمًّا[1] ولما فعلوا ذلك قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾؛ أي: أنزل الطمأنينة في قلوب المؤمنين فخفف ضيقهم، وقوله سبحانه: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ بشرى بالتجاوز عما بدر منهم؛ لأنه لم يؤثر في إيمانهم بل إن حرصهم وغضبهم كان دافعه الإيمان، فزادهم الله إيمانًا ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾.

أما أهم شروط كفار مكة والتي أثارت غضب المسلمين، فكان إلزام المسلمين برد من يذهب إليهم من قريش مسلمًا، وعجبوا من موافقة رسول الله ﷺ على هذا الشرط؛ لأنهم لم يعلموا ما يضمره الغيب من خير كثير في هذا الشرط، وكانت البداية عندما جاء أبو بصير - رجل من قريش - إلى رسول الله مسلمًا، فأرسلت قريش في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلت لنا. فدفعه رسول الله للرجلين، وبينما هو في طريق العودة احتال على الرجلين حتى قتل أحدهما وفر الآخر، ثم قصد أبو بصير شاطئ البحر ومكث فيه، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة لا يسمعون بعِيرٍ من قريش خرجت إلى الشام إلا اعترضوها فقتلوا وسلبوا أموالهم فانزعجت قريش وأرسلت على رسول الله ﷺ تناشده بالله والرحم ألا يرد من يأتيه من قريش مسلمًا من يأته فهو آمن[2].

شغلتنا أموالنا وأهلونا

قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾ [سورة الفتح: ١١].

سكت المؤلفون في أسباب النزول عن مناسبة هذه الآية، وإن ذكرها المفسرون في سياق التفسير، ويبدو أن سكوت من سكت عن ذكرها كان لأن الآية تبدأ بالفعل

---

(١) الصحيح المسند ٢٢٠ .

(٢) الصحيح المسند ٢٢١ .

الدال على الحدوث في المستقبل بالنسبة إلى وقت نزول الآية، فلم يكن هناك سبب سابق على النزول حتى يذكروه، والمعروف أن أكثر آيات سورة الفتح نزلت في أثناء العودة من الحديبية تسجل ما حدث، إلا قليلًا من الآيات التي تنبئ بما سيحدث، كقوله: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ الآية.

فإن المقصود به ما يحدث بعد العودة من صلح الحديبية أو بعد العودة من فتح مكة. يقول الشوكاني: «هم الذين خلفهم الله عن صحبة رسوله حين خرج عام الحديبية، قال مجاهد وغيره: يعني أعراب غفار ومزينة وجهينة وأسلم وأشجع، وهم الأعراب الذين كانوا حول المدينة، وقيل: تخلفوا عن رسول الله ﷺ حين سافر إلى مكة عام الفتح بعد أن كان قد استنفرهم ليخرجوا معه»[1]. وإنما خلفهم الله وأقعدهم لتخاذلهم وجبنهم، ويحتمل أن يكون ذلك قبيل صلح الحديبية وقبيل فتح مكة أيضًا، وإن كنت أرجح أن الآية إنباء بما يقولونه بعد العودة من الحديبية يعتذرون لتخلفهم عن الخروج قبله؛ لأن السورة نزلت في أثناء العودة من صلح الحديبية، ومنها تلك الآية التي تنبئ عما سيكون منهم من أعذار كاذبة.

ومن لطائف النظم:

وصف المخلفين بقوله: ﴿مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ لتمييزهم عن غيرهم، وإشارة إلى أنهم الأعراب المعروفون بالنفاق، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ [سورة التوبة: ٩٧]، وقد ذكر المفسرون أنهم أعراب غفار وجهينة وأشجع وأسلم وغيرهم.

- في حكاية قولهم: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ علة غير حقيقية يقولونها بألسنتهم ويضمر قلوبهم شيئًا آخر، إن العلة الحقيقية يكشفها العليم الخبير في قوله: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ والظن هنا يميل للاعتقاد والثقة بدليل ما بعده (لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدًا)؛ أي: سيهلكون ولن يعودوا أبدًا، وزين الشيطان ذلك في قلوبهم، فأيقنوا به واطمأنوا إليه (وزين ذلك في قلوبكم)، وبالتالي فلو خرجوا معه لهلكوا وما عادوا إلى أهليهم أبدًا فخافوا وجبنوا.

---

(١) فتح القدير ٢/ ٨٤٢ .

وعلى ذلك فإن قولهم: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ اعتذار كاذب وإن كان له نصيب من الصدق دون قصد؛ لأنه علة العلل الكامنة في نفوسهم، وهو حب الدنيا والأموال والأولاد، فإنه الباعث على جبنهم وظنهم أنهم لو خرجوا لهلكوا مع الهالكين، ولكن يبقى أنهم كاذبون لقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ فإن الدافع الذي زينه الشيطان في قلوبهم هو الخوف من الهلاك.

وفي هذا الاعتذار الكاذب تقدمت الأموال على الأولاد؛ لأن الاهتمام بالأموال أكبر، والجبن من أجل المال وحبه يكون أعظم من الجبن بسبب الأولاد، وتعلق النفس بالمال أشد من أي شيء آخر، هذه هي الطبيعة الإنسانية التي سجلها القرآن في سورة آل عمران ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فقدم المال على البنين.

- في قوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ إيجاز معجز يسمى بالاحتباك، وهو كثير في القرآن نادر في كلام العرب، وضابطه أن يحذف من الأول لدلالة الثاني عليه، ويحذف من الثاني لدلالة الأول عليه، فهو مظهر من مظاهر تفاعل أجزاء الكلام واتصاله اتصالاً وثيقًا بحيث تتعاون وتتآزر في أداء المقصود على الرغم من الحذف الكثير من طرفي الكلام؛ إذ تتبادل الجمل التعاون والتخفف، فتحذف الأولى جزءًا منها اعتمادًا على دلالة الثانية عليه، وفي المقابل تحذف الجملة الثانية جزءًا منها اعتمادًا على دلالة الأولى عليه.

يتبين هذا بملاحظة أن أصل الكلام وتقديره: (قل فمن يملك لكم من الله شيئًا) من النفع (إن أراد بكم ضرًا) أو شيئًا من الضر إن (أراد بكم نفعًا)، فحذف النفع من الأولى لوجوده دالًا في الثانية عليه، وحذف الضر من الثاني لوجوده دالًا في الأولى عليه، وهذا من أعظم صور الحذف وأتقنها.

- عندما فتح المسلمون خيبر استبعد الرسول هؤلاء المنافقين بأمر الله له، فلم يكن معه إلا المخلصون الذين كانوا معه في الحديبية وهم الذين فازوا بالغنائم؛ أما هؤلاء المنافقون، فظل يهرف بعضهم لبعض ويتهمون المسلمين المخلصين بأنهم استبعدوهم حسدا لهم ويسجل القرآن هذا ابتداء من الخروج لخيبر وما قاله هؤلاء المنافقون حينئذ ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ

تحسُدُونَنَاۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سورة الفتح: ١٥].

بيعة الرضوان

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

سبب النزول:

روي أن رسول الله ﷺ لما نزل الحديبية بعث خراش بن أمية الخزاعي رسولاً إلى أهل مكة، فهموا به، فمنعه الأحابيش فرجع، فبعث عثمان بن عفان رضي الله عنه إليهم، فأخبرهم أنه ﷺ لم يأت لحرب، وإنما جاء زائرًا للبيت معظمًا لحرمته؛ فوقروه وقالوا: إن شئت أن تطوف بالبيت فافعل، فقال: ما كنت لأطوف قبل أن يطوف رسول الله ﷺ، واحتبس عندهم فأرجف (أشيع) بأنهم قتلوه، فقال عليه الصلاة والسلام: «**لا نبرح حتى نناجز القوم**» ودعا الناس إلى البيعة فبايعوه تحت الشجرة (قيل: شجرة سدرة) على أن يقاتلوا قريشًا ولا يفروا. وروي أنهم بايعوه على الموت دونه وألا يفروا، فقال ﷺ: «**أنتم اليوم خير أهل الأرض**» وكانوا ألفًا وأربعمائة(١).

من خصوصيات نظم الآية:

- تدل الآية على علم الله بما في قلوب هؤلاء المؤمنين من صدق ويقين هو السبب في إنزال السكينة عليهم ورضاه عنهم، وهو السبب في زيادة إيمانهم كما تدل بداية السورة (هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم)، وهذا يعني أن صحة الإيمان ويقين القلوب وصدق العزيمة الإيمانية مفتاح كل خير، فلم يؤثر في إيمان بعضهم ما كان منه من غضب على ما في صلح الحديبية من شروط مجحفة، وهذا يشير إلى ترفق الرحمن الرحيم بمداركهم البشرية المحدودة التي تقف عند العلم بظاهر الأشياء؛ وإذا كان الرسول ﷺ قد أدرك ما وراء ذلك، فلقد كان بوحي من الله باعتباره رسولًا.
- لم يلتزم النظم القرآني ترتيب الأحداث التي تتضمنها الأفعال في تلك الآية،

(١) إرشاد العقل السليم ٥/ ٨٣ .

فلم يَقُل: لقد علم الله ما في قلوب المؤمنين الذين يبايعونك فرضي عنهم وأنزل السكينة في قلوبهم. مع أن هذا هو الترتيب الطبيعي لتلك الأفعال؛ وإنما قدم ما هو نتيجة للتعجيل بالبشرى، فبدأ برضا الله الذي تقر برضاه عين كل مؤمن صادق، كما عجل بالفتح المبين تبشيرًا به في صدر السورة (إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا)، وهذا يدل على منهج سورة الفتح بشكل عام، فالمقدم فيها ليس هو الأول في الترتيب الزمني، ولكن هو الأهم بالنسبة للغرض المراد، وهو هنا التعجيل بإدخال السرور في قلوب هؤلاء المسلمين الصادقين، وتدل الآية على أن متابعة رسول الله وطاعته وحبه تؤدي إلى رضا الله وحبه. وعد إلى قوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾.

- والآية تدل على أن الله لما رضي عن المؤمنين الذين بايعوا رسوله ﷺ (بيعة الرضوان)، كافأهم الله سبحانه بعد بمكافآت عدة منها:

الأولى: معنوية، وهي السكينة والرضا، ولقد كانوا أشد ما يكونون حاجة إليها بعد صلح الحديبية الذي استفز نخوتهم الإيمانية، وكانوا في كمد شديد، وما كانوا يستريحون لولا أن الله أنزل السكينة عليهم؛ حتى أن شرط المشركين الذي أتعبهم نفسيًا وهو رد من يأتي من قريش مسلمًا، كان المشركون هم أول من تنازلوا عنه لما رأوا أنه كبدهم خسائر فادحة في تجارتهم، وما قصة أبي بصير ببعيدة.

- وفي التعبير بالإنزال والتعدية بـ(على) ما يصور السكينة بالمظلة التي هبطت عليهم فأظلتهم وشملتهم من جميع أقطارهم، وهذا يشعر بمنتهى الأمان والطمأنينة والراحة (فأنزل السكينة عليهم) نسأل الله سبحانه سكينة مثلها!!

المكافأة الثانية: كانت مكافأة مادية وهي غنائم خيبر الوفيرة بعد رحيل اليهود عنها لغدرهم وخطرهم، ثم ما تبع هذا من غنائم أخرى، لكنه سبحانه عجل لهم غنيمة خيبر تعويضًا عن رجوعهم وتطييبًا لخواطرهم. (وأثابهم فتحًا قريبًا ومغانم كثيرة يأخذونها).

أما قوله سبحانه: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾.

فمعناه: عجل لكم غنيمة خيبر ووعدهم بغنائم أخرى كثيرة يأخذونها من كل فتح يسعون إليه يبغون به إعلاء كلمة الله. وفي ضمن هذا تبشير بالنصر في معارك

قادمة؛ لأن المغانم لا تكون إلا بعد نصر في معارك.

- **المكافأة الثالثة:** في قوله: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ قيل: إن الناس هم بعض مشركي قريش الذين كانوا يتأهبون للانقضاض على الرسول والمؤمنين من خلف الجبل(١)، لكن الأولى بسياق الآية التي تتحدث عن مغانم خيبر بعد أن أظفر الله المسلمين عليهم(٢).... الأولى أن يكون المقصود بالناس الذين كف الله أيديهم عن المؤمنين حينئذ هم يهود خيبر ومشركو العرب من أسد وغطفان الذين حشدهم يهود خيبر لنصرة قريش في الحديبية، وكانت الغاية هي القضاء على المسلمين، فقذف الله في قلوبهم الرعب، فهذا هو كف الأيدى الثاني، بدليل الربط والعطف في قوله تعالى: (فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم) وإنما عبر عن هؤلاء بالناس اختصارًا لتعدد صنوفهم وقبائلهم، ولقد كان حشد اليهود لهؤلاء المشركين غدرًا؛ لأنهم بهذا نقضوا عهدًا كان بينهم وبين الرسول ﷺ.

وهو الذي كف أيديهم عنكم

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الفتح: ٢٤].

سبب النزول:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلحين يريدون النبي وأصحابه غرة، فأخذهم سلمًا واستحياهم؛ فنزلت الآية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ ...﴾(٣).

---

(١) ورد في هؤلاء قوله تعالى في الآية ٢٤: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ أما ما نتحدث عنه، فهو كف آخر جاء ذكره في آية سابقة.

(٢) هى قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ [سورة الفتح: ٢٠].

(٣) الصحيح المسند ٢٢١.

خصوصيات نظم الآية:

- تقديم الضمير الذي يعود إلى رب العزة سبحانه يفيد أنه وحده القادر على ذلك، ما كان يقدر عليه أحد غيره، وهذا من باب الامتنان ليعلم المؤمنون فضل الله عليهم فتطيب نفوسهم به.

- (كف أيديهم عنكم)؛ أي: منعهم من النيل منكم.

و(كف أيديكم عنهم)؛ أي: منعكم من النيل منهم.

فهاتان كنايتان من جنس واحد؛ إذ عبر بكف الأيدي عن المنع، وفي هذا التعبير إشارة إلى أن الأيدي كانت قابضة على السيوف مستعدة للضرب والطعن في أية لحظة من الجهتين، وأن النفوس كانت مشبوبة، والقلوب هائجة، فسبحان من أطفأ النار التي كانت موقدة!!

لقد كف أيدي الكفار عن المؤمنين عندما هبط فريق منهم خفية من جبل التنعيم؛ ولولا تأييد الله وحمايته، لنالوا ما استطاعوا من الرسول ﷺ والمؤمنين، وكف أيدي المؤمنين عن الكفار حين أمسكوا عن ضربهم بعد أن تنبه لهم رسول الله ﷺ وسيطر المسلمون عليهم بفضل الله سبحانه ودعوة رسوله ﷺ.

وفضل الله في الحالين ظاهر ففي الأولى حمى المؤمنين من الكفار، وفي الثانية حمى الكفار من المؤمنين لحكمة ظهرت بعد فتح مكة حين دخلوا في دين الله أفواجًا فزاد بهم عدد المسلمين وازدادت قوتهم، وحكمة أخرى هي حماية المستضعفين من المؤمنين الذين كانوا يعيشون وقتها وسط كفار قريش، فلو لم يكف الله سبحانه أيدي المؤمنين عن الكفار، لاختلط الحابل بالنابل، وقتل من هؤلاء المؤمنين الكثير؛ لأن مؤمني الحديبية لم يكونوا يعرفونهم ﴿هُمُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ[1] بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُوا۟[2] لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

وفي هذا تطييب لخواطر النفوس المهتاجة بعدما حيل بينها وبين ما كانت تتوق

---

(١) معرة: مشقة ومكروه.

(٢) تزيلوا: تفرقوا فتميز المؤمنون من الكافرين.

إليه من قتال هؤلاء الكفار في شعاب مكة.

- التعبير عن داخل مكة ببطن مكة في قوله: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ إشارة للمؤمنين إلى أنهم كانوا بداخل مكة وفي شعابها وتحيط بهم الجبال التي يردف بعضها بعضًا، فلو لم يكف أيديكم عنهم لأصابكم مشقة كبيرة في السيطرة عليهم فيالفضل الله عليكم!! ويعني هذا أن توضع الطبيعة الجغرافية لأرض القتال في الحسبان.

- يشير قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ إلى فضل الله سبحانه عليهم من قبل ومن بعد، ويبدو أن هذا نصر سابق للحديبية، ولعله تأييد الله سبحانه في غزوة الأحزاب؛ وفي هذا تلميح خفيف وتذكير بما كان في الأحزاب، فلولا فضل الله حينئذ، لكان الهلاك المبرم، فلا ينبغي أن ينسى المؤمنون فضل الله عليهم واستمرار تأييده لهم، ولا شك أنهم عندما يذكرون هذا ويذكرون الريح العاصفة التي اقتلعت الأحزاب وأكفت قدورهم وعصفت بخيامهم تشفى صدورهم وتهدأ نفوسهم فيزول ما كان من غيظ ويحل مكانه السكينة فضلاً عن الثقة في الرسول القدوة؛ لأنه لا يصدر في قول أو في فعل إلا عن وحي من الله سبحانه.

لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق

قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [سورة الفتح: ٢٧].

مناسبة الآية:

رأى رسول الله ﷺ قبل خروجه إلى الحديبية كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا رءوسهم وقصروا، فقص الرؤيا على أصحابه ففرحوا واستبشروا، وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم؛ فلما تأخر ذلك، قال عبد الله بن أبي وعبد الله بن نفيل ورفاعة بن الحرث: والله، ما حلقنا ولا قصّرنا ولا رأينا المسجد الحرام، فنزلت الآية.

وقال الواحدى: قال المفسرون: إن الله سبحانه أرى نبيه ﷺ في المدينة قبل أن يخرج للحديبية كأنه هو وأصحابه حلقوا وقصروا، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا

وحسبوا أنهم يدخلون مكة عامهم هذا؛ فلما رجعوا من الحديبية، قال المنافقون: والله، ما حلقنا وما قصَّرنا ولا دخلنا المسجد الحرام، فأنزل الله هذه الآية، وقيل: إن الرؤيا كانت بالحديبية[١].

وبهذا يتبين أن الرؤيا وإن كانت في المدينة قبل الخروج للحديبية إلا أن الآية لم تنزل إلا بعد رجوع رسول الله ﷺ من الحديبية إلى المدينة، وعندما قال بعض المنافقين ما قالوا، وهذا سبب مجيء الحديث عن الرؤيا متأخرًا بعد الحديث عن أحداث الحديبية، فليس المقصود مجرد سرد ما حدث من تلك الرؤيا، وإنما الغرض هو الرد على الذين يلمزون بالرؤيا التي لم تتحقق، ويؤكد على صدق تلك الرؤيا، وصدق رسول الله ﷺ فيما تحدث به، وأن الرؤيا واقعة لا شك فيها بوعد الله الذي لا يخلف الميعاد، وقد ترقب المنافقون ما ترقبوا حتى الفتح في العام التالي ودخل المسلمون المسجد الحرام آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين لا يخافون.

- الفعل (صدق) لا يتعدى بنفسه، فالغالب أن يتعدى بحرف جر، فنقول صدق فلان في رؤياه، وقد يتعدى لمفعول واحد، مثل: صدق محمد القول، ولا يتعدى لمفعولين، لكنه تعدى بنفسه لِمفعولين في الآية، فقال سبحانه: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا﴾.

والوجه في هذا أن الفعل (صدق) ضمن معنى الفعل (أرى) وهو فعل يتعدى إلى مفعولين، فيكون المعنى: لقد أرى الله رسوله الرؤيا بالحق وصدق فيما أراه.

فهنا تضمين دل عليه تعدى الفعل لما لا يتعدى إليه، وسر هذا التضمين تأدية معنى جملتين بجملة واحدة، فالجملة الواحدة هي: (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق)، والمعنى كما سبق: لقد أرى الله رسوله الرؤيا بالحق، وصدق فيما أراه.

وهذا الملمح يفك الإشكال في قوله: (بالحق) بعد قوله: (صدق)، فقد ذهب المفسرون إلى أن المراد صدق صدقًا متلبسًا بالحق، على أن (بالحق) صفة لمصدر مؤكد مقدر، ولا حاجة في الحقيقة إلى هذا التقدير سوى أنه محاولة لتوجيه شبه

(١) فتح القدير ٢/٨٤٩ .

الجملة (بالحق)؛ لأنه في معنى صدق، كأنهم يسعون للتقدير لتحاشي ما يبدو في الظاهر أنه تكرار. ومنهم من قال: إنها حال من الرؤية، أي: صدق الله رسوله الرؤيا حالة كونها ملتبسة بالحق؛ أي: ليست أضغاث أحلام، وهو تقدير لا يخلو من تكلف ولا حاجة إليه؛ لأن كون الرؤيا صادقة من الله يغني عن قوله بالحق على تفسيرها بأنها صفة أو حال.

لكن تضمين الفعل (صدق) معنى آخر هو (أرى) يحل إشكالين: **الأول**: إشكال التعدية. **الثاني**: إشكال قوله: (بالحق)؛ لأن المعنى كما سبق لقد أرى الله رسوله الرؤيا بالحق، وصدق فيما أراه. ومعنى الجملة الأولى أن الرؤيا من الله سبحانه، وليست باطلة. ومعنى الجملة الثانية أنها ستتحقق بفتح مكة، وقد عبر بالماضي (صدق) لتحقق الوقوع.

- في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ هاتان الجملتان في حكم جملة واحدة؛ لأن الثانية (لتدخلن...) بمنزلة التوكيد المعنوي للأولى. ومع هذا فقد احتشدت عليها ست مؤكدات هي على الترتيب:

١- القسم المقدر الذي تدل اللام عليه في قوله: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ﴾ والقسم أقوى وسائل التأكيد على الرغم من تقديره هنا، وإنما قدر للتعجيل بما هو بشرى للمؤمنين وكمد وغم للمنافقين.

٢، ٣-(قد) لدخولها على الفعل الماضي، ثم الماضي نفسه.

٤- إعادة القسم في قوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾، فمعناه: والله لتدخلن.

٥- التوكيد المعنوي بهذه الجملة: (لتدخلن المسجد الحرام)؛ لأنها في معنى (صدق الله رسوله الرؤيا)؛ لهذا ترك العطف بين الجملتين؛ لأن ما بينهما من صلة معنوية قوية حققت الربط، وأغنت عن الرابط الظاهر.

٦- نون التوكيد التي اقترنت بالمضارع (لتدخلن).

وقد احتشدت كل هذه الوسائل المؤكدة لحاجة المقام إليها؛ لأن المقام مقام تبشير بما كانت تتوق النفوس إليه، فهي في حاجة إلى ما يطمئنها ويفرحها ويسرها، ثم إن هذه الوسائل المؤكدة كالسهام المصوبة إلى أفئدة هؤلاء المنافقين الذين كانوا

يقولون بعد العودة من صلح الحديبية: عدنا وما دخلنا المسجد الحرام ولا حلقنا ولا قصَّرنا.

– سر تعليق الأمر اليقيني المؤكد بالمشيئة في قوله: (إن شاء الله) لتعليم العباد أن يعلقوا كل أمورهم على مشيئة الله تعالى. قال ثعلب: إن الله استثنى فيما يعلم ليستثنى الخلق فيما لا يعلمون[1]. وقيل: معنى إن شاء الله: كما شاء الله، أو إذا شاء الله، وهذا تحميل للحرف (إن) ما لا يحتمل، والأولى ما ذهب إليه ثعلب.

– في قوله: ﴿ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ الأمن يتضمن عدم الخوف، لكنه مع ذلك قال: (لا تخافون) بمنزلة التوكيد المعنوي الذي ينزع من نفوسهم كل آثار الحديبية وما وقع فيها من مناوشات ومنازعات، فهو يشير إلى حكمة تأجيل الفتح حتى يكون دخول المؤمنين مكة باتفاق مسبق؛ فلا يكون هناك اعتراض أو نزاع.

وقد ذهب بعض المفسرين إلى تفسير جملة (لا تخافون) تفسيرًا آخر بحيث تفيد جديدًا ولا تكون تأكيدًا، فقال: المعنى لا تخافون بعد ذلك، قاله أبو السعود؛ وقال: إنها على ذلك تكون استئنافًا، ولا مانع - فيما يبدو - من الأخذ بالاعتبارين، فتكون للجملة وظيفتان: التوكيد، وإفادة الجديد، وهذه خصوصية في النظم القرآني.

– قوله: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ إشارة إلى ضرورة تفويض الأمر لله، وأن يكون للمسلمين مرجعية يأخذون عنها دون تحفظ بحكم القدوة والأسوة، لا سيما وأن القدوة والأسوة هنا تتجسد في النبوة والرسالة. ثم إن من يتأمل هذه الجملة يجد فيها تطييبًا للخواطر ببيان علة تأجيل الفتح ليكون سِلْمًا يتحقق فيه الأمن الكامل الذي لا أثر فيه لأي خوف.

وزيادة في تطييب تلك الخواطر حتى تسعد القلوب قال سبحانه: ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو فتح خيبر الذي تناولته آية أخرى كما سبق.

---

(١) فتح القدير ٢/ ٨٤٩ .

أدب الحديث مع النبي:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [سورة الحجرات ١ : ٢].

سبب النزول:

أخرج البخاري وغيره عن عبد الله بن الزبير أن الآية الأولى نزلت في أبي بكر وعمر عندما قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر: أَمِّر القعقاع بن معبد. وقال عمر: بل أَمِّر الأقرع بن حابس. فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي؟ فقال عمر: ما أردت خلافك. فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما؛ فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[1].

أما الآية الثانية، فقيل: إنها نزلت فيها أيضًا؛ لارتفاع الأصوات في حضرة النبي ﷺ، وقيل: إنها نزلت في ثابت بن قيس[2].

خصوصيات النظم:

- البداية بنداء الذين آمنوا للتنبيه إلى أمر مهم مع تنشيط السامعين لتلقيه بالقبول بموجب الإيمان، ثم إن هذا يشير إلى أن ما يحدث من تجاوز أحيانًا لا يؤثر على صفة الإيمان؛ وإنما هي الطبيعة البشرية.

- النهي عن التقدم بين يدي رسول الله يعني النهي عن سبقه عند الفصل في الأمور، فشبه الأمر المعنوي بالأمر الحسي، حيث يصور حالة الذي يسبق رسول الله عند الحديث للفصل في الأمور بصورة منفرة مكروهة غير لائقة؛ وهي صورة من يتقدم بين يديه فيسبقه، كأنه يستغل أضيق مساحة لينفذ من الخلف إلى الأمام، ولا يكون هذا إلا ممن يضع نفسه في مرتبة فوق مرتبة رسول الله ﷺ.

- الأمر بالتقوى في هذا السياق يشعر بأن توقير رسول الله وانتظاره وعدم سبقه في الكلام من تقوى الله، وهذا يشير إلى سر ذكر لفظ الجلالة في قوله: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟

(١) الصحيح المسند ٢٣٠ .

(٢) فتح القدير ٢/ ٨٤٥ .

﴿بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، هو الإشعار بأن توقير رسول الله من تقوى الله سبحانه، فإن تقوى الله تنعكس على موقف الشخص من رسول الله طاعة وتوقيرًا واحترامًا.

- وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ لم يجمع بين النهيين في قرن واحد، فلم يقل: يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله، ولا ترفعوا أصواتكم فوق صوته؛ لأن النهي الأول يتعلق بما يصدر من رسول الله ﷺ من توجيهات تدخل في باب الأحكام والفصل، فالقطع فيها للرسول ﷺ ولا يجوز لأحد من صحابته أن يسبقه في الكلام، ولهذا عبر بصفة الرسول التي تتعلق في هذا السياق بالتبليغ ليناسب التشريع والفصل في الأمور: (لا تقدموا بين يدي الله ورسوله).

أما النهي الثاني، فيتعلق بالنبوة، وما ينبغي من توقير واحتشام في مجلس نبي الله، فلا يعلو صوت فوق صوته؛ أي: لا يزيد عن مستوى حديثه ومقدار ما يبلغه صوت نبي الله ﷺ؛ ولهذا عبر هنا بوصف النبي (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي).

والله يسمع تحاوركما

قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

سبب النزول:

أخرج أحمد في مسنده عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾(١).

وأخرج ابن ماجه وابن أبي حاتم والبيهقي وغيرهم عن عائشة قالت: تبارك الله الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى علي بعضه

(١) الصحيح المسند ٢٣٧ .

وهي تشتكي زوجها[1] إلى رسول الله ﷺ وهي تقول: يا رسول الله، أكل شبابي ونثرت له بطني؛ حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني. اللهم، إني أشكو إليك!! قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات...[2].

وفي رواية أن رسول الله ﷺ أجابها بقوله: **«ما أراك إلا قد حرمت عليه»**، ويقوي هذا ما ورد بنص القرآن من المجادلة.

بين المقام والنظم:

ذكر الله سبحانه ما كان من تلك المرأة والجواب عليها في هذه السورة دون غيرها؛ لأن حاصل القصة هو سعة علم الله سبحانه، واطلاعه على ما كان، وإجابته شكوى هذه المرأة حتى استعظمت عائشة هذا كما ورد في قولها: الحمد لله الذي وسع سمعه كل شيء، وهذا يناسب ما ورد في السورة، ويدل على علم الله سبحانه بما هو أخفى قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة المجادلة: ٧].

بل إن الله يعلم بما يدور في النفوس ولو لم تنطق به الألسنة، قال تعالى في الآية التالية: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [سورة المجادلة: ٨].

وبهذا تتناسب بداية سورة المجادلة مع جوّ السورة فيلتقيان في الدلالة على أن الله بكل شيء عليم.

خصوصيات النظم:

- ظاهر قوله: ﴿قَدْ سَمِعَ﴾ وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ التكرار، ولكن لا تكرار في الحقيقة؛ لأن الأول كناية عن العلم وما يترتب عليه من الإجابة على شكواها، لكن قوله الثاني: (والله يسمع تحاوركما) على حقيقته، فالمعنى قد علم الله وأجاب شكوى التي تجادلك في زوجها؛ لأنه سبحانه كان يسمع تحاوركما.

---

(١) هو أوس بن الصامت أخو عبادة.

(٢) فتح القدير ٢/ ٩٧٥.

- تقديم لفظ الجلالة في (والله يسمع تحاوركما) يفيد اختصاص الله سبحانه بسماع هذا الحوار، وهذا يتجاوب مع ما ورد في سبب النزول من أن عائشة لم تسمع ما دار، ثم لما وجدت وحيًا نزل به استعظمت اتساع سمع الله وعلمه.

وليس المقصود ضم هذه الجملة إلى ما سبقت (قد سمع) في إفادة أن المرأة تجادل حال شكواها وحال استماع الله إليها، لكن المراد أن الله سبحانه علم شكواها وأجابها؛ لأنه وحده الذي كان يسمع التحاور(١).

- عبر بالجدال أولاً في (تجادلك) وبالحوار ثانيًا في (تحاوركما)؛ لأن الجدال أشد وأحد من الحوار، فلما كانت المرأة تراجع وتلح في المراجعة بما يشبه الخصومة، عبر في جانبها بالجدال، ولما كان رسول الله ﷺ يجيبها برفق ولا يزيد عن قوله: **«حرمت عليه» أو «لا أعلم إلا أنك قد حرمت عليه»**، عبر في جانبه بالحوار، ثم غُلِّبَت طريقة رسول الله ﷺ على طريقتها عند إسناد الحوار إلى المثنى (والله يسمع تحاوركما).

- يتجاوب تقديم لفظ الجلالة في قوله: (والله يسمع. . .) مع التأكيد في صدر الآية (قد سمع) والتأكيد في فاصلتها (إن الله سميع. .) فضلاً عن دلالة صيغة المبالغة (سميع). أما الصيغة (بصير)، فدالة على إحاطة الله سبحانه بذلك المشهد العجيب، مع تعميم كمال سمعه وبصره لكل شيء، وهذه شأن الفواصل إذ تأتي لتقرر معنى ما سبقها وتضيف إلى هذا معنى الشمول والعموم الذي يتناسب مع أسماء الله الحسنى وصفاته، فضلاً عما يترتب على حذف المتعلق من توافق الفواصل وحسن الأداء الصوتي.

خروج بني النضير لأول الحشر

قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ [سورة الحشر ١: ٢].

---

(١) أي: أن عد جملة (والله يسمع تحاوركما) استئنافًا معللًا أنسب للمعنى من عدّه حالًا

سبب النزول:

أخرج الحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل عن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت غزوة بني النضير - وهم طائفة من اليهود - على رأس ستة أشهر من وقعة بدر، وكان منزلهم ونخلهم بناحية المدينة، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من الأمتعة والأموال إلا الحلقة - يعني السلاح -» فأنزل الله فيهم ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟﴾، فأجلاهم الله سبحانه إلى الشام، وكان من سبط لم يصبهم جلاء فيما خلا[1].

بين المقام والنظم:

لا تبدأ سورة بالتسبيح إلا إذا كان محتواها يدعو إلى معنى التسبيح وهو التمجيد والتنزيه، وإسناد هذا التسبيح إلى الكون كله (ما في السماوات وما في الأرض) يدل على أن كل ما خلق الله يخشع لله ويسبح (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) وقد قالوا: إن تسبيح العقلاء من إنس وجن وملائكة بلسان المقال، وتسبيح الكائنات الأخرى بلسان الحال؛ أي: بدلالته على الصانع سبحانه، واعترض على هذا بأن تلك الكائنات من أرض وجبال وأشجار وبحار وأنهار وشمس وقمر وكواكب تسبح بلسان المقال أيضًا وإن كنا لا نفقه تسبيحهم كما قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [سورة الإسراء: ٤٤] واستدل الزجاج على هذا بقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سورة الأنبياء: ٧٩]؛ فلو كان التسبيح من الجبال تسبيح دلالة، لما كانت خصوصية، ولما كان تخصيص داود بها فائدة[2].

وكل آية تبدأ بالفعل يسبح أو سبح تنتهي بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾؛ لأنه لا يستحق التنزيه والتمجيد من كل المخلوقات إلا (عزيز) غالب (حكيم) يضع الشيء في موضعه بحكمة وتقدير.

(١) الصحيح المسند ٢٤٠ وفتح القدير ٢/ ٩٩٠ .

(٢) راجع فتح القدير ٢/ ٩٥٨ .

- ومما يناسب العزة والغلبة قوله عقبه: (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم)؛ فلولا عزته وغلبته، لما خرجوا، فهو وحده[1] الذي أخرج يهود بني النضير من حصونهم المنيعة، وإنما أفرد ذلك له سبحانه، وخص به نفسه في مقام الامتنان على رسوله والمؤمنين حتى لا ينسى أحد فضل الله وغلبته، وحتى لا تلهيهم نشوة الانتصار عن تسبيح الله وتمجيده وتحميده ويؤكد فضل الله على رسوله والمؤمنين بقوله: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟﴾.

- ذكر الجار والمجرور (من ديارهم) مع أنه لو ترك لما أثر على أصل المعنى وهو الإخراج؛ لأنهم لم يكونوا إلا في ديارهم، وذلك للإشارة إلى ما كانت عليه تلك الديار من منعة وتحصين، وكان من الصعب انتزاعهم منها لولا فضل الله تعالى، حتى أنهم لم يرحلوا عنها من قبل، وكان هذا أول خروج لهم: (لأول الحشر) قال الكلبي: كانوا أول من أُجلي من أهل الذمة من جزيرة العرب [أما بنو قريظة قبلهم، فقد قتلوا] ثم أُجلي آخرهم في أيام عمر بن الخطاب.

وبهذا نجد الأضواء الدالة على فضل الله ساطعة تشع بها تلك الأدوات المتعددة ابتداءً بتقديم الضمير (هو) على الاسم الموصول والفعل، وقوله: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ فلم يسبق لهم خروج منها، فكان انتزاعهم منها صعبًا لولا فضل الله، وقوله: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟﴾ تذكير للمؤمنين بأنهم لو ترك الأمر لهم ولإمكاناتهم لما استطاعوا أن يخرجوهم.

ثم تلفتنا صياغة قوله: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فقد توخى في ترتيب الكلمات والضمائر ترتيبًا خاصًا يعكس الملابسات النفسية الدقيقة التي باشرت ذلك الإخراج، وقارن إن شئت بين ما جاءت عليه الآية وبين قولنا: وظنوا أن حصونهم مانعة لهم من الله، تجد أن نظم الجملة القرآنية يفيد ثقة اليهود الشديدة في منعة حصونهم، وأن المسلمين لن يفلحوا في اقتحامها، إن تقديم ضميرهم ليتصل بـ«أن» يشير إلى أخذهم كل ضروب الحذر والاحتياط والمنعة، ثم إنه لم يقل: وظنوا أنهم تمنعهم حصونهم؛ لأن المضارع يفيد المنعة والتحصن وقتًا بعد

(١) هذا الاختصاص مفهوم من تقديم ضمير رب العزة على الفعل (أخرج).

وقت، وهم في الحقيقة إنما كانوا يشعرون بحاجتهم إلى الحماية والتحصن في كل لحظة، فعبر بالاسم (مانعتهم) ليدل على استمرار تخفيهم واستمرار تأهبهم وتحصنهم، بل واستمرار اعتقادهم بمنعة حصونهم، ثم إن ختم ثلاث كلمات بالضمير (هم) في (أنهم مانعتهم حصونهم) يعطي توازنًا صوتيًا أو ضربات صوتية متفقة تنتهي بمقطع مقفول بما يشعر بشدة الاستحكام، ولذلك فالأنسب أن يكون الظن هنا بمعنى اليقين، ولكن عبر بالظن للإشارة إلى أنهم على الرغم من كل وسائل الحيطة والمنعة فإنهم في دواخلهم ما يزالون يشعرون بالقلق.

ذمن أجل هذا قال: (وظنوا) ولم يقل: تيقنوا؛ لأنهم رجحوا أنهم في منعة ولم يقطعوا بذلك في دواخلهم، وهذا يتفق مع طبائع اليهود الذين يأخذون بأقصى درجات الحذر، ثم لا يهدأون ولا يوقنون في الأمان لتوجس دائم في نفوسهم، وكان هذا من أسباب الضعف والخوف الذي تسلل إلى نفوسهم والتقى هذا بالرعب الذي قذفه الله في قلوبهم: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾.

حريق النخيل وقطعه

قال تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [سورة الحشر: ٥].

سبب النزول:

جاء في صحيح البخاري وصحيح مسلم وغيرهما عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ حرق نخيل بني النضير وقطع؛ فأنزل الله سبحانه: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا﴾ الآية[١].

وأخرج الترمذي وحسنه والنسائي عن ابن عباس قال: اللينة: النخلة (وليخزي الفاسقين) قال: استنزلوهم من حصونهم وأُمروا بقطع النخيل، فحكّ في صدورهم، فقال المسلمون: قد قطعنا بعضًا وتركنا بعضًا، فلنسألن رسول الله ﷺ هل لنا فيما قطعنا من أجر؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر؟ فأنزل الله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا﴾ الاية.

---

(١) الصحيح المسند ٢٤١ .

بين تلك الروايات ونظم الآية:

لا تعارض بين إسناد القطع أو الحرق في الرواية الأولى إلى رسول الله ﷺ وبين إسناده في الثانية إلى الصحابة؛ لأن الفعل قد يسند إلى الآمر به وإن لم يفعله بنفسه كما هو معروف في التجوز الإسنادي، على أن الرواية الثانية كالتفصيل للأولى؛ ومهما يكن من أمر، فإن رسول الله ﷺ لم يأمر بالقطع أو الإحراق من أجل الإفساد، ولكن بإذن الله ليقع الرعب في قلوب اليهود حتى يشعروا بالخزي في مقابل ما كانوا يشعرون به من تميز وتكبر على خلق الله وغدر للعهود، وعند الشعور بالخزي يفكرون في الرحيل فتسهل مهمة الرسول والمؤمنين، فلقد كان ذلك القطع وسيلة مقدرة ليتحقق قوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾. على أن المقطوع والمحروق لم يكن كثيرًا ولم يتجاوز ست نخلات كما نقل عن قتادة والضحاك[١] ولو أن المقصود هو إشاعة الفساد لما تركوا شيئًا من النخيل.

خصوصيات النظم:

- قوله ﴿مَا قَطَعْتُم﴾ - بمعنى أي شيء قطعتم من النخيل - لا يتعارض مع ما ورد في أسباب النزول من الإحراق لجواز أن يكون القطع أولاً ثم يحرق ما يقطع.

- لم يكتف بقوله ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا﴾ لأن لقوله: ﴿قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ فائدة مهمة هي الإشارة إلى أن قيام النخلة على أصلها وجذعها لا يعني بقاء الحياة فيها، لأنها تتوقف حياتها ويتم إتلافها عندما تقطع من رأسها، فالنخلة تختص بهذا عن سائر الشجر والنباتات.

والمعنى: ما قطعتم من لينة من أصلها وجذعها أو قطعتموها من رأسها وتركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله، وبهذا فلا حاجة في تفسير الآية لما أخرجه الترمذي والنسائي عن ابن عباس، والتي ورد فيها أن المسلمين قالوا: قد قطعنا بعضًا وتركنا بعضًا فلنسألن رسول الله ﷺ هل لنا فيما قطعنا أجر، وهل علينا فيما تركنا وزر؟ لأن ذاك التفسير لا يتفق مع الرواية.

---

(١) فتح القدير ٢/٩٨٨ .

وبغض النظر عن صحة تلك الرواية أو عدم صحتها فإنه كان هناك ظن بانسجامها مع الآية على أساس أن المعنى فيها كما ذهب المفسرون ما قطعتم من لينة أو تركتموها من غير قطع أصلًا «من غير أن تتعرضوا لها بشيء ما»[١].

ولكن بدا - والله أعلم - أن المقصود غير هذا وأنهم ما أوردوا هذا التفسير إلا ليتفق مع رواية ابن عباس أخذًا بظاهر الآية.

أما المقصود الحقيقي، فهو ما قطعتم من لينة من جذعها وأصلها أو قطعتموها من رأسها وتركتموها من أصلها فهذا أو ذاك بإذن الله، والنتيجة واحدة وهي الإتلاف في الحالتين[٢] وهذا هو المنطقي؛ لأن القضية أوالسؤال ينبغي أن يتعلق بالإتلاف لا الترك، وهذا ينسجم مع رواية البخاري التي لم يرد فيها غير ذكر الحرق والقطع. والله أعلم.

- قوله سبحانه: ﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ تعليل لما قبله؛ أي: ما فعلتم كان بإذن الله ليخزي الفاسقين. فما سر مجيء الواو هنا.

يبدو أنها للإشارة إلى أن هذا التقدير إلهي، وهذا الإذن المفهوم من قوله: ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ هو في ذاته تعليل للقطع؛ أي: ما قطعتموه ليس إفسادًا لأنه بإذن الله، وهذا يرفع الحرج عن رسول الله ﷺ وعن المسلمين، ويكون قوله: (وليخزي الفاسقين) من عطف علة على علة.

- المقصود بالفاسقين هم يهود بني النضير، لكنه عمم للتعريض بهم ولتجنب ذكرهم بوصف أو اسم، وليخرج الكلام مخرج الحكمة والمثل لتحذير كل الفاسقين. والله أعلم.

ويؤثرون على أنفسهم

قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة الحشر: ٩].

---

(١) إرشاد العقل السليم ٥/ ١٥٠ .

(٢) ولا شك أن قطع النخلة من رأسها يؤدي إلى إتلافها، وهذا أنكى وأكثر إيلامًا؛ لأن بقاءها قائمة على أصلها وهي تالفة يكون علمًا شاخصًا يدخل الرعب في قلوبهم .

سبب النزول:

ورد في البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ فبعث إلى نسائه، فقلن: ما معنا إلا الماء، فقال عليه الصلاة والسلام: «**من يضيف هذا؟**» فقال رجل من الأنصار: أنا، فانطلق به إلى امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ، فقال: «**ضحك الله الليلة أو عجب من فعالكما**»، فأنزل الله[1]: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

بين نظم الآية ومناسبتها:

من يراجع سورة الممتحنة يجد هذه الآية قد وردت في سياق الثناء على الأنصار ومدحهم بالكرم والسماحة والإيثار، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [سورة الحشر: ٩].

لكن كثيرًا من العلماء ولا سيما الذين كتبوا في أسباب النزول ذكروا الآية محددة بسبب أخص وبشخص واحد كما ورد في البخاري عن أبي هريرة، مع أن النظم الذي جاءت عليه الآية لا يساعد على تخصيص سبب نزولها بهذه القصة وبهذا الرجل الأنصاري، فقد قال سبحانه: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ فقد جاء الضمير مجموعًا ثلاث مرات، وهذا لا يعني إنكار القصة من أساسها، فربما وقعت كما ذكرها البخاري، لكن لا ينبغي عدها وحدها سببًا لنزول الآية، فربما تزامنت مع مواقف الأنصار الرائعة مع إخوانهم المهاجرين، فاجتمعت الأسباب أو المواقف التي تلتقي في معنى واحد هو الإيثار، فنزلت الآية بشأن هذه المواقف جميعها.

ويؤيده أمران:

الأول: أن الآية صدرت بالذين تبوَّءوا الدار والإيمان وهم عموم الأنصار،

الثاني: أن الجزء من الآية الذي ورد في سبب النزول أسند فيه الفعل إلى ضمير الجمع، وظهر الضمير مجموعًا في (أنفسهم) و (بهم). ثم إن هذا الفعل معطوف

---

(١) الصحيح المسند ٢٤٢ .

على ما قبله ومضموم إليه وداخل في الحكم على الذين تبوءوا الدار والإيمان وهم الأنصار، وهذا ما يقطع بنزول الآية فيهم جميعًا.

ولعل الذي دعا أبا هريرة إلى رواية ما رواه من نزول هذه الآية في ذلك الرجل الأنصاري أن الرسول ﷺ استعادها بعد مدة من نزولها فأعاد ترديدها على سبيل الثناء والتمدح لفعل ذلك الرجل، فربما ظنها أبو هريرة مخصوصة به فروى ما ورد عنه على هذا الأساس.

لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ صدر سورة الممتحنة.

سبب النزول:

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن علي بن أبي طالب قال: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد، فقال: «**انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها فأتوني به**»، فخرجنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، فقلنا: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب. فقلنا: أخرجي الكتاب. قالت: ما معي كتاب. فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لنلقينّ الثياب، فأخرجته من عقاصها، فأتينا به النبي ﷺ فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر النبي ﷺ، فقال عليه الصلاة والسلام: «**ما هذا يا حاطب؟**» قال: لا تعجل علي يا رسول الله، إني كنت ملصقًا في قريش ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أصطنع إليهم يدًا يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفرًا ولا ارتدادًا عن ديني، فقال النبي ﷺ «**صدق**»، فقال عمر: دعني أضرب عنقه. فقال عليه الصلاة والسلام: «**إنه شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»، ونزلت الآية.

خصوصيات النظم:

- النداء في قوله: (يا أيها الذين آمنوا) وما فيه من تهيئة وإيقاظ، ثم كون المنادى هم الذين آمنوا يشعر بأهمية ما ينادى من أجله، وأنه تكليف من الله للناس بموجب إيمانهم يستلزم الإذعان والامتثال.

ثم إن كون النداء للمؤمنين الذين يدخل فيهم حاطب بن أبي بلتعة دليل على أن فعله ما فعل لم يخرجه عن الإيمان، وهذا ينسجم مع قبول رسول الله ﷺ عذره وقوله: صدق، لكن هذا لا يمنع من عده مذنبًا؛ ولهذا قال ﷺ: **«لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»** والآية الكريمة تنطلق من هذا فلا تكذبه فيما قال في اعتذاره بل تصدقه؛ لأن مضمون كلامه أنه يتودد إلى المشركين، وهو ما صدقه القرآن لكنه نهى عنه؛ لأن المشركين أعداء، يقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ...﴾.

- وفي هذا الموقف أمران يدلان على نبوة محمد ﷺ لمن اعتبر من الكافرين.

الأول: أنه أنبأ بما لا علم لأحد به من قومه عن الظعينة وحدد مكانها، وذكر ما معها من كتاب، فمن أخبره بهذا السر ومن حدد له مكان الظعينة سوى أن الله سبحانه يوحي إليه، لأنه نبي، فهلا فكر في هذا الجاحدون.

الثاني: أنه تلقى اعتذار حاطب بهدوء الواثق من صدقه على الرغم من خطورة ما فعل؛ لأنه من إفشاء أسرار المسلمين لأعدائهم، فمن أطلعه على صدق حاطب في اعتذاره سوى أن يكون الله سبحانه قد أوحى إليه بهذا.

ومن خصوصيات النظم:

جاء النهي في نظم موجز دقيق؛ إذ ضمن النهي سببه بتعدي الفعل إلى العداوة إذ قال: (لا تتخذوا عدوي وعدوكم) ولم يقل مثلًا: لا تتخذوا الكفار أولياء لأنهم عدوي وعدوكم، فقد عبر عن الكفار ابتداء بالكناية المعللة للنهي، والكناية بالعداوة للإشارة إلى أن تلك العداوة سبب كافٍ للانصراف عنهم لا للتودد إليهم، وفيه تفظيع هذا العمل الذي يعد توددًا للأعداء.

- جملة استعمالات الولي والأولياء في القرآن تدل على أن الولي هو السيد،

ووليك هو من يلي أمرك ويناصرك ويعينك، ووليك هو محبك وناصرك، فاتخاذهم أولياء يعني اتخاذهم قادة وسادة وأحباء مع ما يستلزمه هذا من التودد والتلطف والتعطف، ولا يفعل هذا مسلم يشعر بعزة دينه؛ لأن شأن المؤمنين أن يكونوا (أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين).

- هناك صلة حميمة بين النهي في ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ وبين ما يليه في (تلقون إليهم بالمودة)، فالجملة الأولى تؤدي إلى الاستشراف والتساؤل عن كيفية تلك الولاية ومتى اتخذ المؤمنون الأعداء أولياء، فتأتي الجملة الثانية بمنزلة الجواب على هذا السؤال (تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق).

- ذهب المفسرون إلى أن قوله: (تلقون إليهم بالمودة) بمعنى: تلقون إليهم بأسباب المودة، وذلك على تقدير مضاف محذوف، وعدم التقدير أولى وأوقع؛ لأنه يصور المودة تلقى إليهم من بعيد، وهذا ينسجم تمامًا مع ما حدث من حاطب، فهو لم يذهب إليهم ولكنه كان يسعى لإلقاء المودة إليهم وكأنه يطرحها لهم من بعيد، فالصورة هنا استعارية تجسد المودة، وهي تبلغ قمة الاستجابة لطبيعة الحدث وماهية المعنى.

- إن هذا التوافق والتلاؤم بين نظم الآية ومناسبتها يدل على أن آيات سورة الممتحنة هي التي نزلت في حاطب دون غيرها، ولم يقل أحد إن غيرها نزل فيه، ولكن من يقرأ آخر سورة المجادلة يجد قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [سورة المجادلة: ٢٣]، فهذا لا يبعد عن المعنى الذي جاءت بصدده آية الممتحنة لكن نظم آية الممتحنة هو الأقرب إلى ذلك السبب كما سبق.

على أن آية المجادلة أعنف وأشد؛ لأن فيها تعريضًا بنفي الإيمان عمن يصانع الكفار ويوادهم[١] ولم تعرّض آية الممتحنة بهذا، وإن كانت تتضمن عتابًا قاسيًا في

---

(١) وهذا واضح من ابتداء الآية بالنفي ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ .

ضمن النهي عن اتخاذهم أولياء، وقد أخرج ابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي في سننه عن عبد الله بن شوذب أن آية المجادلة نزلت في أبي عبيدة بن الجراح؛ تغاضى عن والده يوم بدر فلما رأى من والده إصرارًا على التصدي] له قصده فقتله(١).

فلما كانت آية المجادلة فيمن لا يواد أباه الكافر ويقتله لتصديه له نزلت بهذا النظم القوي الذي ينفي الإيمان عمن يواد الكافرين، ويقول فيمن لا يوادهم ولا يصانعهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ الآية.

أما آية الممتحنة، فلما كانت فيمن همَّ بالمودة من بعيد، وأفسد الله عليه خطته، وكان يدفعه لتلك المودة عذر ما ولم يخرجه هذا عن إيمانه؛ لهذا اكتفي بالنهي والعتاب واللوم والتحذير من المعاودة مع العودة إلى تطييب الخواطر وطلب الصبر والترقب ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [سورة الممتحنة: ٧] ولعل المقصود هنا من آمن من المشركين يوم فتح مكة، أو من كان مسالمًا ولم يتعرض للمؤمنين بأذى.

- تتابعت الجمل الحالية في قوله تعالى: ﴿تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ﴾ وتتابع هذه الجمل يشير إلى انضمامها وارتباطها أشد الارتباط بالجملة الأولى منها (تلقون إليهم بالمودة)، بما يشير إلى أن العَجَب والعَتْب ليس لمجرد إلقاء المودة إليهم، ولكن مع كفرهم بالحق وتطاولهم وتضييقهم وتآمرهم على رسول الله ﷺ حتى يخرجوكم من دياركم لأنكم آمنتم بالله ربكم. ثم إن لتتابع هذه الأحوال مغزًى آخر هو الإشارة إلى أن طرح المودة مع هؤلاء يتجدد منكم حينًا بعد حين في الوقت الذي هم فيه لا يكفون عن التضييق على المسلمين، وهذا ما ينبئ عنه التعبير بالفعل المضارع، (تلقون و. . .يخرجون) فربما كانت هناك محاولات من التواد من حاطب ومن كان على شاكلته، ولكن شاء الله ألا تظهر إلا محاولة حاطب لتضع حدًا لتلك المحاولات. والله أعلم.

---

(١) راجع فتح القدير ٢/ ٩٨٥ .

- جواب الشرط محذوف في قوله: (إن كنتم خرجتم جهادًا في سبيلي وابتغاء مرضاتي) والتقدير فلا توادوهم، وفي هذا الأسلوب تودد وتلطف؛ إذ يناشدهم القرآن بما يعلم الله من خروجهم في بدر[1] جهادًا في سبيله وابتغاء مرضاته أن يكفوا عن تلك المودة، ومن أجل ذلك التلطف حذف الجواب حتى لا يتكرر النهي عن مودة الكفار ظاهرًا في اللفظ اكتفاء بالنص عليه من قبل.

- في قوله: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ﴾ هو في معنى تلقون إليهم بالمودة، سوى أنه زاد هنا الكشف عن الطريقة التي تعامل بها حاطب وهي السرية، ثم إن اللوم هنا لا يقتصر على تلك المودة، وإنما يتناول شيئًا آخر وهو عدم تقدير أن الله مطلع على الأسرار، ولهذا أتبعه بقوله: (وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم) وتقديم ضمير رب العزة سبحانه (أنا) على الفعل يدل على اختصاص الله سبحانه بهذا، وفيه إشارة إلى أن رسول الله ﷺ لم يعرف ما عرف من نفسه، وإنما أطلعه علام الغيوب عليه.

- لما قال سبحانه من قبل: (عدوي وعدوكم) إجمالاً عاد إليها بالتفصيل مبينًا حيثية عداوتهم لله (كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم)؛ أي: بسبب إيمانكم.

ثم فسر حيثية عداوتهم لهم بقوله: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ﴾.

وبسط الأيدي مألوف، لكن العجب كل العجب في بسط الألسنة بالسوء، فهو يصور الألسنة تصويرًا غريبًا وهي ممتدة مبسوطة بالسوء والبذاءة، وهذا يعكس المبالغة في السب والتمادي في الشتم والنيل بما يعكس الحقد الشديد والكراهية العمياء (عدوي وعدوكم).

وتركوك قائمًا

قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ

---

(١) وبهذا تلتقي الآية مع ما ورد في سبب النزول من قول الرسول ﷺ: **«لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»**.

﴿مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سورة الجمعة: ١١].

سبب النزول:

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن جابر بن عبد الله بينما النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة قائمًا إذ قدمت المدينة عير فابتدرها أصحاب رسول الله ﷺ حتى لم يبق منهم إلا اثنا عشر رجلًا أنا فيهم وأبو بكر وعمر، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ الآية(١).

ويفهم من رواية أخرى لابن عباس أن هذه العير كانت لعبد الرحمن بن عوف، وأنها كانت تحمل طعامًا، وأن بعضهم خرج للشراء وتركوا رسول الله ﷺ على المنبر حتى لم يبق في المسجد إلا اثنا عشر رجلًا وسبع نسوة، فقال عليه الصلاة والسلام: **«لو خرجوا جميعا لاضطرم المسجد عليهم نارًا»**(٢).

موقع الآية:

جاءت آية الجمعة بعد الحديث عن اليهود الذين كان يزعمون تميزهم عن الناس جميعًا بقربهم من الله فرد الله عليهم هذا الزعم بدليل حبهم الدنيا وكرههم الموت، فلعل ترك المسجد والرسول قائم إلى الشراء من حب الدنيا وهو شيء يحذر الله منه.

والقرآن يجري هنا على منهجه العام في تطويع ما ينزل في سبب خاص ليكون في سياق يجعل المعنى عامًا لكل المسلمين، فتبدأ الآية بنداء كل المؤمنين للسعي إلى صلاة الجمعة وترك البيع عند سماع النداء، والمقصود ترك كل شيء، وخص البيع لما فيه من إغراء، فالقدرة على ترك البيع عند النداء يجعل القدرة على غيره أيسر.

خصوصيات النظم:

- وقوع هذه الآية ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ بعد ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ يدعو

(١) راجع الصحيح المسند ٢٤٨ .

(٢) راجع فتح القدير ٢/ ١٠٢٠ .

إلى التعجب من أمرهم وإيمانهم، ويشير إلى أنه تصرف لا يليق بمؤمن، يفهم هذا من وقوع (وإذا رأوا تجارة..) بعد نداء المؤمنين أن يسعوا لذكر الله ويذروا البيع، ففيه إشارة إلى أن من فعل هذا ينبغي أن يصحح إيمانه وأن لا يعود.

- في قوله: (انفضوا إليها) جعل الضمير عائدًا للتجارة، ولم يقل: انفضوا إليه بعودة الضمير إلى اللهو، يشير إلى أنه لم يكن هناك لهو حقيقي كما حاول بعض المفسرين أن يذكروه بمناسبة الآية، فقد أخرج الطبراني عن جابر بن عبد الله قال: كان الجواري إذا نكحوا يمرون بالمزامير ويتركون النبي ﷺ قائمًا على المنبر وينفضون، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ الآية[1].

فالظاهر - والله أعلم - أن اللهو هنا لا يراد به اللهو الحقيقي من مزامير وغيره لاستبعاد أن يحدث هذا مرورًا بالمسجد عند صلاة الجمعة، ولو حدث فرضًا فمن المستبعد أن يخرج إليه صحابة رسول الله تاركين رسولهم قائمًا على المبنر، وإنما الصحيح الوارد في البخاري هو الخروج لشراء الطعام، فذلك هو المقبول، وقد ذكر اللهو في الآية على عد التجارة من اللهو بالقياس إلى ما عند الله من صلاة وسماع الخطبة من رسول الله ﷺ كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ ويدل على هذا من النظم ما سبق من ذكر ضمير التجارة وحدها في (انفضوا إليها) فتعين أن تكون هي المقصودة، وإنما عطف اللهو عليها من باب عد التجارة لهوًا بالقياس إلى الصلاة واستماع الخطبة من رسول الله ﷺ.

عَرّف الثواب الذي عند الله باسم الموصول (ما) في قوله تعالى: (قل ما عند الله خير...) لتفخيمه وتعظيمه، وعلى الرغم من تعريفه، فإن فيه نوع عموم وإبهام، فلم يتعين أو يتحدد لتذهب النفس في تصور ذلك الثواب كل مذهب، فهو شيء لا يحيط به وصف، لا سيما وأنه من عند الله، والفاصلة (خير الرازقين) فيها تلويح بالعطاء الدنيوي إلى جانب ما عنده في الآخرة، وأن الله هو الرزاق وأن أحدًا لا يفوته ما قدره الله من رزق مهما تعجل أو تأخر.

وقد أظهر لفظ الجلالة في (والله خير الرازقين) مع قرب ذكره في (قل ما عند

---

(١) الصحيح المسند ٢٤٨ .

الله) فلو قال: وهو خير الرازقين، لعلم، فيكون إظهاره لتربية المهابة والإجلال في نفوس المؤمنين، ولتصير هذه الجملة (والله خير الرازقين) كالمثل الجاري الذي يمكن استقلاله وترديده في سياقات كثيرة مناسبة.

هم الذين يقولون

قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة المنافقون ٧ – ٨].

سبب النزول:

أخرج البخاري عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: لما قال عبد الله بن أبي: لا تنفقوا على من عند رسول الله. وقال أيضًا: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. أخبرت به النبي ﷺ فلامني الأنصار، وحلف عبد الله بن أبي ما قال ذلك، فرجعت إلى المنزل فنمت فدعاني رسول الله ﷺ فأتيته، فقال: «**إن الله قد صدقك**» ونزل: (هم الذين يقولون لا تنفقوا...) الآية.

خصوصيات النظم:

قوله سبحانه: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ يرتبط ارتباطًا شديدًا بأول آية في السورة، وهي قوله تعالى: (إذا جاءك المنافقون...) حتى قوله: (والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) على سبيل التفصيل بعد الإجمال مما يقطع بأن نزولها واحد، وقد قيل بغير ذلك.

– تقديم الضمير العائد على المنافقين في قوله: (هم الذين يقولون...) يدل على أنهم هم الذين قالوا هذا دون أحد سواهم، وفي ذلك رد على نفيهم أن يكونوا قد قالوا شيئًا، فهذا يسمى بقصر القلب الذي يرد على المخاطب ويكذبه، فيثبت ما نفى وينفي ما أثبت؛ أي: أن الآية تتضمن معنى التكذيب الذي سبق التصريح به في (إنهم لكاذبون). على أن قوله: (هم الذين يقولون) تقع موقعًا آخر من الآية التي تسبقها مباشرة: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ

ﷲَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَـٰسِقِينَ﴾ فهذا حكم عليهم بالضلال؛ لأن الله لا يهدي القوم الفاسقين، ولا ينفعهم استغفار رسول الله ﷺ، فربما أدى هذا إلى استشراف كل نفس وتساؤلها عن سبب هذا؛ فجاء قوله كالمجيب: (هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله. . .) وذكرهم بضميرهم مشفوعًا باسم الموصول مع ذكر قولهم بصيغة المضارع التي تستحضر ذلك القول ماثلاً في كل لحظة، كل هذا يشعر بقصد التشهير بهم، والتشنيع عليهم، والتحذير من مماثلتهم.

- قولهم: (لا تنفقوا على من عند رسول الله) نهي قصد به التحريض على منع الصدقة على هؤلاء الفقراء، وقد كنى عنهم بقوله: (من عند رسول الله)؛ لأنهم من المهاجرين وكانوا يجاورونه ﷺ وقد ذكرهم بهذا الوصف الكنائي (عند رسول الله)، وهذا يعكس كراهية المنافقين رسول الله ﷺ والقائل هو عبد الله بن أبي كما يذكر المفسرون، وإنما أسند القول إلى جملة المنافقين لرضاهم بما يقول وسكوتهم، فكأنهم جميعًا قالوا، وفيه إشارة إلى أن الجماعة إذا رضيت بقول الإثم من واحد منهم، فقد شاركت فيه ولو لم تقل، ولكن يبقى ذلك القول دليلاً على حقد عبد الله بن أبي على رسول الله ﷺ إذ تصور الرسالة زعامة، وكان يرى نفسه أحق بالزعامة.

- (حتى ينفضُّوا)؛ أي: يتفرقوا، وهو غاية النهي؛ أي: لا تنفقوا عليهم حتى إذا لم يجدوا من ينفق عليهم تفرقوا بعيدًا عن رسول الله، وهذا يعكس تصورهم بأنهم وحدهم الذين ينفقون، وما يعلمون أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، كما تعكس تلك الغاية كراهية المنافقين أن يجاور هؤلاء الفقراء رسول الله ﷺ وكراهيتهم أن يلتفوا حوله؛ ووراء هذا كبر أو حقد أو هما معًا وهو الأغلب.

- قولهم: (لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) كان حديثًا خاصًا فيما بينهم ينفثون به عن حقدهم وغيظهم، ويؤكد أن مرض الزعامة في نفس عبدالله بن أبي هو الذي دفعه إلى هذا القول، وقد كانوا في سفر ما أو في غزوة ما مع استبعاد خروجهم في الغزوات لجبنهم، وفي هذا القول العام تعريض منهم بعزته وذلة المؤمنين، ولأن القائل هو عبد الله بن أبي، فقوله يعكس حقده على الرسول والمؤمنين.

والتعبير بالتعريض والتلميح دون التصريح، فلم يقل نحن الأعزّة وهم الأذلة وليخرجن الأعز الأذل مثلًا، ذلك لجبن فيهم، فهم يقولون كلامًا عامًّا غير محدد بحيث يسمح لهم بالهروب والمراوغة عند المساءلة.

لكن الرد عليهم جاء يحدد على وجه التخصيص لمن العزة معتمدًا في هذا على النظم بطريق التقديم؛ إذ قال: (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) ومعنى هذا أن الذلة ليست إلا لهؤلاء المنافقين، وهو بهذا الأسلوب يقول لهم: عودوا إلى أنفسكم لتعرفوا من الأعز ومن الأذل، فالعزة للمؤمنين وحدهم؛ لأن عزتهم من عزة الله ورسوله، فماذا تكونون؟ عودوا إلى أنفسكم لتعرفوا مع من تكونون.

- في قوله: (ولكن المنافقين لا يعلمون) حذف متعلق العلم، فلم يقل: لا يعلمون ماذا، وفيه تعميم ليتناول أمرين في وقت واحد:

الأول: أنهم لا يعلمون أنهم هم الأذلة؛لأنهم يعيشون في وهم الشعور بالعزة والتميز كاليهود.

الثاني: أنهم لا يعلمون المقصود بهم في قوله: (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين)، فهم لا يعلمون أن هذا يتضمن نفي العزة عنهم مطلقًا، وذلك لقلة فهمهم.

إن من أزواجكم وأولادكم عدوًا لكم

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [سورة التغابن: ١٤].

سبب النزول:

أخرج الترمذي والطبراني عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾... في قوم من أهل مكة، أسلموا وأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم؛ فلما أتوا رسول الله ﷺ فرأوا الناس قد فقهوا في الدين، هموا أن يعاقبوهم، أي: أزواجهم وأولادهم؛ فنزلت الآية إلى قوله: غفور رحيم[1].

---

(١) الصحيح المسند ٢٥٢ وفتح القدير ٢/ ١٠٣١ .

خصوصيات النظم:

- نداء هؤلاء بصفة الإيمان تبشير مقدم لهم بأن الله قد غفر لهم ما كان منهم من رضوخ لأزواجهم وأولادهم ومكثهم بجوارهم في مكة مع ما في ذلك من تعريضهم للافتتان في دينهم.

- ولما كان النداء لعموم المؤمنين أشار إلى البعض الذين نزلت بشأنهم الآية بحرف الجر (من) الدال على التبعيض (إن من أزواجكم...)

- تدل ملابسات النزول على أن ليس المقصود هنا العداوة الحقيقية، وهي الكره والبغض الذي يدفع للإيذاء، ولكن المقصود كما ذكر أبو السعود: «يشغلونكم عن طاعة الله أو يخاصمونكم في أمور الدين والدنيا» وفيه إشارة إلى أن من يثبط عن طاعة الله أو يكون سببًا في الانصراف عنها هو في منزلة العدو؛ لأنه يدفع للوقوع في الإيذاء والضرر، فالتعبير بالعداوة - إذن - لاتخاذ الحذر وعدم التسليم لرغبات أقرب الناس إلينا إذا كانت ضد طاعة الله تعالى.

وقد صرح بهذا المقصود إذ رتب على ما سبق بقوله: (فاحذروهم) ففي هذا الأمر إشارة إلى سر تسمية من يصرف عن طاعة الله بالعدو، ذلك السر هو ضرورة اليقظة والتنبيه، وأخذ الحذر كما يحذر الإنسان عدوه.

وحاصل هذا أن العداوة هنا ليست بمعناها الحرفي، ولكن عُبِّر به للاستنفار النفسي من أجل الحذر واليقظة.

- وقد قصد بقوله: (فاحذروهم) في المستقبل حتى لا يتكرر ما كان؛ أما ما مضى، فإن الله سبحانه يدعو فيه إلى العفو والصفح والمغفرة.

- يدل الحث على العفو والصفح والمغفرة في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يدل على تجاوب النظم القرآني مع ملابسات النزول، فهؤلاء الذين ثبطهم أزواجهم وأولادهم عن الهجرة، فمكثوا في مكة زمنًا، ثم هاجروا فوجدوا إخوانهم ممن سبقوهم للهجرة قد سبقوهم في فقه الدين والقرآن فهمُّوا بمعاقبة زوجاتهم وأولادهم - هم المقصودون أصالة بهذا الخطاب وإن جاء عامًّا ليتناول أمثالهم.

- وفي هذا الشرط والجواب إشارة إلى أن من عفا وصفح عن الناس ولا سيما

أزواجه وأولاده، فإن الله سبحانه يقابل عفوه بالمغفرة والرحمة، وفيه إشارة أخرى إلى أن الرجل يتحمل معهم جزءًا من المسئولية عندما رضخ لتحريضهم، فهو مشارك لهم؛ ولهذا لم يكتف بطلب العفو والصفح والمغفرة لهم، ولكن حث عليه بغفران ما كان من تقصير واستجابة ورضوخ (فإن الله غفور رحيم).

- لم يكتف بالعفو - وهو ترك العقوبة عن الذنب المتوب عنه عملًا، ولم يكتف معه بالصفح؛ وهو ترك اللوم والتعيير قولاً، وإنما أضاف إليها الغفران؛ وهو إخفاء الذنب وقبول العذر.

وقد اجتمعت هذه الثلاثة حتى لا يبقى أثر من آثار ذلك الذنب ينغص العلاقة الأسرية التي يحرص الإسلام على صفائها وسلامتها، كما يدل اجتماع هذه الثلاثة: (العفو والصفح والغفران) إلى حاجة المسلمين الذين تأخروا في الهجرة إليها لشدة حفيظتهم على أزواجهم وأولادهم، فكانوا في أشد الحاجة إلى الحث بهذه الثلاثة لانتزاع أي أثر من آثار الغضب، فلا يصدر منهم إساءة بالفعل أو بالقول، بل لا ينبغي أن يبقى في نفوسهم أثر ما، ووعد سبحانه بمكافأة من يقدر على هذا بالمغفرة والرحمة، وهذا من عظمة ديننا في حرصه على تماسك الأسرة المسلمة، فلا يبقى أدنى شيء يكدر صفوها أو يصدع كيانها.

- ثم إن الله سبحانه يعامل بالفضل العميم، ويتبين هذا من التعبير عن مغفرته ورحمته لهؤلاء بطريق التلويح لا بطريق التصريح، فلم يقل: وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا؛ فإن الله يغفر لكم ويرحمكم، وإنما جاء الجواب عامًا (غفور رحيم)، فلم تتعد المغفرة ولا الرحمة إلى شيء محدد، وإنما ذكرها كأسماء لله سبحانه وذلك للإشارة إلى عموم مغفرته ورحمته، ويكون المعنى وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا، فإن الله يغفر لكم في هذه وفي غيرها؛ ويرحمكم في هذه وفي غيرها، أي: يعاملكم دائمًا بالمغفرة والرحمة، فأي فضل هذا؟

ووراء هذا كله الإشارة إلى أن من يقدر على أن يتعامل مع الناس بالعفو والصفح والمغفرة؛ فإن الله يشمله بمغفرته ورحمته دائمًا.

وهنا احتمال آخر، وهو أن يكون كناية عن النسبة المؤكدة؛ أي: هو غفور لكم ورحيم بكم، بدليل أنه عظيم المغفرة وعظيم الرحمة، فهو غفور رحيم. والله أعلم.

وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثًا

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [سورة التحريم: ١ - ٣].

سبب النزول:

«روي أن النبي ﷺ[1] خلا بمارية في يوم عائشةن وعلمت بذلك حفصة، فقال لها: اكتمي عليَّ فقد حرَّمتُ مارية على نفسي، وأبشرك أن أبا بكر وعمر يملكان بعدي أمر أمتي، فأخبرت به عائشة، وكانتا متصادقتين، وقيل: خلا بمارية في يوم حفصة، فأرضاها بذلك واستكتمها فلم تكتم، فطلقها واعتزل نساءه، فنزل جبريل عليه السلام فقال: راجعها فإنها صوامة قوامة، وإنها لمن نسائك في الجنة. وروي أنه عليه الصلاة والسلام مكث عند زينب بنت جحش وشرب عندها عسلاً، فتواطأت عائشة وحفصة، فقالتا: نشم منك ريح المغافير. وكان ﷺ يكره التفل (ريح غير طيبة من النحل وغيره) فحرم العسل على نفسه؛ فنزلت الآيات، فمعناه لم تحرم ما أحل الله لك من ملك اليمين أو من العسل[2].

خصوصيات النظم:

بدأت الآيات بالعتاب في هذا الاستفهام (لم تحرم ما أحل الله لك)؛ وقوله عقبه: (تبتغي مرضات أزواجك) يعني ألهذا السبب؟ وفيه إشارة إلى ضعف ذلك السبب الذي يجعل رسول الله ﷺ يحرم ما أحل الله له، وهذا ما يقوي العتاب؛ لأن تحريم ما أحل الله لا يجوز، فما باله إذا كان لسبب كهذا، وقد بادر القرآن إلى طمأنة رسول الله ﷺ في فاصلة الآية ذاتها (والله غفور رحيم)، وقدم المخرج وهو

---

(١) جاء في الصحيح المسند عن أنس أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها على نفسه؛ فنزلت (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك» الصحيح المسند ٢٥٣ فربما كانت مارية هي تلك الأمة .

(٢) إرشاد العقل السليم ١٧٣/٥ .

الكفارة (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) كما بيَّنه وفصله في سورة المائدة.

- لم يتناول سرد ما حدث إلا في الآية الثالثة للإشارة إلى أن ليست الغاية هي قص الأحداث وسردها، وإنما الغاية الأساس هي العتاب على تحريم ما أحل الله مع بيان المخرج، وتشريع الكفارة تيسيرًا من الله ورحمة منه، ثم انتقل إلى جوهر الأحداث التي استدعت ذلك اللوم وما تبعه من تشريع.

- على أنه ما ذكر تلك الأحداث إلا لاستخلاص العبرة منها، ويمكن تتبع تلك العبر

من خصوصيات النظم:

- فقد ذكر رسول الله ﷺ بصفة النبوة في هذه السورة (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك) وقوله: (وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثًا)، وذلك للإشارة إلى أن كثيرًا من الأحداث التي تقع في بيت النبوة قصد بها التشريع واستخلاص العبرة مما يتصل بالأسوة والقدوة، وأول ما نستخلصه عدم ائتمان النساء على سر، فلقد أفشت أمهات المؤمنين سرَّ أفضلِ خلق الله، فما بال غيرهن مع غيره، وأن الإنسان ينبغي أن يتحوط ويتحفظ حتى لا يقع في تحريم ما أحل الله؛ وإذا حدث هذا، فعليه أن يبادر بالتكفير.

- ولم يذكر القرآن اسم الزوجة التي أسر إليها رسول الله حديثه، لأن ذكر الاسم لا يتعلق به غرض، وإنما يتعلق الغرض بجوهر الحدث ومنعًا للتشهير بها فيما يأخذ عليها وهو إفشاء السر.

- نكَّر كلمة (حديثًا) للتنبيه على أنه يتعلق بأمر عظيم، سواء كان تحريم مارية أم التبشير بخلافة أبي بكر وعمر بعد رسول الله ﷺ.

- تدل مادة الفعل (نبَّأ) وصيغته على خطورة ما أنبأت به، وهذا يتلاءم مع تنكير (حديثًا) ولم يظهر الفاعل ولا المفعول؛ أي: لم يذكر اسم حفصة التي أنبأت ولا عائشة التي نبئت لعدم تعلق غرض بذكر الاسم.

- تتضمن هذه القصة ما يعد دليلاً - لمن في نفسه أدنى شك - على نبوة محمد ﷺ مثل ذلك السر الذي أفشته به حفصة إلى عائشة، فلقد أظهره الله عليه وعرفها بأنها قد أفشته وإن كان قد عرفها ببعض ما أفشته وسكت عن البعض الآخر، لهذا لم يذكر ماذا عرف به وماذا سكت عنه وأعرض؛ لأن هذا ليس هو جوهر

المقصود، وإنما يتعلق الغرض هنا بصدق النبوة الذي يتجلى في إطلاع الله نبيه على أن السر الذي أودعه حفصة قد أظهرته، ولعل هذا من أسباب وصف محمد ﷺ بوصف النبي في هذه السورة أكثر من مرة، ومما يؤكد على قصد هذا الغرض إثبات الحوار الذي دار ويدل على خصوصية النبوة: (قالت من أنبأك هذا) (قال نبأني العليم الخبير) فالنبي من الإنباء من عند الله.

- وإعادة ذكر الفعل (نبأني) في موضع كان يمكن إضماره وحذفه اعتمادًا على (نبأك)، فكان يمكن أن يقول مثلاً ردًا عليها: العليم الخبير، لكن إعادة الفعل (نبأني) يدل على الاعتزاز؛ لأن هذا من خصوصيات النبي، وهو دليل النبوة.

- ومن هنا يتبين أن هذا غرض أساس من أغراض هذه القصة لكي يعتبر من في نفسه أي شك في نبوته ﷺ ولتعرف أمهات المؤمنين قدره عند ربه وتأييده وإطلاعه على ما يدور بينهن فتحرصن على المعاملة التي تليق به كنبي يوحى إليه ويطلعه الله سبحانه على الخفيات.

- في قوله سبحانه: (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما) التثنية في (تتوبا) وفي (قلوبكما) يدل على أن المقصود ينحصر في حفصة وعائشة؛ لأنهما كان لهما دور في تحريم مارية عليه، أو لأنهما هما اللتان تآمرتا على زينب بنت جحش حتى يبتعد عنها رسول الله ﷺ كما يظهر في قصة العسل والمغافير. والله أعلم.

عبس وتولى :

قال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ [سورة عبس ١ : ١٠].

سبب النزول:

أخرج الترمذي عن عائشة رضي الله عنها أن قوله سبحانه: (عبس وتولى) نزلت في ابن أم مكتوم، أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول: يا رسول الله، أرشدني، وعند رسول الله رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله يعرض عنه ويقبل

على الآخر، ويقول: «**ترى بما أقول بأسا**»[١].

وفي إرشاد العقل السليم أن ابن أم مكتوم أتى رسول الله ﷺ وعنده صناديد قريش: عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب، وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة يدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم، فقال له: يا رسول الله، أقرئني وعلمني مما علمك الله تعالى. وكرر ذلك وهو لا يعلم تشاغله عليه الصلاة والسلام بالقوم، فكره رسول الله قطعه لكلامه وعبس وأعرض عنه، فنزلت. . . ، فكان رسول الله ﷺ يكرمه ويقول إذا رآه: مرحبًا بمن عاتبني فيه ربي[٢].

خصوصيات النظم:

الإخبار عن رسول الله ﷺ بطريق الغائب مع إضمار الفاعل، فلم يقل: عبست ولم يقل عبس محمد لغاية واحدة هي الإشعار بعدم رضا الله سبحانه عن هذا العبوس، وربما قيل: إنه لتخفيف العتاب، لكن الأول هو الأبين والأولى.

لم يكن عبوس رسول الله ﷺ كراهية للأعمى في ذاته، ولكن لمجيئه في ذلك الوقت الذي كان عنده وجهاء المشركين ممن يطمع في إيمانهم، وقد دل على هذا بأن جعل علة العبوس هي المجيء، والتقدير: عبس وتولى لأن جاءه الأعمى، ولو كان العبوس كراهية لشخص الأعمى لقال: عبس وتولى أن رأى الأعمى، أو عبس وتولى للأعمى، وهنا تتجلى دقة التعبير القرآني.

ذكر عبد الله بن أم مكتوم بصفته لا باسمه[٣] لعدم تعلق غرض بذكر اسمه بينما ذكره بصفة «الأعمى» يزيد من نبرة العتاب؛ لأن كون الرجل أعمى يقتضي من رسول الله أن يمد له يد الترحيب رأفة به وجبرًا لخاطره حتى لا يبتئس نفسيًا فيحمل عماه سبب إعراض رسول الله عنه.

تحول من حديث الغائب في (عبس وتولى) إلى حديث الخطاب في (وما

---

(١) الصحيح المسند ٢٦٧ .

(٢) إرشاد العقل السليم ٢٣٦ .

(٣) من الكناية عن موصوف وسر الكناية ما ذكر أعلى .

يدريك لعله يزكى)؛ لأن المشافهة أدخل في تشديد العتاب كما يقول أبو السعود، وهكذا تتناغم الخصوصيات البلاغية لتخدم غاية واحدة هي التشديد في العتاب.

في قوله: (لعله يزكى)؛ أي: لعله يتطهر وتسمو نفسه، والتعبير بـ(لعلّ) وهي لرجاء الأمر المحبوب وتوقعه إنما هو بالنسبة لما يكون عليه البشر، ووراء هذا معنى يفهم عن طريق التعريض وهو أن الأولى بالاهتمام والإقبال هو من يرجى منه الخير كابن مكتوم لا هؤلاء الوجهاء الذين لا يرجى منهم أي تزكية أو استقامة على الهدى.

- ثم ينتقل إلى أقل ما يمكن أن يرجى في قوله: (أو يذكر فتنفعه الذكرى) يعني إن لم يترق في التزكي كما في (لعله يزكى)، فلا أقل من أن تعينه على تذكر ما وعاه من أمور دينه فتنفعه الذكرى، والمهم أن جلوسك إليه لن يخلو من خير أبدًا بخلاف هؤلاء الذين لا خير منهم، فههنا مقابلة خفية بين موجود يتعلق بالأعمى، وملحوظ من طريق التعريض يتعلق بوجهاء قريش. .هي مقابلة من يرجى منه الخير بمن لا خير فيهم، ومَنْ منهما أولى بالعناية والاهتمام.

ثم تليها مقابلة ظاهرة بينهما في قوله سبحانه: (أما من استغنى فأنت له تصدى)، وقوله: (وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى) وحاصل هذا هو الإقبال على المستغني الزاهد في هذا الدين، والإدبار عن الراغب فيك والساعي إليك خشية من الله، فهي مقابلة تعكس المفارقة غير المنطقية، وهي تشير إلى أن العتاب مضاعف؛ لأنه ليس فقط للإعراض عمن يستحق الاهتمام، ولكن أيضًا للإقبال على من لا يستحق، وهكذا نجد ترقيًا في العتاب وتدرجًا فيه نحو الأشد ابتداء من حديث الغائب في (عبس وتولى. .)

ومرورا بالتحول والالتفات إلى المشافهة والخطاب، ثم الكناية عن ابن أم مكتوم بالأعمى، وعن الكافر أو الكفار بمن استغنى إشارة إلى أن كونه كذلك يجعله هو الجدير بالعبوس والتولي، ثم حذف المفعول في هذا الفعل (استغنى) ليعم أشياء عدة قد استغنى عنها كالاستغناء عن كل ما عند الله، ثم التعبير عن الأعمى بما يدل على إقبال الراغب الخاشي الخاشع، ثم يزداد العتاب أكثر بتقديم ضمير رسول الله ﷺ في (أنت له تصدى) و (أنت عنه تلهي)، وكأنه يقول له: أنت خصوصًا ما كان

ينبغي أن يكون منك هذا لا في إقبالك على الكفار ولا في إعراضك عن الأعمى.

ولا أعلم عتابًا كان من الله لرسوله ﷺ بهذه الشدة والقوة كما دلنا النظم في سورة عبس، ذلك لأن هذا المقام يتعلق بأسلوب الدعوة ومنهج التعامل مع المهتدين ومع الضالين؛ أما الأمور الحياتية والتي تدخل في تصريف أمور الأسرة والمجتمع والتي تدخل في باب الاجتهاد، فما جاء من العتاب فيها كان عتابه خفيفًا رفيقًا، كقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ و﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ﴾. والله أعلم.

والضحى والليل إذا سجى

قال تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [سورة الضحى ١: ٤].

سبب النزول:

روي في سبب نزول هذه الآيات أن الوحي تأخر عن رسول الله ﷺ أيامًا لتركه الاستثناء كما في سورة الكهف(١) حتى قلق رسول الله ﷺ، وقال المشركون: إن محمدًا ودعه ربه وقلاه. فنزلت ردًا عليهم وتبشيرًا لرسول الله ﷺ(٢).

خصوصيات النظم:

قسم الله سبحانه في هذا المقام يدل على خطاب المحب الذي يسعى إلى التبشير والطمأنة وتطييب الخاطر المهموم.

والضحى هو صدر النهار عند ارتفاع الشمس أو النهار عامة بدليل المقابلة بالليل إذا سجى؛ أي: دخل ظلامه وسكن أهله وربما قصد القسم بالضياء الساطع في مقابل الظلام الحالك، والله سبحانه يقسم بما شاء من مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته.

والقسم بالضحى والليل إذا سجى في هذا المقام لأنهما مظهران دالان على قدرة الخالق سبحانه على تبدل الأشياء لأضدادها دون تعاكس أو تنافر، ولكنه نظام الله في خلقه لمصلحة الملخوقين.

---

(١) قال سبحانه في ذلك: (ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدًا إلا أن يشاء الله) .

(٢) انظر إرشاد العقل السليم ٥/٢٦٨ .

والبداية بالضحى مناسب لمقام التبشير والطمأنة، والتعقيب بالليل للإشارة إلى أن الوحي وإن تأخر فإن ذلك لن يدوم، كما لا يدوم الليل الذي يعقبه الضحى والضياء، فكأن الوحي ذاته ضحى، وانقطاعه ليل، وعودته مرة ثانية هو عودة للضحى الذي يكشف الظلام ويزيح الهموم.

أي أن البداية بالضحى للإشارة إلى الوحي من بدايته، وثنى بالليل للإشارة إلى فترة انقطاع الوحي، ومن البدهي أن الليل لا يدوم، ففيه إشارة إلى عودة الضحى مرة ثانية، وقد عاد حقًّا بنزول سورة الضحى. وقد ذكر ابن القيم أن القسم يتضمن قسمًا على صحة النبوة وعلى الجزاء في الآخرة، فهو قسم على النبوة والمعاد. (راجع التبيان في أقسام القرآن ٤٧).

الفعل (سجى) يحمل في متنه وإيحائه معانى السكون والهدوء والاطمئنان؛ لأنه من سجا البحر سجوا إذا سكنت أمواجه، فهو يشير إلى أن الليل ليس مخوفًا ولا موحشًا ولكنه ليل آمن مستقر للراحة والهدوء، وهذا يُلقى بظله على فترة انقطاع الوحي فيشير إلى أنها فترة راحة لالتقاط الأنفاس واسترجاع الثبات، وكان ينبغي أن يكون فترة هدوء واطمئنان لا قلق وهموم.

وحاصل هذا أن القسم يحمل في طياته إشارات الطمأنة وومضات التبشير قبل أن يأتي إلى البشارة الصريحة في قوله سبحانه: (ما ودعك ربك وما قلى).

ومعنى هذا أن تأخر الوحي لم يكن عقابًا كما يفهم من كلام بعض المفسرين؛ إذ قالوا: «إن الوحى تأخر لأن الرسول ﷺ لم يستثن المشيئة كما ورد في سورة الكهف، أو لزجره سائلاً ملحًا...»[١].

في جواب القسم قوله سبحانه: (ما ودّعك ربّك وما قلى) لم يقل: ما ودعتك وقليتك ليتاح إظهار لفظ الرب الدال على كمال العناية والرعاية كما هو شأن التربية، وليتاح مع هذا إضافته إلى ضمير رسول الله ﷺ للدلالة على كمال المحبة والقرب، وهذا يؤكد على أن فترة انقطاع الوحي لم تكن للسبب الذي ذكروه.

كان يكفي في مقام الطمأنة أن يقال: ما ودعك ربك، ولكنه زيادة في الاحتياط

---

(١) إرشاد العقل السليم ٢٦٨ .

ودفعًا لتقول الكفار بأن محمدًا قد ودعه ربه وقلاه ردٌّ عليهم فنفى ما قالوه، ونفي القلى بمعنى البغض والكراهية تقرير لما ينبغي أن يكون مفهومًا سلفًا من اختياره ﷺ من بين الناس جميعًا ليحوز شرف التبليغ لأشرف وآخر رسالة سماوية، فهذا الاختيار من رب العزة لا يكون إلا عن حب وعلم بأهليته ﷺ لهذه المهمة الخطيرة، فالنفي في قوله: (وما قلى) هو في الأساس رد على زعم المشركين بأن ربه قد قلاه، إنه رد لما قالوه على سبيل التكريم لرسول الله الذي لحقه ما لحقه من الأذى عندما تردد قولهم: «إن ربه قد قلاه»، ويؤيده في النظم إسناد الفعل إلى ضمير رسول الله ﷺ بطريق الخطاب في (ما ودعك ربك وما قلى)، فأي حب هذا، وأي تكريم، وأي تعطف، وأي تقريب.

والإسناد إلى ضمير رسول الله ﷺ ظاهر في (ما ودعك) ومقدر في قوله: (وما قلى) لأنه في معنى: ما ودعك ربك وما قلاك، وإنما طوى الضمير المفعول في الثاني لكراهية إسناد القلى والبغض إليه إسنادًا ظاهرًا، على أن حذف المفعول مع هذا هو الأنسب لدلالة السياق عليه، ولكى تتوافق الفواصل توافقا يخلع على النفوس راحة هي أحوج ما تكون إليها.

والآيات التالية فيها مزيد من التبشير والتكريم والطمأنة، وفيها إشارة إلى أن ما سبق من كرامة الدنيا هو من أجل الآخرة لأنها خير وأبقى.

أرأيت الذي ينهى عبدًا إذا صلى

قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [سورة العلق ٩ : ١٤].

سبب النزول:

عن ابن عباس قال: قال أبو جهل: لئن رأيت (محمدًا) يصلي عند الكعبة لآتينَّه حتى أطأ على عنقه فقال ﷺ: **«لئن فعل لأخذته الملائكة عيانًا»**. وفي رواية أبي هريرة التي أوردها مسلم في صحيحه أن أبا جهل أتى رسول الله وهو يصلي.. فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، فقيل له: مالك؟ فقال: إن بيني

وبينه لخندقًا من نار، وهولاً وأجنحة، فقال ﷺ: «**لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا**»[١].

خصوصيات النظم:

المعنى في قوله (أرأيت) أخبرني، والخطاب عام لكل من يتأتى منه الاستماع والرؤيا، وقد عبر بالاستفهام للتعجيب من أمر هذا السفيه، وعبر بالرؤية لاستحضار صورته البغيضة مرئية وهو يتوعد ويرغي ويزبد... أو «للإيذان بأن حاله من الشناعة والغرابة بحيث يجب أن يراها كل من يتأتى منه الرؤيا ويقضي منها العجب»[٢].

(أرأيت الذي ينهى)

وتعريفه باسم الموصول للتشهير به والتشنيع عليه، وما ورد في سبب النزول من ذلك التوعد المهين لم يرد ما يدل عليه في الآية الكريمة، وإنما فيها الفعل (ينهى) فقط؛ ولذلك فالأقرب إلى التوافق مع النظم القرآني ما جاء في الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أبا جهل جاء رسول الله ﷺ وهو يصلي فقال: ألم أنهك عن هذا؟ ألم أنهك عن هذا؟ فانصرف رسول الله ﷺ وهو يهدده، فقال أبو جهل: ألم تعلم أن ما بها رجل أكثر مني ناديًا. فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾[٣].

المقصود بالعبد في قوله: (عبدًا إذا صلى) هو رسول الله ﷺ وإنما عبر عنه بلفظ العبد ليناسب (إذا صلى)، فالصلاة وما فيها من خشوع وخضوع وسجود مظهر من مظاهر إثبات العبودية لله، فالتعبير بالعبد إشارة إلى ما ينبغي أن يكون عليه المصلي من الإحساس بالعبودية لله مع ملاحظة عموم اللفظ وإن كان السبب خاصًا لتكون تحذيرًا لكل من ينهى عن الصلاة.

ترديد الاستفهام والفعل الماضي (رأيت) في الآية التالية (أرأيت إن كان على الهدى) لاستئناف تعجب جديد، والضمير في (كان) يعود إلى (عبدًا)، كأنه يقول: أرأيت الذي ينهى عبدًا إذا صلى حتى لو كان هذا هو رسول الله الذي بلغ أقصى

---

(١) الصحيح المسند ٢٧٢، ٢٧٣.

(٢) إرشاد العقل السليم ٥/ ٢٧٤.

(٣) الصحيح المسند ٢٧٣ وفتح القدير ٢/ ١٢٦٦.

درجات الهدى، هذا ما يشير إليه دخول حرف الاستعلاء (على الهدى)، وفيه تعريض باعوجاج الفطرة في نفس ذلك الناهي؛ لأنه ينهي من استقام على الهدى.

في قوله: (أو أمر بالتقوى)؛ أي: أمر بعبادة الله وتقواه - كنايةٌ عن تبليغ رسالة ربه، وهنا يكمن سبب النهي عن الصلاة باعتبارها من التبليغ الصامت، كما أن الأمر بالتقوى تبليغ ناطق، وحاصل المعنى: تعجب ما شاء لك التعجب واستحضر الصورة البغيضة لذلك السفيه الذي ينهى رسول الله عن الصلاة، وإن كان رسول الله ﷺ يدعو إلى الهدى ويأمر بالتقوى، ثم يتحول حديث التعجب عن ذلك الناهي عن الصلاة إلى بيان الباعث على نهيه فذلك هو تكذيبه وتكبره: يقول سبحانه: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ إنه استئناف تعجب جديد من جراءة ذلك الذي ينهى رسول الله عن الصلاة ويكذبه ويعرض عنه، ألم يعلم بأن الله مطلع عليه؟ هل يظن أنه في أمان من عقاب الله؟ فترى أن هذا الأسلوب الذي تتابع فيه الاستفهام قد احتشد بالتعجيب والتهديد والتقرير والتوبيخ.

ثم يتبعه بأسلوب رادع زاجر ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ «وكلا» وحدها زاجرة رادعة لذلك السفيه، يتبعها القسم الذي يزيد من الزجر مع التهديد والوعيد، إن ذلك السفيه قد نهى رسول الله عن الصلاة، والرسول ﷺ في حماية ربه سبحانه الذي يهدد ذلك السفيه بأن ينتهي هو؛ فإن لم ينته، عجل له العقوبة، فليس التهديد بعذاب في الآخرة فحسب؛ لأن ذلك واقعٌ واقع، ولكن المقصود هنا التهديد بالقبض عليه وجذبه جذبًا عنيفًا (لنسفعنًا) من ناصيته أي: رقبته؛ وهذه صورة مجازية إهانة فيها تهديد بالأخذ الشديد له وإذلالاً لكبريائه الذي كان يبدو في لي شدقه ورقبته وهو يتوعد رسول الله ﷺ.

وقوله سبحانه ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ مرتبط بما قبله في النزول كما ورد في الترمذي عن ابن عباس أن أبا جهل قال للرسول رسول الله ﷺ: إنك لتعلم أن ما بها - أي: مكة - رجلًا أكثر ناديًا مني. قال ابن عباس: لو دعا ناديه لأخذته زبانية جهنم[1] ونسب هذا القول لرسول الله ﷺ[2].

---

(١) الصحيح المسند ٢٧٣ .

(٢) إرشاد العقل السليم ٥/ ٢٧٥ .

والأمر في قوله تعالى: (فليدع ناديه) قصد به التهوين والتسفيه، وناديه أي أهل ناديه يعني صحبه وعشيرته وأعوانه من تسمية الشيء باسم المكان، وهذا من مشاكلة اللفظ القرآني لما جاء في كلام أبي جهل، مما يدل على منتهى التفاعل بين الوحي والأحداث وسرعة تأييد الله سبحانه، وفي الرد إشارة إلى أنه أحقر من أن يستطيع الإيذاء لمن حماه الله.

إنا أعطيناك الكوثر

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [سورة الكوثر: ١ - ٣].

سبب النزول:

أخرج ابن سعد وابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان أكبر ولد رسول الله ﷺ القاسم ثم زينب ثم عبد الله ثم أم كلثوم ثم فاطمة ثم رقية، فمات القاسم ثم مات عبد الله؛ فقال العاص بن وائل السهمي: قد انقطع نسله فهو أبتر، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ وعن ابن عباس من طريق آخر أن القائل هو أبو جهل.

بين المناسبة والنظم:

من الواضح أن الآية الأخيرة من هذه السورة هي المقصود الأول بالرد على من تهكم برسول الله ﷺ وهو العاصي بن وائل السهمي، فقد ثبت أن أولاده ماتوا جميعًا في حياته فعاش بحسرته عليهم، وصدق وعيد الله سبحانه ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ وفي قوله شانئك؛ أي: مبغضك، كشف عن الدافع إلى قول ذلك الرجل ما قال وهو البغض، فقد كان يبغض رسول الله ﷺ.

ووقوع ضمير الفصل بين اسم (إن) وخبرها يدل على اختصاصه بالبتر والانقطاع؛ أما رسول الله ﷺ فليس كذلك؛ لأن الله سبحانه قد أعطاه الكوثر وهو نهر في الجنة أو الحوض في الموقف أو كثرة الأصحاب أو الأمة أو رفعة الذكر ونور القلب أو الشفاعة أو غير ذلك من خصوصيات رسول الله ﷺ ومع أن هذا كله حق، فإن السياق الذي يخص الانقطاع والبتر بالعاص، ويقصد إثبات

عكسه للرسول ﷺ يقتضي تفسير الكوثر بكل ما يعنيه علو الذكر ونباهة الشأن عند الله والناس، فهذا هو الأولى في سياق الرد على ذلك المتهكم للإشارة إلى أن ذكر الإنسان ليس بولده؛ لأنه ذكر دنيوي زائل، وإنما يكون ذكره بعلو قدره وسمو شأنه عند الله والناس في الدنيا وفي الآخرة.

- رتب على هذا الامتنان الذي يعلو به قدره ويمتد ذكره ما يستوجبه من العبادة والشكر ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ وإنما خص الصلاة لأنها صلة دائمة وشكر متجدد.

- قيل: إن المراد بالصلاة في قوله: (فصل لربك وانحر) هي صلاة الصبح في جماعة. وقيل: هي الصلوات الخمس. وهو الأولى، ولم يقل فصل لنا كما قال: (إنا أعطيناك)؛ أي: أنه تحول من التكلم إلى الغائب (فصل لربك) ليتاح إظهار لفظ الرب وما فيه من الدلالة على استحقاق الشكر الكثير على ما أعطى، والصلاة ذكر وشكر ودعاء.

- يتجه بعض المفسرين إلى أن النحر هو النحر بمنى، وقيل: هو الأضحية على أن الصلاة هي صلاة عيد الأضحى، وهو تخصيص لا يتناسب مع ما في الآية من عموم يؤدي إلى تعميم الفائدة، ولو استدل بها أحد على أن الذبح يوم الأضحى بعد الصلاة لما امتنع، على أن يوضع في الاعتبار عموم الصلاة وعموم الذبح.

وإنما جاء النحر بعد الصلاة؛ لأن الصلاة عبادة وشكر قولي، والذبح شكر عملي وفيه تقرب إلى الله سبحانه يدل على صدق الشاكر؛ لأنه يبذل عن رضا وطيب خاطر ويناسبه عطاء الله سبحانه الذي لا مثيل له (إنا أعطيناك الكوثر).

وقد ورد عن علي بن أبي طالب لما نزلت هذه السورة قال رسول الله ﷺ لجبريل: «**ما هذه النحيرة التي أمرنى الله بها؟**» فقال: إنها ليست بنحيرة ولكن يأمرك إذا تحرمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت وإذا ركعت وإذا رفعت رأسك من الركوع، فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين هم في السماوات السبع[١].

وعن ابن عباس قال: «إن الله أوحى إلى رسوله ﷺ أن ارفع يديك حذاء نحرك إذا كبرت للصلاة فذاك النحر»[٢].

---

(١) فتح القدير ٢/ ١٣٠٤ .

(٢) نفسه .

فهل النحر هو رفع اليدين في الصلاة حقًا؟ وكيف نوفق بين رواية ابن عباس التي تقصر رفع اليدين حذاء النحر على التكبير، ورواية علي بن أبي طالب التي تأمر برفع اليدين عند التكبير والركوع والرفع من الركوع.

إن رفع اليدين هيئة من هيئات الصلاة، وليس من الضروري أن تستمد مشروعيتها من تفسير النحر بها، بل إنه لا يمكن عده مصدرًا ودليلًا على مشروعية رفع اليدين.

ولو أن هذا هو المقصود من النحر، لقال: فصل لربك ناحرًا؛ لأنه هيئة من هيئات الصلاة، ولكن لما عطف دل على المغايرة وأن هذا شيء آخر غير الصلاة وخارج عنها، وقد قال بهذا قتادة وعكرمة وعطاء وسعيد بن جبير.

وقد لفتنا أبو السعود لفتة حسنة عندما ربط بين قوله تعالى: (فصل لربك) وقوله في سورة الماعون قبلها (ويل للمصلين)، كما ربط بين قوله (وانحر) وقوله في الماعون (ويمنعون الماعون) يقول: فدمْ على الصلاة لربك خالصًا لوجهه خلاف الساهين عنها المرائين فيها، وانحر البدن، وتصدق على المحاويج خلافًا لمن يدعهم ويمنع عنهم الماعون(١).

تبت يدا أبي لهب

قال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ [سورة المسد ١ - ٥].

سبب النزول:

أخرج البخاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت: (وأنذر عشيرتك الأقربين) صعد النبي ﷺ الصفا فجعل ينادي: «**يا بني فهر، يا بني عدي**» لبطون قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش فقال ﷺ: «**أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟**» قالوا: نعم، ما جربنا عليك

(١) إرشاد العقل السليم ٥/ ٢٨٧ .

إلا صدقًا، قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**». فقال أبو لهب: تبًا لك سائر هذا اليوم، ألهذا جمعتنا؛ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[1].

خصوصيات النظم:

قال سبحانه: (تبت يدا أبي لهب وتب..) ردًا على قوله لمحمد ﷺ: تبًا لك وهذا من تفاعل التنزيل مع الأحداث الجارية، وقد سبق نحو هذا في مواقف الحرج التي عرض لها رسول الله ﷺ فكان القرآن ينزل ليدفع عن رسول الله كل تطاول أو إيذاء كما في قوله: (إن شانئك هو الأبتر) ردًا على العاص بن وائل السَّهْمي الذي قال: إن محمدًا قد انقطع نسله فهو أبتر، فتكون العقوبة من نفس الإساءة، وذلك من حماية الله لرسوله ومن تفاعل الوحي مع الأحداث.

ومعنى (تبت) افتقرت أو خسرت أو خابت أو هلكت، وكلها معان ذكرها العلماء، ولكن السياق والعطف بقوله: (وتب) يدل على استبعاد معنى هلكت يده حتى لا يتكرر معنى الهلاك، لا سيما وأن (تبت يده) بمعنى تبت نفسه من التعبير بالجزء عن الكل فيما لو فسرناه بداية بالهلاك، فالأولى أن يكون المعنى افتقرت يده كناية عن افتقاره هو؛ لأن افتقار يده يستلزم افتقاره هو، أو مجاز مرسل من التعبير بالجزء عن الكل، وإنما خص لفظ اليد على سبيل التنكيل بتلك اليد التي حملت حجرًا وقذفت به رسول الله ﷺ، كما ورد في بعض الروايات، ويتناسب مع معنى الدعاء بالفقر قوله بعده: (ما أغنى عنه ماله وما كسب).

أما (تب) الثانية، فإنها بمعنى هلك؛ أي: افتقر وهلك من الدعاء بلفظ الخبر للإيحاء بسرعة تحقق المدعو به وكأنه صار حاصلاً ماضيًا.

وقد تقدم الافتقار على الهلاك ليحدث له الإذلال النفسي قبل هلاكه إمعانًا في إهانته لفعلته القبيحة وموقفه الخسيس.

- أبو لهب هو عبد العزى بن عبد المطلب، وذكر بكنيته لمناسبتها لمصيره في لهب جهنم، ولهذا عبر باللهب في قوله: (سيصلى نارًا ذات لهب) ولم يذكره باسمه لكراهة ذكر ذلك الاسم القبيح.

---

(١) الصحيح المسند ٢٧٥ .

- وتثنية اليد مضافة إليه (يدا أبي لهب) للإمعان في الدعاء عليه والتنكيل به والإشارة إلى أنه يفتقر أشد الافتقار حتى تخلو يداه معًا من أي شيء.

- في قوله: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ يتعلق معناه بما قبله؛ أي: لم يغن عنه ماله - ما ورثه وما كسبه بنفسه أو ماله وولده - حين حاق به التباب ووقع به الهلاك.

وهذه السورة حافلة بوجوه من الإعجاز سبق ذكرها مكانها بالباب الأول. والله أعلم.



خاتمــة

فرغت بتوفيق الله تعالى من الكتابة النهائية لكتابي «**غرائب الإعجاز والنكات في مقامات أسباب النزول**» وكان آخرها آيات من سورة المسد، وسبب نزولها وخصائص نظمها، وذلك بعد منتصف ليلة السابع والعشرين من جمادى الثانية ١٤٢٣ من الهجرة النبوية الشريفة، الموافق الخامس من سبتمبر سنة ٢٠٠٢ م في مسكني بحي العزيزية المعمورة[١]، بمكة المكرمة وبالقرب من المباني القديمة لجامعة أم القرى.

وكان من بركات جوار البيت الحرام والشعائر المقدسة أن الله سبحانه وفق في أيام وشهور قليلة ما لم أنجزه في سنوات في مدينة المنصورة بمصر المحروسة.

فحمدًا لله سبحانه على نعمته، وأسأله سبحانه مزيدًا من التوفيق لإنجاز مؤلفات أخرى في فترة إعارتي في جامعة أم القرى وفي هذا البلد الأمين، وأسأله سبحانه أن تمر هذه الفترة عليَّ بصحة وعافية ورضا وأمان ورحمة وقرب من الله العلي القدير، على أن يكون هذا زادًا لا ينفد بعد عودتي ومكثي في مدينة المنصورة حتى ألقى الله وهو راض عني وعن أولادي ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



---

(١) يقع هذا الحي بالقرب من منى والمزدلفة .

فهرس الكتاب

- تقديم ٥
- منهج الاختيار ٧
- الباب الأول: ظواهر أسلوبية ١٣
- أولًا: قضية العموم والخصوص ١٥
- ثانيًا: بين تعدد الأسباب وتعدد الآيات ٢٣
- ١- تعدد الآيات لسبب واحد ٢٣
- ٢- تعدد الأسباب في آية واحدة ٢٦
- ثالثًا: أمانة الحكاية عن الآخرين ٢٩
- رابعًا: خصائص الأسلوب المكي والمدني ٣١
- من مواقع الآيات المدنية في السور المكية ٤١
- خامسًا: تفاعل النظم القرآني مع مقتضيات الأحداث ٤٤
- مواقع الكلمات في النظم ٥٢
- مزايا النظم مرتبطة بمعاني النحو ٥٤
- سادسًا: حدود السياق ودوره في تفعيل المعاني ٥٥
- استنطاق اللغة والسياق لاستنباط المقصود ٦٤
- سابعًا: عدم الالتزام بترتيب الأحداث ٦٥
- الباب الثاني: أسرار الإعجاز في مقامات أسباب النزول ٦٩
- تمهيد: إعجاز التفرد وإعجاز التفوق ٧١
- أولاً: إعجاز النظم ١- دور الكلمة ٧٤
- ٢- ولادة المعاني بعضها من بعض ٧٨

- ٣- الوظيفة المزدوجة للجملة القرآنية ٨٥
- ٤- التوازن الأسلوبي عند الفصل في الأحكام ٩٢
- ٥- الانسباك في السياق ٩٥
- ٦- الإيجاز المعجز ٩٧
- إعجاز الاحتباك ١٠١
- ٧- التصدير المعجز ١٠١
- ٨- الإرصاد المعجز ١٠٤
- ٩- التصوير المعجز ١٠٥
- ثمرات النظم المعجز ١١١
- أولاً: تكاثر الدلالة ١١١
- ١- التضمين والحذف ١١٢
- ٢- تكاثر دلالة الاختصاص ١١٨
- ٣- القراءات القرآنية ١١٨
- ثانيًا: التوازن الصوتي من توافق نهايات الجمل ١٢٣
- ثالثًا: روح القوة وعزة الربوبية ١٢٦
- رابعًا: الإعجاز الغيبي(من ثمرات النظم المعجز) ١٣٠
- خامسًا: الإعجاز التشريعي ١٣٤
- الباب الثالث: غرائب النكات في مقامات أسباب النزول ١٤١
- في سورة البقرة: ١٤٤
- آية ٩٧ ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ ١٤٤
- غرائب النظم وخصوصياته ١٤٥
- آية ١٤٨ ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ ١٥٠
- من خصوصيات النظم وغرائبه ١٥٢

- آية ١٨٧ ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ﴾ ١٦٠
- غرائب النظم وخصوصياته ١٦١
- آية ١٩٨ ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟﴾ ١٦٤
- خصوصيات النظم ١٦٥
- آية ٢٢٢ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ ١٦٦
- خصوصيات الآية ١٦٧
- آية ٢٨٥ ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ ١٦٨
- سورة آل عمران: آية ٧٧ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ١
- من نكات الآية وخصوصياته ١٦٩
- آية ١١٣ / ١١٤ ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ١٧٨
- آية ١٨٨ ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟﴾ ١٨١
- سورة النساء: آية ٦٥ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ ١٨٤
- آية ٨٨ ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ ١٨٧
- آية ٩٤ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ١٩٠
- سورة المائدة: آية ٦٧ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ ١٩٤
- آية ٨٣ ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ ١٩٦
- آية ١٠١ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ﴾ ٢٠٠
- سورة الأنعام: آية ٥٢ ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ ٢٠٤
- آية ١٢١ ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ٢٠٨
- سورة الأعراف: آية ٣١ ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ ٢١٢
- سورة الأنفال: آية ١ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ ٢١٤
- آية ٩ ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ ٢١٨
- آية ٦٧ ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ﴾ ٢٢٢

- سورة التوبة: آية ٢٨ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟﴾ .٢٢٦
- آية ٤٧ ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ ٢٢٨
- صفات المنافقين في سورة التوبة ٢٢٨
- آية ٧٩ ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ٢٣٧
- آية ٩١، ٩٢ ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا ...﴾ ٢٣٨
- آية ١١٣ ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ ٢٤٣
- سورة يونس: آية ٢ ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ ٢٤٧
- سورة هود: آية ١١٤، ١١٥ ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ .٢٥٢
- سورة يوسف: لماذا كانت سورة يوسف أحسن القصص؟ ٢٥٧
- سورة الرعد: آية ١٣ ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ ٢٦٢
- آية ٣١ ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ ٢٦٥
- سورة الحجر: آية ٨٧، ٨٨ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ ٢٦٨
- سورة النحل: آية ١٠٣ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ ... ٢٧٤
- آية ١٠٦ ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ ٢٧٧
- آية ١٢٦ ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ ٢٨٢
- سورة الإسراء: آية ٦٠ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ ٢٩٠
- آية ٨٥ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ ٢٩٥
- آية ١١٠ ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ ٢٩٨
- سورة الكهف: آية ١١٠ ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا﴾ ٣٠٣
- سورة مريم: آية ٦٤ ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ ٣٠٧
- آية ٧٧: ٨٠ ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ ٣٠٩
- سورة الأنبياء: آية ١٠١: ١٠٣ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ .. ٣١٥
- سورة الحج: آية ١١ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ ٣١٩

- آية ٣٩ ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ۚ﴾ ٣٢٢
- سورة النور: آية ٣ ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ ٣٢٦
- آية ٦ : ٩ ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ ٣٣١
- حادثة الإفك: ٣٣٥
- آية ٢٧ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟﴾ .. ٣٤١
- آية ٣٣ ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ ٣٤٥
- آية ٥٥ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ٣٤٨
- آية ٦١ ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ﴾ ٣٥١
- سورة الفرقان: آية ٧٠ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ ٣٥٥
- سورة القصص: آية ٥٦ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ ٣٦٠
- سورة العنكبوت: آية ٢ ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ . ٣٦٣
- آية ٨ ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ ٣٦٧
- سورة السجدة: آية ١٦ ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ ٣٧١
- سورة الأحزاب: - آية ٤، ٥ ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ .. ٣٧٥
- آية ٢٣ ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ ٣٧٩
- آية ٥٣ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ .. ٣٨٣
- سورة يس: آية ٧٧ : ٨١ ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ ٣٩٠
- سورة الزمر: آية ٥٣، ٥٤ ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ ٣٩٣
- سورة الزخرف: آية ٥٧، ٥٨ ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ ٣٩٥
- سورة الدخان: آية ١٠ : ١٤ ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ ٣٩٨
- سورة الأحقاف: آية ١٠ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ٤٠١

- سورة الفتح: آية ١: ٣ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ ٤٠٣
- آية ١١ ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ ٤٠٧
- آية ١٨ ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ ٤١٠
- آية ٢٤ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ ٤١٢
- آية ٢٧ ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ ٤١٤
- سورة الحجرات: أدب الحديث مع النبي آية ١، ٢ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ٤١٨
- سورة المجادلة: آية ١ ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ ٤١٩
- سورة الحشر: آية ١، ٢ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ .. ٤٢١
- آية ٥ ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً﴾ ٤٢٤
- آية ٩ ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ ٤٢٦
- سورة الممتحنة: آية ١ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ .. ٤٢٨
- سورة الجمعة: آية ١١ ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ ٤٣٢
- سورة المنافقون: آية ٧، ٨ ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ ٤٣٥
- سورة التغابن: آية ١٤ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ .. ٤٣٧
- سورة التحريم: آية ١: ٣ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ ٤٤٠
- سورة عبس: آية ١: ٩ ﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى ﴾ ٤٤٢
- سورة الضحى: آية ١: ٤ ﴿ والضحى والليل إذا سجى﴾ ٤٤٥
- سورة العلق: آية ٩: ١٤ ﴿أرأيت الذي ينهي عبدا إذا صلى ﴾ ٤٤٧
- سورة الكوثر: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ ٤٥٠
- سورة المسد: السورة كاملة ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ ٤٥٢
- تنبيه: يتصل بكل آية من الآيات السابقة: سبب النزول، وموقع الآيات في
- سياقها، وخصوصيات نظمها وأسرارها ٤٥٤

أهم المصادر والمراجع بعد القرآن الكريم:

- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود، المطبعة المصرية بالأزهر الشريف طبعة أولى ١٣٤٧ هـ.
- أساس البلاغة للزمخشري - مطابع الشعب بالقاهرة ١٩٦٠ م
- أسباب نزول القرآن. عبد الوهاب الديلمي، صنعاء ١٤١٥ هـ.
- أسباب النزول للنيسابوري.
- أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: ريتر، مكتبة المتنبي - القاهرة ١٣٩٩ هـ.
- إعجاز القرآن للباقلاني تحقيق أحمد صقر - دار المعارف.
- التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، مكتبة المتنبي - القاهرة.
- التحرير والتنوير، لابن عاشور، الدار التونسية للنشر ١٩٨٤م.
- التفسير الكبير للرازي. دار إحياء التراث العربي بيروت - طبعة ثالثة.
- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر، تحقيق: محمد خلف الله ومحمد سلام. دار المعارف.
- حاشية ابن المنير على الكشاف - مطبعة الحلبي ١٣٨٥ هـ.
- حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي، دار صادر، بيروت.
- دلائل الإعجاز لعبد القاهر، تحقيق: محمود شاكر الطبعة الأولى - مكتبة المتنبي - القاهرة.
- روح المعاني للألوسي، دار إحياء التراث العربي - بيروت ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- الصحيح المسند في أسباب النزول، لابن هادي الوادعي، صنعاء ١٤١٤ هـ.
- فتح القدير للشوكاني. دار الكتاب االلبناني.

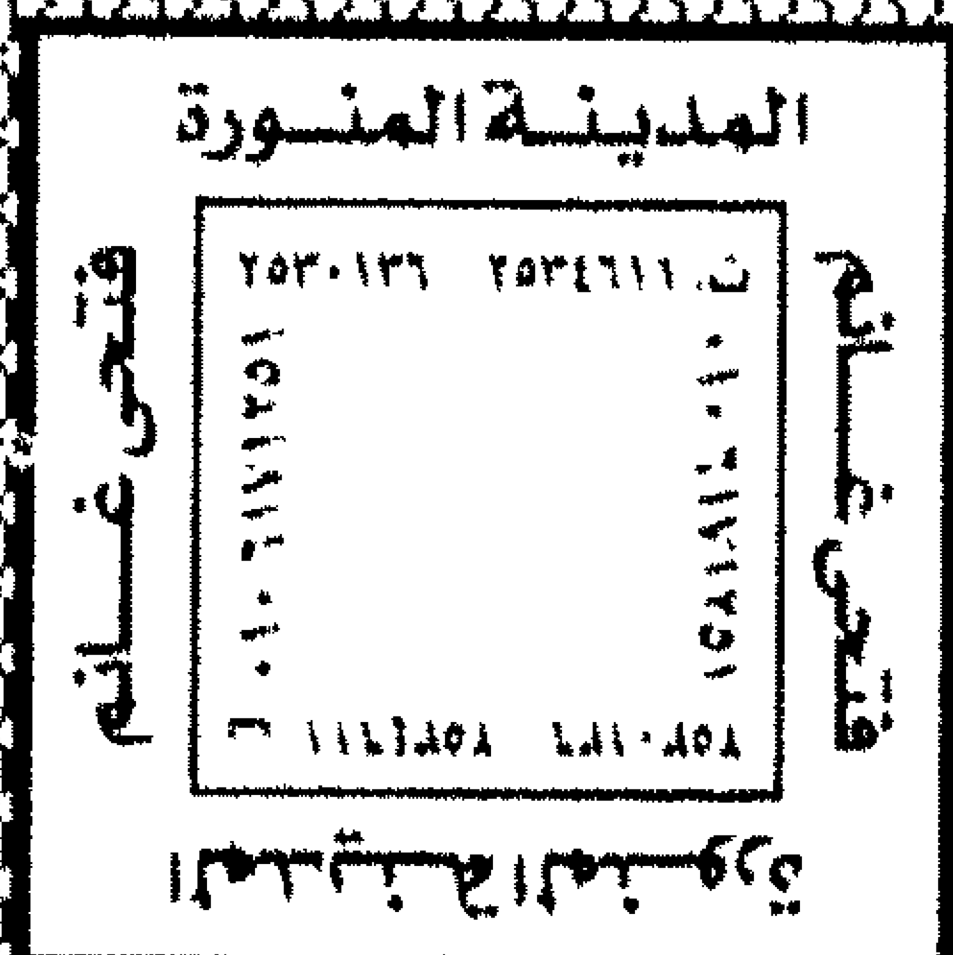
- الكشاف للزمخشري - مطبعة الحلبي ١٣٨٥ هـ.
- في ظلال القرآن سيد قطب - دار الشروق، بيروت، طبعة عاشرة ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢ م.
- مدخل القراءات القرآنية في الإعجاز البلاغي، محمد إبراهيم شادي - مطبعة السعادة.
- معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي، دار الكتب العلمية - بيروت - طبعة أولى ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م.
- المفردات للراغب - مطبعة الحلبي ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م.
- نظم الدرر للبقاعي - طبعة أولى بمطبعة حيدر آباد بالهند ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤م
- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للرازي، تحقيق د. بكري شيخ أمين - دار العلم - بيروت ط١ - ١٩٨٥ م.

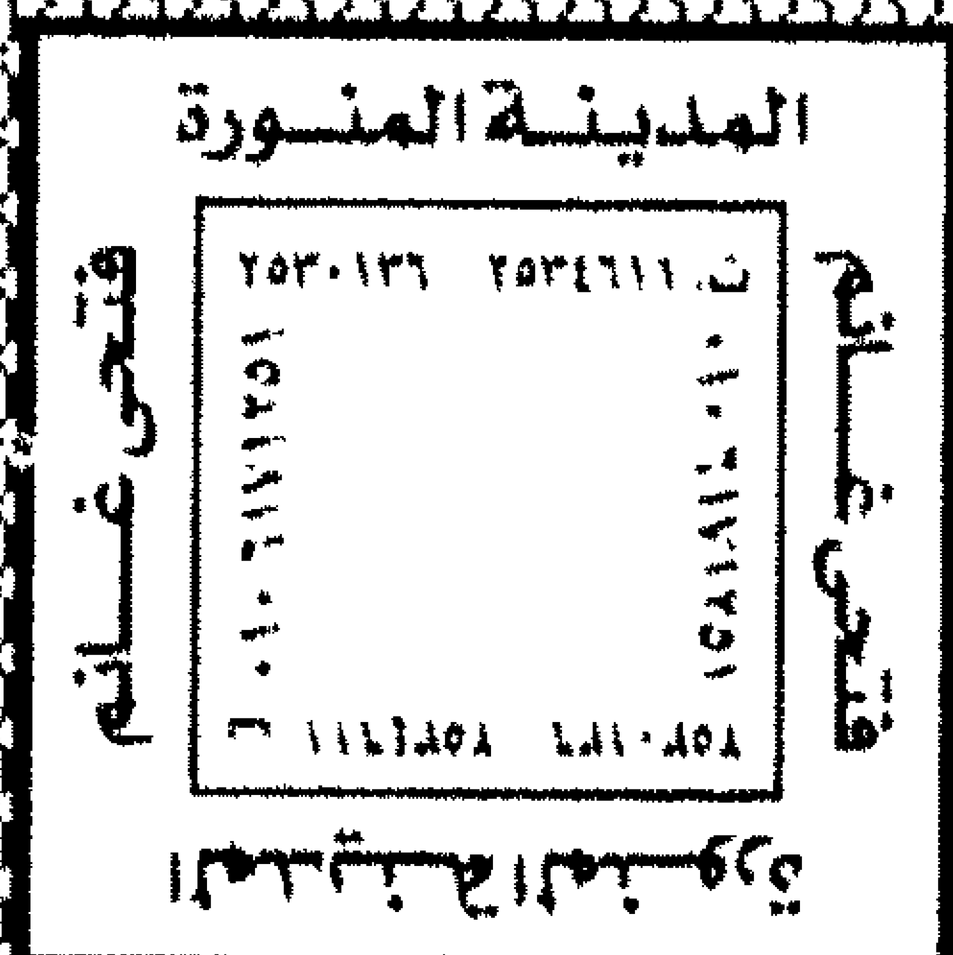
الشركة الدولية للطباعة

مدينة ٦ أكتوبر — المنطقة الصناعية الثانية — قطعة (١٣٩)

ت : ٨٣٣٨٢٤٠ — ٨٣٣٨٢٤٢ — ٨٣٣٨٢٤٤

e-mail: pic@6oct.ie.com


المدينة المنورة
فتحي غانم
ت. ٢٥٣٤٦١١ ٢٥٣٠١٣٦
فتحي غانم


المدينة المنورة
فتحي غانم
ت. ٢٥٣٤٦١١ ٢٥٣٠١٣٦

غرائب الإعجاز والنكات في

مقامات أسباب النزول

